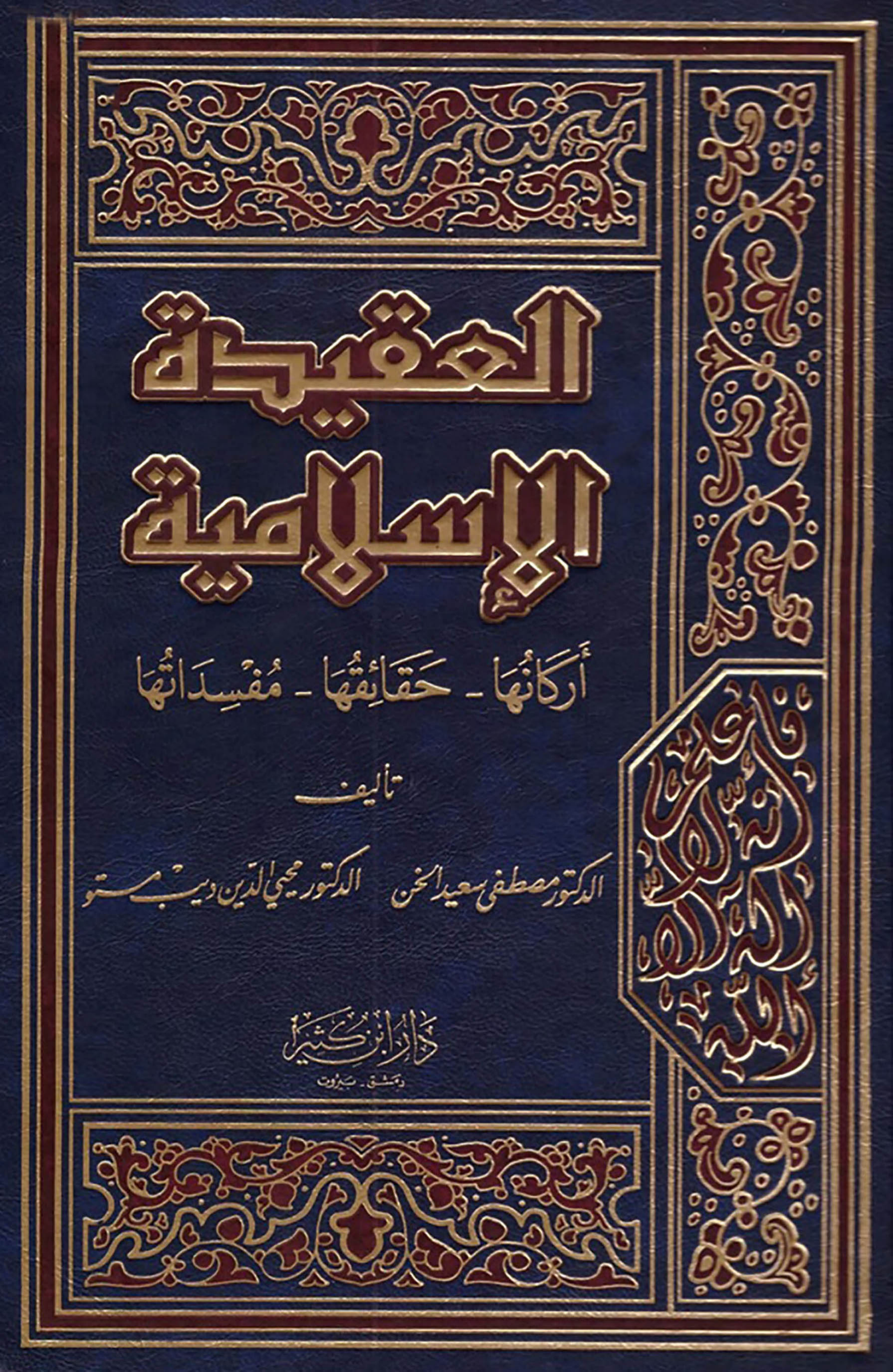

العقيدة الإسلامية
أركانها - حقائقها - مفسداتها
تأليف
الدكتور مصطفى سعيد الخن
الدكتور محيي الدين ديب مستو
دار ابن كثير
دمشق - بيروت
فاعلم أنه لا إله إلا الله

العقيدة الإسلامية

أركانها - حقائقها - مفسداتها

تأليف

الدكتور مصطفى سعيد الخن

الدكتور محيي الدين ديب مستو



مقدمة الطبعة الثالثة

الحمدُ لله البَرِّ الرحيم، الباسطِ الكريم، العزيز الحكيم، نحمده حمداً كثيراً طَيِّباً، يليق بجنابه العظيم. ونُصلِّي ونُسلِّم على رسوله محمَّدٍ وعلى آله وأصحابه أكملَ صلاةٍ وأتمَّ تسليم.

وبعـــد:

فإن مما يُبهج النفسَ ويُثلجُ الصَّدرَ؛ أن يلقَى كتاب «العقيدة الإسلامية» هذا القَبول الجميل، وهذا التقدير الفائق من الجهات العلمية والهيئات التدريسية في أكثر من جامعة ومعهد؛ فيُعتمدَ مقرراً جامعياً، أو مصدراً مرجعياً مهماً. ولا ريبَ أن الذي بوَّأه هذه المكانة السَّامقة؛ هو توفيق الله تعالى، ثمَّ ما انطوى عليه الكتاب في مضمونه من وضوح في الطريقة والعَرْض، ومعاصرة في المنهج والأسلوب، وإحاطة في الأدلة والأمثلة.

ويُسعدنا اليوم أن نُقَدِّمَ لطلابنا النجباء، وقرائنا الأعزاء؛ الطبعة الثالثة منه، وقد تميزت بالتصحيحات الضرورية للأخطاء المطبعية، والاستدراكات القيمة، والملاحظات المهمة التي وردتنا مشافهة أو كتابة من قرائنا الأماثل، الذين ديدنهم الصدق، وغايتهم الحق، بعيداً عن أي غلو أو شقاق.

ونسأله سبحانه ألا يؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، وألا يجعل في قلوبنا غِلاًّ للذين آمنوا، وأن يختم لنا بالحسنى، إنه سبحانه هو الرحمن الرحيم.

المؤلفان

الدكتور مصطفى سعيد الخن — **الدكتور محيي الدين ديب مستو**



المقدمة

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، المنفرد بالإيجاد والإعدام، المتصف بصفات الكمال، المنزَّه عن صفات النقص، وعن كلِّ صفة يكون بها في حقه إخلال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد إمام المتقين، وسيد المرسلين، وحامل لواء الحمد يوم الدين، وعلى رسل الله المصطفين المختارين، وعلى آل محمد وأصحاب محمد أجمعين.

وبعد: فمما ميَّز الله به الإنسان عن سائر الحيوان، أن جعل له عقلاً يفكر به، ويهتدي به إلى ماهو الحق والصواب بتوفيق الله عزَّ وجل.

والتفكير: هو ترتيب الأمور المعلومة ليتوصل بها إلى مجهول، وكلما كانت هذه الأمور حقاً، كان لا بدَّ أن يصل عن طريقها إلى الحق.

وكلَّما كانت المعرفة صحيحة وحقيقية كانت الدافع لصاحبها إلى سلوك فاضل وعمل صالح، وبها تتحقَّق للإنسان السعادة الدنيوية والأخروية.

والإنسان من بين جميع المخلوقات لا يُقاد بالعصا القيادة

الحقيقية، ولا يُجرّ إلى عمل ما أو نهاية ما عن طريق حبل يُوضع في عنقه، أو خزام يُوضع في أنفه، فينقاد ما شاء له الانقياد. بل إن الإنسان يُقاد من أفكاره، ومن مبادئه، ومن قيمه، ومن مُثُله التي استقرت في نفسه، فكلّما تمثّلها الإنسان، تحوّل على إثرها بشكل تلقائي كلّ سلوكه وتصرفاته إلى الأفضل.

ومن هذا المنطلق رأينا القرآن الكريم ينزل على رسول الله ﷺ في مكة ثلاثة عشر عاماً، لا يُعنى إلا بإصلاح العقيدة، ولا يهتم إلا بإبرازها وإظهارها، وإقامة البراهين الواضحة عليها، حتى إذا ما اطمأن إلى أن هذه المبادىء قد ثبتت في العقول والقلوب، ورسخت في النفوس، أتى بعد ذلك بالتشريع المتناول جميع جوانب الحياة، فلم يلقَ معارضةً ما في أي حكم من الأحكام، وما إن ينزل الحكم من قبل الله جل جلاله حتى ترى المسلمين بصوت واحد وحماسة واحدة يقولون: سمعنا وأطعنا... اللهم قد انتهينا.

وحسبك دليلاً على ذلك ما حدثَ في قضية تحريم الخمر، تلك التي كانت عالقة في نفوسهم، مستولية على عقولهم، فما إن نزل قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠ ـ ٩١] حتى قالوا جميعاً: اللهم قد انتهينا! اللهم قد انتهينا!.

ولولا ماسبق ذلك من إيمان بالله، وخضوع له، وثقة به لذهبت هذه الكلمات أدراج الرياح، ولما لامست نفوسهم

وقلوبهم. ومن هنا قالت السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ فيما رواه البخاري: «إنما نزل أول ما نزلَ سورة من المفصَّل فيها ذكر الجنَّة والنار، حتى إذا ثابَ الناسُ إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لاتشربوا الخمر، لقالوا: والله لا ندعُ الخمرَ أبداً، ولو نزلَ: لا تزنوا، لقالوا: لا ندعُ الزنى أبداً»[1].

وقد أردنا من كتاب «العقيدة الإسلامية» في عصرنا الحاضر، أن يبقى الإنسان مميَّزاً بالإيمان القويِّ، والعقل السليم، والمعرفة الصحيحة، والمسلك القويم.

وأن تبقى رايةُ الإيمان بأصول وأركان الدين في الإسلام مرفوعةً وظاهرة، وأدلتها قويَّة وواضحة، وثمراتها في سلامة الأفراد وعزة الأمة متحققة وراسخة، وذلك بعرض مبادىء العقيدة عرضاً جديداً وشائقاً، مراعين المعاصرة في المنهج، والأصالة في استعراض الشواهد والأمثلة والأدلة.

وتظهر معالم خطتنا في هذا البحث الخطير[2] من خلال إلقاء الضوء على الضوابط التالية:

● على الرغم من أن الإيمان بالله تعالى فطريٌّ، والمعرفة به ـ سبحانه ـ تبدأ منه، وتنتهي إليه، ومن هنا قيل لابن عباس رضي الله عنهما: بماذا عرفتَ ربَّك؟ فقال: من طلبَ دينَه بالقياس لم يزلْ دهرَه في التباس، خارجاً عن المنهاج، ظاعناً في الاعوجاج،

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير رقم (٤٧٠٧).
(٢) «الخطير»: الرفيع القَدْر.

عرفته بما عرَّف به نفسَه، ووصفتُه بما وصفَ به نفسه[1].

على الرغم من هذه الحقيقة؛ فإنه لا بد من التعليم والإرشاد لبيان أركان الإيمان، وإظهار حقيقتها، وأدلتها، ولا بد من التأليف في هذا المضمار، لشدِّ أزر العقيدة، في عالم يتسم بطفرة العلوم الكونية، وطغيان المادة، وسيطرة الشهوات.

● لا يخلو عصرُنا الحاضر من شوائب الشرك ورياح الشكِّ، وكُدورات الخرافات، وهمهمات شياطين الإنس، وفحيح أفراخ الملاحدة وأذناب الكفَّار الحاقدين، مما يدعونا إلى غرس بذور العقيدة في أرض صالحة، وتعهدها بالرعاية التامة، حتى تصبح أركان الإيمان في النفوس أشجاراً باسقة، أصلها ثابت، وفرعها في السماء، وذلك بالبحث عن الأدلة النقلية والعقلية، والوصول إلى البراهين والحجج القاطعة؛ التي تخرس الخصوم، وتُوصلنا إلى برد اليقين، وتزيد في الإيمان، وتُضاعفُ من ثمراته وخيراته.

● اعتمدنا على الأدلة الشرعية، مبتدئين بالآيات القرآنية، وذلك لأن القرآن الكريم مصدر الأدلة النقلية والعقلية، وفيه دلائل التوحيد قائمةً وشاهدةً في الآفاق والأنفس، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] وقد استفدنا من الأحاديث النبوية الصحيحة.

وتوسطنا في استخدام العقل، ووضعه في مكانه اللائق به، من غير مغالاة في إمكاناته، ولا إهمال لملكاته وقدراته؛ فهو لا يُدرك

(١) مجموع فتاوى الشيخ ابن تيمية (٢/١٨).

إلا الأمور المحسَّة على سبيل التيقن، ولا يدرك الأمور الغيبية إلا على سبيل التصوُّر.

وابتعدنا ما أمكنَ عن علم الكلام المذموم، وذلك عندما يكون جدلاً فلسفياً، وسفسطة فارغة، ومنطقاً صورياً دخيلاً على حضارتنا وثقافتنا الإسلامية.

● اخترنا السهولة في اللفظ، والوضوح في الأسلوب، وأبقينا على الصلة قائمة مع الكتب والمصادر القديمة، واقتبسنا مقاطعَ وفقراتٍ من تراث الأسلاف، لنزيل الوحشة ،وننفي الغربة عن صفحات كتب أمهات، قدَّمت في وقت تأليفها خدمات جلّى في عرض أصول العقيدة الإسلامية، ودافعت عن مقوماتها وأدلتها، ومصادر المعرفة فيها.

أما الآن فإن رسمَ هذه الكتب مقرَّرات في سنوات المرحلة الجامعية يبدو عقيمَ الجدوى، لأن شروح كتاب المواقف؛ للإيجي مثلاً، أو حواشي الجوهرة؛ للَّقَّانيّ، تظهرُ غريبة وعسيرة وسط موجة التحديث والمعاصرة التي تحققت لفروع العلوم الشرعية الأخرى؛ كالفقه، وأصوله، والحديث، ومصطلحه، والعربية، وعلومها.

بالإضافة إلى أن هذه الكتب كانت تُدَرَّس من قبل علماء متخصِّصين ومتقنين لها، ولعدد محصور من الطلاب المتفوِّقين، الذين تدرَّجوا في مراحل الدراسة، واستكملوا أبجدية علم المنطق، وأصول الجدل، ومبادىء الفلسفة.

وكلامنا هذا لا يحطُّ من قيمة مثل هذه الكتب، بل تبقى هي المصادر الأساس، والمواردَ الأصيلة للمؤلفين والباحثين الذين

يعرضون مباحث العقيدة بأسلوب معاصر ومنهج جديد.

بدأنا الكتاب بمقدمات اشتملت على تعريف المصطلحات، وكيف نشأ علم التوحيد؟ وما مصادر المعرفة في العقيدة الإسلامية؟ وبيان منهج القرآن في المعرفة وتمييزه عن مناهج المتكلِّمين.

ثم أطلنا الكلام في أركان الإيمان، وبيان آثارها في حياة الإنسان في الدنيا، وفي الآخرة، وأفضنا الحديث حول ركنين منها، وهما: الإيمان بالله تعالى؛ لأنه المنطلق والأساس لجميع الأركان، والإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام؛ لأنه مصدر الخبر الصادق المؤيد بالمعجزات، الموصل للإيمان بالغيوب، وللمعرفة الصحيحة البعيدة عن الضلال والضياع.

وقد تحدَّثنا عن الإنسان والكون في باب خاص بهما؛ باعتبارهما من عالم الشهادة.

كما أفردنا باباً للحديث عن الروح والجِنِّ والشياطين؛ باعتبارها من عالم الغيب. وكتبنا عن مفسدات العقيدة ونواقض الإيمان باباً مستقلاً. وختمنا الكتاب بذكر خصائص العقيدة الإسلامية ومميزاتها.

● لم نأل جهداً في عرض مواقف السلف، وعلماء الحديث، وأئمة المذاهب من أهل السنة والجماعة، مؤيَّدة بالأدلة، معلَّلَة بالحكمة، مختتمة بالآثار والنتائج المفيدة في بناء مجد الأمة المسلمة وعزة أفرادها، وتميُّز ثقافتها، ووضوح عقيدتها.

واللهَ العليَّ القدير نسأل، أن يتقبل منا هذا العمل، وأن يجعله في صالح أعمالنا، وأن يكتب له القبول عنده، إنه سبحانه وتعالى هو البرُّ الرحيم.

«المؤلفان»

الباب الأول
المدخل والمبادىء العامة

● الفصل الأول

أولاً- تعريفات ومصطلحات

ثانياً- العقيدة ونشأة علم التوحيد

● الفصل الثاني

١- مصادر المعرفة في العقيدة الإسلامية

٢- منهج المعرفة عند المسلمين مقارناً بالمناهج الأخرى

● الفصل الثالث

١- دراسة العقيدة الإسلامية

أ - طريقة القرآن الكريم

ب - طريقة المتكلمين

٢- حكم التقليد في العقيدة

الفصل الأول

أولاً - تعريفات ومصطلحات

١ـ الإيمان

○ **معنى الإيمان**

الإيمان في اللغة: معناه: التصديق. قال ابن منظور في لسان العرب:

واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم: أن الإيمان معناه التصديق. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] أي: بمصدق[١].

والإيمان في اصطلاح الشرع: التصديق بما جاء به الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام مما علم من الدين بالضرورة أو ما أشبهها من الأدلة اليقينية.

وقد فسَّرَ النبيُّ عليه الصلاة والسلام الإيمان في الحديث الطويل الذي رواه عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، عندما سأل جبريلُ النبيَّ عليه الصلاة والسلام: «قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمنَ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمنَ بالقدر خيره وشره»[٢].

---

(١) لسان العرب: مادة أمن.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان برقم (١).

○ اشتراط النطق بالشهادتين في صحة الإيمان

اختلفوا في اشتراط النطق بالشهادتين لصحة الإيمان:

فذهب جمهور الأشاعرة[1] والماتريدية[2] إلى أن النطق بالشهادتين شرط لإجراء أحكام المؤمنين عليه في الدنيا، من التوارث والتناكح والصلاة خلفه، والصلاة عليه، والدفن في مقابر المسلمين، ومطالبته بالصلاة والزكاة وغير ذلك. وذلك لأن التصديق القلبي وإن كان إيماناً إلا أنه باطن خفيّ فلا بد له من علامة ظاهرة تدلُّ عليه؛ لتناط به تلك الأحكام، فمن صدَّق بقلبه ولم يقرّ بلسانه لا لعذر منعه، ولا لإباء، بل اتفق له ذلك فهو مؤمن عند الله، غير مؤمن في الأحكام الدنيوية، أما المعذور إذا قامت قرينة على إسلامه بغير النطق كالإشارة، فهو مؤمن فيهما.

وأما المتأبِّي؛ بأن طُلب منه النطق بالشهادتين فأبى، فهو كافر فيهما، ولو أذعن في قلبه فلا ينفعه ذلك ولو في الآخرة.

ومن أقرَّ بلسانه ولم يُصدق بقلبه كالمنافق فهو مؤمن في الأحكام

---

(١) الأشعرية: نسبة إلى أبي الحسن الأشعري، واسمه علي بن إسماعيل، متوفى سنة ٣٢٤هـ، وكان من الأئمة المتكلمين المجتهدين، تلقى مذهب المعتزلة ثم رجع عنه وجاهر بخلافه. وقد حاول الأشاعرة التوفيق بين مذهب أهل السنة والعقل. انظر كتاب مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري.

(٢) الماتريدية: نسبة إلى أبي المنصور محمد السمرقندي الفقيه الحنفي الأصولي ومن أئمة علم الكلام. توفي سنة (٣٣٣ هـ).

الدنيوية، غير مؤمن عند الله تعالى.

○ الإيمان والإسلام وما بينهما من علاقة

لقد مرّ بنا معنى الإيمان لغة وشرعاً، وأما الإسلام في اللغة فمعناه: الاستسلام، والإذعان، والانقياد، وترك التمرد والإباء، ومعناه في اصطلاح الشرع: الامتثال والانقياد لما جاء به النبي ﷺ مما علم من الدين بالضرورة، أو قام عليه الدليل اليقيني، على أنه قد جاء تفسير الإسلام في حديث جبريل: «وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، قال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، وتقيمَ الصلاة، وتؤتيَ الزكاة، وتصومَ رمضان، وتحجَّ البيتَ إن استطعت إليه سبيلاً»[1] وفي حديث ابن عمر: «بُني الإسلام على خمس...»[2].

فما هي العلاقة بين الإيمان والإسلام؟

ذهب فريق من العلماء إلى أن الإيمان والإسلام مختلفان مفهوماً ومتحدان ما صدقا، أي: إن لكل من الإيمان والإسلام مفهوماً يغاير مفهوم الآخر، كما رأيت في تفسير ذلك في الحديث، ومع اختلافهما في المفهوم فهما متحدان ما صدقا، أي: في الأفراد الخارجية، فلا يمكن أن يطلق على إنسان أنه مسلم إلا إذا كان مؤمناً، ولا يمكن أن يطلق عليه أنه مؤمن إلا إذا كان مسلماً،

---

(١) تقدم تخريجه (ص ١٢).

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان برقم (٨) ومسلم في الإيمان برقم (١٦).

وذلك كالناطق والضاحك، فإن لكل واحد منهما مفهوماً خاصاً به، فالناطق المفكر، والضاحك المتعجب، ولكنهما يدلان على الإنسان فقط، فهما مختلفان مفهوماً، متحدان ما صدقا.

ويُفهم من هذا: أن القائل أراد بالإيمان والإسلام المنجي منهما. وأما إذا أريد الإيمان من حيث هو، والإسلام كذلك، فبينهما العموم والخصوص الوجهي، أي: يجتمعان في شيء، وينفرد كل منهما في شيء آخر، فيجتمعان فيمن صدَّق بقلبه، وانقاد بظاهره، فيقال عنه: إنه مؤمن ومسلم، وينفرد الإيمان فيمن صدَّق بقلبه فقط، وينفرد الإسلام فيمن انقاد بظاهره فقط، وهذا ما ذهب إليه جمهور الأشاعرة. وذهبَ جمهور الماتريدية والمحقِّقون من الأشاعرة إلى اتحاد مفهوميهما[1].

على أن الإمام الغزالي قد أفاضَ في بيان العلاقة بينهما، وأجاد، فلم يترك لغيره مقالاً في ذلك، قال رحمه الله تعالى:

«الحق فيه: أن الشرعَ قد ورد باستعمالهما على سبيل التوارد والترادف، وورد على سبيل الاختلاف، وورد على سبيل التداخل، أما الترادف ففي قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥ـ٣٦] ولم يكن بالاتفاق إلا بيت واحد، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] وقال ﷺ: «بني

(١) انظر تحفة المريد (ص ٢٩).

الإسلام على خمس...»[1] وسئل رسول الله ﷺ مرة عن الإيمان فأجاب بهذه الخمس.

وأما الاختلاف فقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] ومعناه: استسلمنا في الظاهر، فأراد بالإيمان هاهنا: التصديق بالقلب فقط، وبالإسلام: الاستسلام ظاهراً باللسان والجوارح، وفي حديث جبريل عليه السلام، لما سأله عن الإيمان، فقال: «أن تؤمنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر...»[2].

وأما التداخل فما روي أيضاً أنه سُئل، فقيل: أي الأعمال أفضل؟ فقال ﷺ: «الإسلام» فقال: أي الإسلام أفضل؟ فقال ﷺ: «الإيمان»[2].

٢ ـ العقيدة

العقيدة في اللغة: هي ما يعقد الإنسان قلبه عليه، ثم أصبحت تُطلق على ما يدين الإنسان به من الأفكار والآراء التي يؤمن بها، والتي تحلّ في قلبه وضميره، وتنعكس على تصرفاته وسلوكه، ومن هنا عرَّف بعضهم الإنسان بأنه كائن يُقاد من داخله، أي: من معتقداته وما يؤمن به.

قال في المصباح المنير: «اعتقدتُ كذا: عقدتُ عليه القلبَ والضمير، حتى قيل: العقيدة: ما يدين الإنسان به، وله عقيدة حسنة سالمة من الشك».

ويُفهم من هذا: أنه ليس من الضروري أن تكون العقيدة

---

(١) تقدم تخريجه (ص ١٤).

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ١١٥).

صحيحة لتسمّى عقيدة، ولكن قد تكون العقيدة صالحة، فتوصف بالصلاح والصحة، وقد تكون فاسدة، فتوصف بأنها عقيدة فاسدة.

ومن هنا ذكر في شرح جمع الجوامع: «الاعتقاد: هو الحكم الجازم القابل للتغير، طابق الواقع أم لم يطابقه. فإن طابق الواقع فهو اعتقاد صحيح، وإن لم يُطابقه فاعتقاد فاسد»[1].

العقيدة في الاصطلاح: إن علماء المسلمين جعلوا هذا اللفظ علماً بالغلبة على العلم الذي يبحث فيما يجب على الإنسان أن يعتقده ويؤمن به، ويُقيم عليه البرهان الصحيح الذي يُفيد اليقين، ويطلق أيضاً على المبادىء الدينية نفسها التي ثبتت بالبرهان القاطع.

٣ ـ أصول الدين

الأصل في اللغة: ما بُني عليه غيره واستند إليه. قال في المصباح المنير: «أصل الشيء: أسفله، وأساس الحائط: أصله، واستأصل الشيء: ثبت أصله وقوي، ثم كثر حتى قيل: أصل كل شيء: ما يستند وجود ذلك الشيء إليه».

وفي اصطلاح العلماء استعمل الأصل على معانٍ متعددة.

منها: أنه يُطلق ويراد به الراجح، تقول: الأصل في الألفاظ الحقيقة، أي: الراجح.

---

(١) شرح جمع الجوامع للمحلي مع حاشية البناني (١/ ١١٠).

ومنها: أن يُطلق على المستصحب، يقال: تعارض الأصل والطارىء.

ومنها: أنه يُطلق على القاعدة الكلية، تقول: الأصل في الفاعل أن يكون مرفوعاً. ومنها: أنه يُطلق على الدليل، يقال: الأصل في هذه المسألة الكتاب والسنة(١).

أما الدين فقد جاء في اللغة العربية على معانٍ: منها: الجزاء، والعادة، والعبادة، والطاعة، والحساب، والقهر، والغلبة، والاستعلاء، والسلطان، والملك، والسيرة، والتدبير، والتوحيد، واسم لجميع ما يُتعبَّد الله عز وجل به، والملة(٢).

وأما في الاصطلاح فالدين: هو وضع إلهي سائق لذوي العقول السليمة باختيارهم المحمود إلى ما فيه صلاحهم بالذات في دنياهم وأخراهم. والدين بهذا المعنى شامل لمبادىء العقيدة والفقه بجوانبه المتعددة.

أما أصول الدين: فإن العلماء قد اصطلحوا على أن يُطلقوه على المبادىء العقدية التي تثبت بالأدلة اليقينية. ويُقابله أصول الفقه الذي يُراد به أدلة الفقة الإجمالية. ويُطلق على أصول الدين وأصول الفقه: الأصلان، فيقال: فلان درسَ الأصلين، أو ألَّف في الأصلين، أي: أصول الدين، وأصول الفقه.

هذا ولقد ذكر الإمام أبو منصور عبد القاهر بن طاهر

---

(١) انظر حاشية السيد على شرح العضد لمختصر المنتهى (١/ ٢٥).

(٢) انظر القاموس المحيط مادة «دين».

الإسفراييني[1] أصول الدين، فعدَّها خمسة عشر أصلاً، وهي:

الأصل الأول: في بيان الحقائق والعلوم على الخصوص والعموم.

الأصل الثاني: في حدوث العالم على أقسامه من أعراضه وأجسامه.

الأصل الثالث: في معرفة صانع العالم ونعوته في ذاته.

الأصل الرابع: في معرفة صفاته القائمة في ذاته.

الأصل الخامس: في معرفة أسمائه وأوصافه.

الأصل السادس: في معرفة عدله وحكمه.

الأصل السابع: في معرفة رسله وأنبيائه.

الأصل الثامن: في معرفة معجزات أنبيائه وكرامات أوليائه.

الأصل التاسع: في أركان شريعة الإسلام.

الأصل العاشر: في معرفة أحكام التكليف في الأمر والنهي والخبر.

الأصل الحادي عشر: في معرفة أحكام العباد في المعاد.

الأصل الثاني عشر: في بيان أصول الإيمان.

الأصل الثالث عشر: في بيان أحكام الإمامة وشروط الزعامة.

---

(١) عبد القاهر بن طاهر، البغدادي، التميمي. عالم متفنن، من أئمة الأصول، وكان صدر الإسلام في عصره، من كتبه: أصول الدين، والناسخ والمنسوخ، توفي سنة ٤٢٩هـ. وفيات الأعيان (١/ ٢٩٨) والأعلام (٤/ ٤٨).

الأصل الرابع عشر: في معرفة أحكام العلماء والأئمة.

الأصل الخامس عشر: في بيان أحكام الكفر وأهل الأهواء الفجرة.

وبعد أن عدّد هذه الأصول قال: فهذه جملة أصول الدين على قواعد فريقي الرأي والحديث، دون من يشتري لهو الحديث[1].

٤ ـ الفقه الأكبر

الفقه لغة: الفهم، قال في المصباح المنير: «الفقه: فهم الشيء. قال ابن فارس: وكل عِلْم بشيء فهو فِقْه له».

وقد ورد في القرآن الكريم استعمال الفقه بمعنى الفهم، قال سبحانه حكاية عن قوم شعيب: ﴿قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١] أي: ما نفهم. وقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] أي: لا تفهمون تسبيحهم. وقال سبحانه حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِى﴾ [طه: ٢٧ ـ ٢٨] أي: يفهموه.

وفي البخاري في حديث الرجل من أهل نجد الثائر الرأس: «نسمعُ دويَّ صوته ولا نفقهُ ما يقول[2]» أي: لانفهم ما يقول.

وأما الفقه في اصطلاح الشرع: فقد غلب على العلم بالدين في

---

(١) أصول الدين لأبي منصور الإسفراييني (١ ـ ٢).
(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٦) ومسلم في الإيمان (١١) (٨).

أي مجال من مجالاته، حتى بات لا يتناول غيره عند الإطلاق. قال في لسان العرب: «الفقه: العلم بالشيء، والفهم له، وغلب على علم الدين؛ لسيادته، وشرفه، وفضله على سائر أنواع العلوم، كما غلبَ النجمُ على الثريا».

وقد استُعمل لفظ الفقه بهذا المعنى في كثير من الأحاديث النبوية، ففي البخاري: عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: أن رسول الله ﷺ قال: «الناس معادن، خيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فقهوا[1]» أي: صاروا علماء بالدين.

وفي البخاري قول رسول الله ﷺ عندما قدم عليه أهل اليمن: «أتاكم أهل اليمن، أضعف قلوباً، وأرقُّ أفئدةً، الفقه يمان، والحكمة يمانية»[2]. قال العيني في شرح الحديث: «المراد بالفقه هنا: الفهم في الدين».

وفي صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ دعا لابن عباس فقال: «اللهم فَقِّهه[3]» أي: في الدين.

ويرى حجة الإسلام الغزالي: أن الفقه في العصر الأول إنما كان يُطلق على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس وما يتصل بذلك، فلقد قال في كتابه: إحياء علوم الدين:

«ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقاً على علم طريق

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٨٣).
(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٨).
(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٧٧) (١٣٨).

الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب، ويدلك عليه قوله عز وجل: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢] وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه، دون تفريعات الطلاق، والعتاق، واللِّعان، والسَّلم، والإجارة، فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف، بل التجرد له على الدوام يقسي القلب، وينزع الخشية منه، كما نشاهد الآن من المتجردين له»[١]. وبقريب من هذا عرّفه الإمام أبو حنيفة رحمه الله إذ قال: «الفقه: معرفة النفس ما لها وما عليها» فيتناول الاعتقاديات كالإيمان ونحوه، والوجدانيات، أي: الأخلاق الباطنة، والملكات النفسية، والعمليات كالصوم، والصلاة، والبيع، ونحوها[٢].

غير أن الذي استقرَّ عليه عرف العلماء فيما بعد إلى يومنا هذا هو: أن الفقه: «العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من الأدلة التفصيلية». وقد يُطلق ويُراد به الأحكام نفسها. فأصبح لا يُطلق اسم الفقيه إلا على ذلك الإنسان المطلع على أحكام الفروع المأخوذة من الأدلة.

فالأحكام الاعتقادية كالإيمان وما يتصل به، لا دخل له في مدلول الفقه في الاصطلاح.

---

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي (١/ ٣٢).
(٢) التوضيح على التنقيح، للتفتازاني (١/ ١١).

وأما لفظ الأكبر فهو اسم تفضيل مشتق من كبر ـ بضم الباء ـ بمعنى عظم. ومنه قول المؤذن والمصلي: الله أكبر.

وأما المركب من هذين اللفظين «الفقه الأكبر» فإنه قد استعمل في علم العقيدة، واشتهر بذلك، وقد ألّف أبو حنيفة رحمه الله في العقيدة كتاباً أسماه «الفقه الأكبر»[1].

٥ ـ علم التوحيد

التوحيد في اللغة: جعل الشيء واحداً، ففي القاموس المحيط: «وحّده توحيداً: جعله واحداً». أو العلم بالشيء واحداً، ففي حاشية الباجوري على الجوهرة: «والتوحيد لغة: العلم بأن الشيء واحد».

والتوحيد في الشرع: إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته، والتصديق بها ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً. وقيل: معناه في الشرع: إثبات ذات غير مشبهة للذوات، ولا معطلة عن الصفات.

وأما التوحيد: فهو علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية، مكتسب من أدلتها اليقينية. واشتهر بعلم التوحيد؛ لأن مبحث الوحدانية أشهر مباحثه، وهذا العلم يسمى أيضاً: «علم الكلام»[2].

وقد عرّف العضد الإيجي[3] علم الكلام بما عرّف به علم

---

(١) ضحى الإسلام، لأحمد أمين (٣/ ١٠).
(٢) انظر في جميع ما تقدم حاشية الباجوري على الجوهرة (٨).
(٣) هو: عبد الرحمن بن أحمد الشيرازي الشافعيّ، عضد الدين عالم=

التوحيد فقال: «والكلام علم يُقتدر به على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه»[1] وأسمى كتابَه في العقيدة: «المواقف في علم الكلام».

وبعد فلماذا سُمِّي علم التوحيد بعلم الكلام؟

ذكر الباجوري[2] في حاشيته «تحفة المريد»: أنه سُمِّي بذلك لأن المتقدمين كانوا يقولون في الترجمة عن مباحثه: الكلام في كذا، أو سُمِّي بذلك لأنه قد كثر فيه الاختلاف في مسألة الكلام[3].

ولقد ذكر أحمد أمين في كتابه ضحى الاسلام أسباباً أخرى إذ قال:

«سمي هذا العلم الذي يبحث في العقائد بالأدلة العقلية والردّ على المخالفين بـ: «علم الكلام» وسُمِّي المشتغلون به بـ: «المتكلِّمين»، وقد اختلفوا في سبب هذه التسمية: فقال بعضهم: إنه سُمِّي علم الكلام لأن أهم مسألة وقع فيها الخلاف في العصور الأولى مسألة كلام الله وخلق القرآن، فسُمِّي العلم بأهم مسألة فيه، أو: لأن مبناه كلام صِرْفٌ في المناظرات على العقائد، وليس يرجع إلى عمل،

= مشارك في العلوم العقلية، والأصول، والمعاني، والبيان، والنحو، والفقه، وعلم الكلام. انظر الدرر الكامنة (٢/ ٣٢٣).

(١) المواقف، للإيجي (٧).

(٢) إبراهيم بن محمد بن أحمد الباجوري، شيخ الجامع الأزهر، من فقهاء الشافعية، كتب حواشي كثيرة، منها «تحفة المريد على جوهرة التوحيد» توفي سنة (١٢٧٧هـ). انظر الأعلام (١/ ٧١).

(٣) تحفة المريد، للباجوري (٨).

أو: لأنهم تكلَّموا حيث كان السلف يسكتون عما تكلَّموا فيه، أو: لأنه في طرق استدلاله على أصول الدين أشبه بالمنطق في تبيينه مسالك الحجة في الفلسفة، فوضع للأول اسم مرادف للثاني، فسمي كلاماً مقابلة لكلمة منطق».

ثم استطرد إلى ذكر أول من سمَّى علم العقائد علم الكلام، فرجح أن يكون المعتزلة في عصر المأمون أوَّل من سمَّوه بذلك، ونقل عن الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل» قوله: «ثم طالعَ بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتبَ الفلاسفة حين نُشرت أيام المأمون، فخلطت مناهجها بمناهج الكلام، وأفردتها فناً من فنون العلم وسمتها باسم الكلام»[1].

هذا وقد ذهب جمهرة العلماء إلى علم الكلام، وهو أشرف العلوم، ومن هنا قال صاحب المواقف: «المقصد الرابع: مرتبته؛ ليعرف قدره، فيوفى حقه من الجد: قد علمت أن موضوعه أعم الأمور وأعلاها، وغايته أشرف الغايات وأجداها، ودلائله يقينية يحكم بها صريح العقل، وقد تأيَّدت بالنقل، وهي الغاية في الوثاقة، وهذه هي جهات شرف العلم لا تعدوها، فهو إذاً أشرف العلوم»[2].

* * *

---

(١) انظر الملل والنِّحل؛ للشهرستاني (١/ ٣٠) وضحى الإسلام، لأحمد أمين (٣/ ٩ ـ ١٠).

(٢) المواقف، للإيجي (ص٨).

ثانياً ـ العقيدة ونشأة علم التوحيد

لقد مرّ بنا: أن العقيدة بمعناها الذي اصطلح عليه، هي مجموع الأمور التي يجب أن يدين المرء بها في الدين الإسلامي، ويؤمن بها إيماناً لا يشوبه أي شك مهما كان هذا الشك ضئيلاً.

وعلم التوحيد ـ كما مرّ أيضاً ـ هو العلم الذي أنشىء لبيان هذه العقيدة، وإقامة البراهين اليقينية على صدقها وصحتها.

وعلم التوحيد هذا هو ما يُسمَّى بعلم العقيدة، وبعلم الكلام، وأصول الدين، كما مرّ ذلك آنفاً.

ولكن لسائل أن يسأل: متى كانت دراسة هذه الأمور علماً من العلوم، وأُلِّفت فيه الكتب تحت هذا العنوان أو ما يشبهه؟ وما هي الحاجة التي دعت إلى إفراده في علم مستقل عن العلوم الدينية مر تفسير، وحديث، وفقه، وما أشبه ذلك؟

من المؤكد أنه لم يكن منذ فجر الإسلام علم يُدعى: «علم التوحيد» ولا علم يُدعى: «علم الكلام» لأن الأمة الإسلامية آنذاك لم تكن بحاجة إلى مثل ذلك، إذ إنهم كانوا يسمعون آيات الله تتحدث عن أمور العقيدة فيُمِرُّونها كما هي من غير تفلسف، ولا تعمُّق، ولا جدال، ولا مناقشة.

لقد دخل الناس في عهد رسول الله ﷺ في الدين الإسلامي أفواجاً، وسمعوا رسول الله ﷺ يصف ربه سبحانه بما وصف به نفسَه في كتابه الكريم، وبما أجراه على لسانه من سنته، إذ قال الله جل وعزّ: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح: ١٠] وقال سبحانه: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨] وقال عزّ من قائل مخاطباً موسى عليه السلام: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [المؤمنون: ٢٧]. وقال عليه الصلاة والسلام: «ينزل ربُّنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيبَ له؟ من يسألني فأعطيَه؟ من يستغفرني فأغفرَ له؟»(١).

وفي الحديث أيضاً: «لا تزال جهنم يلقى فيها، وتقول: هل من مزيد؟! حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط وعزتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشىء الله لها خلقاً آخر، فيسكنهم في فضول الجنة»(٢). كانوا يسمعون ذلك فيؤمنون به، ولم يبلغنا أن أحداً منهم قد سأله عن شيء من ذلك مع اختلاف عقولهم ومداركهم، كما كانوا يسألونه عن أمور الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، وأمور المعاملات مما علموا أن فيه أمراً ونهياً.

---

(١) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة (١١٤٥)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٥٨) (١٧١) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٥٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ولم يبلغنا: أن أحداً منهم قد سأله عن شيء مما وصف الله به نفسه، ولو سأله أحد عن شيء من ذلك لنُقل إلينا، لأنه مما تتوافر الدواعي على نقله.

ولم يُنقل إلينا: أن أحداً منهم التبس عليه فهم شيء من ذلك، فأخذ يسأل ليكشف شبهته، أو يزيلَ لبْسَاً، أو يشرح غامضاً، كما نُقلت إلينا الأحاديث الكثيرة التي تتضمن السؤالَ عن أحكام الحلال والحرام، وعن أحوال يوم القيامة، وعن الملاحم والفتن، ونحو ذلك.

فدلّ هذا كله على أنهم فهموا ذلك وعقلوه في يُسر وسهولة، ولم يروا بأنفسهم حاجة إلى الفلسفة وقواعدها، ولا إلى مباحث الكلام التي تمتّ بأوثق الأسباب إلى الفلسفة وقواعدها، فكتابُ الله تعالى حدَّثهم عن ربهم، وفرضَ عليهم حقوقاً يؤدونها إلى ربهم، وحقوقاً يؤديها بعضهم إلى بعض.

وهذا الكتاب عربي مبين، وهم قد فهموا ما ذكرَه القرآن الكريم. ولو أنهم اشتبه عليهم شيء من ذلك فعلى اليقين كانوا ـ كما قلنا ـ قد سألوا عنه كما كانوا يسألون عن غيره.

قال المقريزي[1] في كتابه «الخطط والآثار»:

---

(١) أحمد بن علي بن عبد القادر المَقْريزي. مؤرخ محدِّث، مشارك في بعض العلوم، ولد بالقاهرة وتوفي فيها سنة (٨٤٥هـ) من كتبه: «المواعظ والاعتبار في الخطط والآثار». انظر الضوء اللامع؛ للسخاوي (٢/ ٢١ ـ ٢٥) ومعجم المؤلفين (٢/ ١١).

«من أمعن النظرَ في دواوين الحديث النبويِّ، ووقف على الآثار السلفية؛ علم أنه لم يرد قط ـ من طريق صحيح ولا سقيم ـ عن أحد من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم، أنه سأل رسول الله ﷺ عن معنى شيء مما وصفَ الربُّ سبحانه به نفسه الكريمة في القرآن الكريم وعلى لسان نبيه ﷺ، بل كلُّهم فهموا معنى ذلك، وسكتوا عن الكلام في الصفات، ولا فرّق أحد منهم بين كونها صفة ذات، أو صفة فعل، وإنما أثبتوا له صفات أزلية من العلم، والقدرة، والحياة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، والجلال، والإكرام، والجود، والإنعام، والعز، والعظمة، وساقوا الكلام سوقاً.

وهكذا أثبتوا ـ رضي الله عنهم ـ ما أطلقه الله سبحانه على نفسه الكريمة من الوجه واليد ونحو ذلك، مع نفي مماثلة المخلوقين، فأثبتوا رضي الله عنهم بلا تشبيه، ونزَّهوا من غير تعطيل، ولم يتعرَّضْ مع ذلك أحد منهم إلى شيءٍ من هذا، ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت، ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى، وعلى إثبات نبوة محمد ﷺ، سوى كتاب الله تعالى، ولا أحد عرفَ منهم الطرقَ الكلامية، ولا مسائل الفلسفة»(١).

توفي رسول الله ﷺ، وانتقل إلى جوار ربه عزّ وجل، وأمرُ الأمة الإسلامية جميع، ولم يكن بينهم أي اختلاف، فلقد جمعهم

---

(١) الخطط والآثار، للمقريزي (٢/ ٣٥٦).

الإسلام على رسول الله ﷺ، وكان لهم المرجعَ الأوحد في شؤون العقيدة والدِّين.

إلا أنه قد نشأ بوفاته عليه الصلاة والسلام خلاف كبير بين المسلمين فيمن يتولَّى الأمر من بعده، وهذا أوَّل اختلاف حدثَ بينهم ـ كما حكاه الأشعري ـ رحمه الله ـ في كتابه: «مقالات الإسلاميين». وهذا الاختلاف هو أعظم خلاف وقع بينهم، وكان له في مستقبل الأمر أثر كبير في تفكُّك وحدة الأمة الإسلامية.

قال الشهرستاني: «وأعظمُ خلافٍ في الأمة خلافُ الإمامة، إذ ما سُلَّ سيف في الإسلام على قاعدةٍ دينية مثلما سُلَّ على الإمامة في كل زمان»[1].

وبيان ذلك أن رسول الله ﷺ لما قُبض وانتقل إلى جوار ربه عز وجل، اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة بمدينة رسول الله ﷺ، وأرادوا عقد الإمامة لسيد الخزرج سعد بن عبادة، وبلغ ذلك أبا بكر وعمر رضوان الله عليهما، فقصدا نحو مجتمع الأنصار، في رجال من المهاجرين، فأعلمهم أبو بكر: أن الإمامة لا تكون إلا في قريش، واحتجَّ عليهم بقول النبي ﷺ: «الأئمة من قريش»[2] فأذعنوا له منقادين، ورجعوا إلى الحقِّ طائعين، بعد أن قالت الأنصار: منا أمير، ومنكم أمير، وبعد أن جرَّدَ الحبابُ بن

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٢٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/ ١٨٣) عن أنس، والحاكم في المستدرك (٤/ ٧٦) عن عليٍّ رضي الله عنه.

المنذر سيفَه وقال: أنا جُذَيْلُهَا المحكَّك، وعُذَيْقُها المُرَجَّب، مَنْ يُبارزني؟ وبعد أن قام قيس بن سعد بنصرة أبيه سعد بن عبادة، حتى قال عمر بن الخطاب في شأنه ما قال، ثم بايعوا أبا بكر رضوان الله عليه، واجتمعوا على إمامته، واتَّفقوا على خلافته، وانقادوا لطاعته، ما عدا علياً رضي الله عنه، فإنه قد تأخَّرت بيعتُه إلى أن تُوفيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فهرع بعد ذلك إلى مبايعة أبي بكر، وتمّ إجماع المسلمين على خلافته بعد بيعة علي رضي الله عنهما[1].

مضت خلافة أبي بكر وعمر، وأمرُ المسلمين جميع، بعد أن نامت هذه الفتنة، فلم ينبت في عهدهما نابتة من اختلاف في أصول الدين، ـ حاشا ما اختلفوا فيه من أمر الخلافة ـ ثم آل أمرهم إلى الاتفاق والوحدة.

إلا أن فكرة الخلافة والإمامة لم تمت نهائياً، بل أثير فيما بعد هذا الموضوع من جديد، ونشأ عنه اختلافات في أمور تتعلق بالإمامة.

لقد اختلف الناس فيما بعد في الذي تكون به الخلافة، أهو النَّصُّ من صاحب الشريعة على من يكون خليفته من بعده؟ أم هو

---

(١) انظر مقالات الإسلاميين للأشعري (١/ ٣٩ فما بعدها) ومعنى: أنا جُذَيْلُها المُحَكَّك..: أنا الرجل الذي يُستشفى برأيه وعقله. وعُذَيْقُها المُرَجَّب: العُذَيْق: تصغير عذق، وهي النخلة بحملها، والمرجب: الذي تبنى إلى جانبه دعامةٌ ترفده لكثرة حمله، لعزه على أهله، فضرب به المثل في الرجل الشريف الذي يُعظِّمه قومه.

اختيار أهل الحلِّ والعقد من المسلمين لمن يلي أمرهم؟

واختلف الناس أيضاً: هل يجب على المسلمين أن يكون لهم خليفة يقيمُ الحدودَ، ويسدُّ الثغور، ويُجهِّز الجيوش للجهاد، ويُوَلِّي القضاة والحكَّام، ويحمي بيضة المسلمين، أم لا يجب عليهم ذلك مطلقاً، أم يجب عليهم في حال دون حال؟ وهكذا ترى: أن فكرة الخلافة قامت بدور هام في حياة المسلمين، مما جعلهم يتفرَّقون إلى كثير من الفرق.

ثم ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه، وفي أواخر عهده ثارت الفتنة، واستيقظت قضيَّة الإمامة من جديد، وكان الباعث لها والمتولِّي كبرها عبد الله بن سبأ الذي سوف نتحدَّث عنه. وانتهى الأمر إلى مقتل عثمان، وفُتح بمقتله بابٌ من الفتنة لا يزال مفتوحاً إلى يومنا هذا.

ولقد قال الإمام أبو الحسن الأشعري عن عثمان رضي الله عنه: «ولم يحدث خلاف غيره في حياة أبي بكر[1] وأيام عمر إلى أن ولي عثمان بن عفَّان رضوان الله عليهم، وأنكر قوم عليه في آخر أيامه أفعالاً كانوا فيما نقموا عليه من ذلك مخطئين، وعن سنن المحجّة خارجين، فصار ما أنكروه عليه اختلافاً إلى اليوم، ثم قُتل رضوان الله عليه، وكانوا في قتله مختلفين، فأمَّا أهل السُّنَّة والاستقامة فإنهم

---

(١) لعلَّ المؤلِّف يريد أنه لم يحدث خلاف له وجه صحيح يجوز أن يبقى له أثر في عهد أبي بكر غير الخلاف في الخلافة عن رسول الله ﷺ.

قالوا: كان رضوان الله عليه مصيباً في أفعاله، قتلَه قاتلوه ظلماً وعدواناً، وقال قائلون بخلاف ذلك، وهذا اختلاف بين الناس إلى اليوم»[1].

لقد صار أهل النحل في شأن عثمان رضي الله عنه ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: وهم أهل السنة والجماعة، ذهبت إلى أن عثمان رضي الله عنه أحد الخلفاء الراشدين الذين أمر الرسول عليه الصلاة والسلام باتباعهم والاهتداء بهديهم، إذ قال: «عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضّوا عليها بالنواجذ»[2] وأنه من العشرة المبشرين بالجنة على لسان رسول الله ﷺ، وأن ترتيبه في الفضل كترتيبه في الخلافة، وأنه ليس معصوماً من الخطأ؛ لأن العصمة غير ثابتة عندهم إلا للأنبياء، ولكنه مع ذلك ـ إن أخطأ ـ فخطؤه لم يكن سبباً في تفسيقه فضلاً عن كفره، لأنه مجتهد فيما يذهب إليه من الآراء، وقد رفع الله الحرج عن مجتهدي هذه الأمة، وجعل للمخطىء منهم أجراً، وللمصيب أجرين، إذ قال عليه الصلاة والسلام: «إذا حكم الحاكمُ فاجتهد ثم أصابَ فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»[3].

---

(١) المصدر السابق (١/ ٤٩).

(٢) أخرجه أبو داود في العلم (٢٦٧٨) والترمذي في السنة (٤٦٠٧) وابن ماجه في المقدمة (٤٢) عن العرباض بن سارية.

(٣) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٥٢) ومسلم في الأقضية =

الطائفة الثانية: غالت في بغض عثمان رضي الله عنه، وطعنت فيه، وذكرت: أنه أحدث أحداثاً لم يكن له أن يحدثها، ولا تتفق مع الإيمان بالله ورسوله، وأكفرته بهذه الأحداث، كما أكفرت عائشةَ أمَّ المؤمنين، والزبير بن العوَّام، وطلحة بن عُبيد الله بإقدامهم على قتال عليّ، مع أن هذه الطائفة تذهب إلى صحة إمامة عثمان وخلافته عن رسول الله ﷺ في أول أمره؛ لأنها تذهب إلى أن الإمامة شورى فيما بين الخلق، ويصح أن تُسند إلى المفضول مع وجود الفاضل الذي هو أفضل منه، وتثبت إمامة أبي بكر وعمر حقّاً، وتقول ـ مع ذلك ـ: إن الأمة أخطأت في البيعة لهما مع وجود عليّ، ولكنه خطأ لا يبلغ درجة الفسق.

وهذه الطائفة هي السليمانية أتباع سليمان بن جرير، وهي فرع من فروع الشيعة.

الطائفة الثالثة: ذهبت في أمر عثمان مذهباً أقلّ مما ذهبت إليه السليمانية، فقد وقعت فيه وخطَّأته، وذكرت أحداثه، غير أنها لم تر أن هذه الأحداث توجبُ كفراً.

وهذه الطائفة هي النظامية أتباع إبراهيم بن سيَّار النَّظَّام، شيخ أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وهي فرع من فروع المعتزلة، ولم تقف هذه الطائفة عند تخطئة عثمان رضي الله عنه والوقيعة فيه، ولكنها تجاوزت ذلك إلى النيل من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما،

= (١٧١٦) (١٥) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

ومن عليٍّ ـ وعبد الله بن مسعود ـ وغير هؤلاء من كبار الصحابة، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

بعد مقتل عثمان بُويع بالخلافة عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فاختلف الناس في شأنه، فمن منكر لإمامته، ومن قاعد عنه، ومن قائل بإمامته معتقد لخلافته، وهذا الاختلاف بين الناس إلى اليوم.

وفي عهد عليّ نشأت فرقتان مختلفتان كل الاختلاف، ومتناقضتان كل التناقض:

إحداهما: غالت فيه حتى جعلته إلهاً، وهم أتباع عبد الله بن سبأ، ولقد أمر عليٌّ رضي الله عنه بإحراقهم، فألقوا في النار، فكان الواحد منهم يقول: الآن علمنا أنك إلهنا، فإنه لا يحرقُ بالنار إلا خالقها. وعندما بُويع عليٌّ قال ابن سبأ له: أنت خلقتَ الأرضَ، وبسطتَ الرزق[1].

والثانية: الخوارج: خرجوا على عليٍّ رضي الله عنه عندما رضي بالتحكيم، وقالوا: لا حكمَ إلا لله، وأصبح للخوارج فيما بعد آراء في أصول الدين، نوجز أهمَّها فيما يلي:

أولاً: أجمع الخوارج على تكفير عليٍّ رضي الله عنه عندما رضي بالتحكيم. ثم اختلفوا هل يُعَدُّ كفره شركاً أم لا؟

---

(١) انظر «الأعلام» للزركلي في ترجمة ابن سبأ.

ثانياً: أجمعوا على أن مرتكبَ الكبيرة كافرٌ مخلَّد في النار، إلا النجدات[1] منهم.

ثالثاً: رأيهم في الخلافة: أنها يجبُ أن تكون باختيارٍ حرٍّ من المسلمين، وإذا اختير فليس يصحُّ أن يتنازلَ أو يُحكِّمَ، وليس بضروري أن يكون الخليفة قرشياً، بل يصح أن يكون من قريش ومن غيرهم، ولو كان عبداً حبشياً، وكانوا قد استندوا في ذلك إلى الحديث: «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشيٌّ كأنَّ رأسَه زبيبة»[2] وحديث: «إن أُمِّرَ عليكم عبدٌ مجدَّع فاسمعوا له وأطيعوا ما قادكم بكتاب الله»[3].

وإذا تمَّ الاختيار كان رئيسَ المسلمين، ويجب أن يخضعَ خضوعاً تاماً لما أمر الله، وإلا وجب عزله، وتولية غيره.

رابعاً: ومن آرائهم وأصولهم عند معظمهم: الخروج على السلطان الجائر في غير مواربة، ومن غير نظر إلى قوة الإمام وقوة الخارج عليه، وهذا عكس ما ذهب إليه الشيعة من القول بالتقيَّة.

ولقد أرسل عليٌّ رضي الله عنه إلى الخوارج عبد الله بن عباس رضي الله عنه ليناظرَهم فيما ذهبوا إليه، عسى أن يرجعَ ذوو

---

(١) النجدات: فرقة من فرق الخوارج، وهم أصحاب نجدة بن عامر الحنفي. انظر «الملل والنحل» (١/ ١٢٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأذان (٦٩٣) وابن ماجه في الجهاد برقم (٢٨٦٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه في الجهاد برقم (٢٨٦١).

العقول منهم إلى دائرة الحق وجادَّة الصواب.

ففي البداية والنهاية لابن كثير: «أن علياً بعث إلى الخوارج عبد الله بن عباس حتى إذا توسَّط عسكرهم، فقام ابن الكوَّاء فخطب الناس فقال: يا حملة القرآن! هذا عبد الله بن عباس، فمن لم يكن يعرفه فأنا أعرفه ممَّن يخاصم في كتاب الله بما لا يعرفه، هذا ممن نزل فيه وفي قومه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨] فرُدُّوه إلى صاحبه، ولا تواضعوه كتاب الله. فقال بعضُهم: والله لنواضعنّه، فإن جاء بحق لنتبعنّه، وإن جاء بباطل لنكبتنّه بباطله، فواضعوا عبد الله الكتاب ثلاثة أيام، فرجعَ منهم أربعة آلاف كلُّهم تائب، فيهم ابن الكوَّاء حتى أدخلهم على عليٍّ الكوفة»[(١)].

ولقد نقل إلينا أبو العبَّاس المبرد في كامله صورة عن مناظرة جرت بين ابن عباس والخوارج، قال:

«ذكر أهلُ العلم من غير وجه: أن علياً رضي الله عنه، لما وجَّه إليهم عبد الله بن عباس رحمة الله عليه ليناظرَهم، قال لهم: ما الذي نقمتُم على أمير المؤمنين؟ قالوا: قد كان للمؤمنين أميراً، فلما حكَّم في دين الله خرجَ من الإيمان، فليتبْ بعد إقراره بالكفر نَعُدْ لَهُ!.

فقال ابن عباس: لا ينبغي لمؤمن لم يَشُبْ إيمانَه شكٌّ أن يُقرَّ على نفسه بالكفر.

قالوا: إنه قد حكَّم.

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير (٧/ ٢٨١).

قال: إن الله عزّ وجل قد أمرنا بالتحكيم في قتل صيد، فقال عزّ وجل: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥] فكيف في إمامة قد أشكلت على المسلمين؟

فقالوا: إنه قد حُكِمَ عليه فلم يرضَ.

فقال: إن الحكومة كالإمامة، ومتى فَسَقَ الإمام وجبت معصيته، وكذلك الحكمان لما خالفا نُبذت أقاويلهما.

فقال بعضُهم لبعض: لا تجعلوا احتجاجَ قريش حجَّة عليكم، فإن هذا من القوم الذين قال الله عزّ وجل فيهم: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨] وقال عزّ وجل: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[1] [مريم: ٩٧].

وفي الحلية لأبي نعيم عن ابن عباس قال: لما اعتزلت الحرورية[2] قلت لعلي: يا أمير المؤمنين! أبرد عني الصلاة، لعلي آتي هؤلاء القوم فأكلمهم، قال: أتخوّفهم عليك، قال: قلت: كلا إن شاء الله. فلبست أحسن ما أقدر عليه من اليمانية، ثم دخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهيرة، فدخلت على قوم لم أر قوماً أشدّ اجتهاداً منهم، أيديهم كأنها ثِفَنُ إبل ـ جمع ثَفِنَة وهي ركبة

---

(١) رغبة الآمل (٧/ ٧٩) والكامل للمبرد (٣/ ١٠٧٩ ـ ١٠٨٠).

(٢) الحرورية: الحروريّ نسبة إلى حروراء، موضع على ميلين من الكوفة، كان أول اجتماع الخوارج به، فنُسبُوا إليه. انظر معجم البلدان؛ لياقوت (٢/ ٢٤٥).

البعير وما مسّ الأرض من كِرْكِرَتِه[1] - ووجوههم مقلبة[2] من آثار السجود، قال: فدخلت عليهم فقالوا: مرحباً بك يا بن عباس! ما جاء بك؟ قال: جئت أحدثكم. على أصحاب رسول الله ﷺ نزل الوحي، وهم أعلم بتأويله، فقال بعضهم: لا تحدثوه، وقال بعضهم: لنحدثنّه. قال: فقلت أخبروني ما تنقمون على ابن عم رسول الله ﷺ وختنه وأول من آمن به؟ وأصحاب رسول الله ﷺ معه؟ قالوا: ننقم عليه ثلاثاً. قلت: وما هن؟ قالوا: أولاهن: أنه حكَّم الرجال في دين الله، وقد قال الله عزّ وجل: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] قال: قلت: وماذا؟ قالوا: قاتل ولم يسب ولم يغنم، لئن كانوا كفاراً لقد حلّت له أموالهم، وإن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم. قال: قلت: ثم ماذا؟ قالوا: ومحا نفسه عن أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين.

قال: قلت: أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكم، وحدثتكم من سنة نبيكم ﷺ ما لا تنكرون أترجعون؟ قالوا: نعم.

قال: قلت: أما قولكم: إنه حكّم الرجال في دين الله؛ فإنه يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥] وقال في المرأة وزوجها: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ

(١) الكِرْكِرَة: رحى زَوْر البعير، أو صدر كل ذي خفٍّ.
(٢) كذا في الحلية، ولعلها بمعنى النضج واليبس من كثرة السجود.

﴿وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [النساء: ٣٥] أنشدكم الله أفحكم الرجال في حقن دمائهم وأنفسهم وصلاح ذات بينهم أحق، أم في أرنب ثمنها ربع درهم؟ فقالوا: اللهم في حقن دمائهم وإصلاح ذات بينهم. قال: أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم.

قال: وأما قولكم: إنه قاتل ولم يسب ولم يغنم، أتسبون أمكم ثم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها؟ فقد كفرتم، وإن زعمتم أنها ليست بأمكم فقد كفرتم وخرجتم من الإسلام. إن الله عزّ وجل يقول: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] فأنتم تترددون بين ضلالتين، فاختاروا أيهما شئتم. أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم.

قال: وأما قولكم: محا نفسه من أمير المؤمنين، فإن رسول الله ﷺ دعا قريشاً يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم كتاباً، فقال: اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله. فقالوا: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناكَ عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال: والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب يا عليّ: محمد بن عبد الله، فرسول الله كان أفضل من علي. أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم، فرجع منهم عشرون ألفاً، وبقي منهم أربعة آلاف فقتلوا[1].

وعن نشوء الخوارج والشيعة تحدث شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقال: «والخوارج هم أول من كفَّر المسلمين، يُكفِّرون

---

(١) الحلية لأبي نُعيم (١/٣١٨ ـ ٣٢٠).

بالذنوب، ويُكَفِّرون من خالفهم في بدعتهم، ويستحلُّون دمه وماله، وهذه حال أهل البدع، يبتدعون بدعة، ويكفرون من خالفهم فيها، وأهل السنة والجماعة يتبعون الكتاب والسنة، ويطيعون الله ورسوله، فيتبعون الحق، ويرحمون الخلق.

وأول بدعة حدثت في الإسلام بدعة الخوارج والشيعة، وذلك في أثناء خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فعاقب الطائفتين، أما الخوارج: فقاتلوه فقتلهم، وأما الشيعة: فحرق غالبيتهم، وطلب قتل عبد الله بن سبأ فهرب منه، وأمر بجلد من يفضله على أبي بكر وعمر، وروي عنه من وجوه كثيرة: أنه قال: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، ورواه عنه البخاري في صحيحه»[1].

وقال الشهرستاني في كتابه: الملل والنحل: وظهر في زمانه الخوارج عليه مثل: الأشعث بن قيس، ومسعود بن فدكي التميمي، وزيد بن حصين الطائي، وغيرهم. وكذلك ظهر في زمانه الغلاة في حقه مثل: عبد الله بن سبأ وجماعة معه، ومن الفريقين ابتدأت البدعة والضلالة، وصدق فيه قول النبي ﷺ: «يهلك فيه اثنان: محب غالٍ، ومبغض قالٍ»[2].

---

(١) مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ٢٧٩) والحديث رواه البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٨٥) ورواه ابن عساكر والديلمي ، كما في الكنز (٣٢٦٨٤).

(٢) الملل والنحل، للشهرستاني (١/ ٢٧) والحديث أخرجه عبد الرزاق =

لم يقتصر في الإمامة على خروج هاتين الفرقتين، بل انضم إلى ذلك خروج فرق أخرى بسبب الاختلاف في الأصول:

إحداها: الجبرية، وأهم فرقها تدَّعي: أن العبد ليس له فعل ولا قدرة على الفعل. ومن زعماء هذه الفرقة الشاذة: جهم ابن صفوان، ومن آراء صفوان هذا: أن الجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلها، وتلذذ أهل الجنة بنعيمها، وتألم أهل النار بجحيمها. ومنها قوله: إن الإيمان هو المعرفة بالله فقط، ومنها قوله: إنَّ علم الله محدث، وإنَّ لعلم الله وقدرته غاية.

الثانية: المعتزلة، ومن آرائهم: نفي صفات المعاني من العلم، والقدرة، والإرادة، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، وسيأتي شرح ذلك.

ومنها أيضاً: نَفْيُهُم رؤية الله يوم القيامة، وسيأتي بحث ذلك.

ومنها: أن الله لم يخلق أفعال العباد، لا خيراً ولا شراً.

ومنها: قولهم بالمنزلة بين المنزلتين، فالمسلم مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر، بل هو في منزلة بين المنزلتين، وهو مخلَّد في النار، إلا أنه لا يُعذَّب كعذاب المشركين.

ومنها: قولهم بوجوب الأصلح، وأن على الله أن يختار الأصلح لعباده. وكان من زعماء المعتزلة: واصل بن عطاء الغزَّال، وقد كان تلميذاً للحسن البصري.

= في المصنف (٢٠٦٤٧) عن عليٍّ موقوفاً ونصُّه: «يهلك فيَّ اثنان..».

الثالثة: القدرية، فلقد ظهر في النصف الثاني من القرن الهجري الأول رجل يُدعى «معبداً الجهني» أخذ ينشر بين الناس القول بنفي القدر، ويدَّعي أن الأمر أنف[1]، أي: مستأنف من غير أن يكون سبق به سابق قضاء وتقدير، وإنما هو على اختيارك ودخولك فيه.

وكان معبد قد أخذ هذا الشيء فيما أخذه عن رجل نصرانيّ من أهل العراق، يُقال له «سوسن» وكان قد أظهر الإسلام، فكان معبد أول من أظهر القول بنفي القدر، وأصبحت الفرقة التي تنتسب إليه تُسمَّى «القدرية».

وعند ظهور هذا الرجل وأخذه في نشر دعوته، شرع علماء المسلمين يحذرون الناس من الالتقاء به والاستماع إليه تطبيقاً لقول القائل: «لا تُمَكِّن زائغَ القلب من أذنيك، فإنك لا تدري ماذا يعلقك من ذلك».

جاء في صحيح مسلم عن يحيى بن يعمر قال: أول من قال بالقدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحُميد بن عبد الرحمن الحميري حاجَّيْن أو: معتمرَيْن، فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوافقَ لنا عبد الله ابن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي، أحدنا عن يمينه، والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إليّ، فقلت: أبا عبد الرحمن! إنه قد ظهر قبلنا أناس يقرؤون

---

(١) انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (١/ ٧٥).

القرآن ويتقفرون العلم، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون: أنه لا قدر، وأن الأمر أُنف، قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر: لو أن لأحدهم ملء أُحُد ذهباً فأنفقه، ما قبلَ الله منه حتى يُؤمنَ بالقدر. ثم ساق حديث عمر بن الخطاب، وفيه سؤال جبريل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، فقال رسول الله ﷺ: «أن تؤمنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمنَ بالقدر خيره وشرِّه»[1].

ولقد ورد عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «القدرية مجوس هذه الأمة»[2]. وقد أخذَ عن معبد القول بنفي القدر جماعةٌ، منهم: غيلان بن مسلم الدمشقي، وقد صُلب في دمشق عند باب كيسان لزندقته بعد فتوى أهل العلم بذلك.

ومن قبل معبد هذا ظهر في عهد عثمان رجل يُدعى: عبد الله بن سبأ كما ذكرنا، وقد كان يهودياً، غاظه نصرة الإسلام وغلبته على اليهودية، وإزالته ما كان يتمتع به اليهود من الهيمنة والسلطان على عرب المدينة والحجاز عامة، فأضمر الكيدَ للإسلام، فأظهر أنه قد دخل في الإسلام زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم أخذ يتنقل في البلاد الإسلامية، ينفث فيها سمومه، إلى أن أتى مصر فوجد فيها مرتعاً خصباً، فاستقرَّ بها، وتحقَّق له ما أراد.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٨) (١).

(٢) أخرجه أبو داود في السنة (٤٦٩١) والحاكم في مستدركه (١/ ٨٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وتتلخص شرور هذا الرجل في أنه أحدث في هذه الأمة ثلاثة أمور:

أحدُها: أنه أول من أحدث القول بوصية رسول الله ﷺ لعليٍّ ابن أبي طالب بالإمامة، فعليٌّ وصيُّ الرسول عليه الصلاة والسلام، وخليفته على أمته من بعده بالنص، وكان مما قاله في ذلك:

«إنه قد كان لكلِّ نبيٍّ وصيٌّ، وإنَّ علي بن أبي طالب هو وصيُّ محمد ﷺ، وليس في الناس من هو أظلم ممن احتجز وصية رسول الله ولم يجزها، بل هو يتعدَّى ذلك، فيثب على الوصي، ويقتسره على حقه، وإن عثمان قد أخذ حقَّ عليٍّ وظلمه، فانهضوا في هذا الأمر، وليكن سبيلُكم إلى إعادة الحق لأهله الطعن على أمرائكم، وإظهار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنكم تستميلون بذلك قلوب الناس» واتخذ لهذه الدعوة أنصاراً بثَّهم في الأمصار، وما زال يُكاتبهم ويُكاتبونه، ويُؤلِّبهم ويدفعهم نحو الثورة على عثمان، حتى نفذ قضاء الله في عثمان رضي الله عنه، فقتل في داره محاصراً.

ولا تنس أنَّ علياً رضي الله عنه قد بايع عثمان بالخلافة، فإن كان له حق منصوص عليه فهو أسمى وأعظم من أن يتنازل عن هذا الحق، ويرضى بالباطل، ويقنع بألا ينفذ وصية رسول الله ﷺ، ولكن ضعاف العقول سرعان ما تسري إليهم الأفكار الشاذة المنحرفة.

الأمر الثاني: أنه كان أول من أحدث القول بالرجعة، برجعة رسول الله ﷺ، وبرجعة عليّ رضي الله عنه أيضاً.

وكان مما قاله في ذلك:

«إني لأعجب كيف تُصدِّقون: أن عيسى ابن مريم يرجع إلى هذه الدنيا، وتكذبون أنَّ محمداً يرجع إليها» ثم قال: «إنه قد كان لكل نبيّ وصي، وإن عليّ بن أبي طالب هو وصيُّ محمد ﷺ».

الأمر الثالث: أنه كان أول من أحدث القول بأن علياً لم يقتل حقيقة، وأنه لا يزال حيّاً، وأنه يسكن السحاب، وأن الرعد صوته، وأن البرق سوطه، وأن فيه جزءاً إلهِياً، وأنه لا بد من أن ينزل إلى الأرض، فيملأها عدلاً كما ملئت جوراً».

هذا ومن اطّلع على عقائد اليهود يرى أن أكثر هذه القضايا مأخوذة عن اليهودية التي كان يتعارفها قومه يومئذ، بل إنه كان يستدل لمن يخدعهم على صحة هذه القضايا ببعض ما عرف من أحوال موسى عليه الصلاة والسلام، مع شيء من التمويه والتحريف[١].

ومن الفِرق التي ظهرت إلى جانب ما ذكرنا: «المرجئة» وهؤلاء يقولون: إن الإيمان هو المعرفة بالله فقط، ولا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، ولهؤلاء أفكار أخرى لا مجال لذكرها الآن.

هذا ولقد ذكر الإمام الأشعري في كتابه «مقالات الإسلاميين» أمهات الفرق التي يؤول إليها الخلاف بين المسلمين فقال: «اختلف المسلمون عشرة أصناف[٢]: الشّيع، والخوارج، والمرجئة،

---

(١) انظر الملل والنحل، للشهرستاني (٢/ ١٧٤و٢/ ٢١١ فما بعدها).

(٢) كذا في مقالات الإسلاميين، وإذا عددنا الأسماء المذكورة =

والمعتزلة، والجهمية، والضرارية، والحسينية، والبكرية، والعامة، وأصحاب الحديث، والكُلاَّبية أصحاب عبد الله بن كُلاَّب القطَّان»[1].

نشأة علم الكلام وأسبابها:

مضى عصر الخلفاء الراشدين، ثم من بعدهم مضى عصر الأمويين، ومع ما ظهر في ذلك من الآراء والمذاهب فيما يتعلق بالعقيدة، فلم تتخذ مسائل العقيدة سبيلاً لأن تكون علماً، فتدعى علم العقيدة، أو: علم أصول الدين، أو: علم التوحيد، أو: علم الكلام، أو: غير ذلك من الأسماء، على الرغم من وجود مسائل هامة في العقيدة جرى فيها الاختلاف، وآلت بالمسلمين إلى أن جعلتهم فرقاً متباعدة، كما ألمحنا إلى ذلك.

وعندما آل الأمر إلى بني العباس، كثر البحث في العقائد في عصرهم، وتشعبت طرائق الكلام عنها، واتخذ ذلك ألواناً جديدة لم تكن أيام النبي ﷺ، ولا الأولين من صحابته، وأخذت هذه البحوث تتركز ليتكون منها علم جديد يُساير العلوم التي نشأت في هذا العصر، ألا وهو: «علم الكلام».

وقد تعاون على نشوئه وارتقائه أسباب كثيرة ذكرها الأستاذ أحمد أمين في كتابه: «ضحى الإسلام» وبين أن هناك أسباباً داخلية، وأسباباً خارجية، وعنى بالأسباب الداخلية الأسباب التي صدرت

= وجدناها أحد عشر اسماً.

(١) مقالات الإسلاميين، للأشعري (١/ ٦٥).

من طبيعة الإسلام نفسه والمسلمين أنفسهم، وعنى بالأسباب الخارجية الأسباب التي أتت من الثقافات الأجنبية، والديانات المختلفة غير الإسلام.

الأسباب الداخلية:

أما الأسباب الداخلية فأهمها ما يلي:

١ ـ عرض القرآن لأهم الأديان والفرق، وردُّه عليهم، ونقضه لما يقولون. فالقرآن الكريم بجانب دعوته إلى التوحيد والإيمان بالنبوات وما يتصل بذلك، عرض لأهم الفرق والأديان التي كانت منتشرة في عهد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وردَّ عليهم، وناقش أقوالهم، ونقضها، فحكى عن قوم أنكروا الأديان، والإلهيات، والنبوات: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٣ ـ ٣٧]. ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]. فرد عليهم قولهم بمختلف الأدلة.

وعرض للشرك بجميع أنواعه، فمن المشركين من ألّه الكواكب واتخذها شريكة لله، فرد عليهم بمثل ما حكى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى

رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦ ـ ٧٩].

ومنهم من ألَّه عيسى عليه السلام، فناقشهم في ذلك وردّ عليهم في مواطن كثيرة، منها ما جاء في آخر سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ. . .﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٧].

وحمل على الذين قالوا بعبادة الأوثان، وأشركوها مع الله، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣ ـ ٧٤].

وحكى عن قوم أنكروا النبوات جميعاً؛ إذ قالوا: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]. فناقشهم وردّ عليهم في غير ما موضع.

وأنكر قوم نبوة محمد ﷺ ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣].

فناقشهم القرآن في هذا في أكثر من موضع.

وأنكر قوم البعث بعد الموت فردَّ عليهم بقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. وبقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥ ـ ٧] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٩].

وعرض لمسائل التكليف، والجبر، والاختيار، وأبان الحجة فيها، فحكى عن طائفة من المنافقين يوم أُحُد أنهم قالوا: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وقالوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤] فرد هذه المقولة،

وناقشها في أكثر من موضع، وحكى مثل هذا عن المشركين فقال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨] وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

ولقد أمر الرسولَ عليه الصلاة والسلام أن يجهر بدعوته ويجادل مخالفيه، فقال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

فالقرآن الكريم إذ عرض كل ذلك كان طبيعياً أن ينهج علماء الملة هذا المنهج، فيردوا على المخالفين، ويتوسعوا في الدفاع توسع المخالفين في الهجوم، ويجددوا الحجج في الردّ كلما جدّد المخالفون الحجج في الطعن. فكان هذا من أسباب نشوء علم الكلام.

٢ ـ فلسفة الدين: وذلك أن المسلمين لما فرغوا من الفتح، واستقرَّ بهم الأمر، واتَّسع لهم الرزق، ووجدوا فسحة من الزمان، أخذ عقلهم يتفلسف في الدين، فيثير خلافات دينية، ويجتهد في بحثها، والتوفيق بين مظاهرها، ففي أول الأمر تكون العقيدة قوية لا تأبه لخلاف، ولا تلتفت إلى بحث، ينفذ النظر فيها إلى أسس الدين فتعتنقها الأمة، وتؤمن بها إيماناً تاماً، من غير ميل إلى

بحث وفلسفة، ثم يأتي من بعد ذلك طور البحث والنظر، وصبغ مسائل الدين صبغة علمية فلسفية، وإذ ذاك يلتجىء علماء الدين إلى الفلسفة يستعينون بها في تدعيم حججهم وتقوية براهينهم.

ومن ها نرى أنه ما كاد ينقضي العصر الإسلامي الأول، في إيمان لا يعتوره كثير من الجدل، ويهدأ الناس بعد ذلك، حتى أخذوا ينظرون ويبحثون، ويتوسعون في النظر والبحث، ويجمعون بين الأشباه والنظائر، ويستخرجون وجوه الفروق والموافقات، فكان ذلك يستتبع حتماً اختلاف وجهة النظر، فاختلاف الآراء والمذاهب.

٣ ـ اختلافهم في أمور دينية تتعلق بالسياسة:

تنصيب خليفة للمسلمين يرعى شؤونهم، ويقوم على أمورهم الدنيوية والدينية، ويدرأ عنهم كيد الأعداء، ويحافظ على وحدتهم واجب ديني يتعلَّقَ بجانب من جوانب المجتمع الإسلامي، ألا وهو الجانب السياسي. فلقد قال الإمام اللَّقَّاني في جوهرة التوحيد:

وواجِبٌ نصْبُ إمامٍ عَدْلِ   بالشَّرْعِ فاعْلَمْ لا بِحُكْمِ العَقْلِ

ولقد علق شيخ الإسلام الباجوري على هذا الكلام بقوله: «ومن الوجوه الدالة على وجوبه بالشرع أن الشارع أمر بإقامة الحدود وسد الثغور، وتجهيز الجيوش، وذلك لا يتم إلا بإمام يرجعون إليه في أمورهم، وقد أجمعت الصحابة عليه بعد مفارقته الدنيا ﷺ، واشتغلوا به عن دفنه ﷺ، لأنه توفي يوم الإثنين عند الزوال، فمكث ذلك اليوم وليلة الثلاثاء، ودفن ﷺ في آخر ليلة

الأربعاء، وقال أبو بكر رضي الله عنه: ولا بدّ لهذا الأمر ممن يقوم به، فانظروا، وهاتوا آراءَكم رحمكم الله تعالى، فقالوا من كل جانب من المسجد: صدقت، صدقت، ولم يقل أحد منهم: لا حاجة لنا إلى إمام[1].

ولقد اختلف المسلمون بعد وفاة الرسول ﷺ في أمر الخلافة، فلقد توفي رسول الله ﷺ ولم يعين من يخلفه، فتفرَّق الناس في ذلك أحزاباً، فلأهل السنة رأي، وللشيعة رأي، وللخوارج رأي، وقد تقدَّم الكلام على ذلك، وقد أصبحت هذه الفرق فرقاً دينية، تؤيد ما ذهبت إليه بأدلة دينية، ولقد قال الأستاذ أحمد أمين في ذلك: «ورأينا الخلاف خلافاً دينياً، ورأينا كل حزب له أدلته الدينية، ورأينا خلافاً في هذه الحروب حول الكفر والإيمان، ورأينا أن تسجيل هذه الحوادث والحروب والنزاع، لم يكن محلها فقط كتب التاريخ، وهي التي تسجل الحوادث السياسية، بل عنيت بتسجيلها أيضاً كتب الفرق الدينية والملل والنحل.

وأحياناً يُحْكَىٰ القول من أقوال الفرق المختلفة على أنه مذهب ديني بحت، ومسألة عقيدة صرفة، مع أننا لو دققنا النظر في أصلها لوجدناه سياسياً، كمسألة مرتكب الكبيرة أكافر أم مؤمن، فالظاهر أن بحثها لم يكن بحثاً لاهوتياً بحتاً، وإنما منشؤها حكم الأحزاب السياسية بعضها على بعض، فالخوارج أثاروا المسألة من ناحية من اتبع عليّاً؛ أكافرٌ أم مؤمنٌ؟ ومن اتَّبع معاوية؛ أكافرٌ أم مؤمنٌ؟ كما

---

(١) تحفة المريد، للباجوري (١١٧).

نتساءل نحن اليوم: ما حكم من اتَّبع مذهبَ كذا السياسي أخائن لوطنه أم غير خائن؟ ولكن طبيعة الزمن صبغت المسألة هذه الصبغة الدينية، ثم تُنوسي أصلها على مرِّ الزمان، ووضعت على أنها مسألة إيمانية مجردة من السياسة.

والسبب في هذا: أن الدين الإسلامي كان في عنفوانه، وقد امتلأت نفوس الناس به، وكان سبب سعادتهم الروحية، والدينية، والدنيوية، وهم قريبو عهد بالنبوة، فنظرهم إلى المسائل ـ وخاصة الهامة منها ـ لا بد أن يصطبغ اصطباغاً قوياً بالدين بحكم البيئة والجو، أضف إلى ذلك أنه كان في كل حرب مكرة مهرة، رأوا أن الناس لا يستهويهم القول بالصالح العام كما يستهويهم القول بأنهم في دفاعهم إنما يدافعون عن الدين، ويجردون السيف باسم الدين، فغرقت الأحزاب كلها في هذا البحر، واستعملت هذا السيف، وأثارت العواطف من هذا الباب، واستغلت عقول العلماء ليمدوها بما لديهم من علم في هذه السبل، وانضمَّ إليهم من لا يخافون الله، فإذا لم يجدوا في الدين شيئاً وضعوا له الحديث والأخبار الدينية، وبذلك كله كان الخلاف السياسي سبباً كبيراً من أسباب الخلاف الديني، وسبباً في العقائد والفرق، وإذا بنا نرى حزب عليٍّ فرقة دينية، هي حزب الشيعة، يرون: أن الدين نص على عليٍّ وذريته، ونرى حزب الأمويين حزباً دينياً، يرون: أن إمامة معاوية وأولاده ثبتت باتفاق أهل الحل والعقد في الأمة، ونرى حزب الذين لا يرضون عن هؤلاء جميعاً حزباً دينياً يسمى الخوارج، له عقائده وتعاليمه، ونرى حزب المحايدين حزباً دينياً يسمى المرجئة، له خلافاته وآراؤه، وساقهم هذا الخلاف السياسي

الذي اصطبغ بالدين إلى الخلاف في تعريف الإيمان والكفر، والكبائر، والصغائر، وحكم مرتكب الكبيرة ونحو ذلك، وانساقوا بعد إلى الخلاف في الفروع، حتى تكوَّنت من كلٍّ منهم فرقة لها خلاف في الأصول والفروع على مرّ الزمان»[1].

الأسباب الخارجية لنشوء علم الكلام:

أما الأسباب الخارجية فأهمها:

١ ـ كثرة من دخل في الإسلام من أرباب الديانات المختلفة؛ وذلك: أن كثيراً ممن دخلوا في الإسلام بعد الفتح كانوا من ديانات مختلفة: يهودية، ونصرانية، ومانوية، وزرادشتية، وبراهمة، وصابئة، ودهريين، وغير ذلك، وكانوا قد نشؤوا على تعاليم هذه الديانات، وشبُّوا عليها، وكان ممن أسلم علماء في هذه الديانات، فلما اطمأنوا، وهدأت نفوسهم، واستقرت في الدين الجديد، وهو الإسلام، أخذوا يفكرون في تعاليم دينهم القديم، ويثيرون مسائل من مسائله، ويلبسونها لباس الإسلام، وهذا ما يعلِّل ما نرى في كتب الفرق من أقوال بعيدة كل البعد عن الإسلام، فنرى أحمد بن حائط يقول في التناسخ شبه ما يقول البراهمة، ويقول في المسيح عليه السلام قولاً يشبه قول النصارى، إلى كثير من أمثال ذلك.

٢ ـ الحرص على الدعوة إلى الإسلام، والردُّ على المخالفين: وذلك: أن الفرق الإسلامية الأولى، وخاصَّة المعتزلة؛ جعلت من أهم أغراضها الدعوة إلى الإسلام، والردّ على المخالفين، وما كان

(١) انظر ضحى الإسلام، لأحمد أمين (٣/٦ ـ ٧).

يتسنى لهم الردّ إلا بعد الاطلاع على أقوالهم وأدلتهم، فدفعهم ذلك إلى الإحاطة بالفرق الأجنبية وأقوالها وحججها، فأصبحت البلاد الإسلامية ساحة تعرض فيها كل الآراء، وكل الديانات، ويتجادل فيها، ولا شكَّ أن الجدل يستدعي النظر والتفكير، ويثير مسائل تستدعي التأمل، وتحمل كل فريق على الأخذ بما صح عنده من قول يخالفه.

وكان بعض الأديان، وخاصَّة اليهودية والنصرانية، قد تسلَّح بالفلسفة اليونانية، وقد أدَّى هذا إلى أن يلجأ المعتزلة إلى مثل السلاح الذي لجأ إليه خصومهم، ومن هذا الاحتكاك بين المعتزلة وأمثالهم، وبين الملل الأخرى، نشأت بين المسلمين أقوال مختلفة، فكان ذلك سبباً من أسباب تضخم علم الكلام.

٣ ـ حاجة المتكلمين إلى دراسة الفلسفة: وهذا سبب ثالث نشأ عن السبب الثاني، وهو: أن حاجة المتكلمين إلى الفلسفة لوقوفهم أمام خصومهم، يجادلونهم بمثل حججهم؛ اضطرتهم إلى أن يقرؤوا الفلسفة اليونانية، وينتفعوا بالمنطق اليوناني، فنرى النَّظَّام ـ وهو من أئمة المعتزلة ـ يقرأ أرسطو ويردُّ عليه، ونرى أبا الهُذَيْل العلاَّف ـ وهو من شيوخ المعتزلة أيضاً ـ كذلك، ونرى كثيراً من المعتزلة يتكلَّمون في الطفرة، والتوالد، والجوهر، والعَرَض، والجوهر الفرد، ونحو ذلك من المسائل التي تعدّ من صميم الفلسفة اليونانية، وتدخل في بحوث المتكلِّمين.

فهذه الأسباب كلها من داخلية، وخارجية، هي التي كوَّنت

علم الكلام، وجعلته فناً قائماً بنفسه[1].

هذا ولا بدّ في نهاية هذا البحث من بيانٍ لمسالك علماء الإسلام في صدِّ هذه التيارات الجانحة، والنزعات المختلفة، فنقول: إن مسالك المسلمين تنحصر في ثلاثة مسالك:

المسلك الأول: استثارة نوازع الفطرة الأصلية في الإنسان، وإزالة الغواشي والحواجز التي تصده عن الشعور بها والخضوع لها.

المسلك الثاني: تحكيم موازين العقل والمنطق، مما ائتلفت واجتمعت عليه عقول الناس أجمع، وهذه الموازين العقلية والمنطقية يدعو القرآن إلى استخدامها، وإلى مواجهة الجاحدين بها، بل ربما لقَّن القرآن الكريم بأسلوبه المعجز طريقة الاحتجاج بها.

المسلك الثالث: وهو مسلك الفلاسفة والمتكلمين الإسلاميين، فقد اعتمدوا على منهج الفلاسفة وطريقتهم، وقد أشرنا إلى شيء من ذلك فيما سبق.

* * *

(١) انظر المصدر السابق (٣ / ٧ ـ ٩).

الفصل الثاني

١ ـ مصادر المعرفة في العقيدة الإسلامية

أً ـ التفريق بين عالم الغيب وعالم الشهادة:

العالم الذي نعيش فيه، والعالم الذي يُحيط بنا، والعوالم التي تخرج عن هذا العالم الذي نعيش فيه، كل ذلك ليس على نمط واحد.

بيان ذلك: أن الكون مشحون بأشياء كثيرة منها ما يُدرك بالحواس، ومنها ما لا يُدرك بالحواس، فالأشياء التي اتصلت بها حواسنا هي في عرفنا أشياء مادية، لأننا شهدناها شهوداً حِسِّيّاً، ولا يشكُّ بوجودها إلا فاقد الحس، وهذه الأشياء تُسمَّى: «عالم الشهادة».

إلا أن هناك أشياء كثيرة عجيبة لا تتصل بها حواسنا، وهي موجودة، ومن الخطأ ألا نقرّ ونعترف بوجودها، وإن كانت غائبة عن حواسنا وشهودنا، فالأمور التي هي غائبة عن شهودنا وعالم الحس فينا تُسمَّى: «عالم الغيب» وقد تكون في واقعها أشياء مادية من نوع آخر، ويمكن شهودها من قبلنا لو تهيأت لنا شروط مشاهدتها، والإحساس بها، أو: لو وجدت لدينا الحاسة المناسبة التي نتمكن بوساطتها من كشف صورها، وإدراك ذواتها.

وأقرب مثال على هذه الأمور الموجودة المغيبة أرواحنا التي تسري في أجسامنا، لا نسمعها بآذاننا، ولا نراها بأبصارنا، ولا نلمسها، ولا نتذوقها، ولا نشمها، ونحن مع ذلك كله نؤمن بوجودها، ونحرص عليها، ونحكم بحلولها، كما نحكم بخروجها، وذهابها.

ونحن وإن لم نحس بأرواحنا إحساساً ظاهراً، فإننا قد آمنا بها استدلالاً بآثارها فينا، بل عِلْمنا بها أمر بدهي لا يحتاج إلى برهان.

وهناك قوى كثيرة منبثة في عالمنا إنما ندركها من آثارها؛ كالكهرباء، والجاذبية، وما أشبه ذلك.

هذا ولقد نبَّه القرآن إلى هذه الحقيقة، وهي: انقسام العالم بالنسبة للمخلوقات إلى قسمين:

١ ـ عالم الغيب. ٢ ـ عالم الشهادة.

قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٢]. وقال جل جلاله: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الرعد: ٨ ـ ١٠] وقال عزّ وجل: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ

﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ [السجدة: ٤ ـ ٨].

٢ً ـ طريق معرفة كل منهما:

أما عالم الغيب: فطريق الوصول إلى معرفته معرفة حقيقية هو الوحي الإلهي الذي جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام، ويصل إلينا ذلك الوحي عن طريق الخبر الصادق المتواتر، غير أن الإنسان قد يصل إلى معرفة شيء من ذلك عن طريق التأمل، والتفكر، والنظر العقلي.

وأما عالم الشهادة: فطريق الوصول إلى معرفته التأمل، والتفكر، والنظر العقلي، والتجربة، والمشاهدة.

وستجد في البحث التالي منهج المعرفة عند المسلمين، أي: المنهج الذي رسمه العلماء المسلمون للوصول إلى الحقائق سواء أكانت من عالم الغيب أم من عالم الشهادة، ستجد هذا المنهج مقارناً بالمناهج الأخرى.

* * *

٢ ـ منهج المعرفة عند المسلمين مقارناً بالمناهج الأخرى

العلم الضروري والعلم النظري:

قسَّم العلماء ما يحدث في نفس الإنسان من الأحكام إلى خمسة أقسام:

الأول: العلم، وهو الحكم الجازم الذي لا يقبل تغيراً، بأن كان لموجب من حسٍّ، أو عقل، أو عادة، ويكون مطابقاً للواقع.

الثاني: الظنّ، وهو الحكم غير الجازم المرجِّح للواقع عن دليل.

الثالث: الشكُّ، وهو ما تساوى فيه طرف الإثبات وطرف النفي من غير ترجيح.

وقد عبَّر الإمام الغزالي عنه بقوله: «الشك اعتقادان يتقاوم سببهما».

الرابع: الوهم، وهو الحكم المرجوح، لمرجوحية المحكوم به، وهو يقابل الظن.

الخامس: الجهل، وقد قسموا الجهل إلى قسمين: جهل بسيط، وهو انتفاء العلم المقصود، ومركب، وهو إدراك الشيء على خلاف ما هو به في الواقع. وقد أضافَ قوم إلى ذلك قسماً سادساً هو الاعتقاد، وعرفوه بأنه الحكم الجازم الذي يقبل التغير بأن لم يكن لموجب من حسٍّ، أو عقل، أو عادة، وجعلوه في المرتبة الثانية بعد

العلم. وقسَّموه إلى اعتقاد صحيح، واعتقاد فاسد، فالاعتقاد الصحيح ما طابق الواقع، والاعتقاد الفاسد ما خالفه. والاعتقاد الصحيح إن كان عن دليل يُفيد القطع ترقَّى إلى مرتبة العلم.

هذا ومن المعروف في العقيدة أنه لا يُكتفى فيها بالأدلة الظنية، بل لا بدّ من أن يكون هناك دليل يفيد اليقين، فالأدلة الظنية لا مجالَ لها في علم العقيدة وأصول الدين.

إذا علمت هذا كله، وأدركت: أن العلم هو الحكم الجازم الذي لا يقبل تغيراً، لأنه حصلَ لموجب من حسّ، أو عقل، أو عادة، أو غير ذلك، ويكون مطابقاً للواقع أدركت: أن هذا العلم ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: العلم الضروري، وهو ما لا يُحتاج في تحصيله إلى نظر وتأمل واستدلال، وذلك كالعلم بأن الواحد نصف الاثنين، وأن الكل أكبر من الجزء، وكعلم العالم منا بوجود نفسه، وكالذي يُدرك إدراكاً صحيحاً من جهة الحواس، ومن العلم الضروري ما يُدرك بالبديهة، غير أن فريقاً من العلماء قسَّموا العلم الضروري إلى قسمين: أحدهما: علم بدهي كالعلم بما يجد الإنسان في نفسه من ألم، ولذة، وجوع، وعطش. والثاني: علم حسي، وهو ما يُدرك من جهة الحواس الخمس: البصر، والسمع، والذوق، والشم، واللمس.

الثاني من أقسام العلم: العلم النظري، ويُسمى العلم الاكتسابي. وهو ما يُحتاج في تحصيله إلى نظر وتأمل واستدلال، كالعلم بأن زوايا المثلث تساوي قائمتين، وكالعلم بحدوث العالم،

وقدم صانعه، ووحدانيته، وما إلى ذلك.

مصـــادر المعرفة في العقيدة الإسلاميـة

«منهج البحث عند علمـاء المسلمين»

ولسائل أن يسأل: من أين يحصل الإنسان على العلم الجازم في العقيدة الإسلامية؟ وما هي مصادره التي تُورث اليقين؟ وما هو المنهج الصحيح للوصول إليه؟

للإجابة عن هذا السؤال يجدر بنا أن نتحدث أولاً عن مصادر المعرفة بشكلٍ عام، ثم نتحدث عن مصادر المعرفة في العقيدة الإسلامية.

آ ـ مصادر المعرفة:

لقد قسَّم العلماء العلوم النظرية إلى أربعة أقسام:

أحدها: ما يكون عن طريق الخبر المتواتر؛ كعلمنا بأن مكة موجودة، وعلمنا بأن الله قد أرسل رسولاً اسمه محمد عليه الصلاة والسلام، وما أشبه ذلك.

الثاني: ما يكونُ عن طريق العقل بالنظر والقياس، وذلك كالعلم بحدوث العالم، والعلم بأن زوايا المثلث تساوي قائمتين، والعلم بأن الخطين المتوازيين لا يتلاقيان ما داما متوازيين.

الثالث: ما يكون من جهة التجارب والعادات، وذلك ما يعرف في الطب من منافع الأدوية ومضارها، وما أشبه ذلك، وهذا النوع من المعرفة خاص بالماديات.

الرابع: ما يكون من جهة الإلهام في بعض الناس، وقد مثَّل له أبو منصور البغدادي فقال:

«وأما المعلوم بالإلهام على التخصيص فكالعلم بذوق الشعر، وأوزان أبياته في بحوره، وقد يعلمُ هذا الوزنَ أعرابي بوّال على عقبيه، ويذهب عن معرفته حكيم يعرف قوانين أكثر العلوم النظرية، وقد احتالَ أهلُ العروض في استنباط أصول عرفوا بها أوزان بحور الشعر، غير أن الشعر قد طُبع على ذوق من لم يعرف العروض، ولا القياس في بابه، وما ذاك إلا تخصيص من الله تعالى له به، وكذلك العلم بصناعة الألحان غير مستنبط بالقياس، ولا مُدرك بالضرورة التي يشترك فيها العقلاء، ولكنها من الخصائص التي يعلمها قوم دون قوم»[1].

وبعد: فأي هذه الطرق يكون سبيلاً إلى المعرفة في العقيدة الإسلامية؟

لا شكَّ أن سبيل الإلهام لا مجال لإثبات شيء عن طريقه في أمور العقيدة إلا إذا صدر من الرسول ﷺ؛ لأنه قد علم صدقه، وأخبر أنه قد أُلهم ذلك، أو أوحي إليه به، فينتقل هذا عند ذلك إلى قسم ما يثبت بالخبر، وهو ما نتحدث عنه عما قريب، قال في شرح جمع الجوامع ما ملخصه:

«مسألة: الإلهام إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر، يخصُّ به الله تعالى بعضَ أصفيائه، وليس بحجة لعدم ثقة من ليس معصوماً

---

(١) أصول الدين لأبي منصور الإسفراييني (ص ١٥).

بخواطره خلافاً لبعض الصوفية في قوله: إنه حجة في حقه، أما المعصوم كالنبيِّ ﷺ فهو حجة في حقه وحق غيره إذا تعلَّق بهم كالوحي»[1].

فإذا أسقطنا من حسابنا هذا الدليل ـ دليل الإلهام ـ بقي لدينا ثلاثة طرق للوصول إلى الحقيقة، وهي: الخبر الصادق، التجربة، العقل.

فما هو المنهج الذي سلكه علماء الإسلام للوصول إلى الحقيقة عن طريق هذه الأدلة الثلاثة؟

ب ـ المنهج الذي سلكه علماء الإسلام للوصول إلى الحقيقة:

إن المنهج الذي وضعه علماء المسلمين، قد صاغوه في قاعدة عظيمة هي: إن كنت ناقلاً فالصحة، أو مدعياً فالدليل، إذ إن القضية التي يُراد إثباتها، والتي هي موضوع البحث، لا تخلو من أن تكون إما خبراً منقولاً، أو دعوى يدعيها الإنسان من عنده من غير أن ينقلها عن قوم آخرين.

فإن كانت القضية خبراً فينبغي أن يكون البحث محصوراً في تحقيق النسبة بين الناقل وبين مصدر الخبر. فإذا ما ثبتت صحة النقل، وزالَ الشك تحقَّق لدينا مضمون الخبر، وأصبح لدينا حقيقة علمية معينة، بشرط أن يكون ذا دلالة قطعية.

وإن كانت القضية المدعاة دعوى يدعيها الإنسان من عنده، فإن البحث ينبغي أن يتجه إلى الأدلة العلمية المنسجمة معها، والتي من

---

(١) شرح الجوامع (٢/ ٢٩٠).

شأنها أن تكشف عن مدى صدق هذا الادعاء.

ولكل نوع من الدعاوى نوع من الأدلة يتناسب معه، لا يستدل بغيره عليه، فالدعاوى المتعلقة بطبائع الأشياء المادية لا تثبت إلا بالبراهين العلمية التجريبية المحسة، والدعاوى المتعلقة بالمجردات كالنفس، والعقل، والمنطق، لا يقبل معها إلا براهينها القانونية المسلّمة. والدعاوى المتعلقة بالحقوق والأصول المدنية لا ينفع معها إلا البينات والحجج المتفق على ضرورة ارتباطها بها، وهكذا لا تُصبح الدعوى حقيقة علمية ثابتة إلا بعد أن يقترن بها دليلها الذي يناسبها، فالدليل الذي قد يُساق إلى الدعوى، ليست له أية قيمة علمية ما لم يكن بينه وبين الدعوى انسجام في الطبيعة والنوع.

إذا عرفت هذا؛ فما هو المنهج العلمي الذي وضعه علماء الإسلام لتحقيق النسبة بين الخبر ومصدره، ولتحقيق القيمة العلمية في الدعوى على النحو الذي مرَّ؟.

أولاً ـ المنهاج الذي اتخذه علماء الإسلام للتحقق من صدق الخبر:

لقد وضع العلماء المسلمون لتحقيق ذلك فنوناً ثلاثة:

أحدها: فن مصطلح الحديث.

الثاني: فن الجرح والتعديل.

الثالث: فن تراجم الرجال.

حيث تلتقي هذه الفنون الثلاثة على وضع ميزان دقيق يتضح فيه الخبر الصحيح من غيره، والفرق بين الخبر الصحيح الذي

يُورث الظن، والخبر الصحيح الذي يُورث اليقين.

لقد قسَّم علماء المصطلح الخبر من حيث الصحة وعدمها إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: الخبر الصحيح، وهو الخبر الذي يرويه العدل الضابط عن مثله حتى يصلَ إلى المصدر الأول لهذا الخبر بشرط ألا يكون فيه شذوذ ولا علة.

والشذوذ: هو أن يخالف الثقة في الرواية من هو أوثق منه.

والعلة: هي مرض خفي في السند لا يطَّلع عليه إلا جهابذة الأطباء في علم الحديث.

القسم الثاني: الخبر الحسن، وهو الخبر الذي عرفت طرقه، وصحت، وتناقله العدل الضابط عن مثله، إلا أن رجاله لم يشتهروا اشتهار رجال الخبر الصحيح.

القسم الثالث: الخبر الضعيف، وهو الخبر الذي لم يستجمع شروط الصحة، ولا شروط الحسن؛ بأن فقد وصفاً أو أكثر من أوصاف الحديث الصحيح، أو الحسن.

القسم الرابع: الخبر الموضوع، وهو ما نُسب إلى مصدره كذباً واختلاقاً، وهو في الحقيقة ليس نوعاً من أنواع الحديث.

وبناء على هذا فما كان موضوعاً، أو ضعيفاً فلا يُلتفت إليه في بناء الأحكام عليه، وما كان حسناً فإنه يستفاد منه في استنباط الأحكام الفقهية الفرعية، وأما في ميدان العقيدة فلا يصلح أن

يكون دليلاً فيها، لأن مبنى العقيدة على اليقين، والحديث الحسن لا يفيد ذلك.

وأما الخبر الصحيح: فهو الذي يكون مجالاً لأن يُستدل به في ميدان العقيدة. إلا أن الخبر الصحيح ليس كله في درجة واحدة، فإن من الخبر الصحيح ما يفيد الظن، وهو الخبر الصحيح في أول درجاته، فهذا أيضاً لا يصح الاستدلال به في شؤون العقيدة، بل يُستفاد منه، ويُعتدُّ به في نطاق الأحكام العملية، كما ذكرنا في الحديث الحسن. ومنه ما يُفيد اليقين، وهو الخبر الصحيح في أعلى درجاته، وهو ما يُسمَّى عند علماء المصطلح بالحديث المتواتر. فما هو الحديث المتواتر؟ وما هي شروط قَبوله؟

الخبر المتواتر وشروط قبوله:

الخبر المتواتر: هو نوع من أنواع الصحيح، بل هو أعلى أنواع الصحيح، ولذلك يُعرِّفه العلماء بأنه ما يرويه جمع عن جمع عن جمع وهكذا إلى أصل الخبر بحيث يستحيل تواطؤهم على الكذب، ويكون مستندهم في كل طبقة الحِسُّ من سماع أو مشاهدة. وهذا النوع من الأخبار موجب للعلم اليقيني، ولقد ذكر الإمام الغزالي في المستصفى شروطاً أربعة للمتواتر:

أحدها: أن يُخبروا عن علم لا عن ظن.

الثاني: أن يكون علمهم ضرورياً مستنداً إلى محسٍّ.

الثالث: أن يستوي طرفاه وواسطته في هذه الصفات، وفي كمال العدد.

الرابع: العدد، وقد ذكرنا في تعريف المتواتر: أنه يشترط فيه العدد الذي يستحيل تواطؤهم على الكذب.

وبناء على هذه الشروط قال الإمام الغزالي: فإذا نقلَ الخلفُ عن السلف، وتوالت الأعصار، ولم تكن الشروط قائمة في كل عصر، لم يحصل العلم بصدقهم؛ لأن خبر أهل كل عصر خبر مستقل بنفسه، فلا بدّ فيه من الشروط، ولأجل ذلك لم يحصل لنا العلم بصدق اليهود ـ مع كثرتهم في نقلهم عن موسى صلوات الله عليه ـ تكذيبَ كل ناسخ لشريعته، ولا بصدق الشيعة، والعباسية، والبكرية في نقل النص على إمامة علي أو العباس، أو أبي بكر رضي الله عنهم، وإن كثر عدد الناقلين في هذه الأعصار القريبة؛ لأن بعض هذا وضعه الآحاد أولاً، ثم أفشوه، ثم كثر الناقلون في عصره، وبعده، والشرط إنما حصل في بعض الأعصار فلم تستو فيه الأعصار. ولذلك لم يحصل التصديق، بخلاف وجود عيسى عليه السلام وتحديه بالنبوة، ووجود أبي بكر وعلي رضي الله عنهما، وانتصابهما للإمامة، فإن كل ذلك ما تساوت فيه الأطراف والواسطة، حصل لنا علم ضروري لا نقدر على تشكيك أنفسنا فيه، ونقدر على التشكيك فيما نقلوه عن موسى وعيسى عليهما السلام، وفي نص الإمامة[1].

هذا ولقائل أن يقول: من أين للباحث أن يعلم شروط الخبر الصحيح، فإنه قد يرى سلسلة الرواية، فكيف يستطيع أن يعلم

---

(١) المستصفى للإمام الغزالي (١/ ٨٦ ـ ٨٧).

اتصال هؤلاء الرواة بعضهم ببعض، وأنهم جميعاً عدول ثقات ضابطون؟

والجواب عن هذا أن نقول: إن كلاً من علمي الجرح والتعديل، وتراجم الرجال إنما وضعا تذليلاً لسبيل هذا البحث، وتيسيراً للاطلاع على الواقع الذي ينبغي الوقوف عليه.

وفي المكتبة الإسلامية مؤلفات كثيرة تُعنى بهذا الشأن؛ كتهذيب التهذيب لابن حجر، وميزان الاعتدال للحافظ الذهبي، وكتاب الثقات للإمام أبي حاتم محمد بن حبان البستي، وتذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي، وكتاب الضعفاء للبخاري، ولسان الميزان لابن حجر، والجرح والتعديل لأبي حاتم الرازي، والكمال في أسماء الرجال للحافظ المقدسي، وتهذيب الكمال للحافظ المِزّي، إلى غير ذلك من الكتب الكثيرة التي لا يُحصيها العدّ.

والغريب في ذلك: أن هؤلاء الأئمة المؤلفين في هذه الفنون، والذين عكفوا على جمع تراجم الرجال ـ وهم أئمة ثقات ـ لم يُبالوا في سبيل البحث عن الحقيقة واحترام الميزان العلمي أن يضعوا النقاط على حروفها في وصف الرجال وصفاً دقيقاً، سواء انتهى بهم البحث إلى الجرح والتحذير من المجروح، أم إلى التعديل والتوثيق. ومن الجدير بالذكر: أن الفقهاء لم يعدوا هذا التجريح من الغيبة المحرَّمة، بل عدوه واجباً صيانة للدين، وحفاظاً على الحقائق، واحتراماً لمنهج العلم الصحيح.

ثانياً ـ المنهاج الذي رسمه علماء الإسلام للتحقق من صحة الدعوى:

الدعوى التي يدعيها المدعي إما أن تكون أمراً يتعلق بموجود مادي، وإما أن يتعلَّق بأمر تجريدي أو غيبي.

أما ما يتعلَّق بأمر موجود ماديّ فلا بدّ من الاعتماد فيه على شواهد وبراهين من التجربة والمشاهدة، إذ هو الوسيلة الطبيعية إلى الإدراك اليقيني في مثل هذه الأمور.

وعلماء الإسلام بل الإسلام نفسه لا يتردد مطلقاً في الأخذ بما يثبت تحقيقاً عن طريق التجربة.

والإسلام عندما بيَّن للإنسان أن هذا الكون بما فيه مسخر لمنفعته، ومذلل للاستفادة منه، كان هذا أعظم دافع لأن يبحث في أي شيء في هذا الكون لينتفع به، وهذا لا يتم إلا عن طريق التجربة والمشاهدة. قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

وقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

وقال جل جلاله: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

فالنصوص القرآنية الآنفة الذكر وغيرها من النصوص التي تتحدث عن التسخير، تحمل في طياتها دعوة صريحة إلى التجربة، والاستفادة من هذا الكون، إذ إن الاطلاع على ما أُودع في هذا الكون لهو أعظم دافع إلى الإيمان بخالقه جلَّ وتعالى.

ولقد أثنى الله سبحانه على العلماء الذين يتعمَّقون في معرفة هذا الكون، ويطَّلعون على مكنوناته وخباياه، ويصلون إلى معرفة أسراره وخفاياه، وعدّهم أنهم وحدهم هم الذين يخشون الله حقَّ خشيته، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧ - ٢٨].

إن القرآن الكريم أشار إلى حقائق كونية، ولم يُفَصِّل القول فيها ليدفع هذا الإنسان إلى الوصول إليها عن طريق التأمل، والتفكر، والتجربة، ليكون نهاية مطافه الإيمان بخالق هذا الكون ومبدعه، ثم الإيمان بقدرته وحكمته، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

هذا ومع أن القرآن الكريم قد تحدَّث عن بعض الحقائق الكونية وطلب من الناس أن يُفكِّروا، ويتأملوا، ويجربوا حتى يصلوا إلى معرفة هذه الحقائق، لم نر إلى الآن أنه قد ظهرت حقيقة علمية ثابتة تُخالف وتعارض أي قضية من القضايا التي نصَّ عليها القرآن،

سواء أكان ذلك في ميدان العقيدة أم غيرها، لأن من القواعد العقلية الثابتة: «أن الحقائق لا تتعارض».

ولئن بدا عند بعض الباحثين: أن هناك تعارضاً بين ما جاء به العلم وما جاء به الدين؛ فإن مردّ ذلك إلى واحد من ثلاثة أسباب:

أحدها: أن يكون الشيء الذي يدعي صاحبه أنه علم، لم يصل بعد إلى مرحلة العلم المقطوع به الثابت بالأدلة اليقينية، كالنظريات التي لم تتأكد بعد، والتي ما زالت رهن البحث والنظر، أو التي لا سبيل إلى إثباتها بأدلة علمية يقينية؛ وإن اعتقد بعض العلماء أنها علم، لعدم وجود ما هو الأقوى منها في نظرهم.

الثاني: أن يكون هذا الشيء الذي نُسب إلى الدين، لم يصل بعد إلى درجة القطع في نقل النص الذي تضمن هذا النوع.

الثالث: أن يكون الفهم الذي فُهم به النص الديني فهماً مخطئاً، وهذا النوع لا يتحمل النص الديني وزره، وإنما يعبر عن رأي من فهمه على هذا الوجه المخالف للحقيقة العلمية؛ التي توصلت إليها الوسائل الإنسانية، وذلك كمسألة كروية الأرض، ودورانها حول نفسها وحول الشمس، وما إلى ذلك.

هذا فيما يتعلق بأمر مادِّي من الدعاوى.

وأما ما يتعلَّق من الدعاوى بأمر تجريدي، أو غيبيّ غير خاضع لشيء من الحواس الظاهرة، فمنه ما نجد في القرآن الكريم أو السنة المتواترة نصاً واضحاً فيه، ومنه ما لا نجد في شيء منهما نصاً واضحاً عنه.

فأما المنصوص عليه في أحدهما: فهو داخل بذلك في المدركات اليقينية، وسبيل اليقين فيه: أنه من حيث نقل الكتاب أو السنة له يرجع إلى الخبر اليقيني المتواتر، إذ إن القرآن الكريم هو اللفظ الموحى به إلى محمد ﷺ والواصل إلينا عن طريق التواتر، فلا شكَّ أن قرآنية ألفاظه متواترة مقطوع بها، ومثل القرآن في ذلك السنة المتواترة.

وأما من حيث صدق ما تضمَّنه القرآن نفسه؛ فتلك مسألة أخرى مردُّها إلى التحقيق في ظاهرة الوحي، وإقامة البراهين العلمية اليقينية، وهذا ما نتحدث عنه عند التحدث عن النبوات.

ومعنى هذا أن النصوص القطعية الثابتة في الكتاب أو السنة تعطينا يقيناً بمضمونها عندما نتحقق بالبرهان القطعي صدق النبي بأن هذه الأخبار وحي من عند الله عز وجل.

هذا ولا بد من التنبيه هنا على أن هذا القسم الذي ورد فيه نصوص قطعية الثبوت وقطعية الدلالة، لم يهمل علماء المسلمين البحث فيه عن طريق العقل والفكر المجرد، لا لأنهم يشكُّون في صدق هذا الطريق، بل إنما فعلوا ذلك من أجل أن يشقوا إلى اليقين طريقاً آخر من البحث، إلى جانب ثبوت ذلك عن طريق الخبر الصادق المتواتر.

وهكذا يسلكُ الفكر الإسلامي إلى الإيمان بوجود الله ووحدانيته وما يتعلَّق بذلك مسلكين، كلاهما منهج علمي صحيح.

أما المسلك الأول: فيبدأ بمرحلة البحث عن ظاهرة الوحي، فإذا تجاوزها، ثنَّى بمرحلة البحث في صحة النقل وتوافر مقومات

اليقين فيه، فإذا تجاوزها استيقنَ الأمر وصدَّقه لصدق كل مقدماته.

وأما المسلك الثاني: فيستعجل الطريق، فيبحث في الأمر على هدي من الفكر المجرد والبراهين العقلية المحضة، دون أن ينطلق بذهنه إلى النبوة وحقيقتها، والقرآن وصدقه.

وكلا المسلكين ينتهيان بالباحث إلى اليقين، بل إنهما ليلتقيان أخيراً ليشد كلٌّ منهما من أزر الثاني.

وأما ما لم يتعرض له الخبر المتواتر اليقيني بأي نص واضح صريح:

فسبيل معرفة الحق فيه منحصرة بالنظر العقلي وحده، وقبل أن نتحدث عن ذلك يجب علينا أن نبين الحقائق التالية:

أولاً: معنى العقل، والفكر، والنظر:

يُولد الإنسان وليس عنده شيء من المعرفة والعلم، فهو من هذه الناحية صحيفة بيضاء لم يكتب عليها معلوم ما.

ويُولد وليس لديه سوى مجموعة من الغرائز كالخوف وحب البقاء، وسوى مجموعة من الحواس التي هي: السمع، والبصر، والذوق، والحس، والشم. ولكنه إلى جانب ذلك مزود بقوة عظيمة مدركة ـ هي العقل ـ تلك القوة التي اختص الله بها الإنسان من بين مخلوقاته، وفضَّله بها على كثير مِمَّن خلقه تفضيلاً.

ولقد أوضح الله ذلك في كتابه العزيز، قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]. وقال

سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٦ ـ ٩].

إن قوة العقل تبدأ عملها بإدراك الأشياء عن طريق الحواس، وتختزن صورها في خزانة خاصة إلى وقت الحاجة إليها، وعندما يتطلب معرفة مجهول يأتي إلى هذه المعلومات المختزنة، فيرتبها ترتيباً خاصاً، ويتوصل بها إلى معرفة ذلك المجهول مفرداً كان ـ وهو التصور ـ، أو نسبة ـ وهو التصديق ـ فهذا الترتيب هو التفكير.

فالتفكير إذاً هو: ترتيب أمور معلومة للتوصل بها إلى مجهول تصوري أو تصديقي.

وإرادة العقل وتطلبه لاستخراج هذا المجهول هو ما يسمى: «النظر» ولهذا قيل للعلوم التي تُستخرج عن طريق التفكير والبحث «العلوم النظرية». ومن هذا نفهم أن أي مجهول نتوصل إلى معرفته، فمنطلق البحث فيه عن طريق الحواس التي جعلها الله سبيلاً للمعرفة عند الإنسان.

قال ابن حزم ما ملخصه: لا طريق إلى العلم أصلاً إلا من وجهين:

أحدهما: ما أوجبته بديهة العقل وأوائل الحس، والثاني: مقدمات راجعة إلى بديهة العقل وأوائل الحس، ذلك أن الطفل حين يُولد يكون لا علم عنده ولا تمييز لديه، إلا ما يشارك فيه الحيوان والنوامي جميعاً، مما ليس حيواناً من طلب الغذاء لبقاء

جسمه على ما هو عليه، ولنمائه، فيأخذ الثدي ويميزه بطبعه غريزياً من سائر الأعضاء بفمه دون سائر أعضائه، كما تأخذ عروق الشجر والنبات رطوبات الأرض والماء لبقاء أجسامها على ما هي عليه، ولنمائها.

ثم يتحدث رحمه الله عن إدراك الحواس: فيقول: أول ما يحدث لها من التمييز الذي ينفرد به الناطق من الحيوان فهم ما أدركت بحواسها الخمس، كعلمها: أن الرائحة الطيبة مقبولة من طبعها، والرائحة الرديئة منافرة لطبعها، وكعلمها: أن الأحمر مخالف للأخضر، والأصفر، والأبيض، والأسود، وكالفرق بين الخشن، والأملس، والمكتنز، والمتهيل، واللزج، والحار، والبارد، والدافىء، وكالفرق بين الحلو، والحامض، والمر، والمالح، والعفص والزاعق، والتفه والعذب والحِرّيف، وكالفرق بين الصوت الحادّ، والغليظ، والرقيق، والمطرب، والمفزع.

(قال أبو محمد): فهذه إدراكات الحواس لمحسوساتها، والإدراك السادس علمها بالبديهيات، فمن ذلك علمها بأن الجزء أقل من الكل، فإن الصبي الصغير في أول تمييزه إذا أعطيته تمرتين بكى، وإذا زدته ثالثة سرّ، وهذا علم منه بأن الكل أكثر من الجزء، وإن كان لا ينتبه إلى تحديد ما يعرف من ذلك، ومن ذلك: علمه بأنه لا يجتمع المتضادان، فإنك إذا وقفته قسراً بكى ونزع إلى القعود، علماً منه بأنه لا يكون قائماً قاعداً معاً. ثم أخذ رحمه الله يضرب أمثلة على البديهيات، من ذلك: «أن الجسم لا يكون في آن واحد بمكانين، وأن المكان الواحد لا يكون فيه جسمان، وعلمه

بأن الغيب لا يعلمه أحد، وهكذا».

ثم قال رحمه الله: «فهذه أوائل العقل التي لا يختلف فيها ذو عقل، وهاهنا أيضاً أشياء غير ما ذكرنا، إذا فتشت وجدت، وميزها كل ذي عقل من نفسه ومن غيره، وليس يدري أحد كيف وقع العلم بهذه الأشياء كلها بوجه من الوجوه، ولا يشك ذو تمييز صحيح في أن هذه الأشياء كلها صحيحة لا امتراء فيها».

ثم قال رحمه الله: «فصحَّ أنها ضرورات أوقعها الله في النفس، ولا سبيل إلى الاستدلال البتة إلا من هذه المقدمات، ولا يصح شيء إلا بالرد إليها، فما شهدت له مقدمة من هذه المقدمات بالصحة فهو صحيح متيقن، وما لم تشهد له بالصحة فهو باطل ساقط»[1].

ثانياً: موقف الإسلام من الفكر والنظر:

إن الإسلام هو الدين الذي أعظم من شأن العقل، وعدّه أداة صالحة لتعرف الحقائق، وفي رأسها الإيمان بالله وقدرته ووحدانيته، وهو الدين الذي طلب من الإنسان ألا يؤمن بشيء إلا إذا دعمه الدليل والبرهان، ولذلك دعا إلى إعمال العقل والتفكير به، وذم الذين يُهملون عقولهم، ويعطلون نعمة الله فيهم، ويلوذون بتبعية أو تقليد من غير تفكير ولا نظر، وإنك لتجد ذلك واضحاً في الأمور التالية:

آ ـ لقد طلب القرآن الكريم من الإنسان أن يفكر فيما يُدعى

---

(١) انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل؛ لابن حزم (١/ ٤ ـ ٧).

إليه، إما منفرداً بنفسه، وإما مجتمعاً مع أناس آخرين. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٦].

ب ـ لقد امتدح القرآن الكريم المفكرين، ووصفهم بأنهم هم أرباب العقول، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١].

جـ ـ لقد عدّ القرآن الكريم الذين لا يفكرون فيما يُلقى إليهم، ولا يعملون فيه عقولهم؛ عدَّهم كالبهائم. قال الله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

د ـ لقد ذمَّ القرآن الكريم التقليد الأعمى ـ وهو أن تتبع غيرك من غير وعي ولا تفكير ـ فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠]. وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ

﴿يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

وفي الحديث: «لا تكونوا إمّعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسنَ الناس أن تُحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا»[1] والإمعة: الذي يتابع كل ناعق، ولا رأي له.

هـ ـ لقد نهى القرآن الكريم الإنسان أن يتبع شيئاً ويؤمن به من غير أن يكون له على صحته دليل ساطع وبرهان مقنع يصل به إلى درجة العلم واليقين، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

مسالك النظر العقلي فيما لم يتعرض له الخبر اليقيني:

بعد أن علمنا موقف الإسلام من التفكير والنظر نقول: ما هي مسالك النظر العقلي في الأمور الغيبية، أوالتجريدية مما هو غير خاضع للحس، والمشاهدة، والتجربة، ولم يتعرض له الخبر اليقيني؟

إن مسالك النظر العقلي تتحقق في مسلكين اثنين:

المسلك الأول: ما يسمونه بدلالة الالتزام.

ودلالة الالتزام: هي أن يطَّردَ ترابط بين شيئين بحيث عندما تتصور أحدهما تتصور الآخر.

وسبيل الاستفادة من هذا البرهان يكون: بأن تتأمل في ظاهرة

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة (٢٠٠٨).

ما تشاهدها أمامك، فإن رأيت عن طريق الاستقراء أن تلك الظاهرة تستلزم حقيقة معينة، كان من الطبيعي في ميزان العقل أن تؤمن بها، ولو لم تجدها ماثلة أمام عينيك، فإن الذي يشاهد مقاعد مصفوفة على شكل معين، لا بدّ وأن يعلم أن هناك صافّاً وضعها على هذا الشكل، ولو لم يُبصر اليد التي صفَّتْها. إلا أن دلالة الالتزام لا تفيد اليقين دائماً، ولذلك قسَّم العلماء دلالة الالتزام إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: اللازم البين بالمعنى الأخص، وهو ما يلزم فيه من تصوُّر الملزوم تصور اللازم، والجزم به، وذلك كدلالة اللفظ المنبعث من شخص في الظلام، أو من وراء حاجز على وجود كائن حي، فإن قوة اللزوم بينهما تجعل العقل يتصور الكائن الحي بمجرد سماع اللفظ، دون حاجة إلى التفكير في الرابطة بينهما.

القسم الثاني: اللازم البين بالمعنى الأعم، وهو ما يلزم فيه تصور الملزوم واللازم الحكم باللزوم، وذلك كدلالة الإنسان على قابلية العلم وصنعة الكتابة، فإنه يحكم باللزوم من بعد تصور كل من الملزوم ـ الإنسان ـ واللازم ـ قابلية العلم وصنعة الكتابة ـ.

وقد مثَّل الخبيصي في شرحه على تهذيب السعد بانقسام الأربعة بمتساويين، فإنه لا يلزم من تصور الأربعة فقط تصور الانقسام، لكن يلزم من تصور الأربعة وتصور الانقسام جزم العقل باللزوم بينهما.

القسم الثالث: اللازم غير البين، وهو ما لا يكفي فيه تصور الملزوم، وتصور اللازم للحكم باللزوم، بل لا بدّ فيه من دليل آخر

على هذا الترابط، وذلك كالحكم بأن زوايا المثلث تساوي قائمتين، فإن العقل لا يجزم بتلك الملازمة لكل مثلث، ما لم يطَّلِع على برهان آخر مثبت له.

فأقوى الأقسام في الدلالة وقوة البرهان القسم الأول: «اللازم البين بالمعنى الأخص» ويليه القسم الثاني، حتى إن بعضهم لا يعده دليلاً مستقلاً.

أما القسم الثالث «اللازم غير البين» فهو باستقلاله لا يعد برهاناً؛ لأنه هو نفسه يحتاج إلى برهان ودليل عليه، ولكنه يعدّ جزءاً من دليل يتكامل بضم برهانه إليه.

المسلك الثاني: القياس، وهذا القياس الذي هو برهان يقيني ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: القياس المنطقي:

والقياس المنطقي: قول مؤلف من قضايا يلزم من الإذعان إليها الإذعان بشيء آخر، ولا يكون هذا القياس مفيداً لليقين إلا إذا كانت مقدماته يقينية. فإذا قلت: العالم متغير، وكل متغير حادث، لزم أن تذعن يقيناً: أن العالم حادث، وإذا قلت: إذا كانت الشمس طالعة فالنهار موجود، لكن الشمس ليست بطالعة، لزمك أن تذعن يقيناً بأن النهار ليس بموجود.

واليقينيات التي تتألف منها الأقيسة عدّ لها العلماء أصولاً ستة:

الأصل الأول: الأوليات، وهي القضايا التي يحكم فيها العقل بمجرد تصور الطرفين ولا يتوقف على واسطة، كقولك: الواحد نصف الاثنين، والكل أعظم من الجزء، فإن هذين الحكمين

لا يتوقفان على واسطة. ولقد ذكر الإمام الغزالي أن هذه القضايا الأولية تصادف مرتسمة في العقل منذ وجوده، حتى يظن العاقل أنه لم يزل عالماً بها، ولا يدري متى تجدد، ولا يقف حصوله على أمر سوى وجود العقل.

الأصل الثاني: المشاهدات، والمحسوسات، وهي القضايا التي يحكم بها الحس، كقولنا: الشمس مشرقة، والنار محرقة.

الأصل الثالث: التجريبيات، وهي التي يحتاج العقل في الجزم بها إلى تكرير المشاهدة مرة بعد أخرى، ويعبر عنها بـ«اطراد العادة» وذلك كقولك: الخبز مشبع، الحجر يهوي إلى أسفل، النار صاعدة إلى فوق، السَّقَمُونِيا[1] مسهل للصفراء.

الأصل الرابع: الحدسيات: وهي التي يحكم فيها العقل بواسطة، لا بمجرد تصور الطرفين، كقولنا: نور القمر مستفاد من نور الشمس، فإن هذا الحكم بواسطة مشاهدة تشكلاته المختلفة، بحسب اختلاف أوضاعه من الشمس قرباً وبعداً، والحدس: سرعة انتقال الذهن من المبادىء إلى المطالب.

الأصل الخامس: المتواترات، وهي التي يحكم فيها العقل بواسطة السماع عن جمع كثير، لا يجوز العقل توافقهم على الكذب، وذلك كقولنا: سيدنا محمد ﷺ دعا النَّاسَ للإيمان

---

(١) في القاموس: السقمونيا: نبات يستخرج من تجاويفه رطوبة دبقة وتجفف، وتدعى باسم نباتها أيضاً، مُضَادَّتُها للمعدة والأحشاء أكثر من جميع المسهلات.

برسالته، وظهرت المعجزة على يده. وقد تحدَّث الإمام الغزالي عن هذا الأصل فقال: «فإن هذا أمر وراء المحسوس، إذ ليس للحس إلا أن يسمع صوت المخبر بوجود مكة، وأما الحكم بصدقه فهو للعقل، وآلته: السمع، ولا مجرد السمع بل تكرر السماع. ولا ينحصر العدد الموجب للعلم في عدد، ومن تكلَّف حصر ذلك فهو في شطط، بل هو كتكرر التجربة، ولكل مرة في التجربة شهادة أخرى، إلى أن ينقلب الظن علماً، ولا يشعر بوقته، فكذلك التواتر»[١].

الأصل السادس: النظريات، وهي القضايا المجهولة المكتسبة من المعلومات بطريق الكسب والنظر، كحكم العقل بحدوث العالم، المكتسب من قولنا: العالم متغير، وكل متغير حادث[٢].

هذا ولأن مرجع الأصل السادس إلى الأصول الخمسة السابقة، لم يعدّه الإمام الغزالي، إلا أنه قد أضاف إلى ما ذكر أصلاً آخر وهو: «المشاهدات الباطنية». قال: «وذلك كعلم الإنسان بجوع نفسه، وعطشه، وخوفه، وفرحه، وجميع الأحوال الباطنة التي يُدركها من ليس له الحواس الخمس، فهذه ليست من الحواس الخمس، ولا هي عقلية، بل البهيمة تُدرك هذه الأحوال من نفسها بغير عقل»[٣].

---

(١) المستصفى، للغزالي (١/ ٣٠).

(٢) انظر حاشية العطار على الخبيصي (٢/ ٢١٠ فما بعدها).

(٣) المستصفى، للغزالي (١/ ٢٩).

وهذا الذي ذكره الإمام الغزالي وإن كان من مدارك اليقين، إلا أنه لا يمكن أن يدخل في بناء الأقيسة التي تقام لإثبات الدعوى لدى الخصم؛ لأن المشاهدات الباطنية أمور قاصرة على من يُحِسُّ بها، ولا يمكن جعلها جزءاً من دليل يقام على الخصم.

والقياس المنطقي أنواع:

أحدها: القياس الحملي: وهو ما تركَّب من الجمل الحملية أي: التي تألفت من موضوع ومحمول، وذلك كقولك: كل جسم مؤلف، وكل مؤلف محدث.

الثاني: القياس الشرطي: وهو ما كانت المقدمتان فيه شرطيتين أو إحداهما، تقول: إن كانت الشمس طالعة فالنهار موجود، وكلما كان النهار موجوداً فالأرض مضيئة، ينتج: إن كانت الشمس طالعة فالأرض مضيئة.

الثالث: القياس الاستثنائي: وهو ما كانت النتيجة أو نقيضها مذكورة فيه بمادتها وهيئتها، وذلك كقولك: إن كانت الشمس طالعة فالنهار موجود، لكن الشمس طالعة، فالنهار موجود، أو لكن الشمس ليست بطالعة، فالنهار ليس بموجود. وكقولك: هذا العدد إما زوج، وإما فرد، لكنه ليس بزوج فهو فرد.

هذا ولكل هذه الأقيسة كي تنتج نتيجة صحيحة أشكال وشروط تذكر في كتب المنطق[1].

---

(١) انظر كتاب الخبيصي على التهذيب، وحاشية الباجوري عليه، وانظر المستصفى للإمام الغزالي رحمه الله تعالى (١/ ٣١).

القسم الثاني: القياس الأصولي:

وهو القياس الذي اصطلح عليه علماء أصول الفقه الإسلامي، وعلماء أصول الدين، بعد أن استلهموه من كتاب الله عز وجل.

وقد عرف في كتب أصول الفقه بأنه: إلحاق أمر بأمر في الحكم لاشتراكهما في علة الحكم.

وهذا المنهج القياسي يتلخص في استخراج علة الشيء أو سببه، ثم تلمُّس ذلك فيما يشبهه من الأشياء المجهولة، حتى إذا استيقن الباحث اشتراك كل من المعلوم والمجهول في علة واحدة، قاس الثاني على الأول في حكمه المنبثق من تأثير هذه العلة.

وتقوم فكرة القياس على مبدأين اثنين، كل منهما من المسلمات العقلية التي لا تحتاج إلى برهان عليها.

المبدأ الأول: قانون العِلِّيَّة، أي: إن لكل معلول علة، ولكل أثر مؤثراً.

المبدأ الثاني: قانون التناسق والنظام في العالم، أي: إن المظاهر الجزئية للكون وإن اختلفت أشكالها، فإنها ترتبط بعلل كلية، من شأنها أن تثبت التناسق والانسجام فيما بينها، ومهما أوغلت في التدقيق بطبائع هذه العلل رأيتها تتجمع أخيراً في أقل عدد من العلل والأسباب.

وإنما ينقدح القياس من هذين المبدأين أيضاً بواسطة الاستقراء، إذ هو يبصِّر الباحث بحقيقة العلة، ثم هو الذي يمكن بواسطته إدراك العلاقات الثابتة الكلية بين الأشياء المتناثرة، أو المختلفة في الظاهر، وهكذا نلاحظ: أن الاستقراء التام شرط

أساس لا بدّ منه لكل من برهاني التلازم والقياس.

والاستقراء: هو تتبع جزئيات ما ادعيت أنه علة لأمر معين، فتجده لا ينفك عن إنتاج معلوله.

وذلك بأن تتأمل العلاقة بين العلة والمعلول، فترى بينهما ظاهرة الاطراد والانعكاس، أي: كلما وجدت العلة وجد المعلول، وكلما فقدت العلة فقد المعلول، ثم تُمعن النظرَ بعد ذلك في العلة فتراها مؤثرة في المعلول ـ أي: هي سبب له ـ بالبرهان اليقيني، إذ قد يكون هذا الاطراد أو الانعكاس لمحض المصادفة، أو لعامل آخر.

وبهذا نعلم: أن شرط هذا القياس ـ أي: في بناء العقيدة والقضايا اليقينية ـ هو أن تكون العلة مؤثرة ـ أي: مسببة ـ في المعلول، وأن تكون مطردة ومنعكسة، وأن تكون منضبطة واضحة غير مضطربة[1].

قال الإمام الغزالي رحمه الله بعد كلام طويل: «فثبت بهذا: أن الاستقراء إن كان تاماً رجع إلى النظم الأول، وصلح للقطعيات» ويعني بالنظم الأول: ما ذكره سابقاً من أن العلة فيه تكون أخص من الحكم أو مساوية له[2].

---

(١) انظر كتاب كبرى اليقينيات الكونية، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي (ص ٣٩).

(٢) انظر المستصفى، للغزالي (١/ ٣٢ ـ ٣٣).

منهج البحث عند الغربيين:

فيما مضى تحدثنا عن منهج البحث عند المسلمين، وفيما يلي نتحدث عن منهج البحث عند الغربيين. ونحن نسير في بحثنا هذا على الطريقة نفسها التي تحدثنا بها عن منهج البحث عند المسلمين.

فنقول: إن المراد إثباته إما أن يكون خبراً يراد تحقيقه، وإما أن يكون دعوى يراد التأكد من إثباتها. ونبدأ بالأول منهما فنقول:

آ ـ منهج تمحيص النقول والأخبار:

لا بدّ لنا من التساؤل ما هو المنهج الذي وضعه الغربيون لتمحيص الأخبار؟

وللإجابة عن هذا التساؤل نقول: إننا لسنا بحاجة إلى أن نُجهد الفكر كثيراً بالتأمل في الجواب، فالواقع: أن المنهج الغربي خالٍ إلى الآن من أي ميزان موضوعي لتحقيق كل ما يتعلّق بالرواية والنقل.

هنالك ما يسمونه بالمنهج الاستردادي، أو منهج التوسُّم، عمدته الأولى: ما قد يتمتع به الباحث من عمق الملاحظة، ودقة الوجدان، واتساع دائرة الخيال، والأداة التي يستخدم بها الباحث ملاحظته، ووجدانه، وخياله في كل ما قد يقع عليه من آثار، وأحداث، ووثائق. وكيفية البحث. هي أن يعكف الباحث على ما تجمَّع لديه من هذه الآثار، أو الأحداث، فيقدح فيها الملاحظة، والوجدان، والخيال، ليستنتجَ من وراء ذلك ما قد يطمئن إليه من مبادىء، وأحكام، ووقائع. وهو كما ترى منهج لا يملك أخيراً

مهما جمع من العدة والوثائق إلا سبيلاً واحداً، وهو سبيل الاستنتاج الفكري، بل الغيبي المجرد، وما كان الاستنتاج المجرد عن التجربة والمشاهدة والاستقراء التام والرواية الصادقة إلا رديف الوهم، أو الشك، أوالظن المتقلقل الضعيف. وذلك باستثناء الاعتماد على وثائق تاريخية تحمل في طيها دلالة اليقين، نظراً لما بينها وبين مصدرها من علاقة العلة بالمعلول، أو اللازم بالملزوم[1].

وإن الباحث ليسأل: ففيم عجز الفكر الغربي إلى اليوم عن اتخاذ منهج علمي بصدد تحقيق النقول، على الرغم من أهمية الأمر في ذلك، وعلى الرغم من أنه يشكل نصف المسافة إلى تحقيق كثير من القضايا العلمية المختلفة؟

والجواب: أن القيام بأعباء تحقيق النقول والروايات، يُكلِّف جهداً شاقاً وعنيفاً، دون أن يُوجد في الظاهر مردود من الكسب المادي له، وتحمّل جهد من هذا القبيل لا يكون إلا إذا وجد من ورائه دافع يتغلب في قوته على شدة هذا الجهد.

ولقد توفر هذا الدافع عند علماء المسلمين، على حين لم يتوفر شيء منه عند غيرهم. لقد آمن المسلمون بوجود الله عزّ وجل، وبنبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وبأنهم مكلفون بإقامة حياتهم على المنهج الذي بينه لهم كتاب الله وسنة رسوله، فلا جرم أنهم

---

(١) انظر مناهج البحث العلمي، للدكتور عبد الرحمن بدوي (ص ٢٠٠ فما بعدها).

مكلفون إذاً بالوقوف على كل ما قد تركه الرسول عليه الصلاة والسلام وراءه من تعاليم وإرشادات، وبالحرص كل الحرص على ألا يمتزج الواقع اليقيني المتعلق بحياته وسيرته وأقواله، بما قد يندس إليه من وهم أو كذب أو افتراء.

وهكذا فقد أوصلَهم يقينهم هذا إلى المنهج الشاقّ الدقيق الذي وضعوه ميزاناً لصدق كلِّ رواية وتاريخ، وكان عليهم أن يستهينوا بكل ما قد يكلفهم تطبيق هذا المنهج من أعباء جسام، ولولا هذا اليقين والدافع لما رأيت واحداً من علماء الحديث يقطع مئات الأميال متغرباً عن وطنه، متعرضاً للأخطار، في ظروف عسيرة شاقة، لا لشيء إلا ليلتقي بشيخ يروي حديثاً عن رسول الله ﷺ، قد يعلمه ويحفظه هذا الذي هو قادم عليه، ولكنه يُريد أن يتلقاه منه أيضاً، ويستأذنه بروايته عنه، لكي تزداد طرق هذا الحديث عنده، ويقف على كل ما قد يتوافر له من أسانيد.

إن من السهل عليك جداً أن تقرأ إسناد حديث ما من أحاديث رسول الله ﷺ، في كتاب كصحيح البخاري، وأنت متكىء على فراشك، أو جالس وراء مكتبك، ولكن من المهم أن تتبين صورة ذلك الجهد العجيب الذي بُذِل سخياً في سبيل هذين السطرين فقط من الإسناد الذي قد لا تأبه له اليوم.

من هنا نلاحظ أن كثيراً من الموضوعات العلمية، تناوله كل من الفكر الإسلامي والغربي بالبحث من طريقتين مختلفتين، إذ كان منهج تحقيق الرواية مصدراً من مصادر تفسيرها عند المسلمين، على حين كان المنهج المقابل لذلك عند الآخرين هو محض الاستنتاج.

ولنضرب مثلاً لذلك «ظاهرة الوحي» في حياة النبي ﷺ، لقد كان المنهج الذي سلكه علماء المسلمين في هذه المسألة هو:

أولاً: تحقيق الرواية، وضبط اللفظ والسند، ولقد انتهى علماء المسلمين كلهم إلى أن حديث الوحي صحيح، ورد بطرق مختلفة كثيرة، تجاوزت حد التواتر المعنوي.

ثانياً: الاستقراء التام الذي وضعهم أمام كلٍّ من دليلي الالتزام، وقياس الأولى.

وكانت النتيجة التي توصَّل إليها الفكر الإسلامي هي: اعتقاد أن الوحي إنما هو استقبال منه عليه الصلاة والسلام لحقيقة ذاتية مستقلة خارجة عن كيانه وشعوره الداخلي، وبعيدة عن كسبه، أو سلوكه الفكري، أو العلمي.

أما المنهج الذي سلكه الغربيون في ذلك فهو:

أولاً: أخذ «الوحي» على اعتباره أثراً أو حادثة مبهمة خلفها التاريخ.

ثانياً: إعمال الحدس والتخمين في استنتاج ما قد يدركه التوسُّم والوجدان والخيال من هذه الكلمة.

وكانت النتيجة التي توصَّلوا إليها في أمر الوحي على أعقاب ذلك، أن اختلفوا فيه على مذاهب متفرقة. فمنهم من انتهى إلى أن الوحي إنما هو حركة فكرية داخلية، أو نوع من الإلهام النفسي، ومنهم من زعم أنه إشراق روحي جاء عن طريق الكشف التدريجي، ومنهم من لم يجد أيَّ غضاضة في أن يقرر: أن الوحي لم

يكن أكثر من نوبات صرع كانت تنتاب الرسول عليه الصلاة والسلام بين الحين والآخر.

وليس ثمة طمع في أن يلتقي هؤلاء ومفكرو الإسلام على صراط واحد من الفهم في الأمر؛ إذ إن هؤلاء قد أسقطوا من اعتبارهم أمر الرواية والخبر، وقيمتهما العلمية سلباً وإيجاباً، أي: إنهم استجازوا لأنفسهم تجاهل الرواية الصحيحة المتواترة، كما استجازوا في الوقت نفسه اختراع تفسير لا يدعمه أيُّ خبر أو رواية صحيحة.

كما إنهم لم يلتزموا إطلاقاً بمنهج الاستقراء وما يثبته قانون الالتزام، وقياس الأولى، ولذلك جاز لهم أن يصوروا من محمد عليه الصلاة والسلام منذ اللحظة التي أوحي فيها إليه، شخصية تتناقض كلياً مع شخصيته السابقة، بل مع وقائع حياته المستمرة أيضاً، وجاز لهم أن يجعلوا منه عليه الصلاة والسلام أعظم كذاب على الله، بعد أن كان أعظم أمين وصادق مع الناس، وأن يجعلوا منه أعظم ممثل، ومخاتل، ومدجِّل، يصطنع الخوف وصفرة الوجه أمام خديجة، من أمر ما قد رأى من الوحي، مع أنه لم يكن يمارس في الواقع إلا بعض أفكار وإلهامات داخلية مجردة.

ب ـ منهج تمحيص الدعاوى العلمية:

ولننتقل بعد هذا إلى الجانب الآخر من الموضوع العلمي، فنتساءل ما هو المنهج العلمي الذي يلبي التحقيق في دعوى من الدعاوى، أو فرضية من الفرضيات، فيما تواضع عليه علماء الغرب؟

فنقول: أما تلك الفرضيات المتعلقة بالعلوم الطبيعية، فقد

استطاعت أوربا بدءاً من عصر النهضة، أن تبدع له منهجاً من التجربة والمشاهدة، تتوافر فيه كل مقومات الروعة، والدقة، وليس هذا فقط، بل إن الفكر الأوربي استطاع أن يستخدم سير الاكتشافات والاختراع، وسيلة لدعم التجربة العلمية، وشدّ أزرها، والاستفادة العظيمة منها.

غير أن أوربا بمقدار ما تقدمت صعداً في ميدان العلوم الطبيعية ومناهجها التجريبية، تخلفت في ميْدان المدركات اليقينية الأخرى، مما يدخل تحت اسم المجردات والغيبيات.

وقد كان على علمائها ومفكريها أن يسلكوا حيال هذه المدركات أحد سبيلين: إما إغلاق باب البحث والتأمل بينهم وبينها إغلاقاً تاماً محكماً، وعدّ ما وصلوا إليه من الكسب الذي نالوه من العلوم المادية الأخرى مغنياً لهم عن إنفاق أيِّ جهد فكري فيما سواه.

وإما أن يشقوا إليها منهجاً من الموضوعية والنظر العلمي المجرد، إذا كانوا لا يملكون انصرافاً عنها.

ولكي لا نظلم قلة من الباحثين، تجرَّدوا عن أمانيهم، واستقبلوا بأفكارهم شطر بحوث حرة مجردة؛ ينبغي أن نقول: إن هذا الوصف إنما ينطبق على العقلية التي تمثل أغلبية المفكرين الغربيين، وفي أغلب القضايا العلمية ذات الطابع المذكور[1].



---

(١) انظر هذا البحث في كتاب «كبرى اليقينيات»، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

الفصل الثالث

١ ـ دراسة العقيدة الإسلامية

لقد اتخذت دراسة العقيدة الإسلامية منهجين:

أحدهما: منهج القرآن الكريم، وهذا ما يمكن أن نسميه: «مذهب السلف».

الثاني: منهج الأدلة العقلية والبراهين المنطقية، وهذا ما نستطيع أن نسميه: «مذهب الخلف»، أو «منهج المتكلمين» ولكلٍّ من هذين المنهجين أسلوبه وطريقته، وإليك توضيح ذلك فيما يلي:

أ ـ طريقة القرآن الكريم:

القارىء للقرآن الكريم والمتأمل في أسلوبه ومراميه، يرى: أن القرآن الكريم اعتمد في دعوته إلى الإيمان بالله وما يتصل بذلك، على أساس فطري، فكل إنسان يكاد يكون مفطوراً على الاعتقاد بوجود إله خالق لهذا العالم، ومدبر له، وقائم على تسييره، كما سترى ذلك عند الكلام على وجود الله سبحانه.

فالناس جميعاً يكادون بفطرتهم يجمعون على ذلك، مهما اختلفت أسماء هذا الخالق عندهم، ومهما اختلفت صفاته بينهم، يستوي في ذلك الممعن في البداوة، والمغرق في الحضارة، وهذا

ما يعجب له الباحث الاجتماعي، إذ يرى إجماع القبائل ـ حتى التي لم تتصل بغيرها أي اتصال، والتي لا تعرف من العالم إلا رقعتها من الأرض، وغطاءها من السماء ـ يرى إجماع القبائل على إله خالق لهذا الكون، وإن اختلفوا في شيء من ذلك فخلافهم في الأسماء والاختصاص.

فالقرآن الكريم اعتمد على هذه الفطرة الكامنة في النفس الإنسانية، وخاطب الناس بما يُوقظ هذه الفطرة، ويبعث هذه العاطفة الدينية، وينمّيها، ويقويها، ويصلح ما اعتورها من فساد الإشراك، وانحراف في تصور الصفات لهذا الخالق العظيم، وأدار الدعوة على هذا الأساس.

فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان، وعني به، وأحاطه ببيئته، فهو ينتفع بها في تسيير شؤونه من أرض وسماء، وليل ونهار، وماء وهواء، وشمس وقمر، وحيوان ونبات.

والله سبحانه هو الذي خلق الوجود والكون كله، ما ندرك منه، وما لا ندرك، وما نعلم منه، وما لا نعلم، وهو واجب الوجود لها كلِّها، وواهب الحياة لما كان فيه حياة منها، وواضع نظام هذا الكون الذي لا تحيد عنه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾

وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٣ ـ ٤٠].

وغير الله لا يستطيع أن يخلق شيئاً، مهما كان هذا الشيء حقيراً، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣ ـ ٧٤].

ثم إنه غذّى هذه الفطرة بطلب التأمل والنظر والتفكر إلى كل ما حولنا من أشياء، فذلك يسلم إلى قوة في دين، وإيمان في يقين. قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٥ ـ ٨]. ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢]. ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠] ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ

﴿وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

هذا إلى كثير من الآيات القرآنية التي تحثُّ على النظر والتفكر، مما تجده مبثوثاً في معظم السور، وخاصَّة السور المكية التي تعنى بقضايا الإيمان والعقيدة.

ولقد سلك في الدعوة إلى التوحيد هذا المسلك، فاستدلَّ على ذلك بالمألوف من تنازع ذوي السلطة، وما يؤدي إليه هذا النزاع من فساد ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١ ـ ٢٢] ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

كما استدل على وحدانية الخالق سبحانه بوحدة النظام، ووحدة الخلق، وخضوع المخلوقات جميعاً لنظام واحد لا تغيير فيه، ولا تبديل ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨].

وهكذا سار أسلوب القرآن الكريم على هذا النهج في إثبات قدرته، وعلمه، ووحدانيته، وهذا الأسوب يساير الفطرة ويغذيها، ويشعر كل إنسان في إعماق نفسه بالاستجابة له، والإصغاء إليه؛ حتى الملحد بعقله، وهو منهج يوافق العامة، وهم السواد الأعظم

في كل أمة وكل جيل، كما يناسب الخاصة وهم الأقلون دائماً، فطبقتا المجتمع يستويان في الاستفادة من هذا المنهج القرآني.

فنظرة العامي إلى قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٥ ـ ٦] تثير إيماناً ساذجاً بعجيب قدرة الله تعالى، كما إن نظرة «البيولوجي» «عالِم الحياة» إلى منشأ الإنسان وخلقه، تثير عجبه، وإعجابه، وحيرته دائماً، وإيمانه العميق، إلا قليلاً.

ونظرة العامي إلى السماء، وتلألؤ نجومها، وسطوع شمسها وأقمارها، تبعث عنده الإيمان بمدبر هذا الكون وعظمته، والفلكي بمعرفته الواسعة حركات النجوم وسيرها ونظامها وخلقها وأبعادها أقدر على معرفة العظمة، وأشدُّ إعجاباً بخالقها ومدبرها.

وهكذا الشأن في العامِّي والفسيولوجي «عالِم وظائف الأعضاء»، والعامِّي والسيكولوجي «عالِم النفس»، والعامِّي والفيلسوف، كلهم صالح لأن يتأثر بهذا المنهج على اختلاف في استعدادهم ومداركهم، وحياة عقولهم، وحياة عواطفهم.

ومن هنا لفت القرآن الكريم أنظار الناس كافة إلى أن يتأملوا ويتفكروا فيما أودع الله في هذا الكون من المظاهر الدالة على وحدانيته وقدرته، غير أنه سبحانه جعل للعلماء مزية على غيرهم بما أودع فيهم من المعرفة والعلم، ونبَّه إلى أنهم هم الذين يخشون الله حق خشيته، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ

كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٧ ـ ٢٨].

فالقرآن الكريم لا يتألف برهانه من حيث الظاهر، كما يتألف البرهان المنطقي من مقدمة صغرى، وكبرى، ونتيجة، ولا يتعرض لألفاظ الفلسفة من جوهر، وعرض، وكيف، وكم، وما أشبه ذلك، ولا يحاول أن يثير المشاكل العقلية، ويفصلها، ويبني عليها، لأن القرآن لم يأت للفلاسفة وحدهم، ولا للعلماء وحدهم، فالفلسفة والعلم حظ أقل عدد من الناس، وإنما اعتمد كما ذكرنا على الفطرة والعاطفة، وهما قدر مشترك بين الناس جميعاً، فمن ثم كان ممن آمن: علماء، وجهلاء، وفلاسفة، وغيرهم، ولو اتبع القرآن سبيل «علم المنطق» الذي اصطلح عليه المناطقة، لما آمن من الناس إلا القليل.

ولكن جاء في القرآن آيات فيها غموض على الباحث، فآيات تدل بظاهرها على الجبر، وآيات تدل على الاختبار، فكيف التوفيق بينها؟ وما الرأي الحق الذي ترمي إليه هذه الآيات؟

وجاءت آيات تثبت لله تعالى يداً، ووجهاً، وآيات تدل على أنه في السماء ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ [الملك: ١٦] وآيات تذكر أن لله عرشاً، وأنه سبحانه قد استوى على العرش، كما وردت آيات تدل على تنزيه الله أن يتصف بصفة من صفات المخلوقين ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]، فكيف وقف المسلمون الأولون من هذه الآيات التي تُسمَّى: «المتشابه»؟

لقد كان موقف المسلمين الأولين من ذلك: أنهم نزهوا الله سبحانه عما لا يليق به من الصفات، وآمنوا بهذه الآيات فهماً إجمالياً، ووكلوا تفصيل ذلك إلى علم الله سبحانه من غير تأويل ولا تعطيل.

وكان كثير من العلماء ذوي العقول الراجحة في العصر الأول، يرى: أن الدخول في تفصيل هذه المتشابهات والجدال فيها ليس من مصلحة المسلمين، ولا يستطيع فهمه جمهورهم، فأولى أن يُكتفى فيها بالمعنى الإجمالي، فقد قبل رسول الله ﷺ قول الجارية التي كانت تعتقد أن الله في السماء من غير استفصال؛ لأن عقلها لا يقوى على أكثر من ذلك.

روى مسلم في صحيحه، عن معاوية بن الحكم السُّلَمي قال: كانت لي جارية ترعى غنماً لي قِبَلَ أُحُدٍ والجُوّانيَّة، فاطلعت ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون، لكني صككتها صكَّة، فأتيت رسول الله ﷺ فعظّم ذلك عليَّ، قلت: يا رسول الله! أفلا أعتقها؟ قال: «ائتني بها» فأتيته بها، فقال لها: «أين الله؟» قالت: في السماء، قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله، قال: «أعتقها فإنها مؤمنة»[1].

وروي عن عليٍّ رضي الله عنه، أنه قال: حدِّثوا الناسَ بما يفهمون، أتريدون أن يكذبَ الله ورسوله؟!.

وجاء من بعدهم قوم ساروا على هذا المنهج، فقد رُوي عن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد برقم (٥٣٧).

الوليد بن مسلم أنه قال: سألتُ مالكَ بن أنس، وسفيان الثوري، والليث بن سعد عن الأخبار التي جاءت في الصفات، فقالوا: أَمِرُّوها كما جاءتْ بلا كيف.

وسُئل ربيعة الرأي عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق.

وروي عن مالك بن أنس، أنه سُئل: كيف استوى؟ فأطرقَ برأسه، ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة[١].

فهؤلاء رأوا الوقوف عند ما جاء في الدِّين من غير تفسير؛ لأن ما يتعلق بالله وصفاته شيء وراء العقل، لا يمكن أن يصل إليه الإنسان إلا بأن يقيس الله على نفسه، وعالم الغيب على عالم الشهادة، وذلك خطأ ما بعده خطأ.

فالأولى أن نقفَ على ما ورد فيه النص من غير سؤال بـ«كيف» ولا «أين»، وقد استمرت هذه المدرسة إلى العصر العباسي وبعده، ولا تزال قائمة إلى اليوم ولو على نطاق ضيق، فكان زعيم هذه المدرسة في عهد العباسيين الإمام أحمد بن حنبل، وفي العصور بعده الإمام أبو العباس ابن تيمية.

---

(١) انظر كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي (٢/ ١٥١) والدر المنثور للسيوطي (٣/ ٩١ ـ ٩٢).

وهذه المدرسة هي الأحكم والأسلم، كما سنبين ذلك عند البحث عن صفات الله جلّ وعلا.

ب ـ طريقة المتكلِّمين:

وأما طريقة المتكلمين وشيوخهم فتغاير طريقة السلف الذين اعتمدوا طريقة القرآن الكريم طريقة لهم، فهم آمنوا بالله تعالى وبما جاء به رسوله الكريم، إلا أنهم أرادوا أن يبرهنوا على ذلك بالأدلة العقلية المنطقية، فنقلوا الوضع من فطرة، وعاطفة، ومخاطبة لهما بالنظر في آيات الله في الكون، فنقلوا ذلك إلى دائرة العقل والنَّظر، ومن فن جميل إلى علم ومنطق، ومن قلب إلى رأس، فبدلاً من أسلوب القرآن في قوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] وضعوا طريقتهم في بيان حدوث العالم، واضطّر بعضهم ذلك إلى القول بتركيب الأجسام من أجزاء لا تتجزأ، وإقامة الدليل على عدم حدوثها بنفسها، إلى أن يصلوا إلى إثبات وجود الله تعالى، وهكذا سلكوا هذا السبيل في إثبات وحدانيته وسائر صفاته سبحانه، وكانت كل خطوة من هذه الخطوات تثير أسئلة وجدلاً، وتفتح موضوعات جديدة، فساروا فيها إلى نهايتها.

هذه ناحية، والناحية الأخرى أنهم لم يقنعوا ـ كما قنع غيرهم ـ بالإيمان بالمتشابهات جملة من غير تفصيل، فجمعوا الآيات التي قد يظهر بينها خلاف، كالجبر، والاختيار، وكالآيات التي ذكر فيها اليد، والوجه، والجهة، والرؤية، وما أشبه ذلك، وسلطوا عليها عقولهم، وجرؤوا على ما لم يجرؤ عليه السلف الصالح، فأدّاهم

النظر في كل مسألة إلى رأي، فإذا وصلوا إليه عمدوا إلى الآيات التي يظهر لهم أنها تخالف الأولى فأوّلوها، فكان التأويل من أهم مظاهر المتكلِّمين، فإذا أدَّاهم البحث إلى أن نفيَ الجهة عن الله تعالى، يستلزم أن أعين الناس لا يمكن أن تراه تعالى، لأنها رُكِّبت تركيباً خاصاً، بحيث لا ترى إلا ما كان في جهة؛ أوَّلوا الأخبار الواردة في رؤية الناس لله، وهكذا فالتأويل عنصر من أهم عناصرهم، وأكبر مميز لهم عن السلف.

وطبيعي أن هذا المنحى في التأويل، وإعطاء العقل حريته في البحث والنظر، واتجاهه إلى أية جهة يراها، يستلزم اختلافاً كبيراً، فإن أدَّى النظر قوماً إلى الاختيار وتأويل آيات الجبر، قد يُؤدِّي النظر عند غيرهم إلى إثبات الجبر وتأويل آيات الاختيار.

وهذان الأمران ـ أي: الاعتماد في البراهين على العقليات وتأويل النصوص ـ هما اللذان يُعلِّلان ما استفاضَ في عصور المتكلِّمين من خلاف، ومن أقوال لا عداد لها، ومن براهين لا حصر لها، مما لم يكن معروفاً في عهد النبي ﷺ، ولا الصدر الأول.

والذي يظهر: أن الذي دعا المتكلِّمين إلى سلوك هذا المسلك ما تحدَّثنا عنه سابقاً في مبحث «نشأة علم الكلام» من أن أوائل المتكلِّمين قد دخلوا في حوار عميق مع أقوام من الملل الأخرى من يهودية، ونصرانية، ووثنية، وكانت قد تفلسفت عقولهم، وهؤلاء لم يكفهم في الإقناع أن تذكر لهم آية من القرآن الكريم، أو حديثاً من السنة المطهرة، بل يُريدون الرجوع إلى قضايا تستند إلى القدر

المشترك من العقل، فاضطر ذلك المتكلِّمين أن يدخلوا في منهجهم، ويسلكوا سبيلهم، ويجمعوا الأدلة العقلية على وجود الله تعالى، ويؤلِّفوا ـ كما فعل الجاحظ ـ الكتب في إثبات النبوة على العموم، وفي إثبات نبوة محمد ﷺ على الخصوص، مما يدلُّ على وجود قوم بينهم كانوا ينكرون الألوهية يسمّون: الطبيعيين، أو الدهريين، وقوم لا يعترفون بنبوة ما، وقوم يعترفون بالنبوة ولكن يجحدون نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، فدخلوا معهم في جدال حاد، وفلسفوا أدلتهم؛ كما فلسف المخالفون أدلتهم(١).

وبعد: فأيُّ المنهاجين هو الأولى والأقوى في الدلالة على الأمور الاعتقادية، وأقرب إلى السلامة؟

لا شكَّ أنَّ ما ذهَب إليه السلف من الاعتماد على الأسلوب القرآني والمنهج الرَّباني هو الأفضل والأحكم، وحسبنا في ذلك أن نوردَ لك ما ذكره العلاَّمة ابن خلدون في مقدمته، حيث قال ـ رحمه الله ـ بعد كلام طويل:

«فلذلك نهانا الشارع عن النظر في الأسباب، وأمرنا بالتوحيد المطلق: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

---

(١) أخذ هذا البحث بتصرف من كتاب «ضحى الإسلام» لأحمد أمين (٣/١ ـ ١٧). وانظر الكتابين اللذين أشار إليهما المؤلف «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال» و«الكشف عن مناهج الأدلة من عقائد الملة» وهما لابن رشد.

ولا تثقنّ بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها، والوقوف على تفصيل الوجود كله، وسفِّه رأي من يرى ذلك، وأعلمْه: أن الوجود عند كل مدرك في بادىء رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها، والأمر في نفسه بخلاف ذلك، والحق من ورائه، ألا ترى الأصمَّ كيف ينحصرُ الوجود عنده في المحسوسات الأربع والمعقولات، ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات، وكذلك الأعمى أيضاً يسقط عنده صنف المرئيات، ولولا ما يردُّهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم، والكافَّة لما أقروا به، لكنهم يتبعون الكافَّة في إثبات هذه الأصناف، لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة إدراكهم، ولو سُئل الحيوان الأعجم ونطق لوجدناه منكراً للمعقولات، وساقطة لديه بالكلية، فإذا علمت هذا فلعل هناك ضرباً من الإدراك غير مدركاتنا، لأن إدراكاتنا مخلوقة محدثة، وخلق الله أكثر من خلق الناس، والحصر مجهول، والوجود أوسع نطاقاً من ذلك، والله من ورائهم محيط، فاتَّهمْ إدراكَكَ ومدركاتِك في الحصر، واتَّبعْ ما أمركَ الشارع به من اعتقادك وعملك، فهو أحرصُ على سعادتك، وأعلمُ بما ينفعك، لأنه من طور فوق إدراكك، ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك، وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه، بل العقل ميزان صحيح، فأحكامُه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد، والآخرة، وحقيقة النبوة، وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع في محال.

ومثال ذلك مثالُ رجلٍ رأى الميزان الذي يُوزن به الذهب،

فطمع أن يزن به الجبال، وهذا لا يعني أن الميزان في أحكامه غير صادق، لكن للعقل حدٌّ يقف عنده، ولا يتعدَّى طوره، حتى يكون له أن يُحيط بالله وبصفاته، فإنه ذرَّة من ذرات الوجود الحاصل منه.

وتفطن في هذا الغلط،ومن يقدم العقل على السمع في أمثال هذه القضايا، وقصور فهمه، واضمحلال رأيه، فقد تبين لك الحق من ذلك»[1].

* * *

---

(١) مقدمة ابن خلدون (٥٥٨ ـ ٥٥٩) ط: الدار التونسية للنشر.

٢ ـ حكم التقليد في العقيدة

رأينا من الأفضل أن نعرضَ لحكم التقليد في العقيدة من خلال الفقرتين التاليتين:

الأولى: أقوال علماء أصول الدين الأقدمين.

الثانية: نتائج النظر والتفكُّر في الآيات الكونية، والإعجاز العلمي في كتاب الله تعالى. وذلك لتوفية الموضوع حقه من الدراسة والبحث، وتلبية للحاجات المستجدة من انتشار الثقافة، وتوافر أسباب التعلُّم، وتقارب أقطار الأرض.

الأولى: أقوال علماء أصول الدين الأقدمين:

لقد عرفنا مما تقدَّم: أنَّ المكلَّفَ شرعاً يجبُ عليه أن يعرف الله يقيناً؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ [محمد: ١٩]. وتتضمن هذه المعرفة: الجزم، وكونها مطابقة للواقع، وكونها ناشئة عن الدليل.

والمقلِّد: إنما يأخذ بقول غيره دونَ أن يعرف دليله، وهو مؤمنٌ عاصٍ إن كانت فيه أهلية النظر، وإلا فهو مؤمن غير عاصٍ. والمراد بالنظر: النظر الموصل لمعرفة الله عزَّ وجلَّ بالأدلة العقلية والنقلية، وهذا يشمل الناس جميعاً: أهل المدن والقرى،

والبوادي. أما مَنْ يسكن في شاهق جبل، أو في مفازةٍ معزولة عن الناس والعمران؛ فيشترط أن تبلغه الدعوة حتى تكتمل عنده شروط التكليف[1].

وحكى الآمدي اتفاق أصحاب الشافعي على انتفاء كفر المقلِّد[2]، وذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني عن بعضهم: أنه أنكر وجوب المعرفة أصلاً، وقال: بأنها حاصلة بأصل الفطرة؛ واستدلَّ على ذلك بقوله تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾ [الروم: ٣٠] وبقوله ﷺ: «كل مولود يُولد على الفطرة»[3].

ولذلك قال أبو منصور الماتريدي: أجمع أصحابنا على أن العوامَّ مؤمنون عارفون بربهم، وأنهم حشو الجنة، كما جاءت به الأخبار، وانعقد به الإجماع، فإن فطرتهم جُبلت على توحيد الصانع، وقدمه، وحدوث ما سواه، وإن عجزوا عن التعبير عنه باصطلاح المتكلمين[4].

وحقَّق التَّاجُ السبكي في إيمان المقلِّد؛ فقال: إن يجزم المقلِّد بصحة قول المقلَّد جزماً قوياً، بحيث لو رجع المتبوع لم يرجع التابع؛ كفاه في الإيمان. والخلاف إنما هو في إيمان المقلِّد الجازم،

---

(١) شروط التكليف هي: ١ ـ العقل ٢ ـ البلوغ ٣ ـ سلامة الحواس: السمع و البصر ٤ ـ بلوغ الدعوة.

(٢) شرح جوهرة التوحيد؛ للباجوري (ص ٥٥)

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٥٩) ومسلم في القدر (٢٦٥٨) والترمذي في القدر (٢١٣٩).

(٤) شرح جوهرة التوحيد؛ للباجوري (ص ٥٦ ـ ٥٧).

أما الشَّاكُّ والظَّانُّ فمتفق على عدم صحة إيمانهما، والخلاف في إيمان المقلِّد إنما هو بالنظر لأحكام الآخرة، وفيما عند الله، وأما بالنظر إلى أحكام الدنيا فيكفي فيها الإقرار فقط. فمن أقرَّ، وصدَّق جرت عليه الأحكام الإسلامية[1].

وهذه المعاني ظاهرة في الأبيات الثلاثة التالية من الجوهرة:

إذ كلُّ من قلَّد بالتوحيدِ ... إيمانُه لم يخلُ من تَرْدِيدِ

ففيه بعضُ القوم يحكي الخُلْفا ... وبعضُهم حقَّق فيه الكَشْفا

فقال إنْ يجزمْ بقول الغير ... كفَى وإلا لم يزلْ في الضَّيْر

الثانية: نتائج النظر والتفكر[2] في الآيات الكونية والإعجاز العلمي في كتاب الله تعالى:

نعى القرآن على العرب المشركين تقليدهم الأعمى، ودعاهم إلى استخدام عقولهم أكثر من سبعين مرة، وبما يشتمل على جميع مسميات العقل ووظائفه وآثاره، ونستطيع من خلال الدعوة المتكررة إلى التفكر والنظر؛ أن نتوقف عند الحقائق التالية:

١ ـ استهدفَ القرآنُ بناءَ أركان الإيمان بمعرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته، وانتهجَ الطريق إلى هذه المعرفة بالنظر في الآيات الكونية التي تحدَّث عنها القرآن في آياته وسوره التي تسوق الوصفَ

---

(١) شرح جوهرة التوحيد؛ للباجوري (ص ٥٦ ـ ٥٧).

(٢) سبق وذكرنا طريقة القرآن ـ وهو مذهب السلف ـ في دراسة العقيدة الإسلامية ص ٩٤، ونزيد الأمر هنا وضوحاً؛ للتخلص من التقليد في الاعتقاد.

الإلهي واقعاً ملموساً، ومشهداً مُحَسّاً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

٢ ـ جميع الأدلة التي ساقها القرآن تُوقظ العقول، وتُحرِّك المشاعر لدى الناس جميعاً على اختلاف مستوى عقولهم وثقافاتهم.

٣ ـ لقد عدّ القرآن التفكُّر في معاني الآيات الكونية الدالَّة على وجود الله وإبداعه وقدرته، غاية في الخضوع والاستسلام لله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]. كما جعل تقديمها إلى الناس دعوة إلى الله تعالى على هدى وبصيرة، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥].

٤ ـ الإعجاز العلمي في كتاب الله تعالى لا ريب أنه يُسهم في تقوية الإيمان، ويدفع الفتن والشكوك التي ألبسها الإلحادُ ثوب العلم، كما يحفزُ المسلمين للأخذ بأسباب التقدُّم والنهوض[١].

---

(١) من أهداف هيئة الإعجاز العلمي التابعة لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة: وضع القواعد والمناهج وطرق البحث العلمي، التي تضبط الاجتهادات في بيان الإعجاز العلمي للقرآن والسُّنَّة، وصبغ =

وفي المجتمعات الإسلامية المعاصرة تظهر وتتسع شيئاً فشيئاً طبقة عليا من المثقفين والمتخصصين في مختلف فروع المعرفة، ويُمكنها أن تتعامل مع النتائج العلمية المتسارعة، والوسائل الآلية المتقدمة؛ لإبراز الأدلة الكونية، والاكتشافات العلمية القاطعة؛ والدالَّة بمجموعها ومفرداتها على وجود الله الخالق المبدع، والصانع الخبير. وهذه الجماعة من العلماء مهيأة للريادة في مجال الدعوة إلى معرفة العلم الإلهي، والإيمان اليقيني الذي جاءت به الرسل، وهو العلم الأعلى الذي تكمل به النفس وترتقي كلما عملت بموجبه، وواقع العصر الذي نعيشه ـ وهو عصر العلم ـ يقتضي أن يستخدموا منهجَ القرآن في قراءة كون الله الواسع وملكوته الفسيح.

وفي المجتمعات الإسلامية طبقة أكثرُ عدداً، وأسرعُ تكاثراً واتساعاً، وهي متعلِّمة، وتتمتع بمستوى ثقافي متوسط يترسَّخ مع تقدُّم التعليم، وتوافر وسائله، وتزايد مكتسباته. وهذه الطبقة تحتاج إلى عرض الأدلة الموصلة إلى المعرفة الصحيحة، بما يتناسب مع مستواها الثقافي والفكري، وعلى هدي من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ولا يُفيد معها التقليد في العقيدة، ويصبح الفراغ الفكري أو التفريغ العقلي والتجهيل؛ خطراً على عقيدتها ومستقبل حياتها.

= العلوم الكونية بالصبغة الإيمانية، والكشف عن دقائق معاني الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتعلقة بالعلوم الكونية في ضوء الكشوف العلمية الحديثة. وللهيئة مجلة فصلية اسمها: الإعجاز، صدر عددها الأول في شهر صفر ١٤١٦هـ.

ومعاذَ الله أن ندفعَ الناس في جميع مستوياتهم، ومختلف ثقافاتهم؛ إلى علم الكلام أو الجدل، لمعرفة الله تعالى، وإنما نُريد للجميع أن يصلوا عن طريق العلم إلى الإيمان الحق، الذي هو بالتأكيد عقيدة ثابتة، لا يخالطها شك.

كما نتمنى لهم أن يسلكوا سبيل التفكُّر والتذكُّر، للوصول إلى الإيمان الحق، الذي هو بالنتيجة عمل صالح، لا يشوبه رياء ولا فساد في الأرض.

* * *

الباب الثاني

أركان الإيمان

الفصل الأول : الإيمان بالله جل جلاله

الفصل الثاني : الإيمان بالملائكة

الفصل الثالث : الإيمان بالكتب السماوية

الفصل الرابع : الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام

الفصل الخامس: الإيمان باليوم الآخر

الفصل السادس: الإيمان بالقضاء والقدر

أركان الإيمان

لا بد لنا قبل البدء بالكلام عن كل ركنٍ من أركان الإيمان بمفرده، من توضيح معنى الإيمان والإسلام لغة واصطلاحاً، والفرق بين الإيمان والإسلام، ووجوب الاعتقاد بأركان الإيمان الستة، وذكر الأدلة من الكتاب العزيز، والسنة النبوية، ثم بيان زيادة الإيمان ونقصه.

١ ـ معنى الإيمان والإسلام لغة واصطلاحاً:

الإيمان لغة: مطلق التصديق، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] أي: بمصدِّق. والإيمان في اصطلاح علماء التوحيد: هو التصديق بكل ما جاء به رسول الله ﷺ مما علم من الدين بالضرورة؛ كالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى، وافتراض العبادات، وتحريم قتل النفس عدواناً وظلماً، وتحريم شرب الخمر، والزنى، والربا، وأكل أموال الناس بالباطل... وأمثال ذلك مما أمر الله به، أو نهى عنه.

والمقصود بالتصديق: الاعتقاد بصدقه ﷺ اعتقاداً جازماً، مع الإذعان القلبي لما جاء به، والقبول له، ولا يُكتفى بوقوع نسبة الصدق إليه ﷺ من غير إذعان، وقبول تام.

ويجب أن يكون التصديق إجمالاً في الإجمالي، وتفصيلاً في التفصيلي مما جاء به[1] رسول الله ﷺ.

أما الإسلام: فهو لغة: مطلق الامتثال والانقياد. ومنه قوله تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤].

وهو شرعاً: الامتثال والانقياد لما أتى به رسول الله ﷺ من الأفعال الظاهرة الشرعية، وعُلم من الدين بالضرورة، ويتحقق بالنطق بالشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحجِّ البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

٢ ـ الفرق بين الإيمان والإسلام:

مما تقدَّم في بيان معنى الإيمان في فصل التعريفات والمصطلحات ص١٣، ومن تعريف الإيمان والإسلام لغة وشرعاً؛ نعلم أن الإيمانَ والإسلامَ حقيقتان مختلفتان في اللغة والشرع، وهذا هو الأصل في الأسماء المختلفة، وقد يتوسَّعُ الشرع فيُطلق أحدهما على الآخر على سبيل التجوُّز.

ويُوضِّح القرطبيُّ (أبو العباس) المتوفى سنة (٦٥٦هـ) في كتابه «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» هذا المعنى فيقول:

«وقد تنافسَ علماءُ الأصول في هذه الأسماء الشرعية تنافساً لا طائل تحته إذا حُقِّق الأمر فيه، وذلك: أنهم متفقون على أنها لا يُستفاد منها في الشرع زيادة على أصل الوضع.

---

(١) يكفي الإجمال فيما يعتبر التكليف به إجمالاً، كالإيمان بغالب الأنبياء والملائكة، ولابد من التفصيل فيما يعتبر التكليف به تفصيلاً، كالإيمان بالأنبياء والملائكة المذكورين في القرآن الكريم.

والحاصل: أن الشرع تصرَّف في حال هذه الأسماء التي في أصل وضعها[1]، فخصَّص عاماً؛ كالحال في الإسلام والإيمان، فإنهما بحكم الوضع يعمَّان كلَّ انقياد وكلَّ تصديق، لكن قصرها الشرع على تصديق مخصوص، وانقياد مخصوص. وقد استفدنا من هذا البحث: أن الإيمان والإسلام حقيقتان متباينتان لغة وشرعاً كما دلَّ عليه حديث جبريل عليه السلام [2]. وهذا هو الأصل في الأسماء المختلفة، أعني: أن يدلَّ كلٌّ واحدٍ منها على خلاف ما يدلُّ عليه الآخر، غير أنه قد توسَّع الشرع فيهما، فأطلق اسم الإيمان على حقيقة الإسلام، كما في حديث وفد عبد القيس [3]، وكقوله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون باباً، أدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأرفعها قول: لا إله إلا الله» [4] وقد أطلق الإسلام مريداً مسمَّى الإسلام والإيمان بمعنى التداخل، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقد أطلق الإيمانَ كذلك أيضاً، كما روي من حديث عليٍّ مرفوعاً: «الإيمان: اعتقاد بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان» [5].

---

(١) أي: مختلفة.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان عن عمر رضي الله عنه (٨).

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٣) ومسلم في الإيمان (١٧).

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان (٧) ومسلم في الإيمان (٣٥).

(٥) أخرجه ابن ماجه في المقدمة (٦٥) والخطيب في تاريخه (٩/ ٣٨٦) وفيه: أبو الصلت، عبد السلام بن صالح؛ ضعيف.

وهذه الإطلاقات الثلاث من باب التجوُّز والتوسُّع على عادة العرب في ذلك»[1].

وقد نقل العلاَّمة الباجوري في حاشيته على الجوهرة كلاماً نفيساً عن الإمام الغزالي في كتاب «الإحياء» تحت عنوان: «بحث في الإيمان والإسلام، وما بينهما من الاتصال والانفصال»[2].

وكلام الغزالي المتوفى سنة (٥٠٥هـ) ـ رحمه الله تعالى ـ لا يختلف عما قدَّمناه إلا في الأمثلة، وطريقة العرض.

أما الخلافُ بين الجمهور؛ الذين يعتبرون النطق بالشهادتين شرط كالعمل؛ وهو شرطٌ خارج عن ماهية الإيمان، وبين الإمام أبي حنيفة وبعض الأشاعرة الذين يعتبرون النطق بالشهادتين شطر الإيمان، إذ هو عندهم تصديق وإقرار؛ فهو خلاف نظري، لا يترتب عليه أيُّ أثر علميٍّ.

وإلى هذا الخلاف أشار صاحب الجوهرة بقوله:

وفُسِّر الإيمانُ بالتَّصديقِ والنُّطقُ فيه الخُلْفُ بالتحقيقِ
فقيل شرطٌ كالعمل وقيل بلْ شطرٌ والاسلام اشْرَحَنَّ بالعملْ

---

(١) المفهم؛ لأبي العباس القرطبي (١/ ١٤٠ ـ ١٤١).

(٢) انظر الإحياء؛ للغزالي (١/ ١٠٢) ومختصر حاشية الباجوري (ص ٧٥ ـ ٧٦) بمراجعة الشيخ عبد الكريم الرفاعي رحمه الله تعالى.

٣ ـ وجوب الإيمان بأركان الإيمان الستة، وأدلة ذلك من الكتاب والسنة:

أركان الإيمان: هي الأصول التي بُعث بها الرسل، ونزلت بها الكتب من عند الله تعالى، فيجبُ الإيمان بها جميعاً على الوجه الذي دلَّ عليه كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وذلك بالاعتقاد الجازم، والإذعان القلبي. أما الجحود لها جميعاً، أو لواحد منها فإنه يُخرج من دائرة الإيمان، ويُدخل الجاحد في زمرة الكافرين الضَّالِّين.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وقال سبحانه: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال رسول الله ﷺ في حديث جبريل حين سأله عن الإيمان: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»[(١)].

٤ ـ زيادة الإيمان ونقصه:

إذا كان الإيمان في الشرع تصديقاً بالقلب وعملاً بالأركان؛

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة في الإيمان (٥٠) ومسلم في الإيمان (١٠) ورواه مسلم عن عمر بن الخطاب في الإيمان (٨).

فإنه يزيدُ وينقص [1]، وهو مذهبُ أهل السنة والجماعة من سلف الأمة وخلفها، والحجة على زيادته ونقصانه ما أورده البخاري في صحيحه [2] قوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] وقوله سبحانه: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢] قال ابن بطَّال: فإيمان من لم تحصل له الزيادة ناقص. فإن قيل: الإيمان في اللغة: التصديق، فالجوابُ: أن التصديق يكمل بالطاعات كلها، فما ازداد المؤمن من أعمال البر كان إيمانه أكمل، ومتى نقصت أعمال البر نقص كمال الإيمان.. وأما التصديق بالله تعالى ورسوله فلا ينقص [3].

قال أبو داود: سمعت أحمد بن حنبل يقول: الإيمان قولٌ وعملٌ، يزيد وينقص، البرُّ كله من الإيمان، والمعاصي تنقص الإيمان [4].

وقد أنكر أكثر المتكلمين زيادة الإيمان ونقصه، وقالوا: متى قبلَ الزيادة كان شكّاً وكفراً. فرد عليهم بعض المتكلمين المحققين: نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص، والإيمان الشرعي يزيد وينقص بزيادة ثمراته، وهي الأعمال ونقصانها. قالوا: وفي هذا توفيق بين

---

(١) هذا بالنسبة للناس، أما إيمان الأنبياء فإنه يزيد ولا ينقصُ، وإيمان الملائكة لا يزيدُ ولا ينقصُ.

(٢) انظر أول كتاب الإيمان في فتح الباري (١/ ٤٥).

(٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووي (١/ ١٤٦).

(٤) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٨٧).

ظواهر النصوص التي جاءت بالزيادة وأقاويل السلف، وبين أصل وضعه في اللغة. قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: هذا الذي قاله هؤلاء ـ أي: المتكلِّمون المحققون من الشافعية ـ وإن كان ظاهراً وحسناً، فالأظهر ـ والله أعلم ـ أن نفس التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة، ولهذا يكون إيمان الصِّدِّيقين أقوى من إيمان غيرهم، بحيث لا تعتريهم الشبه، ولا يتزلزل إيمانهم بعارض، بل لا تزال قلوبهم منشرحة نيِّرة وإن اختلفت عليهم الأحوال، وأما غيرهم من المؤلَّفة، ومن قاربهم، ونحوهم، فليسوا كذلك، فهذا مما لا يمكن إنكاره، ولا يتشكك عاقل في أن نفس تصديق أبي بكر الصديق رضي الله عنه لا يُساويه تصديق آحاد الناس[1]. وإلى هذه النتيجة التي توصلنا إليها أشار صاحب الجوهرة بقوله:

ورُجِّحت زيادةُ الإيمان بما تزيدُ طاعةُ الإنسان
ونقصه بنقصها وقيل لا خُلْف كذا قد نقلا

ومن أهم أسباب زيادة الإيمان، للوصول إلى إيمان المتقين والصديقين:

١ ـ العلم، والمقصود به العلم بالله، وأسمائه، وصفاته، وأيامه سبحانه وتعالى، والعلم بالسيرة النبوية وما جاء به ﷺ من التشريعات السامية، والأخلاق الكريمة، قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وقد ورد عن جندب بن عبد الله وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم: تعلَّمنا

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١/١٤٨ ـ ١٤٩).

الإيمان، وتعلَّمنا القرآن فزدنا إيماناً [1].

٢ ـ العمل، وذلك بالإكثار من العبادة، والطاعات، والأعمال الصالحة، والابتعاد عن المعاصي، والذنوب، مما يُحقق التقوى ويُوصل إلى زيادة اليقين.

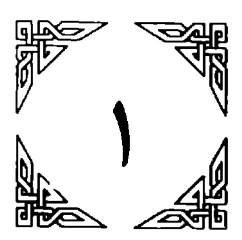
٣ ـ الذكر والدعاء، والاقتصار على الأذكار المأثورة، والأدعية المستجابة، وبخاصة المذكورة في القرآن الكريم، والمتعلقة بصفات الله، ومظاهر قدرته وعظمته، وإعمال الفكر مع اللسان في أسماء الله الحسنى، وصفاته الجليلة، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

* * *

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص ٣٨٦).

الفصل الأول



الركن الأول

الإيمان بالله جل جلاله

تمهيد: إن هذا الركن هو الأساس لجميع الأركان؛ إذ كلُّها ترجع إلى الإيمان بالله تعالى وترتبط به سبحانه بهاء الضمير، ولا فائدة من الإيمان بواحد منها إن لم تنطلق من الإيمان بالله تعالى ربّاً خالقاً وإلهاً معبوداً، ومُشرِّعاً مُتفرِّداً. ونقتصر في بحثنا عن هذا الركن العظيم على أمور ثلاثة هي: صفات الله تعالى، وأسماؤه، وآثار الإيمان بالله عزَّ وجلّ في حياة الإنسان والأمة.

١ ـ صفات الله تعالى

يذكرُ علماء العقيدة الإسلامية أنَّ لله عز وجل صفاتٍ تليقُ بكماله تعالى وجلاله، ويجبُ على كلِّ مكلَّف أنْ يعلمَها علماً تفصيلياً، ويقيم عليها البرهان والدليل، كلٌّ على حسب طاقته، وهذه الصفات ستة أقسام؛ هي:

١ ـ **الصفة النفسية**، وهي الوجود، وسميت نفسية، لأنها تدلُّ على الذات دون شيء زائد عليها.

٢ ـ **الصفات السلبية**، وهي ما كان مدلولها سلبُ صفةٍ لا تليق به سبحانه، وهي خمسة: الوحدانية ـ القدم ـ البقاء ـ المخالفة للحوادث ـ قيامه تعالى بنفسه.

٣ ـ **صفات المعاني** ، والمراد بها كلُّ صفة قائمة بذاته، وهي سبع: القدرة ـ الإرادة ـ العلم ـ الحياة ـ السمع ـ البصر ـ الكلام.

٤ ـ **الصفات المعنوية**، وهي الأحكام التي تترتب على ثبوت صفات المعاني، فحينما ثبت له سبحانه صفة القدرة نتج عن ذلك كونه قادراً، وهكذا في صفات المعاني السبعة.

٥ ـ **صفاتُ الأفعال**، وهي ما وردَ في القرآن وصفُ الخالق بها: كالرزق ـ والعمل ـ والتعليم والإنباء ـ والإيتاء.

٦ ـ **الصفاتُ الجامعة**، كالعلو، والعِظَم، والكِبَر، والملك، والتكبُّر، والجبروت، والعزة، والقوة.

وقبل أن نُفَصِّل الكلامَ في كل قسم على حدة، نؤكِّد أنها جميعاً ترتكز على ثلاثة أسس دلَّ عليها الكتاب العزيز:

الأول: التنزيه عن أن يشبه شيء من صفات الله تعالى شيئاً من صفات المخلوقين، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

الثاني: الإيمان بما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، مع التأكيد على أن صفات رب العالمين أعلا وأكمل من أن تشبه صفات المخلوقين المُحْدَثين والفانين، ويدلُّ لذلك قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ بعد قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فكأنه إشارة إلى الخلق ليثبتوا له صفتي السمع والبصر بما يليق بجلاله وكماله. أما المخلوقات فلها سمعٌ وبصرٌ يناسبان حالها من القصور والفناء.

الثالث: التفويض، ويكون بقطع الأمل عن إدراك حقيقة الكيفية، لأن إدراك هذه الحقيقة والإحاطة بها مستحيل، بدليل قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠].

ونحن فيما يلي نتحدث عن صفات الله تعالى على وفق هذا التقسيم.

أولاً: الصفة النفسية: الوجود:

أ ـ معنى الوجود:

لقد بينا آنفاً: أن المراد بالصفة النفسية الصفة الثبوتية التي يدلُّ الوصف بها على الذات دون معنى زائد عليها، ككون الجوهر جوهراً، وكونه شيئاً موجوداً.

والصفة النفسية صفة واحدة كما أسلفنا، وهي «الوجود».

هذا ولابدّ من بيان أن الوجود ينقسم إلى قسمين: وجود ذاتي، ووجود تبعي.

فالوجود الذاتي: ما كان المتصف به غير مفتقر في الاتصاف به إلى علة تؤثر فيه الوجود.

والوجود التبعي: ما كان المتصف به مفتقراً في الاتصاف به إلى علة تؤثر فيه الوجود.

ووجود الله تعالى من القسم الذاتي، أي: إنه سبحانه لا يفتقر في وجوده إلى علة تؤثر فيه الوجود، وهذا الوجود هو الوجود الكامل، وهو لا يكون إلا لله وحده سبحانه، وأما ما عداه فوجوده

من القسم التبعي، فما من موجود غير الله تعالى، إلا وهناك علة لوجوده، ويفتقر في وجوده إلى شيء آخر.

ب ـ أدلة وجوده سبحانه:

الإيمان بوجود الله عزّ وجل أساس مسائل العقيدة كلها، وعنه تتفرع بقية الأمور الاعتقادية التي يجب إنهاض العقل للتأمل فيها، ثم الإيمان بها.

إن ما تراه من حقائق الكون كلِّها إنما هو فيض عن حقيقة واحدة كبرى، ألا وهي ذات الله عزّ وجل، ومن المحال أن تُدرك ماهية الحقائق المتفرعة الصغرى قبل أن تُدرك أصلها ومنبعها الأول، فكان لابدّ إذاً لكي تستطيع التعرف على الكون من التعرف على خالقه أولاً.

ولما للإيمان بوجود الله من الأهمية ـ كما أسلفنا ـ عني العلماء بإقامة الأدلة المتنوعة، والبراهين القاطعة على ذلك، فأتوا من الأدلة على ذلك بما لا يُحصى، ونحن فيما يلي نذكر بعض هذه الأدلة.

الدليل الأول ـ دليل الفطرة والبداهة:

أ ـ الإيمان بالله فطرة:

الإيمان بوجود الله، والاعتقاد به ربّاً خالقاً لهذا الكون، ومدبِّراً له، ومتصرِّفاً فيه، هو فطرة عند جميع الناس، لا يحتاج إلى إقامة برهان عليه، كما لا يحتاج إلى برهان على وجود الغرائز الإنسانية.

بل هو شعور يُشرق في أعماق الإنسان، إذا تأمَّل في نفسه وفي الكون حوله، إنه ليشعر شعوراً أكيداً بوجود سلطة كبرى تُهيمن على هذا الكون، تمنحه التنظيم، وتتصرف فيه بالحياة والموت، والبناء والفناء، والتغيير والتطوير، والحركة والسكون، وجميع أنواع التغييرات الحكيمة فيه.

والشعور الفطري في الإنسان بوجود هذه السلطة الكبرى، هو من أقوى الأدلة الصادقة على وجود الخالق سبحانه، إذ إن كثيراً من علومنا ومعارفنا ليس لها دليل في أنفسنا غير شعورنا الفطري بها، ومهما تقدَّمت العلوم والمكتشفات فإنها لا تزيدنا شيئاً غير ما توصَّلنا إليه بفطرتنا.

إن الأُمَّ لتشعر بعاطفة الأمومة، دون أن تتطلبَ البرهان على وجودها، وسواء أعلمت أن السرّ في ذلك حفظ الطفل بالرعاية والتربية حتى يصبح قادراً على الاستقلال بنفسه، أم لم تعلم.

وإننا نحسُّ بالجوع فنأكل، سواء علمنا: أن الأكل وسيلة من وسائل حياتنا، أم لم نعلم. ونحس بالبرد فنتخذ الوقاية منه، سواء أعرفنا: أن البرد عامل من عوامل الهدم في بناء جسدنا، أم لم نعرف.

وإننا نشعر بوجود روح فينا فندافع عنها، ونحرص على بقائها، دون أن نحسَّ بها بإحدى حواسنا الظاهرة، وقد لا يستطيع الكثير من الناس أن يقيم البرهان على وجودها، وعلى الرغم من ذلك فهو يشعر بها، ويعتقد بوجودها.

ثم: ألسنا نشعر في قرارة نفوسنا بالعواطف والوجدانيات،

كالحبِّ، والبغض، والرغبة، والكراهية؟! فما الدليل على وجودها فينا وهي متغلغلة في داخلنا؟

هل نستطيع أن نقيمَ عليها دليلاً أكثر من أننا نشعر بها، وهي حق لاشك فيه؟!

إن إحساس الإنسان بوجود الخالق، وتلهفه دائماً لمعونته وإمداده وشعوره بحاجة هذا الكون الكبير إلى قدرته وعلمه وحكمته هو إحساس فطري صادق، وهو من أكبر الأدلة على وجوده سبحانه.

إنه إحساس ليس خاصاً بفرد من الناس، بل هو إحساس وشعور تشترك فيه جميع الخلائق المدركة، على اختلاف نزعاتها ومستويات ثقافتها، تجد ذلك في البيئات البدائية، وفي المدن المتحضرة، وفي منتديات المثقفين، وفي قاعات العلوم والفنون والمختبرات.

إنه شعور مشترك بين جميع الناس، يقوم في نفس الطفل الصغير، والإنسان البدائي، والإنسان المتحضِّر، والجاهل، والعالم، والباحث، والفيلسوف، والعبقري، والمفنّ، والخبير في المعمل، والمرأة في عقر دارها، كل هؤلاء يشعرون بشعور مشترك: أنَّ الله حقٌّ، وأنه القابض على ناصية كلِّ شيء. ألا يكفي ذلك دليلاً على وجوده؟!

هذا ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الدليل ـ دليل الفطرة ـ بقوله: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم﴾ [إبراهيم: ١٠] وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ

حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠] وقال جل وعزّ: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

وفي ذلك يقول ديكارت: «إن الله مبدأ العلم كما إنه مبدأ الوجود، وهو مبنى اليقين النظري، فنحن نعرف وجود الإدراك ووجود الله الذي يستنتج منه بلا واسطة معرفة بديهية، وأما وجود العالم فإنما نعرفه بالصدوقية الإلهية»(١).

ب ـ كمون هذه الفطرة وتجلِّيها عند الشدائد:

من المعلوم: أن فطرية الإيمان بالله لا تعني بالضرورة أن يكون الإنسان متوجهاً إلى الله دائماً، ملتفتاً إليه، متذكراً إياه في جميع حالاته وآناته، إذ رُبَّ عوامل تتسبب في إخفاء هذا الإحساس في خبايا النفس وحناياها، وأما عندما يرتفع ذلك الحجاب المانع عن الفطرة، إذا بالإنسان يسمع نداء فطرته بوضوح. ومواجهة الإنسان للمخاطر والشدائد من أبرز العوامل على إزالة ما حجب الفطرة عن الإيمان بوجود الله، وإلى هذا أشار القرآن بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ

---

(١) انظر كتاب موقف العقل والعلم، لمصطفى صبري (١/ ٢١٢) وقد شرح مراد ديكارت بقوله: إن لنا ميلاً لا قبل لنا برده إلى التصديق بوجود الأجسام، فهذا الميل فينا من الله، فلو لم تكن الأجسام موجودة في نفس الأمر لكان الله قد خدعنا.

﴿وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

ج ـ انحراف الفطرة:

غير أن الفطرة التي فطر الله الناس عليها قد يُصيبها بعض الآفات، والعاهات، والصَّوارف فتشوِّهها وتخرجها عن طبيعتها، كما يحدث ذلك في الحواس كالسمع والبصر، فقد يُولَد المولود سليم الحواس والأعضاء، إلا أنه قد يعترضه عارض يفقده سمعه أو بصره أو حسّه أو شيئاً من أعضائه.

وإلى هذه الحقيقة قصد رسول الله ﷺ بقوله: «ما من مولود يُولد إلا يُولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه، كما تُنتَجُ البهيمة بهيمة جمعاء، هل تُحسُّون فيها من جدعاء؟» ثم يقول أبو هريرة راوي الحديث: واقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾[1] [الروم: ٣٠]. وفي الحديث القدسي: «إني خلقتُ عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يُشركوا بي مالم أنزل به سلطاناً»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٧٥)، والبهيمة الجمعاء: مجتمعة الأعضاء لم يذهب من بدنها شيء.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة (٢٨٦٥). اجتالتهم: استخفوا بهم، وذهبوا بهم، وأزالوهم عما كانوا عليه.

ودليل الفطرة هذا هو الدليل الذي اعتمده الإمام الغزالي مضافاً إلى الأدلة القرآنية التي تُوقظ الفطرة، ولم يعرِّجْ على غيره من الأدلة إلا اقتداء بالعلماء النظَّار، فقد قال رحمه الله في كتابه «إحياء علوم الدين»:

«الأصل الأول: معرفة وجوده تعالى، وأول ما يُستضاء به من الأنوار، ويسلك من طريق الاعتبار، ما أرشد إليه القرآن، فليس بعد بيان الله سبحانه بيان» ثم ساق آيات تلفت نظر الإنسان إلى ما في هذا الكون من عجائب الخلق، ليتأمل بها، ويذعن لوجود خالقها، ثم قال:

«فليس يخفى على من معه أدنى مُسْكَةٍ من عقل إذا تأمَّل بأدنى فكرة مضمون هذه الآيات، وأدار نظره على عجائب خلق الله في الأرض والسموات، وبدائع فطرة الحيوان والنبات، أن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغني عن صانع يدبره، وفاعل يحكمه، ويقدره، بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره، ومصرَّفة بمقتضى تدبيره، ولذلك قال تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] ولهذا بعث الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ لدعوة الخلق إلى التوحيد، ليقولوا: لا إله إلا الله. وما أمروا أن يقولوا: لنا إله، وللعالم إله، فإن ذلك كان مجبولاً في فطرة عقولهم من مبدأ نشوئهم، وفي عنفوان شبابهم، ولذلك قال الله عزّ وجل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾

[الروم: ٣٠]. فإذاً في فطرة الإنسان وشواهد القرآن ما يُغني عن إقامة البرهان، ولكنا على سبيل الاستظهار، والاقتداء بالعلماء النظَّار نقول...». ثم ساق رحمه الله الأدلة العقلية على وجود الله جلَّ جلاله [1].

فإذا انحرفت الفطرة وتشوَّهت كان لابدّ من إقامة برهان بل براهين، لتدلَّ على وجود الله تعالى، لتعودَ الفطرة إلى سلامتها، وصحتها، وأصالتها.

ومما سبق نُدرك أنه لو تُرِكَ الإنسان وشأنه من غير أن يعترضَ سبيله معترض، ما نشأ إلا مؤمناً بوجود خالقه، ومعترفاً بحاجته إليه، يحسُّ بهذا في أعماق نفسه، من غير أن يكون بحاجة إلى دليل وبرهان، بل يتحقَّق ذلك بداعي الفطرة السليمة الصافية.

الدليل الثاني ـ بطلان الرجحان بلا مُرجِّح «دليل الإمكان»

معنى الرجحان بلا مُرجّح: أن يكون الشيء جارياً على نسق معيّن، ثم يتحيَّز عن نسقه، ويتحوّل عنه دون وجود أيِّ مغير، أو محوِّل إطلاقاً، وذلك ككفتي الميزان المتساويتين ترجح إحداهما على الأخرى دون أي سبب من الأسباب، فهذا من الأمور الواضحة البطلان، وجميع العقلاء يعلمون: أن الأصل بقاء ما كان على ما كان عليه، ولابدّ لتحويله عن حاله السابقة من سبب محوّل، ومؤثر يفرضُ عليه هذا الوضع الجديد، وينسخ عنه تلك الحال القديمة.

---

(١) إحياء علوم الدين؛ للإمام الغزالي (١ / ١٠٥ ـ ١٠٦).

إذا عرفتَ هذا؛ فلْنُطَبِّق هذا البرهان على مسألة وجود الله عزّ وجل.

إن جميع الأمور والأشكال المفروضة في الذهن، لا تعدو أن تكون متصفة بأحد أوصاف ثلاثة: الوجوب ـ الاستحالة ـ الإمكان (الجواز). فما اتَّصفَ بالوجوب: هو ما يُحيل العقل عدمه. وما اتَّصف بالاستحالة: هو ما يُحيل العقل وجوده. وما اتَّصفَ بالإمكان: هو ما لا يُحيل العقل وجوده ولا عدمه.

وهذا الكون الذي نراه في جملته، إنما هو من نوع الممكن، أي: إن العقل يجزم بأنه لا يترتب أيُّ محال على فرض انعدامه، ويرى: أن من الممكن أن تُوجدَ أسباب تعدمه من أصله، دون أن يستلزمَ ذلك محالاً لا يقبله العقل، إذاً فوجود الكون بحد ذاته ليس ضرورياً، وليس ضربة لازب، وكل ما كان هذا شأنه، فلابدّ له من مؤثر خارجيّ يرجح فيه أحد جانبي الإمكان، ويبعد عنه الجانب الآخر، وهذا يعني: أنه لابدّ لهذا الكون الذي كان في أصله قابلاً لكل من الوجود والعدم على حدّ سواء، لابدّ له من قوة خارجة عنه مؤثرة فيه خصصته لجانب الوجود، وتلك القوة هي قوة الله تعالى.

فإن قلت: إنني أفرض أنه وُجِد بذاته دون أية قوة مُؤثرة فيه من الخارج استلزَم فرضك هذا القول برجحان الشيء من دون مُرجِّح له، وهو باطل كما علمتَ، فبطلت الفرضية التي استلزمها أيضاً.

ونزيد المسألة إيضاحاً فنقول: لا ريب: أنه قد أتى حين من

الدهر لم يكن هذا الكون فيه شيئاً مذكوراً، إذ كان العدم المطلق هو المنبسط في مكان الوجود اليوم ـ كما أثبتنا ذلك سابقاً ـ ومعنى ذلك: أن كفَّة العدم كانت إذ ذاك هي الراجحة، وكان الأمر مستمراً على ذلك، ثم إن الأمر انعكس بعدئذ فترجَّحت كفَّة الوجود على كفَّة العدم المطلق، فإن قلت: إن العالم وجد بقوَّة ذاتية فيه دون حاجة إلى موجد، فمعنى ذلك أنك تقول برجحان كفة الوجود على كفة العدم، وانعكاس الأمر الذي كان مستمراً دون أن يُوجد أيّ عامل لهذا الرجحان أو الانعكاس الطارىء، وهذا أمر يعرف الإنسان بطلانه بمحض الفطرة والبداهة.

إنك لو ذهبت تزعم بأنك قد أمسكت الميزان من حلقه الدقيق، وتركت الكفتين فيه بوزن واحد، دون وجود أيِّ ثقل إضافي في إحداهما، وبينما الكفتان متساويتان إذا بواحدة منهما ترجح والأخرى تطيش دون أي مؤثر خارجي يتصوره الذهن، إنك لو زعمت ذلك، لتركت الناس كلهم يشفقون على فكرك وعقلك فكيف لو قلت لهم: إنك قد وضعت ثقلاً في إحدى الكفتين، وبينما أنت تمسك الميزان من حلقه، والكفة الثقيلة راجحة تنوء بحملها، إذا بالأمر يختلف، فتطيش الثقيلة بثقلها، وتهبط الخفيفة رغم خفتها؛ هكذا من غير سبب.

إن القول بأن العدم المطلق المستمر، تحوَّل فجأة إلى وجود يتفاعل ويتوالد دون أي مسبب خارجي لهذا التحول، ليس بأقل استحالة وغرابة من دعوى صاحب الميزان الآنف الذكر.

فإذا ثبت لدينا: أن هذا الكون العظيم لابدّ من مُرجِّح رجَّحَ

وجوده على عدمه، وأن هذا الكون قد وُجد على أبدع طراز وأحسن نظام، ثبت لنا أن صانع الكون هو الخالق العظيم الواجب الوجود ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة: ٧].

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الدليل في آي كثيرة، فقال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٥] وقال جلّت قدرته: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَـٰمَةِ مَنۡ إِلَـٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَـٰمَةِ مَنۡ إِلَـٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١ ـ ٧٢]. وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩]. وقال عزّ وجل: ﴿ نَحۡنُ خَلَقۡنَـٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَـٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِى مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّـٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِى تَشۡرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحۡنُ جَعَلۡنَـٰهَا تَذۡكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلۡمُقۡوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٧ ـ ٧٤].

هذا ولابدّ هنا من بيان: أن الترجيح من غير مُرجِّح غير

الرجحان من غير مُرجِّح. إذ الأول جائز، والثاني مستحيل، ولنضرب مثالاً على الأول وجوازه فنقول: إذا كنت ظمآن، وطلبت ماءً لتشرب، فأتي إليك بطبق عليه عدة كؤوس، فمددت يدك فأخذت كأساً منها، فهنا قد رجحت كأساً على آخر، وأخذته لتشربه، وهنا نتساءل: ما هو الداعي لك إلى أن تختار هذا الكأس بعينه على سائر الكؤوس؟ لاشك أنك قد تُجيب بأنه لا سبب، بل رجحت دون أن يكون هناك مُرجِّح، واخترت هذا الكأس دون أن يكون هناك سبب لاختياره، وهذا أمر جائز ممكن يقع كثيراً في حياتنا اليومية، أما انتقال الكأس بنفسه إلى يدك، من غير أن يكون هناك سبيل لانتقاله؛ فهذا من الأمور المستحيلة.

الدليل الثالث ـ بطلان التسلسل

بعد أن قدَّمنا دليل بطلان الرجحان بلا مرجِّح، لو أن الإنسان كابر وقال: أنا أفرضُ: أن العالم قديم في وجوده هذا، فهو لا أول له، ولا سبق للعدم عليه، وبذلك لا تُوجد إلا كفَّة واحدة، فما هو الدليل على وجود الله؟

هنا لابدّ من الانتقال إلى حقيقة أخرى هي بطلان التسلسل.

إن هذا القائل يدَّعي أن هذا العالم مستمر بحكم التوالد الذاتي الذي لا أوَّل له، وهذا الادعاء يستلزم إمكان التسلسل، ولقد قرَّر العقلاء كلهم بحكم البداهة أن التسلسل محال، فيتبين بذلك استحالة الادعاء الذي أدّى إليه.

ومعنى التسلسل: أن يُفرض أن المخلوقات كلها متوالدة بعضها عن بعض إلى ما لا نهاية، بحيث يكون كل واحد معلولاً لما

قبله، وعلةً لما بعده دون أن تتصل هذه السلسلة أخيراً بعلة واجبة الوجود، هي التي تضفي التأثير المتوالد على سائر تلك الحلقات.

إن هذا الفرض باطل، يحكم العقل باستحالته بالضرورة، إذ إن سلسلة المخلوقات الممكنة مهما طالت وطالت؛ فإن استمرار طولها لا يخرجها على كل حال عن كونها ممكنة، والممكنات لابدّ لرجحان أحد طرفي الإمكان فيها من مرجح كما قلنا.

فهذه السلسلة الطويلة التي تقول: إنها ماضية في غور سحيق لا تنتهي، مكوّنة من حلقات؛ كلٌّ منها لم يكن يُوجد لولا أن الحلقة السابقة عليها أعطتها الحياة والوجود، وتلك التي أعطتها الحياة كذلك، إذاً فحلقات السلسلة كلها لا تأثير ذاتي في واحدة منها مهما طالت، وإذاً فلكي نصدق أنها موجودة لابدّ أن ننتظر ظهور المؤثر الخارجي الذي أمدَّ السلسلة بالحياة التي راحت بدورها تنتقل من حلقة إلى حلقة، وإلا كان لابدّ من الجزم بأحد أمرين: إما أن السلسلة مفقودة، إذ لم يثبت وجود ذلك الذي قذف فيها الحياة، وإما أنها موجودة ولكنها تنبع أخيراً من ذات واجبة الوجود تؤثر فيها، ولا تتأثر هي بشيء. فأما الأول فظاهر البطلان، لأن الحس والمشاهدة يُكذِّبانه، والعالم موجود، وتوالد العلل أمر مرئي ومحسّ. بقي الأمر الثاني، وهي تَيَقُّن: أنه لابدّ من مصدر ذاتي وهبه الحياة والقدرة على الحركة والتطور والتوالد، فبطل التسلسل المذكور.

ولنضرب للمسألة أمثلة أقل صغراً من حجم العالم، كي يزداد الأمر بداهة ووضوحاً:

١ ـ لو وقفتُ أدعي أمامك حقيقة علمية أستيقنها، ولمّا سألتَني الدليلَ على ذلك ذكرتُ لك برهاناً هو نفسه دعوى تحتاج إلى برهان، ولمّا سألتني عن برهان هذا البرهان جئتك ببرهان مثله في التوقُّف على برهان آخر، وهكذا إلى مالا نهاية. أي: دون أن تنتهي هذه البراهين كلها إلى حقيقة ضرورية معروفة بالبداهة، فإنك تكذبني في دعوى اليقين بهذه الحقيقة، بل تكذبني في وجودها أصلاً، إذ لم يقم عليها أيُّ برهان بعد، وكل البراهين المتسلسلة التي فرضنا أنها لا نهاية لها ليست إلا ظلالاً تنتظر أصلها الأول، فإن لم يُوجد ذلك الأصل، فهذه الظلال نفسها غير موجودة، ومن ثمَّ فإن الحقيقة المدَّعاة أيضاً تكون غير موجودة.

٢ ـ أبصرتَ في دار صديقك نباتاً ذا زهر جميل ورائحة زكية، ولمَّا سألتَه من أين وقع على هذه الزهرة الجميلة، قال: إنها فرع أخذه من أصل عند دار جاره، ولما سألت الجار أجابك هو الآخر: بأن الذي عنده ليس إلا فسخاً حصل عليه من بيت أحد أصدقائه، ثم أجابك الثالث أيضاً بمثل جواب الثاني، وهكذا أجاب الرابع فالخامس فالسادس. . . ونفرض: أن السلسلة استمرت على هذه الشاكلة، كل منهم يُجيبك بأن الذي عنده ليس إلا فسخاً من غيره، وعبثاً رحتَ تسير مع هذه السلسلة لتبحثَ عن أصل هذا النبت ومولده الذي أعطاه الظهورَ والتكوين، وقابلية التفرُّع، فما الذي يحكم به عقلك على هذا الكلام عند أدنى تفكير؟

لا ريب: أنه يحكم بكذب هذا الكلام، لأن التفرُّعَ مهما توالد وتكاثر فإنه لا يكون إلا نتيجة وجود أصل ثابت بنفسه، يمدّ تلك

الفروع بالوجود أو الحياة، وإن قيل: إنه لا يُوجد له أصل، وفرضنا أن القائل صادق، فمعنى ذلك: أنه لم يُولد بعد، وإذاً فلا وجودَ لشيء من هذه التفرُّعات المزعومة أيضاً، أما إذا كنت تجد فروع النبات بعينك، فمعنى ذلك أن له أصلاً ذاتياً أمدّ هذه الفروع كلها بالوجود، مهما كان هذا الأصل بعيداً، ومهما كنت لا تتذكره، أو تقف عليه.

إن أيَّ عاقلٍ يدرك أن تسلسلَ العلل التي تكتسب القدرة على العلِّية من العلَّة التي قبلها، مثل تسلسل الأصفار، وتسلسل فروع النبات، وتسلسل البراهين المذكورة.

ولذا فإن أي عاقل لا يستطيع أن يزعمَ أن وجود العالم كله ليس قائماً إلا على سلسلة متوالدة من غيرها، دون أن يكون قبلها مؤثر ذاتي خارج عن حقيقتها، واجب الوجود، إلا إذا صحَّ له أن يزعم بأن قيمة المليون لم تتكون إلا من أصفار تتعاور القيمة فيما بينها، دون أن تستندَ إلى رقم ذاتي قبلها، أو أن يزعم بأن الورد المتوافر في الحدائق والبيوت، ليس في أصله إلا فروعاً مأخوذة من بعضها دون أن ترجع إلى نواة كانت قد أمدَّتها بأصل الوجود.

ولقد قال العلامة الشيخ مصطفى صبري عليه رحمة الله، في كتابه: «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين» في موضوع بطلان التسلسل: «فإذا قلت للخصم الملحد الذي يَدَّعي كونَ جميع الموجودات محتاجة إلى علة موجودة، ولا يعترف بموجود واحد واجب الوجود، أي: غير محتاجٍ إلى موجد، إذا قلت له: ما علة هذا الموجود الذي يحتاج إلى عِلَّةٍ موجدةٍ؟ فأجاب: بأنها وجود

موجود آخر يتقدمه، ويحتاج مثل الموجود الذي سألت عن علة وجوده إلى عِلَّةٍ مُوجدة، ثم قلت له: وما علة وجود ذلك الموجود المتقدم؟ فأجاب: بأنها موجود ثالث أقدم في الوجود، ومثل الثاني في الحاجة إلى العلة الموجدة، ولم يقطع سلسلة الجواب على هذا المنوال، مهما أطلتَ وتوغَّلتَ في السؤال؛ فاعلم أن هذا الخصم يخدعك، ويغالطك، ويُعلِّلك في أجوبته بما ليس من الجواب في شيء، كما يخدع نفسه قبلك، ويغالطها، ويعلِّلها، أعني: أنه يعجز عن إراءة علة لوجود ذلك الموجود الذي سألته أولاً عن علة وجوده، فيفر من الجواب على سؤالك، غير شاعر أنه يفر، ثم يحاول أن يسترَ فراره من الجواب بإحالة الأمر على ظلمات ماض لا بداية له، والذي يريكه علَّة قبل علَّة، ويستمر في الإراءة حتى تحصل سلسلة من العلل لا بداية لها، فليس شيء من ذلك بعلة، إذ لا أصل له ولا وجود»[1].

هذا وقد أقام المتكلِّمون على إبطال التسلسل برهاناً، أسموه برهان التطبيق، وقد ذكر الشيخ الباجوري رحمه الله في حاشيته على الجوهرة هذا البرهان فقال: «وتقريره: أنك لو فرضتَ سلسلتين وجعلت إحداهما من الآن إلى ما لا نهاية له، والأخرى من الطوفان إلى ما لا نهاية له، وطبقت بينهما بأن قابلت بين أفرادهما من أولهما، فكلما طرحت من الآنِيَّة واحداً طرحت في مقابلته من الطوفانية واحداً، وهكذا، فلا يخلو إما أن يفرغا معاً، فيكون كل

---

(١) موقف العقل والعلم (٢ / ١٨٢ ـ ١٨٣).

منهما له نهاية، وهو خلاف الفرض، وإن لم يفرغا لزم مساواة الناقص للكامل، وهو باطل، وإن فرغت الطوفانية دون الآنِيَّة كانت الطوفانية متناهية والآنِيَّة كذلك، لأنها إنما زادت على الطوفانية بقدر متناه، وهو ما من الطوفان إلى الآن، ومن المعلوم: أن الزائد على شيء متناه بقدر متناه يكون متناهياً بالضرورة»[1].

هذا ونختم هذا الدليل بما قاله «رونويه» مؤسس الفلسفة الانتقادية الحديثة، في كتابه الذي ألَّفه انتقاداً لفلسفة «كانت»:

«نحن نقول مع أرسطو واضع دليل المحرك الأول في إثبات الواجب، والذين جاؤوا من بعده ممن لا يُحصى عددهم من الفلاسفة، وحتى مع «كانت» نفسه أيضاً بالنظر إلى أقواله في غير هذا الموضع، وهو موضع نقده لأدلة إثبات الواجب: إنَّ احتياج الفكر إلى الوقوف في مرحلة ما عند رجوعه من علة إلى علة، قانون من قوانين العقل»[2].

الدليل الرابع ـ بطلان الدور

معنى الدور الباطل: أن يتوقَّف الشيء في وجوده المطلق أو تكييف معين له على شيء آخر، بينما يكون هذا الشيء الثاني متوقفاً وجوده أو تكييفه على الشيء الأول، إذ إن كل واحدٍ من الأمرين يتوقف وجوده على وجود الآخر، فيترتب على ذلك عدمِ وجود

---

(١) حاشية الجوهرة للباجوري (ص ٣٢) وانظر المواقف في توضيح هذا البرهان (ص ٩٠).

(٢) موقف العقل والعلم (٢/١٧٨).

واحدٍ منهما، وهذا الدور باطل؛ لأنه يستدعي أن يكون الشيء متقدِّماً على نفسه متأخراً عنها في آن واحد، وهذا محال فما يترتب عليه، فهو محال.

ولقد وضّح الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي استحالة الدور بمثال مادِّيٍّ، فقال: «مثال ذلك: مالو فرضنا أنك حاولت الانتساب إلى كلية التربية، فقيل لك: إن ذلك متوقف على أن تكون موظفاً في سلك التدريس الرسمي، ولما حاولت أن تدخلَ في سلك التدريس قيل لك: إن ذلك متوقف على أن تكون متخرِّجاً من كلية التربية، إن من البدهي أنك لن تستطيع أن تُحقِّقَ لنفسك أي الغرضين ما دام الأمر كذلك».

وعلى هذا فلو ادَّعى مدعٍ: أن العالم حادث، ولكن حدوثه لم يكن لشيء خارج عنه، بل إنه تفاعل مع ذاته، فهذا الكلام يقتضي أن يكون وجود العالم مبنياً على وجوده، وهذا دور، والدور مستحيل، لأنه يقتضي تقدُّم الشيء على نفسه وتأخره عنها، وهذا مستحيل، فما ترتب عليه فهو مستحيل، فثبت أن وجود العالم حادث لابدّ من أن يكون على شيء ذاتي خارج عنه. قال الشيخ الباجوري في حاشيته على الجوهرة:

«والدليل على وجوب الوجود له تعالى أن تقول: يجب افتقار العالم إليه، وكلّ من وجب افتقار العالم إليه فهو واجب الوجود،ينتج: الله واجب الوجود، دليل الصغرى ما تقدَّم من أن العالم حادث، وكل حادث يجب افتقاره إلى مُحدث. ودليل الكبرى: أنه لو لم يكن واجب الوجود لكان جائزه، فيفتقر إلى محدث، ويفتقر محدثه إلى

محدث، فإن رجع الأمر إلى الأول مباشرة، أو هو بواسطة؛ فالدور، لأنه دار الأمر ورجع إلى مبدئه، وإن تتابعَ المحدثون واحداً بعد واحد إلى ما لا نهاية؛ فالتسلسل، لأنه تسلسلَ الأمر وتتابع، وكل من الدور والتسلسل محال، فما أدى إليه ـ وهو افتقاره إلى محدث ـ محال، فما أدى إليه وهو كونه ليس واجب الوجود محال، وإذا استحال كونه ليس واجب الوجود ثبت كونه واجب الوجود، وهو المطلوب، وحقيقة الدور: توقف الشيء على ما توقَّف عليه إما بمرتبة أو أكثر، وحقيقة التسلسل: ترتب أمور غير متناهية، وإنما كان الدور مستحيلاً، لأنه يلزم عليه كون الشيء الواحد سابقاً على نفسه مسبوقاً بها، فإذا فرضنا: أن زيداً أوجد عمراً، وأن عمراً أوجد زيداً، لزم أن زيداً متقدم على نفسه متأخر عنها، وأن عمراً كذلك»[1].

الدليل الخامس ـ دليل العِلَّة الغائيَّة

هذا الدليل يُسمَّى عند الأشعرية بدليل الحكمة، ودليل نظام العالم، وذلك لأنهم لا يرون تعليلَ أفعال الله بالعلل الغائية المسمَّاة بالأغراض، وذلك لملاحظة سامية، وهي أن تعليلَ أفعال الله بالعلل «الأغراض» يُوهم نقصاً في حقِّه تعالى، فيستكمل بتحصيل تلك الأغراض، ولذلك عدلوا عن التسمية بدليل العلة الغائية إلى دليل الحكمة والنظام.

وخلاصة هذ الدليل: أن هذا العالم من أصغر جزء فيه إلى أكبر

---

(١) حاشية الجوهرة، للباجوري (٣١ ـ ٣٢).

جرم فيه، إذا تأمَّلته وجدت أنه قد وضع ليُحقِّقَ غاية معينة، وهذا لا يمكن أن يكون وليد المصادفة، بل لابدّ من أن يكون وراء ذلك موجد لهذا الكون، أتقنَ صنعه، وأحسنَ نظامه.

وتفصيل ذلك: أنك لو نظرت إلى بناء هذا الكون العجيب وهندسته، رأيت في تراكيب أجزائه بعضها مع بعض، وتركيب أجزاء أجزائه، وفي تراكب ذراته الدقيقة التي لا تتجزأ تطابقاً على أدقِّ ما يمكن أن يتصور من معاني الدقة، ورأيت الأجزاء الصغيرة فيه مندفعة إلى تحقيق غايات معينة بالتآلف مع الأجزاء الأخرى، ورأيت بعد ذلك مجموع الأجزاء والجزئيات مندفعة إلى تحقيق غاياتٍ نوعية سامية ضمن ظروف وشروط لو تخلف بعض منها، قلَّ، أو كثر، لما تحققت تلك الغايات، بل سرى الفساد إلى جميعها.

ولو رحتَ تسردُ وتصفُ مظاهرَ التنظيم والتناسق بين شتَّى المكوِّنات التي تراها أمامك؛ لضاق العمر كلّه عن استقصاء ذلك وتجليته، ولارتدَّ إليك الفكر خاسئاً حسيراً من روعة هذا التدبير العجيب الذي يسري بدءاً من كهارب الذرات، إلى الأرض وشتى ما عليها من مكونات، إلى السماء وشتى ما فيها من أفلاك، ولرأيت أنها كلها تسير وفق نظام منسَّق ومبرمج لا يتخلَّف، وكلها يطوف حول غايات رائعة عجيبة ينتهي معظمها من قريب أو بعيد إلى خدمة هذا الإنسان ومصلحته.

تتأمل في الأرض، فتجد أن لها وزناً معيَّناً، وتتأمل في هذه الجاذبية، فتجدها مقدرة بالقدر الذي يقيم الإنسان في حياة منتظمة عليها.

فلو زاد وزن الأرض، لزادت جاذبيتها، ولو زادت جاذبيتها لما استطاع الإنسان أن يتنقل عليها، ولالتصق بها، فما يملك إلا أن يجرَّ نفسه عليها جرّاً.

ولو قلَّ وزن الأرض لقلَّت الجاذبية، ولما أمكن الإنسان أن يستقر عليها كما يريد، ويدلُّك هذا بوضوح على أن للأرض غاية هي أن تكون قراراً ومهاداً للإنسان، يجد عليها مستقره الآمن.

وتتأمل في عينك الباصرة، فتجدها في جملتها وتفصيلها قائمة على أدق قوانين الرؤية التي لا يزال يحار العلماء في فهمها، ثم تنظر فتجد قوانين الضياء في الكون قد مهَّدتْ لها وعبَّدت لها الطريق من قبل، فلا تشك في اجتماع هذه وتلك على غاية معينة، هي أن ترى بهذين الثقبين العالم المرئي أجمع.

ويتجسَّد أمامك هذا المعنى عندما تستمع إلى أي عالم، وهو يصف لك دقائق العين مثلاً وكيفية تركيبها، فتجده لا يفتأ يستعمل لام التعليل الدالة على الغاية في كل جملة من جمله، فتراه يقول: إنما كان كذا لكذا.

وتتأمل في رئتك فتجد: أنها منسجمة مع نسبة مولد الحموضة في الجو، حتى لو ازدادت أو نقصت لما تهيَّأ لك الشرط الكامل للحياة، فلا تشك: أن هذين المظهرين يلتقيان لتحقيق غاية متعلقة بتحقيق كامل الأسباب لحياتك.

وتتأمل في ذاتك وما أودع فيها من القوى المدركة، وأنت جزء من هذا الكون فتجد: أنك قد أعطيت سلاحاً لا ينتهي العجب من شأنه، ولا يقف عقل العالمين كلهم على حقيقته، وتتأمل فتعلم:

أن لوجود هذه القوة غاية معينة هي أن تُسَخِّر بها كل ما تراه حولك من مظاهر المكونات، وأن تمتلك بها مقاليد الاستفادة منها، وأن تسبر أغوارَها إلى جذورها وقوى الفاعلية فيها.

أليس من الإتقان البديع المحير هذه المجموعات الكبرى في عالم الحيوان، سواء منها الطائر، والسابح، والماشي، والزاحف، المتقنة في أشكالها، وأوضاعها، وألوانها، وخواصِّها، وطبائعها، وطرق عيشها، وكبيرها، وصغيرها؟!

سل عالِم الحيوان عن عجائب الحيوانات وغرائبها، وإتقان تكوينها، يُبْدِ لك من أمرها عجباً يسلمك إلى الدهشة والحيرة في مدى حكمة صانعها.

أليس من الإتقان البديع المدهش هذه المجموعات الكبرى في عالم النبات؛ سواء فيها أشجارها وزرعها، هوائيها، ومائيها، بثمارها، وأزهارها، وأوراقها، وأخشابها، ولَدِنِها، وصُلْبِها، بألوانها، وأشكالها، وطعومها، وروائحها، وخواصِّها؟!

سل عالِم النباتات عن النبات، يشرح لك من أمرها ما يُفجِّر في قلبك الإيمان بصانعها العظيم الذي أتقنَ كل شيء صنعاً.

أليس من الإتقان البديع تكوين الأرض ببحرها، ويابسها، بجبالها، وأغوارها، وأوديتها، وسهولها، بصخورها، ورمالها، وأتربتها، ومعادنها، بينابيعها، وأنهارها، بألوانها، وطرقها، وما إلى ذلك؟!

سل عالِم الجغرافية وعالم الكيمياء وعالم طبقات الأرض، سل عالِم الطبيعة أياً كان اختصاصه، يظهر لك هؤلاء من إتقان تكوين

الأرض عجباً يهديك إلى رشدك، ويعرّفك بوجود الصانع الحكيم ووحدته.

إنه كلما تقدَّم العلم، وازدادت المعارف التجريبية، تعرّف الإنسان على دقائق جديدة من إتقان الصنع في هذه الموجودات الكونية، وازداد إيماناً بالصانع الحكيم.

ومن هنا أثنى القرآن الكريم على العلماء بعد أن لفت نظرهم إلى ما في هذا الكون من مظاهر الإبداع والإتقان، قال الله تعالى في سورة فاطر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧ ـ ٢٨].

هذا ولقد ضرب الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي أمثلة تقرِّب هذا الدليل فقال:

«١ ـ افرض أنك نظرت إلى وعاء أمامك، فوجدت فيه نثاراً من الآلات المختلفة الدقيقة، ولما تأمَّلتها جيداً بدأت تُدرك صلة انسجام وتآلف بين جزئيات هذه الآلات، واكتشفتَ: أنَّ لكل واحدة منها مكاناً تركيبياً دقيقاً من الأخرى، فأخذت تجمعُ هذه الأجزاء إلى بعضها، وتؤلف بينها وفق هذا التركيب المصمَّمة على أساسه، وعندما فرغتَ من وضع آخر آلة منها في موضعها، فُوجئت بصوت دقيق رتيب ينبعث في حركة مطردة من داخل تلك الآلات التي انقلبت إلى جهاز متكامل، وتأمَّلت فإذا هي ساعة

زمنية، تضبط سير الزمن وحركته. فما الذي تدركه عقب هذا كله؟

إنك تُدرك دون ريب: أن لكل آلة من تلك الآلات الدقيقة غاية جزئية معينة قد هُيِّئت لتحقيقها، وأن لمجموعها غاية نوعية واحدة؛ هي ضبط الزمن.

وتُدرك مع هذا ـ دون ريب أيضاً ـ: أن هناك مُدبراً وراء دفع هذه الآلات الدقيقة إلى تحقيق هذه الغاية النوعية العظيمة.

٢ ـ افرض أنك دخلتَ أحد المطارات العالمية الفخمة، ومعك حقائبك التي شغلت بها كلتا يديك، ولما دنوت من الباب الزجاجي فُوجئت بكلا مصراعيه ينفتحان أمامك في حركة تلقائية مجردة، حتى إذا دخلت وتجاوزته عاد مغلقاً كما كان، وبينما أنت تشكر هذه المصادفة العجيبة التلقائية، ملتفتاً إلى الباب في دهشة واستغراب، إذا به ينفتح مرة أخرى في استقبال قادم آخر مثلك، وعندئذ وضعت حقائبك تتأمل، فرأيت: أن المسألة تتكرر بانتظام كلَّما جاء قادم ودعت الحاجة.

ولما رحت تبحث عن حقيقة الأمر بدافع التطلُّع الفكريِّ لديك، أدركت: أن الباب يرتكز على جهاز خفي من تحته، سرعان ما يتأثر عند اجتياز شخص من فوقه، على نحو يدفع مصراعي الباب إلى التجافي والانفتاح.

وينقدح في ذهنك بحكم البداهة أنَّ لهذا الجهاز وحركته هذه عِلَّة غائية، هي تسهيل المرور على المسافر؛ الذي قد لا تُساعده يده ـ لما يحمل معه من أمتعة ـ على دفع الباب، ولما كانت هذه الغاية

الإنسانية الرائعة مما لا يمكن أن تسند إلى الآلات الجامدة التي لا تُحسُّ، ولا تعقل، فقد كان لابدّ أن يكون هذا التصميم من تدبير بعض المفكرين.

فهذا المعنى الذي ظهر لك في هذين المثالين ينطبق على كل الأمثلة المشابهة، فما من مجموعة تركيبية تتناسق في سبيل تحقيق غاية تطرد في تحقيقها إلا ومن وراء هذه الجملة عقل مدبر. واضرب مثلاً لذلك جميع الأجهزة المتنوعة المختلفة، وجميع ما يُسمَّى بالمصنوعات من ألبسة، وأثاث، وفرش، ودور، وغير ذلك.

فهذه الحقيقة البدهية التي يُطلق عليها اسم: «دليل العلة الغائية» أو: «دليل الحكمة والنظام في الشيء» هي أصل في مسألة الدليل على وجود الله، يقوم على علة مؤثرة ثابتة بالاستقراء التام»[1].

هذا ولقد اعتنى القرآن الكريم بهذا الدليل أكثر من غيره من الأدلة، حتى إنه لقد أمكن أن نسميه دليل القرآن، وذلك لأن كثيراً من آياته طافح به، فمن ذلك قوله تعالى في سورة فاطر:

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩] وفي السورة نفسها يقول سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى

---

(١) كبرى اليقينيات؛ للدكتور البوطي (٧٥ ـ ٧٦).

ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٢ ـ ١٣].

وفيها يقول أيضاً سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

وقال تعالى في سورة الروم: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم: ١٧ ـ ٢٦].

وقال تعالى في سورة النبأ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ٦ ـ ١٦].

وقال تعالى في سورة عبس: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢].

وقال جلّت قدرته في سورة النحل: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى

ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ٣ ـ ١٦].

هذا إلى كثير من الآيات التي تُجلِّي دليلَ العلة الغائيَّة، أو دليل الحكمة والنظام، والتي تجدها منبثة في كثير من السور القرآنية، ولاسيّما السور المكية، حيث كانت الآيات القرآنية تعنى أكثر ما تعنى بتوضيح العقيدة الإسلامية وتثبيتها.

ولظهور هذا الدليل وبداهته، أو قربه من البداهة عجب حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي، ممن يرى هذا الكون بأُمِّ عينيه، ويطَّلع على ما فيه من نظام وإبداع ثم لا يدعوه ذلك إلى الإيمان بوجود خالقه.

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى:

«والعجبُ كل العجب ممن يرى خطّاً حسناً، أو نقشاً حسناً على حائط فيستحسنه، فيصرف جميعَ همِّه إلى التفكير في النقَّاش، والخطَّاط، وأنه كيف نقشه وخطَّه؟! وكيف اقتدر عليه؟! ولا يزال يستعظمه في نفسه، ويقول: ما أحذَقه! وما أكملَ صنعته! وأحسن قدرته! ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره، ثم يغفل عن

صانعه ومصوِّره، فلا تدهشه عظمته، ولا يُحيِّره جلاله، وحكمته»[1].

دعوى وردّها:

لقائل أن يقول: إن هذا الكون بتنظيمه وترتيبه يحتمل أن يكون بمحض المصادفة، فمن المحتمل أننا لو نثرنا كمية كبيرة من الحروف المطبعية على سطح فسيح أملاً في أن يتشكَّل منها ديوان شعر لمثل: «هوميروس» أو «فيكتور هوجو» أو قل: «المتنبي» أو «البحتري» وتكررت هذه المحاولة سنوات طويلة، فمن المحتمل أن يحصلَ في كل مرة أو مرات من نثر تلك الحروف تشكُّل جزء من تلك القصائد ثم جزء آخر إلى أن يكتمل الديوان.

ولقد ذكرَ هذا الافتراض - الذي يحتجُّ به بعضهم - الشيخ مصطفى صبري، ثم ردّ عليه بردود، منها: قوله:

«فيرد عليهم: أن عدم الانتظام لا يتحول بنفسه إلى نظام، ولو دام ألف ألف عام، بل يزيده الدوام تشوشاً وارتباكاً، وهكذا الحال في مثال ديوان شعر، ولا يُجديهم نفعاً احتمال تشكُّل جزء من قصائد الديوان في كل نثرة، إذ لا يكون من حقهم أن يفرضوا حفظ الجزء المتشكِّل ونثر ما عداه في المرة الثانية، حتى يتشكَّل جزء آخر، وهكذا إلى أن يتم تشكُّل القصائد، بل يلزم أن يفرض في كل مرة نثر جميع الحروف المنثورة في المرة الأولى الشاملة لحروف الجزء المتشكِّل، فينفضّ في المرة الثانية ما انتظم في الأولى، وإن كان في

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٤٣٩).

الإمكان تشكُّل جزء آخر ينفضّ هو أيضاً في المرة الثالثة، فلو لم نفرض هكذا؛ يكون حفظ الأجزاء المتشكلة في أيّ مرة، وحصر تكرار النثر في الباقي بعد تلك الأجزاء؛ نظاماً مقصوداً فيلزم خلاف المفروض؛ الذي هو عدم النظام، حتى إنه لو سُومح فلم يمنع حفظ الأجزاء المتشكلة في كل نثرة إلى أن اكتملت الأجزاء الكافية للقصائد، والقصائد الكافية للديوان، فلابدّ هناك من نثرة نهائية بل نثرات للحصول على ترتيب الأجزاء المتشكلة بعضها مع بعض، وترتيب القصائد المتشكلة بعضها مع بعض، وعند ذلك تنفضّ تلك الأجزاء المتشكلة، ويعود الارتباك العام»[1].

هذا ولقد ردّ بعضهم هذه الدعوى بقوله: «ولا شيء أدل على فساد هذا الفَرض كالمثل الذي أوردوه لدعمه والدليل عليه؛ لأن الفرضَ بوجود الحروف المتناسبة التي ترتبط بعلاقة اللفظ، وينشأ منها الكلام والمفهوم، لا يكون قبل وجود كلمة تشتمل على هذه الحروف، فمن أين لهم: أن أجزاء المادة المتماثلة ترتبط بينها علاقة التشاكل أو التشكيل على منوال العلاقة التي بين الحروف الأبجدية؟ ومن أين للمادة هذا التنويع في الأجزاء؟ ومن أين لهذا التنويع أن تكون فيه قابلية الاتحاد على وجه مفهوم؟!

ثم إنهم دون أن يشعروا قدّموا الفرض بوجود القوة التي تتولى التنسيق والتنضيد، وأن يكون وجودها موافقاً للجمع والتنضيد، وليس موافقاً للبعثرة والتفريق، وليس كل هذا بلازم من لوازم العقل. أيهما أقرب في ميزان هذا العقل: أن تتولى المادة نفسها

---

(١) موقف العقل والعلم (٢/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨).

ـ وهذه حالها ـ هذا التنظيم والإحكام عن طريق المصادفة، أم يكون ذلك بإرادة مريد يعلم ما يريد؟

وأيضاً: فإنهم فرضوا في هذه القوة الجامعة: أنها تعيد تنسيق الحروف على كل احتمال، كأنها تعرف بداءةً كيف تكون جميع الاحتمالات، فلم تستنفد هذه القوة جميع الاحتمالات إلى آخرها، ولم تتخبط في بعضها قبل انتهائها، ثم تعيدها أو تُكرِّرها بشيء من الاستئناف، وشيء من التجديد في جميع المرات، إلى غير انتهاء.

وأخيراً ـ وهذه ملاحظة دقيقة وهامة ـ فإن الوصول إلى تنضيدة مفهومة منظومة، لا يستلزم الوقوف عندها وتماسك الأجزاء عليها، فلماذا تماسك النظام في الكون بعد أن وجد مصادفة ولم يُسرع إليه الخلل؟ ولماذا بقيت التنضيدات تقوم وتقعد وتنعقد وتنفرط حتى وصلت إلى تنضيدة معينة ثبتت عندها اتفاقاً؟ ما الذي قرَّر هذا الوضعَ، وجعله مفضلاً على الخلل والفوضى، وهما مثله ونظيره في كل احتمال؟!».

ولقد كتب الشيخ نديم الجسر في كتابه «قصة الإيمان» فصلاً يردُّ فيه على القائلين بالمصادفة، وأتى بأمثلة يبين فيها استحالة المصادفة في وجود هذا الكون، لقد ذكر في ثنايا كلامه قانون المصادفة فقال:

«إن حظَّ المصادفة من الاعتبار يزداد وينقص بنسبة معكوسة مع عدد الإمكانيات المتكافئة المتزاحمة» فكلما قلَّ عدد الأشياء المتزاحمة ازداد حظ المصادفة من النجاح، وكلما كثر عددها قلَّ حظ المصادفة.

ثم ذكر مثالاً على ذلك على طريقته الحوارية[1] فقال: لو فرض أنك تملك مطبعة فيها نصف مليون حرف مفرقة في صناديقها، فجاءت هزة أرضية قوية قلبت صناديقَ الحروف على بعضها، وبعثرتها، وخلطتها، ثم جاءك منضد الحروف يخبرك: أنه قد تألف من اختلاط الحروف بالمصادفة عشر كلمات متفرقة غير مترابطة المعاني، فهل كنت تصدق؟ يقولِ حيران: نعم أصدق.

فيقول الشيخ: ولكن لو قال لك: إن الكلمات العشر تؤلف جملة كاملة مفيدة، فهل كنت تصدق؟

فيجيب حيران: أستبعد ذلك جداً، ولكن لا أراه مستحيلاً.

فيقول الشيخ: ولكن لو أخبركَ: أن حروف المطبعة بكاملها كونت عند اختلاطها، بالمصادفة كتاباً كاملاً من (٥٠٠) صفحة، ينطوي على قصيدة واحدة، تؤلف بمجموعها وحدة كاملة مترابطة، متلائمة، منسجمة، بألفاظها، وأوزانها، وقوافيها، ومعانيها، ومغازيها، فهل كنتَ تُصدِّق ذلك يا حَيْران؟

فيجيب حَيْران: أبداً لا أصدِّقه يا مولاي!

فيسأله الشيخ: ولماذا لا تُصدِّقه يا حَيْران؟

فيجيب حَيْران: لأني هنا أجد الاستحالة بديهية حقاً.

فيسأله الشيخ: ولماذا يا حَيْران؟

---

(١) الحوار في كتاب «قصة الإيمان» بين الشيخ أبي النور الموزون وبين تلميذه: حيران بن الأضعف.

فيجيب حَيْران: لا أدري يا مولاي!

فيقول الشيخ: السبب يرتكز على قانون المصادفة نفسه، فالتزاحم بين حروف الكتاب يجري بين (٥٠٠) ألف حرف على تكوين (١٢٥) ألف كلمة تقريباً، بأشكال وترتيبات لا تعدّ ولا تُحصى أبداً، وهذا ما يجعل حظَّ المصادفة بنسبة واحد ضد عدد هائل جداً جداً، لو قلت عنه: إنه مليار مليار مليار مليار لكان قليلاً.

ثم يقول الشيخ: هذا في كتاب المطبعة وكلماته المحدودة يا حَيْران! فما قولك في كتاب الله الأعظم وكلماته التي يقول فيها: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩] ثم يقول: إنما عَنَيْتُ بكتاب الله هنا: العالم كله، وعنيت بكلمات الله ـ كما أراد الله ـ كل مافي ملكوت السموات والأرض من شيء محسوس من عالم الخلْق، أو معقول من عالم الأمر»(١).

جـ ـ أقوال لبعض الفلاسفة والعلماء في وجود الله سبحانه:

نذكر فيما يلي جملة من أقوال الفلاسفة والعلماء يعترفون فيها بوجود الله تعالى، نذكر ذلك لا لنقيم البرهان على وجوده سبحانه، ففيما مرّ، وفيما ذكره العلماء المسلمون ما هو فوق الكفاية، بل لِنُبيِّنَ أن العقلاءَ من هؤلاء إذا تجرَّدوا عن الأهواء والنزعات، وصلوا إلى معرفة الحقيقة، فآمنوا بها وأعلنوها. وأن العلم الحقيقي

---

(١) انظر قصة الإيمان، للشيخ نديم الجسر (من ٢٩٣ ـ ٢٩٦).

لا يبعد عن الإيمان بالله تعالى، بل هو سُلَّمٌ طبيعيٌّ إلى معرفة الله والإيمان به، إذا صعده العالم بروح التجرُّد وطلب الحقيقة، فإذا ما أكمل الإنسان صعوده في هذا السلم انتهى إلى الإيمان بالله، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨] وقوله بعدما لفت نظر الإنسان إلى ما أودع في هذا الكون من دلائل على وجوده وقدرته: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨].

وها نحن نذكر أقوال هؤلاء بشيء من التصرف في بعضها.

قال «ديكارت»: أنا موجود فمن أوجدني؟ ومن خلقني؟ إنني لم أخلقْ نفسي فلابدّ لي من خالق، وهذا الخالق لابدَّ أن يكون واجب الوجود، وغير مفتقر إلى من يُوجده، أو يحفظ عليه وجودَه، ولابدّ أن يكون متصفاً بكل صفات الكمال، وهذا الخالق هو الله بارىء كل شيء[1].

وقال «باسكال»: فإنه كان يمكن ألا أكون لو كانت أمي ماتت قبل أن أولد حيّاً، فلست إذاً كائناً واجب الوجود، ولست دائماً أو لا نهائياً، فلابد من كائن واجب الوجود دائم لا نهائي يعتمد عليه وجودي، وهو الله الذي نُدرك وجوده إدراكاً أولياً دون أن نتورط في جدل البراهين العقلية، ولكن على الذين لم يُقدَّر لهم هذا

---

(١) قصة الإيمان، للشيخ نديم الجسر، يرحمه الله (ص ١٢٧).

الإيمان القلبي، أن يسعوا للوصول إليه بعقولهم[1].

وقال «فرانك ألن» في مقالة كتبها تحت عنوان: «نشأة العالم هل هي مصادفة أو قصد؟» وهو عالم في الطبيعة البيولوجية[2]:

إذا سلَّمنا بأن هذا الكون موجود فكيف نُفسِّر وجودَه ونشأته؟ هناك احتمالات أربعة للإجابة عن هذا السؤال:

الأول: فإما أن يكون هذا الكون مجرَّد وهم وخيال، وهذا يتعارض مع ما سلَّمنا به من أنه موجود.

الثاني: وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم، وهذا مرفوض بداهة.

الثالث: وإما أن يكون هذا الكون أزلي الوجود، ليس لنشأته بداية، وهذا الاحتمال يساوي ما يقوله المؤمنون بالله بالنسبة لأزلية الخالق، لكن قوانين الكون تدل على أن أصله وأساسه مرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة، فهو إذاً حَدَثٌ من الأحداث، ولا يمكن إحالة وجود هذا الحدث المنظّم البديع إلى المصادفة عقلاً، ولذلك فهذا الاحتمال باطل أيضاً.

الرابع: وإما أن يكون لهذا الكون خالق أزلي أبدعه. وهو الاحتمال الذي تقبله العقول دون اعتراض، وليس يرد على إثبات هذا الاحتمال ما يبطله عقلاً، فوجب الاعتماد عليه».

---

(١) المصدر السابق (ص ١٣١).

(٢) «البيولوجية»: علم يبحث في علم الأحياء (النبات والجراثيم والحيوان).

وقال «روبرت موريس بيدج» عالم الطبيعة، وأوَّل من اكتشف الرادار في العالم، في مقالة تحت عنوان: «اختبار شامل»:

وجدنا أناساً موهوبين يحدثوننا عن الغيب، يقولون: إنهم رسل الله، وما حدَّثونا به قسمان:

١ ـ قسم يقولون فيه: إن لهذا الكون خالقاً واحداً يجب الإيمان به.

٢ ـ وقسم يخبروننا به عن بعض أمور الغيب التي ستحدث.

أما القسم الثاني: فقد وقع كما أخبرونا به بعد مئات السنين، وأيَّدت الأيَّامُ، وأثبت التاريخ صدقَ هذه النبوءات جميعاً، وهي من الأشياء التي عجزت العلوم حتى اليوم أن تجد لها تفسيراً، فدلَّ ذلك على صحة رسالتهم، وصدق أخبارهم، ووجب أن نصدِّقهم فيما أخبرونا به عن الله تعالى وصفاته، وهو القسم الأول؛ لأن عقولنا لا تمنع منه، بل عندنا من الشعور الداخلي ما يُثبته.

إن الإيمانَ بوجود الله من الأمور الخاصَّة التي تنبت في شعور الإنسان وضميره، وتنمو في دائرة خبرته الشخصية.

وقال «جون كليفلاند كوثران» وهو من علماء الكيمياء، والرياضيات، ورئيس قسم العلوم في جامعة «دولث» في مقالة تحت عنوان «النتيجة الحتمية» بعد أن بدأ مقالته بكلمة «لورد كليفن» وهو من علماء الطبيعة البارزين في العالم، وهي: إذا فكرت تفكيراً عميقاً، فإن العلوم سوف تضطرك إلى الاعتقاد في وجود الله، قال:

«فهل يتصوَّر عاقل، أو يفكِّر، أو يعتقد: أن المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة؟! أو

أنها هي التي أوجدت هذا النظام وتلك القوانين، ثم فرضته على نفسها؟! لاشكَّ أن الجواب سوف يكون سلبياً.

وتدلُّنا الكيمياء على أن بعضَ المواد في سبيل الزوال أو الفناء، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة، والآخر بسرعة ضئيلة، وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية، ومعنى ذلك أيضاً: أنها ليست أزلية، إذ إن لها بداية.

وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم، على أن بداية المادة لم تكن بطيئة ولا تدريجية، بل وُجدت بصورة فجائية.

وتستطيع العلوم أن تحدِّد لنا الوقت الذي نشأت فيه المواد، وعلى ذلك فإن كونيته محددة، ليس لعنصر المصادفة بينها مكان.

فإذا كان هذا العالم المادِّي عاجزاً عن أن يخلق نفسه، أو يُحدِّدَ القوانين التي يخضع لها، فلا بدّ أن يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادي، متصف بالعلم والحكمة».

وقال «إدوارد لوثر كيسيل» وهو أستاذ الأحياء، ورئيس القسم بجامعة «سان فرانسيسكو»:

لو أن المشتغلين بالعلوم نظروا إلى ما تُعطيهم العلوم من أدلة على وجود الخالق بروح الأمانة نفسها والبعد عن التحيُّز الذي ينظرون به إلى نتائج بحوثهم، ولو أنهم حرَّروا عقولهم من سلطان التأثر بعواطفهم وانفعالاتهم؛ فإنهم سوف يسلمون ـ دون شك ـ بوجود الله. وهذا هو الحلّ الوحيد الذي يُفسِّر الحقائق، فدراسة العلوم بعقل متفتح، سوف تقودنا ـ دون شك ـ إلى إدراك وجود السبب الأول الذي هو الله.

وقال «ألبرت أنيشتين» صاحب النظرية النسبية:

إن أصحاب العبقريات الدينية في جميع العصور قد عرفوا بهذا النوع من الشعور الديني الذي لا ينتمي إلى نحلة، ولا يتمثل الله في أمثلة بشرية، إنني لأرى أن أهم وظيفة من وظائف الفن والعلم هي: أن يُوقظا هذا الشعور، وأن يستبقياه حياً في الذين تهيؤوا له.

وقال «سبنسر»: إننا مضطرون إلى الاعتراف بأن الحادثات مظاهر قدرة مطلقة متعالية عن الإدراك، وأن الأديان كانت أول من قبل هذه الحقيقة العلوية ولقَّنها.

وهناك أقوال كثيرة في هذا الصدد لمشاهير من الفلاسفة والعلماء في شتى ميادين العلم، قد استنبطوا من علومهم التي تخصَّصوا بها وجود الله، وآمنوا به إيماناً علمياً بما تجمَّع لديهم من أدلة[1].

ولو دقَّقتَ النظر في أدلتهم لوجدتها كلَّها ترجع إلى ما أسلفناه من الأدلة العلمية؛ التي اعتمد عليها العلماء المسلمون.

على أن كثيراً من العلماء اعتقدوا: أن الإيمان بوجود الله لا يحتاج إلى دليل، إذ إنه سبحانه بقدرته وحكمته ظاهر في كل شيء، وهو من البدهيات:

---

(١) انظر في ذلك كتاب: «الله يتجلى في عصر العلم» لنخبة من علماء الغرب، وكتاب: «الله» لعباس محمود العقاد، وكتاب: «العلم يدعو للإيمان» تأليف: ا.كريستي موريسون ترجمة محمود صالح الفلكي، وكتاب: «قصة الإيمان» للشيخ نديم الجسر، وكتاب: «عقيدة المسلم» للأستاذ الشيخ محمد الغزالي.

وكيف يصحُّ في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل؟!

وفي كلِّ شيءٍ له آية تدلُّ على أنه الواحد

هذا ونختم كلامنا بقطعة من مقال للدكتور أحمد أبو زيد في مجلة العربي عدد «٢٨٤» تحت عنوان: «هل مات داروين حقاً؟». قال الكاتب: وبعد فمنذ شهور قليلة، وفي أواخر عام ١٩٨١م ظهر في «إنكلترا» كتاب يحمل عنواناً طريفاً هو «التطور من الفضاء» قام بتأليفه عالم الفلك الشهير «سير فريد هويل» الذي سبقت الإشارة إليه، وعاونه في ذلك أستاذ هندي يدرس الرياضيات في جامعة «كارويف».

ويعترف الأستاذان بصراحة في ذلك الكتاب بأنهما ملحدان، ولا ينتميان لأي دين أو عقيدة، وأنهما يعالجان أمور الفضاء وحركات الكواكب بأسلوب علمي بحت، ومن زاوية عقلانية خالصة، لا تخضع، ولا تتأثر بأي موقف ديني.

ويدور الكتاب حول مسألة احتمال وجود حياة على الكواكب الأخرى، ويتناول بالبحث الدقيق الفكرة التي سادت في بعض الكتابات التطورية عند ظهور الحياة الأولى تلقائياً من الوحل، نتيجة لبعض الظروف والتغيرات البيئية، ومع أن هناك نظريات معارضة لهذا الاتجاه، وهي نظريات ترى أن احتمال ظهور الحياة الأولى من هذا الوحل أو الطين، لا تزيد على ١/ ١٠ فإن «هويل» يرى بعد حسابات رياضية معقدة وطويلة ودقيقة، أن هذا الاحتمال لا يزيد بحال عن ١/ ١٠ أمامها أربعون ألف صفر، مما يعني: أنَّه لا تكاد توجد فرصة لظهور الحياة عن طريق التوالد

التلقائي من هذا الطين، وبالتالي فإن الحياة لا يمكن أن تكون نشأت عن طريق المصادفة البحتة، وأنه لا بدّ من وجود عقل مدبر يُفكِّر، ويُبدع لهدف معين.

وعلى الرغم من اعتراف المؤلفين الصريح ـ كما قلنا ـ بإلحادهما، فإنهما لا يجدان أمامهما مفرّاً من أن يكتبا الفصل الأخير من الكتاب تحت عنوان «الله».

ثانياً ـ الصفات السلبية:

قد قدَّمنا: أن الصفات السلبية هي خمس صفات: الوحدانية، والقدم، والبقاء، والمخالفة للحوادث، وقيامه تعالى بنفسه، وذكرنا: أنها سميت صفات سلبية، لأنَّ مدلولها نفي صفة لا تليق بجلاله سبحانه، وإليك بيان هذه الصفات.

الصفة الأولى ـ الوحدانية

أ ـ معنى الوحدانية:

قبل أن نخوض في معنى الوحدانية يتعيَّن علينا أن نبين المصطلحات التالية: الكلّ والكلِّي، والجزء والجزئي، والكمّ، ثم نتحدث عن معنى الوحدانية. يقول علماء المنطق: هذا من باب تقسيم الكلِّي إلى جزئياته، وهذا من باب تقسيم الكلِّ إلى أجزائه، فما معنى ذلك؟

الكل: هو ما تركَّب من أجزاء، وتقسيم الكلِّ إلى أجزائه هو أنه لا يصح فيه حمل المقسم على كل قسم من أقسامه، وذلك كتقسيم الحصير إلى خيط وقش، فالخيط لايصحُّ أن يخبر عنه بأنه

حصير، والقشُّ كذلك أيضاً، فالخيط جزء، والقش جزء، وما تركَّب منهما هو الكلُّ. ومثل ذلك الطاولة بالنسبة إلى أجزائها، والدار بالنسبة إلى غرفها، والكتاب بالنسبة إلى أوراقه، وخيوطه، وجلده وما إلى ذلك.

وأما الكلِّي: فهو ما تركَّب من جزيئات، وتقسيم الكلِّي إلى جزئياته هو ما يصحُّ فيه حمل المقسم على كل قسم من أقسامه، وذلك بأن يكون الجزئي موضوعاً، والكلِّي محمولاً، وذلك كتقسيم الجنس إلى أنواعه، وكتقسيم النوع إلى أفراده.

مثال تقسيم الجنس إلى أنواعه: تقسيم الحيوان إلى: فرس، وإنسان، وطائر، فهذا يصحُّ فيه أن تقول: الإنسان حيوان، الطائر حيوان، الفرس حيوان، وما أشبه ذلك.

ومثال تقسيم النوع إلى أفراده: تقسيم الإنسان إلى خالد وسعيد وعلي وعارف و... ألا ترى: أنه يصحُّ أن تقول: خالد إنسان، سعيد إنسان، عليّ إنسان، عارف إنسان، وهكذا.

وأما الكمُّ: فقد ذكر في المواقف ثلاثَ خواصّ له:

الأولى: أنه يقبل القسمة، والثانية: وجود عادٍّ فيه يعدّه، ومعنى العدّ: أنك لو أسقطت منه أمثاله فني، والثالثة: المساواة ومقابلاها، أعني: الزيادة والنقصان.

ثم إن كان بين أجزائه حدّ مشترك، فهو الكم المتصل، وذلك كالخيط، فإن بين أجزائه حداً مشتركاً، فهو نهاية لجزء، وبداية لجزء. وإلا فهو كمٌّ منفصل كالعدد، وذلك كالعشرة، فإنك إن أشرت منها إلى السادس مثلاً انتهى إليه الستة، وابتداء الأربعة

الباقية من السابع لا من السادس، فلم يكن ثمَّة بينهما حدّ مشترك[1].

إذا علمت هذا فاعلم: أن معنى وحدانية الله: أنه سبحانه واحد في ذاته، وواحد في صفاته، وواحد في أفعاله، فهو سبحانه ليس بكلِّي، لأن الكلِّي له جزيئات، ولا كلٌّ، لأن الكلَّ مركب من أجزاء، وليس بجزئي لأنَّ ذلك يستدعي أن يكون له شركاء في معنى الكلي، ولا بجزء، لأن ذلك يقتضي ألا يكون هو الإله، وليس سبحانه بكم لا متصل ولا منفصل. وكذلك صفاته وأفعاله على ما يأتي.

واتصاف الله جلّ وعلا بالوحدانية يقتضي نفي الكموم الخمسة التالية:

أولاً: الكمُّ المتصل بالذات: وهو أن يكون الله سبحانه مركَّباً من أجزاء. وهذا نفي أن يكون كُلاًّ.

ثانياً: الكم المنفصل عن الذات: وهو أن تكون ذات الإله متعدِّدة، وهذا نفي أن يكون الإله كلياً.

ثالثاً: الكمُّ المتصل بالصفات: وذلك بأن يكون له صفتان من نوع واحد، كقدرتين مثلاً.

رابعاً: الكمُّ المنفصل في الصفات: وذلك كأن يكون لأحد صفة مماثلة تماماً لصفته سبحانه وتعالى.

---

(١) انظر المقاصد (ص ١٠٤ فما بعدها).

خامساً: الكمُّ المنفصل بالأفعال: وذلك أن يكون لغير الله فعل مثل فعله سبحانه، وهذه الكموم الخمسة منفية بصفة الوحدانية.

وأما الكمُّ المتصل بالأفعال، وذلك أن يكون لله سبحانه وتعالى فعلان، فهذا أمر جائز[1].

ب ـ أدلة الوحدانية:

للبرهنة على اتصاف الله سبحانه وتعالى بالوحدانية نوعان من الأدلة: الأدلة القرآنية ـ الأدلة العقلية.

١ ـ الأدلة القرآنية:

مبحث الوحدانية أشرف مباحث هذا الفن، ولذلك سُمِّي هذا العلم باسم مشتق منها، فقيل: «علم التوحيد». ولعظم العناية به كثر التنبيه عليه في الآيات القرآنية، فقد قال سبحانه: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]. وقال جلّ وعلا: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال عزّ وجل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤] وقال سبحانه: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١] وقال جلَّ وعزَّ: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً

---

(١) انظر حاشية الباجوري على الجوهرة (٣٥ ـ ٣٦). هذا وأما إذا فسَّرنا الكمَّ المتصل بمشاركة غير الله له في فعلٍ فهذا منتف في حقه أيضاً.

مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١ ـ ٢٢].

والأنبياء جميعهم كانوا يدعون إلى عبادة إله واحد، وما من نبيٍّ إلا قال لأمته: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩] وفي قصة عيسى عليه السلام يقول الله عزّ وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝١١٦ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٧].

والآيات القرآنية التي تدعو إلى الإيمان بإله واحد، هي أكثر من أن يضمَّها هذا الكتاب، وحسبك أن تعلم: أنه قلما تجد سورة من سور القرآن إلا وفيها دعوة صريحة أو ضمنية إلى الإيمان بالإله الواحد جلّ وعلا.

٢ ـ الأدلة العقلية:

أولاً: أقام العلماء الدليل على أنه سبحانه ليس بكل، أي: ليس مؤلَّفاً من أجزاء، فقال: إنه لو صحَّ: أنه سبحانه وتعالى كلٌّ مركب من أجزاء لاستلزم ذلك أن يكون عاجزاً محتاجاً إلى غيره، وللزم من ذلك أيضاً أن يكون مماثلاً للحوادث، وذلك باطل؛ لأنه لو ماثل الحوادث كان حادثاً مثلها، وسيأتي الحديث عن ذلك، وإلى هذا أشار سبحانه بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ثانياً: واستدلُّوا على أنه ليس بكلِّي ببرهان ينقسم إلى برهانين:

برهان التوارد، وبرهان التمانع، ويضاف إليهما دليل ثالث هو دليل التفرُّد بالكمال. وسنوضح كلاً منهما فيما يلي:

برهان التوارد: إنه لو تعدَّد الإله، كأن يكون هناك إلهان؛ لما وُجِد شيء من العالم، لكن عدم وجود شيء من العالم باطل، لأنه موجود بالمشاهدة، فما أدى إليه ـ وهو التعدُّد ـ محال. وإذا بطلَ التعدُّد ثبتت الوحدانية، وهو المطلوب.

وإنما لزم من التعدُّد ـ كأن يكون هناك إلهان ـ عدم وجود شيء من العالم؛ لأنهما إما أن يتفقا وإما أن يختلفا، فإن اتَّفقا فغير جائز أن يوجداه معاً، لئلا يلزم اجتماع مؤثرين على أثر واحد، وكذلك غير جائز أن يُوجداه مرتباً، بأن يوجدَه أحدهما ثم يوجده الآخر، لئلا يلزم تحصيل الحاصل، وتحصيل الحاصل محال، ولا جائز أن يُوجد أحدهما البعض، والآخر البعض الآخر، للزوم عجزهما حينئذ، لأنه لما تعلَّقت قدرة أحدهما بالبعض سدَّ على الآخر طريق تعلُّق قدرته به، فلا يقدر على مخالفته، وهذا عجز، وهذا البرهان إنما سُمِّي برهان التوارد، لما فيه من تواردهما على شيء.

برهان التمانع: إنه لو تعدَّد الإله كأن يكون هناك إلهان لما وجد شيء من العالم، لكن عدم وجود شيء من العالم باطل، لأنه موجود بالمشاهدة، فما أدى إليه ـ وهو التعدُّد ـ محال، وإذا بطل التعدُّد ثبتت الوحدانية.

وإنما لزم من التعدد عدم وجود شيء من العالم، لأنهما إما أن يتفقا، وإما أن يختلفا، فإن اتَّفقا فقد مرّ الكلام عليه في برهان التوارد، وإن اختلفا؛ بأن أراد أحدهما إيجاد العالم وأراد الآخر

إعدامه، فلا جائز أن ينفذ مرادهما لئلا يلزم اجتماع الضدين، ولا جائز أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر، للزوم عجز من لم ينفذ مراده، والآخر مثله، لانعقاد المماثلة بينهما.

ويُحكى عن ابن رشد أنه قال: إذا نفذ مراد أحدهما دون الآخر كان الذي نفذ مراده هو الإله دون الآخر، وتمَّ دليل الوحدانية.

وإنما سُمِّي هذا البرهان برهان التمانع لتمانعهما وتخالفهما[1].

وإلى هذا الدليل أشار الله سبحانه بقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وقال سبحانه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٢ ـ ٤٣]. وقال جل وعزّ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

دليل التفرُّد بالكمال: أورد هذا الدليل الإمام الرازي، وخلاصته أننا نرى في هذا العالم أن كل من يشرك إنساناً في عمله فهو ناقص بوجه ما: إما مالاً أو خبرة أو قوة، فإذا قسنا الغائب على الشاهد كان القول بوجود إله آخر مع الله شريك له في الألوهية

---

(١) انظر حاشية تحفة المريد، للباجوري (٣٦). وانظر شرح العقائد النسفية للسعد التفتازاني (٦٢ ـ ٦٣).

ممتنعاً، لأن الشركة دليل النقص، والنقص لا يناسب كمال الله المطلق [1].

هذا وهناك دليل آخر استخرجه ابن رشد من قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وارتضاه إذ قال:

«إنه من المعلوم لو كان في مدينة واحدة ملكان لم يصلح أمر المدينة، اللهم إلا إذا قيل: إن أحدهما عاطل، ولكن العاطل لا يصلح أن يُوصفَ بالألوهية. وكذلك الأمر بالنسبة لوحدانية الإله، فلو كان هناك أكثر من إله لاختلَّ الكون، ولكنَّا نرى الكون مُنسَّقاً، فإذاً لا يُوجد أكثر من إله» [2].

جـ ـ توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية:

التوحيد قسمان: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية: ولا يكون الإنسان مؤمناً حقاً إلا إذا أقرّ بهما جميعاً، وعمل بمقتضاهما.

أما توحيد الربوبية: فهو الاعتقاد بأن الله وحده هو الخالق للعالم، وهو وحده المتصرف فيه بالرزق، والإحياء، والإماتة، والشفاء، والمرض، وغير ذلك، فليس لغير الله خلق في أي شيء من الأشياء، ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦] ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٠].

---

(١) انظر فخر الدين الرازي للمرحوم محمد صالح الزركان (ص ٢٣٨).

(٢) المرجع السابق (ص ٢٣٩).

أما توحيد الألوهية: فهو إفراد الله تعالى وحده بالعبادة، والتوجُّه إليه بالدعاء.

هذا وإن معظم المشركين الذين بُعث فيهم الرسل عامَّة والرسول عليه الصلاة والسلام خاصَّة كانوا ممن يُؤمن ويعترف بوحدانية الربوبية، فيعتقد أحدهم بأن الله هو وحده الخالق، الرازق، المحيي، المميت، وأن بيده كلُّ شيء. قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩]. وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١] وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣١ ـ ٣٢].

وأما بالنسبة لتوحيد الألوهية ـ وهو استحقاقه وحده للعبادة ـ: فقد كانوا يشركون معه غيره في العبادة، مع اعتقادهم أن ما يتخذونه إلهاً من دون الله لا يخلق ولا يرزق، ولذلك حاجَّهم القرآن بقوله: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧]. وقال الله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٣ ـ ٧٤] ولقد نبَّه الله سبحانه بذلك إلى أنه لا يستحق العبادة إلا من انفرد بالخلق

والإيجاد. فهو القادر، وغيره العاجز، ومن يساوي بين الخالق والمخلوق والقادر والعاجز إلا أن يكون فاقد العقل أو ضعيف الرأي؟!

ولكن المشركين أرادوا أن يُوجدوا مهرباً من هذا الإلزام، وعذراً يقيمونه لأنفسهم في عبادتهم الأصنام وغيرها، فقالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

ولأنّ من تمام حقيقة التوحيد توحيد الألوهية، أي: إفراد الخالق وحده بالعبادة، كان شعار الدخول في الإسلام: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله» أي: أقرّ وأعترف أنه لا معبود بحق إلا الله.

هذا ونحبُّ أن نؤكد هنا: أن جميع الرسالات السماوية كانت تدعو إلى الإيمان بإله واحد، ليس مركباً من أجزاء، وليس له شريك في الملك، ولا يحتاج إلى ناصر، ولا مساعد، ولا وزير، ولا مشير، وأنه ليس بمولود، وليس له ولد، ولا زوجة، وكلُّ من يُؤمن بخلاف ذلك فلا يَمُتُّ بأية صلة إلى أية رسالة من الرسالات السماوية وإن ادعى ذلك، فالرسالات السماوية في ذلك واحدة متطابقة تمام التطابق.

الصفة الثانية ـ القدم

آ ـ معنى القدم:

يُطلق القدم ويُراد به طول المدة، فيقال: هذا بناءٌ قديم، أي: مضى عليه زمان طويل.

ويُطلق القدم ويُراد به القدم الذاتي، أي: لا أوَّل لوجوده، وهذا هو المراد في حق الله تعالى، والمعنى الأول مستحيل في حقه.

فمعنى القدم في حق الله تعالى: عدم الأولية للوجود، أو عدم افتتاح الوجود.

ب ـ أدلة صفة القدم:

هناك دليلان على اتصاف الله سبحانه بصفة القدم، كغيرها من الصفات: دليل قرآني، ودليل عقلي.

الدليل القرآني: قوله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣٠].

والدليل العقلي: أنه لو لم يكن قديماً لكان حادثاً، إذ لا وساطة بينهما، ولو كان حادثاً لافتقر إلى محدث، ولو افتقر لمحدث لافتقر محدثه إلى محدث وهكذا، لانعقاد المماثلة بينهما، فيلزم الدور أو التسلسل، وكلاهما محال، فما أدَّى إليه، وهو افتقاره لمحدث محال. فما أدى إليه وهو كونه حادثاً محال، فما أدى عليه وهو عدم كونه قديماً محال، وإذا استحال عدم كونه قديماً، ثبت ضده، وهو كونُه قديماً، وهو المطلوب.

هذا ولعلك لاحظت: أن صفة واجب الوجود تستلزم صفة القدم، فكان من الممكن الاكتفاء بها عنها.

وقد أورد الإمام الباجوري هذا الاعتراض، وأجاب عنه بقوله:

«فإن قلت: إن وجوب الوجود يستلزم القدم، بل والبقاء، فذكرهُما بعده محض تكرار، قلت: علماء هذا الفن لا يكتفون

بدلالة الالتزام، بل يُصرِّحون بالعقائد لشدة خطر الجهل في هذا الفن، فلا يستغنون بملزوم عن لازم، ولا بعام عن خاص»[1].

هذا ولقد عالج الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي صعوبة تصور العقل لمعنى القدم في ذات الله سبحانه، وعجزه عن ذلك، مما دفعَ بعض السطحيين إلى التساؤل: من الذي خلق الله؟ فقال في معالجة ذلك:

«إن جميعَ مدارك الإنسان إنما هو وليد تصوراته، والتصورات إنما تتجمع في الذهن عن طريق نوافذ الحواسِّ الخمس، وهذا يعني: أن الإنسان لا يعقل من المجردات إلا ما كان له مقاييس ونماذج حسية في ذهنه، فما لم يسبق له في ذهنه أي نموذج أو مقياس، فإن من المحال بالنسبة إليه أن يتصوره ويدركه»[2].

الصفة الثالثة ـ البقاء

آ ـ معنى البقاء:

معنى البقاء كما قال الإمام الباجوري: عدم الآخرية، وإن شئت قلت: عدم اختتام الوجود.

ب ـ أدلة صفة البقاء:

١ ـ دليل البقاء من القرآن ما مرّ من قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

---

(١) تحفة المريد، للباجوري (٣٣).

(٢) كبرى اليقينيات، للدكتور البوطي (٩٤).

٢ ـ وأما الدليل العقلي في ذلك: أنه لو جاز عليه العدم لاستحال عليه القدم، وقد ثبت أن الله جل وعلا موجود قديم لذاته، وما يثبت قدمه استحال عدمه.

الصفة الرابعة ـ قيامه بالنفس

ومعنى قيامه بنفسه: عدم افتقاره جلَّ وعلا إلى المَحَلِّ، أي: الذات التي يقوم بها، وعدم افتقاره سبحانه إلى المخصص، أي: الموجد. والدليل على عدم افتقاره إلى المحل: أنه لو افتقر إلى محل لكان صفة، ولو كان صفة لم يتصف بصفات المعاني والمعنوية التي ستأتي معنا، وهي واجبة القيام به تعالى للأدلة الدالة على ذلك، والثاني باطل، فبطل الأول، فثبت عدم افتقاره إلى محل، وهو المطلوب.

والدليل على عدم افتقاره إلى المخصص أنه لو افتقر إلى مخصص لكان حادثاً، وقد سبق البرهان على وجوب وجوده وقدمه سبحانه وتعالى.

الصفة الخامسة ـ المخالفة للحوادث

أ ـ معنى المخالفة للحوادث:

عدم مماثلته لها في أية صفة لها، فالله سبحانه وتعالى ليس بجرم، ولا عَرض، ولا كلّ، ولا جزء، فلا يتحيَّز بمكان، ولا يقوم بغيره، ولا يُوصف سبحانه بكبر، ولا صغر. فهو مخالف سبحانه للحوادث من كل وجه.

ب ـ دليل مخالفته للحوادث:

١ ـ أما من القرآن الكريم فقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ

شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

٢ ـ وأما الدليل العقلي فهو أنه لو لم يكن مخالفاً للحوادث لكان مماثلاً لها، ولو كان مماثلاً لها لكان حادثاً، إلا أنه سبحانه قد ثبت بالدليل القاطع قدمه، فثبت: أنه سبحانه مخالف للحوادث.

هذا ولقد نصَّ الإمام الغزالي رحمه الله على أن من يقول: إن الله جسم؛ نصَّ على أنه كافر حيث قال في كتابه: «إلجام العوام عن علم الكلام»: فإن من خطر بباله أن الله جسمٌ مركَّب من أعضاء فهو عابد صنم، وإن كل جسم مخلوق، وعبادة الصنم كفر، لأنه مخلوق، وكان مخلوقاً لأنه جسم، فمن عبد جسماً فهو كافر بإجماع الأئمة السلف منهم والخلف، سواء كان ذلك الجسم كثيفاً كالجبال الصُّمِّ الصِّلاب، أو لطيفاً كالهواء والماء، وسواء كان مظلماً كالأرض، أو مشرقاً كالشمس والقمر»[1].

هذا وقد نتج عن اتصافه سبحانه وتعالى بالمخالفة للحوادث بحثان، هما من أهم بحوث العقيدة الإسلامية:

أحدهما ـ البحث في الآيات المتشابهة:

الثاني ـ رؤية الله سبحانه. وإليك بيان ذلك:

الأول: الآيات المتشابهة وموقف العلماء منها:

وردت في القرآن الكريم آيات كريمة تفيد بظاهر ألفاظها ثبوت

---

(١) إلجام العوام عن علم الكلام (٦ ـ ٧).

بعض صفات الله تعالى هي في الحقيقة من صفات البشر، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] ومثل: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]. وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

ولقد ورد مثل ذلك في الأحاديث الصحيحة، كقوله عليه الصلاة والسلام: «ينزلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له» [1].

وكقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يزالُ يُلقى فيها ـ أي جهنم ـ وتقول: هل من مزيد؟! حتى يضعَ فيها ربُّ العالمين قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، ثم تقول: قدِ قدِ بعزتك وكرمك، ولا تزالُ الجنة تفضل حتى ينشىء الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة» [2] وكقوله عليه الصلاة والسلام: «يقبضُ الله الأرضَ يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟!» [3] ومثله قوله عليه الصلاة والسلام: «يقول الله

(١) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة (١١٤٥).
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٨٤).
(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١٢).

عزّ وتعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرَّب إليَّ شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً، وإن تقرَّب إلي ذراعاً تقرَّبت منه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»[1].

ومنه ما رواه أنس قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلِّب القلوب ثبِّتْ قلبي على دينك»، فقلت: يا رسول الله! آمنا بك، وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلِّبهما كيف يشاء»[2] ومن ذلك ما رواه أحمد، والبخاري، ومسلم: أن رجلاً ضرب عبده فنهاه النبيُّ ﷺ وقال: «إن الله تعالى خلقَ آدم على صورته»[3] والضمير عائد على الله في «صورته» كما يقضيه التصريح بذلك في بعض طرق الحديث حيث جاء: «فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن».

إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة التي جاءت فيها صفات تدلُّ بظاهرها على أنها من صفات البشر.

ولقد وقف العلماء حيال هذه الآيات القرآنية ـ التي هي من المتشابه ـ وقفوا موقفين، وذهبوا إلى مذهبين بعد أن اتَّفقوا جميعاً

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥).
(٢) أخرجه الترمذي في القدر برقم (٢١٤٠).
(٣) أخرجه أحمد (٢ / ٢٤٤) والبخاري في الاستئذان (٦٢٢٧) ومسلم في البر (٢٦١٢) (١١٥).

على تنزيه الله عزّ وجل عما لا يليق به:

أحدهما: وهو مذهب الخلف، وهم من كانوا بعد الخمسمئة أو الثلاثمئة، ذهب هؤلاء إلى تأويل هذه النصوص وإخراجها عن معانيها إلى معانٍ تليق بالله عزّ وجل، فيكون استعمالها في المعاني التي استعملت فيها في حق الله عزّ وجل من قبيل المجاز: ففسروا مثلاً اليد بالقدرة، والنزول بمعنى نزول ملائكته، والمجيء بمعنى مجيء ملائكته، وإلى أن المراد بالصورة في قوله: «على صورته» الصفة من سمع، وبصر، وعلم، وحياة، فهو على صفته في الجملة، وإن كانت صفة الله تعالى قديمة وصفة الإنسان حادثة.

وذهب بعضهم في هذا الحديث إلى أن الضمير راجع إلى الأخ المصرَّح به في الطريق التي رواها مسلم بلفظ: «فإذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته»[١] أي: وإذا كان كذلك فينبغي احترامه باتقاء الوجه[٢].

المذهب الثاني: مذهب السلف، وهم من كانوا قبل الخمسمئة، وقيل: هم القرون الثلاثة: الصحابة، والتابعون، وأتباع التابعين، الذين جاء وصف قرونهم بالخيرية في قوله عليه

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٢٧) ومسلم في البر (٢٦١٢) (١١٥).

(٢) انظر تحفة المريد، للباجوري (٥٤ ـ ٥٥).

الصلاة والسلام: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[1].

ذهب هؤلاء السلف مذهب التفويض، فقالوا: إن علينا أن نصف الله سبحانه بما وصفَ به نفسه من غير تأويل، بل نكلُ ذلك إلى علم الله سبحانه بما وصف به نفسه، ونسلِّم بذلك تسليماً.

ولقد سئل الإمام مالك رضي الله عنه، عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] فقال بعد أن أطرق مليّاً: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

ولقد اختلف العلماء في أي المذهبين أرجح، فرجَّح بعضهم مذهب الخلف وقال: مذهب الخلف أعلم وأحكم، ومذهب السلف أسلم. وذهب قوم إلى ترجيح مذهب السلف، لما فيه من تفويض بيان المعنى الحقيقي إلى علم الله سبحانه، وعندنا: أن مذهب السلف هذا هو أولى وأرجح، لأننا سلَّمنا أموراً كثيرة لله تعالى، ووكلنا علمها له سبحانه، فليكن هذا كذلك، وحسبنا أن نقول: إن الله منزَّه عن أن يتَّصفَ بصفة مما يتصف به البشر، على المعنى الذي يتصف به البشر.

وقد علَّق الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى على قول المتكلِّمين: «طريقة السلف أسلم وطريقة هؤلاء أعلم وأحكم» علَّق عليه بقوله: فإنَّه وإن لم يكن تكفيراً للسلف كما يقوله من يقوله من

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٢٥).

الرافضة والخوارج، ولا تفسيقاً لهم كما يقوله من يقوله من المعتزلة والزيدية وغيرهم، كان تجهيلاً لهم، وتخطئة، وتضليلاً، ونسبة لهم إلى الذنوب والمعاصي، وإن لم يكن فسقاً فزعماً: أن أهل القرون المفضولة في الشريعة أعلم وأفضل من أهل القرون الفاضلة.

ومن المعلوم بالضرورة لمن تدبَّر الكتاب والسُّنَّة، وما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف: أن خير قرون هذه الأمة ـ في الأعمال والأقوال والاعتقاد وغيرها من كل فضيلة ـ أن خيرها القرن الأول، ثم الذين يلونهم، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ من غير وجه، وأنهم أفضل من الخلف في كل فضيلة، من علم، وعمل، وإيمان، وعقل، ودين، وبيان، وعبادة، وأنهم أولى بالبيان لكل مشكل، هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام، وأضله الله على علم، كما قال عبد الله مسعود رضي الله عنه: من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد، أبرّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم. وقال غيره: عليكم بآثار من سلف، فإنهم جاؤوا بما يكفي وما يشفي، ولم يحدث بعدهم خير كامن لم يعلموه.

هذا وقال ﷺ: «لا يأتي زمان إلا والذي بعده شرٌّ منه حتى تلقوا ربكم»[1] فكيف يحدث لنا زمان فيه الخير في أعظم

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٦٨) عن أنس رضي الله عنه.

المعلومات وهو معرفة الله تعالى؟! هذا لا يكون أبداً.

وما أحسن ما قال الشافعي رحمه الله في رسالته: «هم فوقنا في كل علم، وعقل، ودين، وفضل، وكلِّ سبب يُنال به علم، أو يُدرك به هدى، ورأيهم خير من رأينا لأنفسنا»(١).

هذا ولقد ذكر الباجوري: أن مردّ الخلاف بين السلف والخلف، هو الخلاف في الوقف في الآية الكريمة: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] فمنهم من يرى الوقف على قوله: ﴿والراسخون في العلم﴾ فجملة «يقولون» جملة مستأنفة، فيكون «الراسخون» معطوفاً على لفظ الجلالة، وعلى هذا فالراسخون في العلم يعلمون تأويل المتشابه، ومنهم من يرى الوقف على لفظ الجلالة، وجملة «الراسخون» جملة مستأنفة، وعلى هذا فيقتصر معرفة المتشابه والعلم به على الله سبحانه، وأما الراسخون في العلم فيؤمنون به ويُفوِّضون أمر علمه إلى الله سبحانه(٢).

هذا ولقد ذكر الإمام ابن تيمية تفسيراً حسناً لقوله سبحانه: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] حيث ذكر: أن المراد بالوجه هنا: الجهة، وأن معنى الآية: كل شيء هالك إلا ما أريد به

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٤/ ١٥٧ ـ ١٥٨).

(٢) تحفة المريد، للباجوري (٥٣).

جهة الله تعالى، مثل قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] أي: قبلة الله، ووجهة الله، وقال: هكذا قال جمهور السلف[1].

هذا ونختم هذه المسألة بحوار جرى بين الزمخشري والغزالي حول قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ذكر ذلك الإمام الباجوري في حاشية الجوهرة، فقال: «سأل الزمخشري الغزالي عن هذه الآية فأجابه بقوله: إذا استحالَ أن تعرف نفسَك بكيفية أو أينية، فكيف يليق بعبوديتك أن تصفه تعالى بأين، أو كيف؟! وهو مقدَّس عن ذلك، ثم جعل يقول:

قلْ لمن يفهم عني ما أقول ... قصِّر القولَ فذا شرحٌ يطول
ثم سِرٌّ غامض من دونه ... قصرتْ والله أعناقُ الفحول
أنـت لا تعـرف إيَّـاك ولا ... تدر من أنت ولا كيف الوصول
لا ولا تدري صفات رُكِّبتْ ... فيك حارت في خفاياها العقول
أين منك الروحُ في جوهرها ... هل تراها فترى كيف تجول؟
وكذا الأنفاس هل تحصرها ... لا ولا تدري متى عنك تزول
أين منك العقل والفهم إذا ... غلب النوم فقل لي يا جهول
أنت أكل الخبز لا تعرفه ... كيف يجري منك أم كيف تبول
فإذا كانت طواياك التي ... بين جنبيك كذا فيها ضلول
كيف تدري من على العرش استوى ... لا تقل كيف استوى كيف النزول

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٤٢٧ فما بعدها).

كيف يحكي الربُّ أم كيف يرى فلعمري ليس ذا إلا فضول
فهو لا أين ولا كيف له وهو ربُّ الكيف والكيف يحول
وهو فوق الفوق لا فوقَ له وهو في كلٍّ النواحي لا يزول
جلّ ذاتاً وصفاتٍ وسما وتعالى قدرةً عما تقول[1]»

الثاني ـ رؤية الله سبحانه وتعالى:

آ ـ إمكان الرؤية:

بحث الباحثون في: هل بالإمكان رؤية الله تعالى، أو ليس بالممكن ذلك، وانقسموا في ذلك إلى فريقين:

الفريق الأول: وهم المعتزلة [2] يرون: أنه ليس من الممكن رؤيته تعالى، لأنه لو كان سبحانه وتعالى مرئياً لكان مقابلاً للرائي بالضرورة، فيكون في جهة وحيّز، والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك. واحتجُّوا على نفي الرؤية أيضاً بقوله تعالى مخاطباً لموسى عليه السلام: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] قالوا: إن «لن» هنا تفيد التأبيد، فإذا كان الله سبحانه قد نفى الرؤية في حقِّ موسى على وجه التأبيد كان غيره ممنوعاً من الرؤية من باب أولى.

الفريق الثاني: وهم الأشعرية والماتريدية إلى أن رؤية الله من

---

(١) تحفة المريد للباجوري (ص ٥٤).

(٢) المعتزلة: ويلقبون بالقدرية، وقالوا: بأن الله قديم، وكلامه مخلوق ومحدث، ونفوا رؤية الله تعالى في الآخرة، وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة.. وسموا بالمعتزلة؛ لأن رئيسهم واصل بن عطاء اعتزل حلقة الحسن البصري. شذرات الذهب (٤/ ١٣١).

الممكنات، واستدلوا على الإمكان بقصة موسى إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] ووجه الاستدلال بهذه الآية على الإمكان من وجهين:

الوجه الأول: أن موسى عليه السلام سأل ربَّه أن يراه، فلو كانت الرؤية مستحيلة لما سألها موسى عليه السلام، وإلا كان جاهلاً بربِّه، أو عاصياً له، والجهل والعصيان على الأنبياء محالان، فثبت أنه ليس بمستحيل بل هو ممكن، وهذا هو المطلوب.

الوجه الثاني: أن الله سبحانه قد علَّق الرؤية على أمر ممكن وهو استقرار الجبل في مكانه، والمعلَّق على الممكن ممكن، فالرؤية ممكنة.

وأجابوا عن دليل المعتزلة الأول بقولهم: إن قولهم: «لكان مقابلاً بالضرورة» ممنوع، فلزوم الجهة والحيِّز ممنوع، إذ الرؤية قوة يجعلها الله في خلقه، ولا يشترط فيها مقابلة المرئي، ولا كونه في جهة وحيز، ولا غير ذلك.

وعن الآية القرآنية بأن «لن» هي لمطلق النفي، ولا تفيد تأبيداً ولا تأكيداً.

ب ـ وقوع الرؤية:

لا شك أن القائلين باستحالة الرؤية قائلون بعدم وقوعها من باب أولى. وأما القائلون بالإمكان والجواز فقد انقسموا إلى قسمين:

قسم ذهب إلى عدم الوقوع، وهم قلة، حتى إن الإمام الرازي

ذهب إلى أن هذا القول قول ثالث محدث خارق للإجماع، لأن من يقول بالصحة هو قائل بالوقوع.

وقسم ذهب إلى وقوعه، ولكن اختلفوا هل يقع في الدنيا والآخرة، أو هو واقع في الآخرة فقط؟

أما وقوعه في الدنيا: فقد ذهب فريق من العلماء وعلى رأسهم ابن عباس رضي الله عنهما إلى أن الرسول ﷺ قد رأى ربَّه ليلة المعراج بعيني رأسه، وعزى هذا القول إلى الإمام أحمد رضي الله عنه.

وذهبَ فريق من العلماء وعلى رأسهم السيدة عائشة، وعبد الله ابن مسعود إلى أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم ير ربَّه.

فقد جاء في صحيح البخاري عن مسروق قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: يا أمتاه! هل رأى محمد ﷺ ربَّه؟ فقالت: لقد قفَّ شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث من حدَّثكهن فقد كذب: من حدَّثك: أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]. ومن حدَّثك: أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤]. ومن حدَّثك أنه كتم فقد كذب، ثم قرأت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] الآية، ولكن رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين[١].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير «تفسير سورة النجم» (٤٨٥٥).

وقد ذكر ابن حجر في فتح الباري: أن الشيء الذي يثبته هو رؤية القلب لا رؤية البصر، فقد وردت عنه أحاديث فيها الرؤية مطلقة، وأحاديث فيها الرؤية مقيدة برؤية الفؤاد، فيحمل المطلق على المقيد.

والشيء الذي تنفيه السيدة عائشة هو رؤية البصر، فقال رحمه الله بعد أن ساق الأحاديث المتنوعة في هذا الباب: «وعلى هذا فيمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة، بأن يُحملَ نفيها على رؤية البصر، وإثباته على رؤية القلب»[1].

وقال الإمام ابن تيمية رحمه الله: وقد اتفق المسلمون على أن أحداً من المؤمنين لا يرى الله بعينه في الدنيا، ولم يتنازعوا إلا في النبي ﷺ خاصَّة، مع أن جماهير الأئمة أجمعوا على أنه لم يره بعينه في الدنيا، وعلى هذا دلَّت الآثار الصحاح الثابتة عن النبي ﷺ، والصحابة وأئمة المسلمين.

ولم يثبت عن ابن عباس، ولا عن الإمام أحمد وأمثالهما؛ أنهم قالوا: إن محمداً رأى ربَّه بعينه، بل الثابت عنهم إما إطلاق الرؤية، وإما تقييدها بالفؤاد.

وليس في شيء من أحاديث المعراج الثابتة أنه رآه بعينه»[2].

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم في زاد المعاد: «واختلف الصحابة هل رأى ربَّه تلك الليلة ـ أي: ليلة المعراج ـ أم لا، فصحَّ

---

(١) فتح الباري، للحافظ ابن حجر (٨/ ٤٣٠).
(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٣٥ فما بعدها).

عن ابن عباس: أنه رأى ربَّه، وصحَّ عنه أنه قال: رآه بفؤاده. وصحَّ عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك، وقالا: إن قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣ ـ ١٤] إنما هو جبريل.

وصحَّ عن أبي ذر: أنه سأله: هل رأيتَ ربَّكَ؟ فقال: «نورٌ أنّى أراه؟!» أي: حال بيني وبين رؤيته النور، كما قال في لفظ آخر: «رأيت نوراً»[1].

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على أنه لم يره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: وليس قول ابن عباس: إنه رآه مناقضاً لهذا، ولا قوله: رآه بفؤاده، وقد صحَّ عنه أنه قال: «رأيت ربِّي تبارك وتعالى» ولكن لم يكن هذا في الإسراء، ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح، ثم أخبرهم عن رؤية ربِّه تبارك وتعالى تلك الليلة في منامه، وعلى هذا بنى الإمام أحمد رحمه الله تعالى وقال: نعم رآه حقاً فإن رؤيا الأنبياء حق ولا بد، ولكن لم يقل أحمد رحمه الله تعالى: إنه رآه بعينيْ رأسه يقظةً، ومن حكى عنه ذلك فقد وهم عليه، ولكن قال مرة: رآه. ومرةً قال: رآه بفؤاده، فحكيت عنه الروايتان، وحكيت الثالثة من تصرف بعض أصحابه: أنه رآه بعين رأسه. وهذه نصوص أحمد موجودة، ليس فيها ذلك»[2].

وأما وقوع الرؤية في الآخرة فقد ثبت بالقرآن الكريم والسنة

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧٨) (٢٩١) و(٢٩٢).

(٢) زاد المعاد، لابن القيم (٣/ ٣٧).

النبوية والإجماع. أما القرآن الكريم فقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]. وفعل النظر إذا عُدِّي بإلى كان بمعنى الرؤية، كما قال الشاعر:

نظرتُ إلى من حسَّن الله وجهه   فيا نظرةً كادت على وامقٍ تقضي

وهو في الآية معدًّى بإلى كما ترى، فيكون بمعنى الرؤية.

وقوله تعالى في شأن الكافرين: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] ذكر ذلك تحقيراً لهم، فلزم أن يكون المؤمنون مبرئين من ذلك، فثبت في حقهم الرؤية.

وقد قال الإمام مالك رضي الله عنه: لما حُجِبَ أعداؤه فلم يروه تجلَّى لأوليائه حتى رأوه، ولو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يُعيَّر الكافرون بالحجاب، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه: «لما حجبَ قوماً بالسخط دلّ على أن قوماً يرونه بالرضا. ثم قال: أما والله لو لم يوقن محمد بن إدريس[١] بأنه يرى ربَّه في الميعاد لما عبده في الدنيا»[٢].

وأما السُّنة الشريفة فما روي في الصحيح، عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنَّا مع النبيِّ ﷺ، فنظرَ إلى القمر ليلة ـ يعني: البدر ـ فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع

---

(١) أي: الشافعي نفسه.
(٢) انظر تحفة المريد، للباجوري (٦٧).

الشمس وقبل غروبها فافعلوا» ثم قرأ: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[1] [ق: ٣٩].

وفي البخاري وغيره أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن الناس قالوا: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تُمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فهل تُمارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا، قال:«فإنكم ترونه كذلك»[2].

وأما الإجماع: فقد كان الصحابة رضي الله عنهم مجمعين على وقوع الرؤية في الآخرة.

هذا، وإذا كان الوقوع أقوى أدلة الإمكان كما هي القاعدة، كان من الواجب علينا أن نَعُدَّ هذه الأدلة على الإمكان أيضاً، ولهذا قال صاحب المواقف: «كل ما سنتلوه عليك مما يدلُّ على وقوع الرؤية فهو دليل على جوازها»[3].

ثالثاً ـ صفات المعاني

أ ـ عددها: صفات المعاني سبع، وهي: الحياة ـ العلم ـ الإرادة

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٥١) ومسلم في المساجد (٦٣٣) وأبو داود في السنة (٤٧٢٩) والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأذان (٨٠٦) وأبو داود في السنة (٤٣٧٠) والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٧).

(٣) المواقف، للإيجي (ص٣٠٢).

ـ القدرة ـ السمع ـ البصر ـ الكلام.

ب ـ تعريفها: هي كل صفة أزلية قائمة بذاته تعالى، موجبة له حكماً، وذلك كالقدرة مثلاً، فإنها صفة أزلية قائمة بذاته تعالى.

جـ ـ تعريف كلٍّ من هذه الصفات وأدلتها:

الصفة الأولى: الحياة

وتعريف الحياة: هي صفة أزلية تقتضي صحة الاتصاف بالعلم.

دليلها: من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فاتصافه سبحانه بأنه حي نتيجة لثبوت صفة الحياة له.

ودليلها من العقل: أن نقول: إن الله متصف بالعلم والقدرة والإرادة، وكل من كان كذلك، وجبت له الحياة، فالله تجب له الحياة.

الصفة الثانية: العلم

تعريفها: هي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى، متعلِّقة بجميع الواجبات والجائزات والمستحيلات على وجه الإحاطة على ماهي عليه، من غير سبق خفاء.

فيعلم الله جل وعز الأشياء أزلاً على ما هي عليه، وكونها وجدت في الماضي، أو موجودة في الحال، أو تُوجد في المستقبل، فهو يعلم الأشياء إجمالاً وتفصيلاً، ويعلم الكليات والجزئيات.

دليلها: من القرآن الكريم آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ

﴿ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥] وقوله سبحانه: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١] وقال سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٧].

وقال عز وجل: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال جل جلاله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [فاطر: ٣٨]. وقال جلت قدرته: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وأما الدليل العقلي على علمه سبحانه فهو أن فعله سبحانه متقن، وكل مَنْ فعله متقن وهو مختار فيه فهو عالم.

أما الدليل على أن فعله متقن فظاهر لمن نظر في الآفاق وفي الأنفس، وتأمل ارتباط العلويات بالسفليات، ولاسيما في الحيوانات وما هديت إليه من مصالحها، وأعطيت من الآلات المناسبة لها، ويعين على ذلك علم التشريح، ومنافع خلقة الانسان وأعضائه التي ألفت فيها المجلدات.

وأما الدليل على أن من فعله متقن وهو مختار فهو عالم، فهو: أن من رأى خطاً حسناً يتضمن ألفاظاً عذبة رشيقة تدل على معانٍ

دقيقة مؤنقة، علم بالضرورة أن كاتبه عالم، وكذلك من سمع خطاباً منتظماً مناسباً للمقام من شخص؛ يضطر إلى أن يجزم بأنه عالم[1].

الصفة الثالثة: الإرادة

تعريفها: هي صفة قديمة زائدة على الذات، قائمة به، تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه، وما يجوز عليه هو الممكنات الست المتقابلات، وهي:

١ـ الوجود: ويُقابله العدم، وبالعكس.

٢ـ الصفات: فبعضها يقابل البعض الآخر، فكونه أبيض، يقابل كونه أسود.

٣ـ الأزمنة: فبعضها يُقابل البعض الآخر، فكونه في زمن الطوفان يُقابل كونه في زمن محمد ﷺ.

٤ـ الأمكنة: فبعضها يُقابل بعضاً، فكونه في دمشق مثلاً، يُقابل كونه في مكان آخر غيرها.

٥ـ الجهات: فبعضها يُقابل بعضاً، فكونه في المشرق، يقابل كونه في جهة المغرب.

٦ـ المقادير: فبعضها يُقابل بعضاً، فكونه طويلاً يقابل كونه قصيراً، وقد جمع بعضهم هذه الممكنات في بيتين، فقال:

المكنــات المتقــابــلات وجودنا والعدم الصفات
أزمنــة أمكنــة جهــات كذا المقادير روى الثقات

---

(١) انظر المواقف للإيجي (٢٨٥).

دليلها: أما دليلها من القرآن الكريم فقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [المائدة: ٤١]. وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]. قال سبحانه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾ [القصص: ٥ ـ ٦] إلى كثير من الآيات التي تثبت لله سبحانه إرادة.

وأما الدليل العقلي: فيتلخص: في أن الله تعالى لو لم يكن موصوفاً بالإرادة لاتَّصف بضد من أضدادها، كالإكراه، والسهو، والآفة، وهذا عليه محال، فيجب الاتصاف بضده وهو الإرادة، وأيضاً لو لم يكن متصفاً بالإرادة للزم عليه ضدها وهو الإكراه، والإكراه يستلزم مكرهاً، وذلك ينافي ماثبت من أنه واجب الوجود، وأنه إلهٰ.

هذا وقد أتى الباجوري ببرهان آخر على الإرادة فقال: «والدليل على وجوب الإرادة له تعالى أن تقول: الله صانع للعالم بالاختيار، وكل من كان كذلك تجب له الإرادة، فالله تجب له الإرادة»[1].

هل الإرادة هي الأمر والرضا؟

إن الإرادة تتعلَّق بـالممكـن على وفـق مـا سيـوجـد عليـه في المستقبل، سواء أكان ذلك خيراً، أو شراً، مأموراً به، أو منهياً

---

(١) تحفة المريد، للباجوري (٤٠).

عنه، وهذا التعلُّق لا يقتضي شيئاً من القسر والجبر لأفعال العباد.

وأما الأمر: فهو طلب الفعل، وأما الرضا: فهو قبول الشيء، والإثابة عليه، وهذان لا يتعلَّقان إلا بالأمر المستحسن، وبالشيء المحبوب، ولا يتعلَّقان بالقبيح ولا بالمكروه، فيقال: رضي الله لنا بالإيمان، وأمرنا به، والطاعة والصلاح وأحبَّ لنا ذلك، وأمرنا به، وكره لنا الكفر والفسوق والعصيان منا، ولم يأمرنا به، إلا أنه سبحانه قد أراده ممن وقع منه.

وعلى هذا فالإرادة شيء، والأمر والرضا شيء آخر، ومثل الرضا المحبة، ومثل الإرادة المشيئة.

إلا أنه قد تلتقي الإرادة مع الأمر، وقد لا تلتقي، وقد جعل الإمام الباجوري تلاقي الإرادة والأمر على أربعة أحوال:

الأول: أنهما قد يلتقيان، وذلك كإيمان من علم الله منهم الإيمان، فإن الله تعالى أراده منهم، وأمرهم به.

الثاني: قد ينتفيان، أي: إنه لا يريد ولا يأمر، وذلك كوقوع الكفر، من هؤلاء الذين ثبت في علم الله إيمانهم. فإنه لم يأمرهم بالكفر ولم يُرِدْه لهم.

الثالث: أنه قد يريد ولا يأمر، وذلك كوقوع الكفر والمعاصي ممن علم الله وقوع ذلك منهم، فإنه سبحانه أراده، أي: لم يقع رغماً عنه، ولكنه لم يأمر به.

الرابع: قد يقع الأمر، ولا تكون الإرادة، وذلك كإيمان الذين علم الله منهم أنهم لا يُؤمنون، فهو لم يرد لهم الإيمان، ولكنه أمرهم به.

هذا وذهبت المعتزلة إلى القول بأن إرادة الله لا تتعلق بالشرور والقبائح، وحُكي: أن القاضي عبد الجبار الهمذاني دخل على الصاحب بن عبَّاد وعنده أبو إسحاق الإسفراييني، فلما رأى الأستاذ قال: سبحان من تنزه عن الفحشاء، فقال الأستاذ: سبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء، فقال عبد الجبار: أفيريد ربنا أن يُعصى؟ فقال الأستاذ: أفيعصى ربنا كرهاً، فقال عبد الجبار: أرأيت إن منعني الهدى، وقضى علي بالرَّدى، أحسن إليّ أم أساء؟ قال الأستاذ: إن منعك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ما هو له فهو يخصُّ برحمته من يشاء [1].

وقد تبيَّن من ذلك: أنه يجوز أن يقال: إن الله أراد وشاء خلق الشرّ، وخلق الله الشرَّ، لأن هذه من الممكنات، وإن كان الأدب يقتضي ألاَّ نتكلم بذلك.

فقد قال الإمام الباجوري في ذلك: «واختلف العلماء في جواز نسبة خلق الشرور والقبائح إليه تعالى، والراجح جواز ذلك في مقام التعليم لا في غيره، وهذا الخلاف جارٍ أيضاً في نسبة الأمور الخسيسة إليه تعالى، والأصح الجواز في مقام التعليم لا في غيره، فلا يجوز أن يقال: الله خالق القردة والخنازير، وسبحان من رزق الهدهدَ، ومن دبَّب الشوك إن لم يكن في مقام التعليم» [2].

---

(١) تحفة المريد، للباجوري (ص ٣٩).

(٢) تحفة المريد، للباجوري (٤٠). ويوصف الهدهد بأنه مُنْتِن كما في كتاب: الحيوان في الأدب العربي (٣/ ٣٥٩) لشاكر هادي شكر. =

الصفة الرابعة: القدرة

تعريفها: هي صفة أزلية قائمة بذاته يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه على وفق الإرادة.

هذا ولابد من التنبيه هنا على أن الإرادة والقدرة لا علاقة لهما بالمستحيلات ولا بالواجبات، لأن المستحيل لا يتصور في العقل وجوده، والواجب لا يتصور في العقل عدمه.

دليلها: من القرآن الكريم آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣] وقال جلّ وعزّ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦ ـ ٤٠].

فاتصاف الله بأنه قادر يستدعي أن تكون له صفة؛ هي القدرة.

وأما دليلها العقلي: فهو أن تقول: الله صانع قديم له مصنوع حادث، وكل من كان كذلك تجب له القدرة.

الصفة الخامسة: السمع

تعريفها: هي صفة أزلية قائمة بذاته، تتعلق بالموجودات، سواء أكانت أصواتاً أو غيرها، كالذوات، وهذه طريقة السنوسي، ويرى السعد: أنها تتعلّق بالمسموعات.

قال الإمام الباجوري: «فيحتمل: أن مراده بالمسموعات في

حقنا وهي الأصوات فيكون مخالفاً لطريقة السنوسي ومن تبعه، ويحتمل: أن مراده بالمسموعات في حقه تعالى، وهي الموجودات، الأصوات وغيرها، فيكون موافقاً لطريقة السنوسي» [1].

ومما يجب التنبيه إليه أن سمعَه سبحانه لا يفتقر إلى حاسَّة، ولا يحتاج إلى وساطة كالهواء، ولا إلى شيء مما يحتاج إليه الإنسان وغيره.

الصفة السادسة: البصر

تعريفه: هو صفة أزلية قائمة بذاته تتعلَّق بالمبصرات أو الموجودات على ما سبق من الخلاف.

والدليل على اتصافه سبحانه بالسمع والبصر دليل نقلي مقطوع به، سواء أكان ذلك من الكتاب أو السنة.

قال الإمام الباجوري: «يجب اعتقاد: أن الانكشاف بالسمع غير الانكشاف بالبصر، وأن كّلاً منهما غير الانكشاف بالعلم، ولكلٍّ حقيقة يُفَوَّض علمها لله تعالى، وليس الأمر على ما نعهده من أن البصر يفيد بالمشاهدة وضوحاً فوق العلم، بل جميع صفاته تامة كاملة، يستحيل عليه الخفاء والزيادة والنقص إلى غير ذلك» [2].

الصفة السابعة: الكلام

أ ـ **تعريفه**: هو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى، هو بها آمر وناه ومخبر، عبّر عنها نظم ما أوحاه إلى رسله، كالقرآن والتوراة والإنجيل والزبور. وهي ليست بحرف ولا صوت، وهي منزهة

---

(١) تحفة المريد، للباجوري (ص ٤٣).
(٢) المصدر السابق (ص٤٣).

عن التقدُّم والتأخر والإعراب والبناء متعلِّق بجميع الواجبات والجائزات والمستحيلات جميعاً؛ لأن من المحال ألا يكون علمه سبحانه متناولاً لها على وجه الإحاطة كالعلم.

وقال علماء الحديث: وهو يتكلم بصوت يُسمع، وأن نوع الكلام قديم، وإن لم يكن الصوت المعيَّن قديماً[1].

ب ـ دليله: من القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤] وقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦] ودليله من السنة ما ثبت في الحديث الصحيح: من أن الرسول ﷺ خاطبَه ربُّه ليلة المعراج، وفرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس، بعد أن فرضها عليه خمسين صلاة، وما زال يُراجعه حتى جعلها خمساً في العدد وخمسين في الأجر، وفي هذا الحديث يقول عليه الصلاة والسلام: «فلما جاوزت ناداني مناد: أمْضَيْتُ فريضتي، وخَفَّفْتُ عن عبادي»[2].

ج ـ مسألة خلق القرآن:

تحقيق هذه المسألة: إن الكلام في اللغة العربية يُطلق بالاشتراك على معنيين:

أحدهما: المعنى القائم بالنفس الذي من شأنه أنْ يُعبَّر عنه بألفاظ، وعلى هذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سقيفة

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١٧٤).

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٧).

بني ساعدة عندما اجتمعوا لاختيار خليفة رسول الله ﷺ، قال: «إني زوَّرتُ في نفسي مقالة» أي: هيَّأت كلاماً. وقول الأخطل:

إن الكلامَ لفي الفؤاد وإنما جُعل اللسان على الفؤاد دليلا

ثانيهما: الألفاظ المعبِّرة عن المعنى القائم بالنفس، فتقول: هذا كلام فصيح، وكلام واضح.

إذا علمت هذا فاعلم: أن الله سبحانه قد ثبتَ له صفة الكلام بإجماع الأمة الإسلامية، وتواترَ النقل عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: أنه سبحانه وتعالى متكلِّم مع القطع باستحالة التكلُّم من غير ثبوت الكلام، وهذا القدر من الإجماع لا خلاف فيه لأحد من المسلمين.

غير أن المعتزلة فسَّروا هذا الذي أجمعَ المسلمون على إثباته لله تعالى، فسَّروه بأنه أصوات وحروف يخلقُها الله في غيره كاللوح المحفوظ، وجبريل، وغير ذلك، وعلى هذا فكلامُ الله حادث وليس بقديم، ثم إنهم لم يُثبتوا لله شيئاً آخر من وراء هذه الأصوات والحروف تحت اسم الكلام، وأنكروا أن يكون لله صفة قديمة قائمة بذاته هي الكلام، وبناء على ذلك قالوا بخلق القرآن.

أما جماهيرُ المسلمين، وهم أهل السنة والجماعة، فقد قالوا: إن هذه الحروف والأصوات التي تدلُّ على معاني كلام الله لاشكَّ أنها حادثة، ونُسمِّيها كلاماً لفظياً، ولكننا نثبت إلى جانب ذلك صفة أزلية قائمة بذاته هي الكلام، وهي تلك المعاني التي يُعبَّر عنها بالألفاظ، وهي غير صفة العلم والإرادة، وإنما هي صفة مهيَّأة لأن يخاطب بها الآخرون على وجه الأمر، والنهي، والخبر،

والوعد، والوعيد، وقد شرحنا ذلك فيما مضى.

هذا ولقد نقل بعضُهم عن الإمام أحمد أنه كان يقول: إن الحروف والأصوات في القرآن الكريم قديمة، وكذلك أتباعه من الحنابلة. وقد ذكر ذلك النسفي في تبصرة الأدلة. وقال العضد الإيجي في المواقف: «ثم قال الحنابلة: كلامه حرف وصوت يقومان بذاته، وإنه قديم، وقد بالغوا فيه حتى قال بعضهم جهلاً: الجلد والغلاف قديمان، وهذا باطل بالضرورة، فإن حصول كل حرف مشروط بانقضاء الآخر، فيكون له أول، فلا يكون قديماً، فكذلك المجموع المركب منه»[1].

وقد أنكر الإمام ابن تيمية نسبة ذلك إلى الإمام أحمد أو أحد من أصحابه، فقال: «من قال: إن صوت العبد بالقرآن، ومداد المصحف قديم، فهو مخطىء ضال، ولم يقل بهذا أحد من علماء أصحاب الإمام أحمد، ولا غيرهم.

وما نقل عنهم أنهم يقولون: ليس القرآن إلا الصوت المسموع من القارىء، والمداد الذي في المصحف، وهو مع ذلك قديم؛ فهو كذب مفترى، ما قاله أحمد، وأحضر نصوص الإمام أحمد وأصحابه»[2].

هذا ومع اعتقادنا: أن الألفاظ التي نقرؤها في القرآن حادثة، لا يجوز أن نقول: القرآن حادث؛ خشية الالتباس، وفي هذا يقول الإمام الباجوري:

---

(١) المواقف، للإيجي (ص ٢٩٣).

(٢) مجموع الفتاوى؛ لابن تيمية (٣/٢٠٨).

«ومع كون اللفظ الذي نقرؤه حادثاً لا يجوز أن يُقال: القرآن حادث، إلا في مقام التعليم، لأنه يُطلق على الصفة القائمة بذاته تعالى أيضاً، لكن مجازاً على الأصح، فربما يُتوهَّم من إطلاق أن القرآن حادث، أن الصفة القائمة بذاته تعالى حادثة، ولذلك ضُرب الإمام أحمد بن حنبل وحُبس على أن يقول بخلق القرآن فلم يرض»[1].

رابعاً ـ الصفات المعنوية: وهي نتائج لصفات المعاني، وعددها سبع، كونه سبحانه وتعالى: حيّاً، عليماً، مُريداً، قادراً، سميعاً، بصيراً، متكلِّماً. وقد ثبتت هذه الصفات لله عزَّ وجلَّ بنص القرآن الكريم، وتقدَّمت الآيات التي تدلُّ عليها.

خامساً ـ صفات الأفعال:

ووردت في القرآن العزيز وصفاً للخالق سبحانه وتعالى، وهي خلاف وصف المخلوقين بيقين، والفارق بينهما كالفارق بين ذات الخالق الباقي وذات المخلوق الفاني. ومن ذلك:

١ ـ صفة الرزق: وقد وصف الله عز وجل نفسه بأنه يرزق عباده، فقال سبحانه: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٧ ـ ٥٨].

٢ ـ صفة العمل: ووصف الله تعالى نفسه بصفة العمل فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ [يس: ٧١].

---

(١) تحفة المريد، للباجوري (ص ٤٣).

٣ ـ **صفة التعليم**: ووصف الله تعالى نفسه بالعلم، فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤].

٤ ـ **صفة الإنباء**: ووصف الله سبحانه نفسه بالإنباء فقال: ﴿... قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣].

٥ ـ **صفة الإيتاء**: ووصف الله عز وجل نفسه بالإيتاء فقال: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ [هود: ٣].

صفات اختلف فيها:

واختلف علماء العقيدة الإسلامية في صفات أربعة، هل هي صفات أفعال أو صفات معاني، والراجح أنها صفات معان قائمة بذات الله تعالى وهي:

١ و٢ ـ **الرأفة والرحمة**: قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ٧].

٣ ـ **الحلم**: قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾ [الحج: ٥٩].

٤ ـ **المغفرة**: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الممتحنة: ١٢].

سادساً ـ الصفات الجامعة

ووصفَ الله جلَّ وعلا نفسه بصفاتٍ جامعة، وما ورد منها في الكتاب العزيز وصفاً للمخلوقين، لا مناسبة ولا تناسبَ بين صفات الخالق وصفات المخلوق على الإطلاق، ونذكرُ من هذه الصفات الجامعة:

١ و٢ ـ **العلو والعظم والكِبَر**: قال تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ [النساء: ٣٤].

٣ ـ **المَلِكُ**: قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٢٣].

٤ و٥ ـ **الجبروت والكِبْر**: قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾ [الحشر: ٢٣].

٦ ـ **العزة**: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠].

٧ ـ **القوة**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٩].

فـائـدة: ونختم كلامنا عن الصفات بما بدأناه أولاً من إثبات صفات الكمال والجلال لله تعالى، ومن غير تشبيه ولا تعطيل ولا تجسيم، مؤكدين ذلك كله من خلال قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: ١١]. ورحم الله الإمامُ أبا حنيفة فقد قال في «الفقه الأكبر»: لا يُشبه سبحانه شيئاً من خلقه، ولا يُشبهه شيء من خلقه.. وصفاتُه كلُّها خلافُ صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا[1].

* * *

---

(١) الفقه الأكبر (ص٣١ ـ ٣٢).

٢ ـ أسماء الله تعالى

تمهيد:

ذكر الله تعالى في كتابه العزيز: أن له أسماء حسنى، وطلبَ أن ندعوه بها، وورد في الصحيح: أن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة، وتفرَّد أحد الرواة ـ عند الترمذي وابن ماجه ـ فذكرَ الأسماء.

وقد رأينا أن نعرضَ للأسماء الحسنى من خلال: معناها، وأدلتها، وأحكامها، والاسم الجامع للأسماء والصفات، واسم الله الأعظم، وتوضيح بعض معانيها، وثمراتها في حياة الإنسان، وذلك فيما يلي:

أ ـ معناها:

أسماء الله تعالى: هي أعلام وأوصاف لله تعالى، كالعزيز، فهو اسم لله سبحانه، وهو في الوقت نفسه صفة، والوصف فيها لا ينافي العلميّة، بخلاف أوصاف العباد؛ فإنها تنافي العلمية.

ونستنتج من هذا: أن أسماء الله تعالى لها دلالة على الذات والصفة بالمطابقة.

وكل اسم منها مشتق من مصدره؛ كالكريم مشتق من الكرم، والسميع مشتق من السمع، ويدلُّ كل منهما على صفة الكرم

والسمع للخالق سبحانه وتعالى. وهكذا كل أسماء الله تدل على معانيها، وجميعها أوصاف مدح وكمال لله عز وجلَّ.

وسميت أسماء الله تعالى «الحسنى» لدلالتها على أحسن مسمَّى وأشرف مدلول. قال الفخر الرازي: وأسماء الله محصورة في نوعين: عدم افتقاره إلى غيره، وثبوت افتقار غيره إليه[1].

٢ ـ أدلتها في القرآن الكريم والحديث الشريف:

أ ـ في القرآن الكريم:

١ ـ قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

٢ ـ وقال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

٣ ـ وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨].

٤ ـ وقال عز وجلَّ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٤]. معنى «الأسماء»: التسميات، وقيل: الصفات. و«الحُسْنى»: لأنها حسنة في الأسماع والقلوب؛ فإنها تدلُّ على توحيده، وكرمه، وجوده، ورحمته، وإفضاله، تعالى. و«يُلْحِدُون»: يميلون وينحرفون، ويتركون القصد. قال القرطبي: والإلحاد يكون بثلاثة أوجه: أحدها: بالتغيير فيها؛ كما فعله المشركون، وذلك: أنهم عدلوا بها عما هي عليه، فسمُّوا بها

---

(١) التفسير الكبير؛ للفخر الرازي (١٥/ ٦٦).

أوثانهم، فاشتقوا اللاَّت من الله، والعزَّى من العزيز، ومناة من المنان، قاله ابن عباس، وقتادة. والثاني: بالزيادة فيها. والثالث: بالنقصان منها. كما يفعله الجُهَّال الذين يخترعون أدعية يسمون فيها الله بغير أسمائه[1].

ب ـ في الحديث الشريف:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً مئة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنّة» رواه الجماعة[2] إلا أبا داود.

وفي رواية للبخاري أيضاً: «لا يحفظها أحدٌ إلا دخل الجنة، وهو وترٌ يُحِبُّ الوتر».

وفي رواية للإمام مسلم، وابن ماجه: «مَنْ حَفِظَها دخلَ الجَنَّة».

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ٣٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧)، والنسائي في السنن الكبرى (٧٦٥٩). والزيادة في الترمذي (٣٥٠٧)، وابن ماجه (٣٨٦١)، وابن حبان كما في الإحسان (٨٠٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٦) وقال البوصيري في الزوائد: لم يخرج أحدٌ من الأئمة الستة عدد أسماء الله الحسنى من هذا الوجه ولا من غيره، غير ابن ماجه والترمذي مع تقديم وتأخير، وطريق الترمذي أصح شيء في الباب. وقال: وإسناد طريق ابن ماجه ضعيف؛ لضعف عبد الملك بن محمد. وانظره في كتاب الأذكار رقم (٢٦٩) بتحقيق محيي الدين ديب مستو.

زاد الترمذيُّ: «هو الله الذي لا إلهَ إلا هُو، الرحمنُ، الرحيمُ، المَلِـكُ، القُـدُّوسُ، السَّـلامُ، المُـؤمـنُ، المهيمـنُ، العـزيـزُ، الجبَّارُ، المتكبِّرُ، الخالِقُ، البَارِىءُ، المُصَوِّر، الغَفَّارُ، القهَّار، الوهَّابُ، الرَّزَّاقُ، الفتَّاح، العليمُ، القابضُ، الباسطُ، الخافِضُ، الرَّافِعُ، المُعِزُّ، المُذِلُّ، السميعُ، البصيرُ، الحَكَمُ، العَدْلُ، اللطيف، الخبيرُ، الحليمُ، العظيمُ، الغفور، الشَّكُورُ، العَلِيُّ، الكبيرُ، الحفيظ، المقيتُ، الحسيبُ، الجليل، الكريم، الرقيبُ، المُجيبُ، الواسع، الحكيم، الودودُ، المجيد، الباعثُ، الشهيدُ، الحـقُّ، الـوكيـلُ، القـويُّ، المتيـنُ، الـولـيُّ، الحميـد، المحصي، المبدىء، المعيدُ، المحيي، المميت، الحيُّ، القيُّوم، الواجدُ، الماجد، الواحد، الصمدُ، القادرُ، المقتدر، المقدِّم، المؤخِّرُ، الأوَّلُ، الآخرُ، الظاهرُ، الباطنُ، الوالي، المتعالي، البَرُّ، التوَّابُ، المنتقم، العفوُّ، الرؤوفُ، مالكُ المُلك، ذو الجلال والإكرام، المقسطُ، الجامعُ، الغنيُّ، المغني، المانع، الضارُّ، النَّافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور».

وقال الترمذي: غريب، حدثنا به غير واحد، عن صفوان بن صالح، ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح، وهو ثقة عند أهل الحديث، وقد روي من غير وجهٍ، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. ولا نعلمُ في كثير شيء من الروايات له إسنادٌ صحيح ذِكْرَ الأسماء إلا في هذا الحديث.

وفي رواية ابن ماجه أيضاً ذكر الأسماء، وقال: قال زهير: فبلغنا عن غير واحد من أهل العلم أن أوَّلها يُفتح بقول: لا إله إلا

الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله له الأسماء الحسنى.

ومعنى «أحصاها»: حفظَها، وقد وردت بهذا المعنى في بعض طرق الحديث في الصحيحين.

ولا شك: أن الإحصاء والحفظ لأسماء الله يتضمن: العدَّ، وفهم معانيها، والإيمان بها، وحسن المراعاة لها ولأحكامها، والاتصاف بقدر الممكن منها، والمحافظة على حدودها في معاملة الله ودعائه بها.

٣ ـ أحكامها:

أ ـ عددها: ليس مقصود النبي ﷺ حصر الأسماء فيما ذكر وهو (٩٩)، والمذكور نماذج منها، ومما دلَّ على أن له سبحانه أسماء أُخر قوله ﷺ: «اللهم إني أسألك بكل اسم سمَّيْتَ به نفسَكَ، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك»[١] وقوله ﷺ: «فأحمده بمحامد لا أقدر عليها إلا أن يُلهمنيها الله»[٢].

ب ـ كونها توقيفية: ومعنى ذلك أنها التي وردَ الشرع بها في القرآن الكريم أو الأحاديث الصحيحة أو الحسنة أو الإجماع، فيقال: يا جواد، ولا يقال: يا سخيّ؛ لأن الأول توقيفي أما الثاني فاصطلاحي.

ج ـ السؤال بها: لا يجوز أن يسألَ أحدٌ اللهَ تعالى إلا بهذه

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١) والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٦ ـ ٧).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧١٢) ومسلم في الإيمان (١٩٤).

الأسماء التي وردت في الشرع، ولا يدعوه إلا بها، ولا يُقسم إلا بها. ويجب أن تكون دالة على الشرف والكمال، وأن يكون الدعاء بها بعد معرفة معانيها، ومعرفة الداعي: أن له إلهاً ورباً خالقاً موصوفاً بتلك الصفات الشريفة المقدسة.

٤ ـ الاسم الجامع لأسماء الله وصفاته:

الاسم الجامع لأسماء الله تعالى وصفاته كلها هو «الله» وهو اسم علم على الذات الإلهية، وأعظم أسماء الله الحسنى، وأشهرها، حتى تعرف كلُّ أسمائه به. وقال الطبري في معنى لفظ الجلالة «الله»: ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين[١].

ورجَّح الطبري وسيبويه وابن القيم: أنه مشتق، وأصله «الإلٰه» حذفوا الهمزة، وأدغموا اللام في اللام، فصارتا لاماً واحدة مشددة مضخمة[٢].

وذهبَ بعضهم إلى أنه ليس بمشتق، كالخليل وغيره؛ لأنه يدل على الذات مجرَّدة، وعلى الوجود الحق الموصوف بصفات الجلال والكمال دلالة مطلقة غير مقيدة بقيد. ولأن العرب عاملته معاملة الأسماء الأعلام في النداء، فجمعوا بينه وبين ياء النداء، ولو كان مشتقاً لكانت لامه زائدة[٣].

---

(١) تفسير الطبري (٢٠/ ١٢٣).

(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص ١١).

(٣) المفهم في شرح ما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس القرطبي (٧/ ١٦).

٥ً ـ اسم الله الأعظم:

اختلف العلماء في تعيين اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل أعطى، وبلغت أقوالهم في ذلك أربعة عشر قولاً، منها: الله، الأحد، الصمد، المنان، بديع السموات والأرض، ذو الجلال والإكرام، لا إله إلا الله، الحي القيوم.

ولعل الأرجح ما ورد في حديث بريدة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهدُ أنَّكَ أنت الله الأحد الصَّمد، الذي لم يلد ولم يُولد ولم يكن له كفواً أحداً، فقال ﷺ: «لقد سألتَ الله باسمه الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب» وفي رواية: «لقد سألتَ اللهَ باسمه الأعظم»[1].

٦ً ـ توضيح بعض معاني[2] أسماء الله الحُسنى:

اسم الله: «**القدوس**»: من القدس، وهو الطهارة والنزاهة، ومعناه في وصفه تعالى يعود إلى استحالة النقائص والتنزيه عن الآفات.

اسم الله: «**السَّلام**»: معناه: ذو السلامة من كل عيب، ونقيصة، وقيل: معناه ذو السَّلام، أي: منه السَّلامةُ لعباده،

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٣) والترمذي (٣٤٧٥) وابن ماجه (٣٨٥٧) والحاكم في المستدرك (١/ ٥٠٤) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) باختصار وتصرُّف يسير من كتاب «سلاح المؤمن في الدعاء والذكر» لابن الإمام المتوفى سنة (٧٤٥هـ) (ص ٢٢٥ ـ ٢٣٥) بتحقيق محيي الدين ديب مستو.

وقيل: ذو السَّلام على المؤمنين في الجنة، قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

اسم الله: «**المؤمن**»: قيل: هو الذي يُعزى إليه الأمنُ والأمانُ بإفادته أسبابه وسدِّه طرق المخاوف، وقيل: معناه المُصَدِّقُ، فإنَّ أصلَ الإيمان التصديق، فهو المُصدِّق ظنونَ عباده المؤمنين، ومنه قوله تعالى: «أنا عند ظنِّ عبدي بي»[1]. وهو الذي يَصْدُقُ عبادَه ما وعدَهم به.

اسم الله: «**المهيمن**»: هو القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم، وقيامه عليها باطلاعه، واستيلائه، وحفظه، فكل مطلع على كُنْهِ الأمر مُسْتَوْلٍ عليه، حافظ له، فهو مهيمن عليه.

اسم الله: «**العزيز**»: هو القديمُ الذي تشتد الحاجةُ والوصول إليه، أو هو الغالب الذي لا يُغلب.

اسم الله: «**الجبَّارُ**»: هو الذي جبرَ الخلقَ على ما أراد، وقيل: هو من قولهم: جبرتُ الكَسْرَ: إذا أصلحتَه.

اسم الله: «**المُتكبِّرُ**»: قيل: معناه ومعنى العليّ والمُتعالي والعظيم واحد.

اسم الله: «**الخَالِقُ**»: المقدِّرُ، وحمل المفسرون قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] على معنى التقدير.

اسم الله: «**البارىء**»: المخترع الموجد.

اسم الله: «**المصوِّر**»: المرتب للصور والمخترعات.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩١) وابن حبان في صحيحه (٦٣٣) الإحسان.

اسم الله: «**الغَفَّارُ**»: هو الغفَّار لذنوب عباده مرة بعد أخرى، بإسبال الستر عليها في الدنيا والتجاوز عنها في الآخرة. والغفر في اللغة: الستر، ومنه سمي المِغْفَرُ مِغْفَراً.

اسم الله: «**القَهَّار**»: هو الذي لا موجود إلا وهو مُسَخَّر تحت قهره وقدرته، عاجز في قبضته.

اسم الله: «**الوهَّاب**»: هو الذي يجود بالعطاء، ويمنح النعم، والهبة: التمليك بغير عوض، وكل مَنْ وهب شيئاً لصاحبه فهو واهبٌ، ولا يستحق أن يُسمَّى وَهَّاباً إلا من تصرَّفتْ مواهبُه في أنواع العطايا ودامتْ نوافلُه. والمخلوقون إنما يهبُون مالاً أو قولاً في حال دون حال، ولا يملكون أن يَهَبوا شِفاءً لسقيمٍ، ولا هُدىً لضالٍّ، ولا عافيةً لذي بلاءٍ، والله سبحانه يملك جميعَ ذلك.

اسم الله: «**الفتَّاحُ**»: معناه: الحاكم بين الخلائق، والفتح في اللغة: الحكم، ومنه قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ**﴾ [الأعراف: ٨٩]. وقيل: الفتَّاحُ: مُبدع النصر، والفتح، ومما جاء في الفتح بمعنى النصر قوله سبحانه: ﴿**يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾ [البقرة: ٨٩] وقوله تعالى: ﴿**إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُ**﴾ [الأنفال: ١٩].

اسم الله: «**القابضُ الباسِطُ**»: هو الذي يُوسع الرزق ويقدِّرُه، يبسطُه برحمته، ويقبضه بحكمته، قال تعالى: ﴿**وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ**﴾ [الشورى: ٢٧] وفي الحديث، عن النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: إنَّ من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا على الغِنى ولو أفقرتُه

أفسدَه ذلك، وإنَّ من عبادي المؤمنين من لا يَصلحُ إيمانُه إلا على الفقر، ولو أغنيته أفسدَه ذلك، وإنَّ من عبادي المؤمنين من لا يَصلحُ إيمانُه إلا على الصِّحةِ ولو أسقمتُه أفسدَه ذلك، وإن من عبادي المؤمنين من لا يَصلحُ إيمانُه إلا على السُّقْم، ولو أصححته أفسده ذلك، إني أُدَبِّرُ عبادي بعلمي كيف أشاء، إني لطيفٌ خبيرٌ»[1]، وقيل: معناه: الذي يقبض الأرواحَ بالموت، ويبسطُها عند الحياة. قال بعض العلماء: يجب أن يُقرنَ بين هذين الاسمين ولا يفصل بينهما، ليكون أنبأ عن القدرة، وأدلَّ على الحكمة، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥]. فإذا قلت: القابضُ، منفرداً، فكأنك قصرت بالصفة على المنع والحرمان، وإذا جمعت أثبتَ الصفتين، وكذلك القول في: الخافضُ الرافع، والمعزُّ المُذِلُّ.

اسم الله: «**الحكمُ**»: هو الحاكم الذي لا رادَّ لحكمه ولا مُعَقِّبَ لقضائه، وقيل للحاكم: حاكم؛ لمنعه الناس عن التظالم، يُقال: حكمت الرجل عن الفساد: إذا منعته منه. ومن هذا قيل: حَكَمَةُ اللجام، لمنعها الدابة عن التمرُّد والذهاب في غير جهة المقصد.

اسم الله: «**العَدْلُ**»: معناه العادل، وهو الذي يصدر منه فعل العدل.

اسم الله: «**اللطيفُ**»: قيل: معناه المُلَطِّف، كالجميل معناه المُجَمِّل، وقيل: هو العليم بدقائق الأمور وخفياتها، أو المُحْسِنُ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الأولياء (١) والبيهقي في الأسماء والصفات (١٢١) وابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٣٢).

إلى خلقه بإيصال المنافع إليهم برفق ولطف.

اسم الله: «**الحليمُ**»: هو ذو الصفح والأناة، الذي لا تحمله زلاتُ العُصاة على استعجال عقوباتِهم، مع غاية الاقتدار، وكما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]، وقيل: معناه: العفو.

اسم الله: «**الشكورُ**»: هو الذي يُجازي بيسير الطاعات كثيرَ الدرجات، أو يُعطي بالعمل في أيام معدودةٍ نعماً في الآخرة غير محدودةٍ.

اسم الله: «**العليُّ**»: هو الذي لا رُتبة فوق رُتْبَتِهِ، وجميع المراتب مُنْحَطَّةٌ عنه.

اسم الله: «**الكبير**»: هو ذو الكبرياء، والكبرياء: كمالُ الذات.

اسم الله: «**الحفيظُ**»: هو الحافظ لجميع الموجودات في ذواتها وصفاتها واختلافها وائتلافها.

اسم الله: «**المُقيتُ**»: معناه خالق الأقوات ومُوصلها إلى الأرواح والذوات، وهو أخصُّ من الرزَّاق، إذ الرزقُ يَتَنَاوَلُ القوت وغيره، وقيل: معناه المستولي على الشيء القادر عليه، والاستيلاءُ يتمُّ بالعلم والقدرة، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥]. أي: مُطَّلِعاً قادراً.

اسم الله: «**الحسيبُ**»: قيل: معناه: الكافي. تقولُ العربُ: نزلت بفلان فأكرمني وأَحْسَبني، أي: أعطاني فأكفاني، حتى قلت: حسبي. وقيل: معناه: المُحاسِب، ومنه قوله تعالى:

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤] أي: مُحاسباً.

اسم الله: «**الجليل**»: هو الموصوف بنعوتِ الجلال، وهي: الغنى، والملك، والتقديسُ، والعلمُ، والقدرة، ونحوها، وقيل: معناه: العظيم.

اسم الله: «**الرقيبُ**»: هو الحافظ لا يَغيبُ عنه شيء، قاله الزجَّاجُ، ومنه قوله تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨].

اسم الله: «**الواسعُ**»: هو الذي وَسِعَ غناه مَفاقِرَ عباده، ووسع رزقه جميعَ خلقه، ووسع كلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً.

اسم الله: «**الحكيمُ**»: معناه: المحكم لخلق الأشياء بإتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة: ٧]، وقال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢] وقيل: معناه الحاكم.

اسم الله: «**الودودُ**»: معناه: الوادُّ، وهو المُحِبُّ لعباده الصالحين، وقيل: معناه: المودود.

اسم الله: «**المجيدُ**»: بمعنى الماجد، لكنه أبلغ، وهو الشريف ذاته، الجميلُ أفعالهُ، الجزيلُ نوالُه، فكأن شرف الذات إذا قَارنَه حسنُ الفعال يُسمّى مجداً، فكأنه يجمع معنى اسمَ الجليل، والوهَّاب، والكريم.

اسم الله: «**الباعث**»: معناه: ناشر الموتى يوم الحشر، وقيل: باعث الرسل إلى الأمم.

اسم الله: «**الشهيدُ**»: يرجعُ معناه إلى العليم مع خصوصِ إضافةٍ، فإنه تعالى عالم الغيب والشهادة، والغيب عبارةٌ عما يَكِنُّ، والشهادةُ عبارةٌ عما يظهر، وهو الذي يُشاهد، فإذا اعتبر العلم مطلقاً، فهو العليم، وإذا أضيف إلى الغيب والأمور الباطنة فهو الخبير، وإذا أُضيف إلى الأمور الظاهرة فهو الشهيدُ.

اسم الله: «**الحقُّ**»: معناه: الواجب الوجود، وقيل: معناه المُحِقُّ.

اسم الله: «**الوكيل**»: هو الكافي، وقيل: معناه الكفيل بأرزاق العباد، والقائم عليهم بمصالحهم، ومنه قوله تعالى: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] أي: نعم الكفيل بأمورنا، والقائم بها.

اسم الله: «**القويُّ**»: القادر، التامُّ القدرة، الذي لا يستولي عليه عجزٌ في حال من الأحوال، وقوة المخلوقين متناهية، وعن بعض الأمور قاصرة.

اسم الله: «**المتينُ**»: الشديدُ القوة، الذي لا تنقطع قوته، ولا يلحقه مشقة، قال الخطَّابيُّ: ورُوي المُبينُ: بالموحدة، أي البيِّن أمره في الوحدانية. قال: والمحفوظ هو الأول كقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

اسم الله: «**الوليُّ**»: معناه: الناصر، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] أي: ناصرهم، وقيل: معناه مُتولِّي أمْرَ الخلائق.

اسم الله: «**الحميدُ**»: هو المحمود المثنى عليه، الذي يستحق الحمدَ في السرَّاء والضرَّاء، والشدة، والرخاء، فهو المحمود على كل حال.

اسم الله: «**القيُّومُ**»: هو القائم الدائم بلا زوال، وهو نعت المبالغة في القيام على الشيء، وقيل: هو القيّم على كل شيء بالرعاية.

اسم الله: «**الواجدُ**»: هو الغني الذي لا يفتقرُ ولا يُعوزه شيء، والوُجْد والجِدة: الغنى، ومنه الحديث: «ليُّ الواجد ظلمٌ»(١).

اسم الله: «**الماجِدُ**»: بمعنى المجيد، كالعالم بمعنى العليم.

اسم الله: «**الصَّمدُ**»: هو السيد الذي يُصمد إليه في الحوائج، وأصلُ الصمد: القصد. قال البخاريُّ: قال أبو وائل: هو السيد الذي انتهى سؤدُده، وقيل: معناه الدائم، وقيل: الباقي بعد فناء الخلق.

اسم الله: «**القادر المقتدر**»: معناهما: ذو القدرة، ولكن المقتدر أكثر مبالغة.

اسم الله: «**الظاهر الباطن**»: هو الظاهر بحججه الباهرة، وبراهينه النيرة، وشواهد أعلامه الدالة على ثبوت ربوبيته، وصحة وحدانيته. والباطن: هو المحتجبُ عن أبصار الخلق، ولا يستولي

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٢) والحاكم في المستدرك (٤/ ١٠٢) بلفظ: «ليُّ الواجد يُحلُّ عرضه وعقوبته» وفي البخاري (٢٢٨٨) ومسلم (١٥٦٤): «مُطل الواجد ظلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه.

عليه توهُّمُ الكيفية، وقيل: الظاهر الذي ظهر فوق كلِّ شيء بقدرته، وقد يكون الظهور بمعنى: العلوّ، وبمعنى: الغلبة، وفي الصحيح: أنه ﷺ كان يقول: «أنت الظاهر فليس فوقك شيءٌ، وأنت الباطن فليس دونك شيءٌ»[1] وقد يكون معنى الظهور والبطون: احتجابه عن أعين الناظرين، وتجلّيه لبصائر المتفكرين، وقد يكون معناهما: العالم بما ظهرَ من الأمور، المطلع على ما بطن من الغيوب.

اسم الله: «**الوالي**»: هو المالك للأشياء المتولِّي لها، يُصرِّفها كيف يشاء، ينفذ فيها أمرُه، ويجري عليها حكمه.

اسم الله: «**المتعالي**»: بمعنى العليّ، مع نوع من المبالغة.

اسم الله: «**البرُّ**»: هو العطوف على عباده، المحسنُ إلى جميع خلقه ببره.

اسم الله: «**المنتقمُ**»: هو الذي يُشدِّد العقاب على من شاء، لقوله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥].

اسم الله: «**العفوّ**»: هو بناء المبالغة من العفو، والعفْو: الصفح عن الذنوب، وترك مجازاة المسيء.

اسم الله: «**الرؤوف**»: ذو الرأفة، وهي شدة الرحمة.

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر (٢٧١٣) (٦١).

اسم الله: «المقسط»: هو العادل في حكمه، يقال: أقسط فهو مُقسط: إذا عدل في حكمه، قال تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩] وقَسَط فهو قاسِطٌ: إذا جار، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥].

اسم الله «الجامع»: هو المؤلف بين المتماثلات والمتباينات والمتضادات.

اسم الله: «المَانعُ»: هو الذي يمنع أسباب الهلاك والنقصان في الأبدان والأديان بما يخلقه من الأسباب المعدة للحفظ، وقد يكون من المنع والحرمان لمن لا يستحقُّ العطاءَ، لقوله ﷺ: «لا مانع لما أعطيت ولا مُعطي لما منعت»(١). فمنعه سبحانه حكمة، وعطاؤه جودٌ ورحمةٌ.

اسم الله: «الضارُّ النافعُ»: الكلام في الجمع بينهما كما تقدم في القابض والباسط ونحوهما، لأن في اجتماعهما وصف له سبحانه بالقدرة على نفع من شاء، وضرِّ من شاء، فهو مرجوٌّ مخوف، ولتضمنهما: أن الخير والشر بقدر الله.

اسم الله: «النورُ»: هو الظاهر الذي به كل ظهور، فبنوره يبْصر ذو العماية، وبهدايته يرشدُ ذو الغواية.

اسم الله: «البديع»: هو الذي فطر الخلْق مُبتدعاً له لا على مثالٍ سبق.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٤٤د) ومسلم في المساجد (٥٩٣) (١٣٧).

اسم الله: «**الرشيد**»: هو الذي تنساق الموجودات بتدبيره وإرشاده إلى غاياتها على سنن الرشاد.

اسم الله: «**الصبور**»: هو الذي لا يعاجل العصاة بالانتقام منهم، بل يؤخر ذلك إلى أجل مسمى، ويُمهلهم لوقت معلوم، فمعنى الصبور قريبٌ من معنى: الحليم إلا أن الفرق بينهما أن العقوبة لا تؤمن في صفة الصبور، كما يؤمن منها في صفة الحليم، والله أعلم.

٧ً ـ ثمراتُ الأسماء الحُسْنى في حياة المؤمن بها:

أ ـ إظهار العبودية لله تعالى: وذلك: أن إحصاء أسماء الله الحسنى، والتعرف على معانيها، تُظهر عبوديته لله، بل تُلزمه حدودَ العبودية، فلا يتجاوزها، وتؤثر في تزكية ضمير المؤمن واستقامة مسلكه وسداد تفكيره، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤ ـ ١٥].

ب ـ التَّحلِّي بمعاني صفات الله: وأسمائه بقدر ما يُتصوَّر في حقه. وقد ظنَّ بعضُهم: أنَّ أسماءَ الله وصفاته، تجعل الإله عظيما قادراً جبَّاراً، وهذا يزيد من ضعف الإنسان وتصغير شأنه!! ونسي هذا المعترض على أسماء الله: أن من صفات الله: الرؤوف، الودود، الرحيم، وأن الإنسان مطلوب منه أن يتصف بهذه الصفات، وإن لم يبلغ فيها درجة الكمال. واعتقاده بأسماء الله وحفظه لها يزيده عزة وتحرُّراً من أيِّ خضوع أو مذلَّةٍ أو صَغَارٍ لغير الله عز وجل.

ج - **التوحيد الخالص**: وتنزيه الله عن التشبيه والتجسيم والتعطيل، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وأسماء الحق سبحانه وإن تعدَّدتِ فلا تعدد في ذاته تعالى ولا تركيب، لا عقلياً كترتيب المحدودات، ولا محسوساً كترتيب الجسمانيات، وإنما تعددت أسماؤه تعالى بحسب الاعتبارات الزائدة على الذات[١].

☆ ☆ ☆

---

(١) المفهم في شرح ما أشكل من تلخيص صحيح مسلم، لأبي العباس القرطبي (٧/ ١٥).

٣ ـ آثار الإيمان بالله عز وجل
في حياة الإنسان والأمة

تظهر آثار الإيمان بالله تعالى وأسمائه وصفاته في حياة الإنسان المؤمن والأمة المسلمة أمناً وأماناً، توازناً واستقراراً، عزَّة وشُموخاً، قوَّة وصلاحاً. والأزمنة السعيدة من عمر البشرية في أيِّ بقعة من بقاع الأرض إنما هي الأوقات التي عاشها الناس في رحاب الإيمان، واستقرَّت بها أرواحُهم في هناءة الشعور برضا الله تعالى، والإحساس الغامر بقرب رحمته. ومن الأفضل أن نُميِّزَ بين آثار الإيمان في حياة الإنسان، وبين آثاره وثمراته في حياة الأمَّة زيادةً في البيان، كما يلي:

أ ـ آثار الإيمان بالله عز وجلَّ في حياة الإنسان المؤمن:

١ ـ التوحيد الخالص لله تعالى، وهذا يمنحُ الإنسان نعمةً عظيمةً، وهدوءاً وراحة بالٍ لا تُقَدَّر؛ لأنه يعبدُ إلهاً واحداً، إنْ أطاعَه أثابَه، وإن عصاه واستغفره عفا عنه وغفرَ له، والله عز وجلَّ لا يأمُره إلا بخير ولا ينهاه إلا عن شرٍّ، وهو سبحانه غنيٌّ عن عبادة عباده وطاعتهم. وقد ضربَ الله مثلاً لنعمة التوحيد هذه، وبيّن أنها نعمة ربانية تستحق الشكر والحمد؛ فقالَ تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

٢ ـ **الحبُّ الصادق لله تعالى**، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، والمؤمن المحبُّ لربِّه وخالقه في طاعةٍ تامَّة، وعبادةٍ دائمة، وقُرباتٍ مستمرة توصله إلى محبَّة الله له؛ قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] وقال تعالى: في الحديث القدسيِّ: «وما زالَ عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه..»[١].

٣ ـ **الخوف والرجاء**، وهما متلازمان في حياة المؤمن ومتساويان، يدفعان عنه اليأس والقنوط، ويمنعانه من التواكل والغرور. يتذكر قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨] فيطير بجناح الرجاء، ويتذكَّرُ قول الله تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] فيطير بجناح الخوف والخشية.

٤ ـ **الشعور بالعزَّة**، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وعزة المؤمن: إحساسٌ يملأ جوانحَه بالإباء والشموخ، ويحرِّر نفسَه من أيِّ عبوديةٍ أو خضوع لغير الله عز وجلَّ، وعندها يستحقُّ المؤمن وظيفة الاستخلاف عن الله في الأرض، وتغلب على جوارحه وأقواله وأفعاله سمات الكرامة والسعادة.

٥ ـ **الاستقامة**، وهي الاعتدال والثبات على طاعة الله عقداً وقولاً وعملاً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] والمؤمن بعد أن يذوق حلاوة الإيمان،

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦١٣٧).

يشتاقُ إلى الصعود في مدارج الاستقامة والكمال، والوصول إلى مرتبة الإحسان.

ب ـ آثارُ الإيمان بالله عزَّ وجلَّ في حياة الأمة المسلمة:

وتتمثل الأمة المسلمة في جماعة المؤمنين، الذين إن قوي الإيمان في قلوبهم وزاد في أعمالهم تحقَّقت فيهم آثار الإيمان التالية:

١ً ـ الدفاع عنهم، ونصرُهم من الله تعالى على أعدائهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨] وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

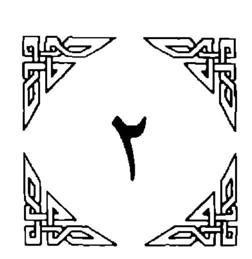
٢ً ـ الولاية والهداية من الله تعالى لهم، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

٣ً ـ التمكين لهم والاستخلاف في الأرض؛ قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

٤ً ـ الرزق الطَّيِّب، والحياة الطيِّبة في الدنيا، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

٥ً ـ الفوز بالجنة والنجاة من النار في الآخرة؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧ ـ ١٠٨].

الفصل الثاني



الركن الثاني

الإيمان بالملائكة

أ ـ وجوبُ الإيمان بهم:

الكتب السماوية السابقة أخبرت بوجود مخلوقات لله سبحانه يُسمَّوْن: الملائكة، كما إن القرآن الكريم تحدَّث عنهم أيضاً، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٢]. وقال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: ٤ ـ ٥]. إلى آيات كثيرة في هذا الشأن.

وجعل الإسلام الإيمان بهم ركناً من أركان الإيمان، فإذا فقد الإنسانُ الإيمانَ بهم فقد الإيمانَ كلَّه، فلا يقبل الله إيماناً به حتى ينضم إليه بقية أركان الإيمان من إيمان بالملائكة، والكتب،

والرسل، واليوم الآخر، والقضاء والقدر.

وأما الأدلة على وجوب الإيمان بهم فآيات قرآنية كثيرة ذكرنا آنفاً شيئاً منها. ومن الآيات ما جاء في خواتيم سورة البقرة، قال الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وهناك أيضاً أحاديث كثيرة تتحدث عن الملائكة والإيمان بهم، ولقد مرَّ بك آنفاً حديث عمر بن الخطاب، وفيه تعداد أركان الإيمان.

ومن الأحاديث التي تدلُّ على الملائكة ووجودهم حديث بدء الوحي، عندما التقى جبريل مع رسول الله ﷺ أول النبوة في غار حراء، وقال له: اقرأ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: ما أنا بقارىء.

وروى مسلم عن أبي عثمان النهديِّ، عن حنظلة الأُسيّدي، قال: وكان من كتّاب رسول الله ﷺ، قال: لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلةُ، قال: سبحان الله ما تقول؟! قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ، يُذكِّرنا بالنار والجنة، حتى كأنّا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيراً، قال أبو بكر: فوالله إنا لنَلْقى مثل هذا، فانطلقتُ أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافقَ حنظلةُ يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاكَ؟» قلت: يا رسول الله! نكون عندك تُذَكِّرنا بالنار

والجنة، حتى كأنَّا رأيَ عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج، والأولاد، والضيعات، نسينا كثيراً، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده! إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكةُ على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة! ساعة وساعة» ثلاثَ مرات[1].

ب ـ حقيقة الملائكة وصفاتهم:

بما أن الملائكة من عالم الغيب الذي لا نراه بأعيننا، ولا ندركه بعقولنا، كان لزاماً علينا ألا نصفهم إلا بالصفات التي ورد عن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وصفهم بها، سواء أكان ذلك عن طريق القرآن الكريم، أم عن طريق السنة الصحيحة والمتواترة، ولا يجوز لنا أن نطلق عليهم صفات من عند أنفسنا من غير أن يكون لنا على ذلك دليل، فمن الصفات التي ورد عن الشارع اتصافهم بها:

١ ـ أنهم مخلوقون من نور، ففي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قال: «خُلقت الملائكة من نور، وخلق الجانُّ من مارج من نار، وخُلق آدم مما وُصف لكم»[2].

٢ ـ أنهم أجسام: وليسوا بأرواح مجردة، ولكنهم أجسام

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب التوبة رقم (٢٧٥٠)، ومعنى عافسنا: حاولنا ذلك ومارسناه واشتغلنا به، أي: عالجنا معايشنا وحظوظنا.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزهد (٢٩٩٦).

لا نستطيع رؤيتهم بأعيننا هذه، فقد يكونون بيننا ولا نراهم.

وقد كان جبريل ينزل بالوحي على رسول الله ﷺ ولا يراه من كان جالساً معه، جاء في البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «... ثم فتر عني الوحي فترة، فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قِبَلَ السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه حتى هويتُ إلى الأرض، فجئت أهلي فقلت: زمّلوني، زمّلوني، فأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ...﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾»[1].

فالقعود على كرسي بين السماء والأرض هو من صفات الأجسام.

وجاء في البخاري أيضاً: عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال لها: «يا عائشة! هذا جبريل يقرأ عليك السلام» فقالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى. تريد النبي ﷺ[2].

٣ ـ أنهم أصحاب أجنحة: ولقد ورد ذلك في القرآن الكريم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١]. أي: إنهم طوائف متنوعة، فمنهم من له جناحان جناحان، ومنهم من

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣٨) ومعنى جئثت: فَزِعتُ وخِفْتُ.
(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق (٣٢١٧).

له ثلاثة ثلاثة، ومنهم من له أربعة أربعة وهكذا.

وفي البخاري عن عبد الله بن مسعود: «أن الرسول عليه الصلاة والسلام رأى جبريل عليه السلام له ستمئة جناح»[1].

وهل هذه الأجنحة عن الأيمان والشمائل كالطيور، أو في مقدمتهم أو مؤخرتهم، أو من فوقهم، أو في مكان آخر؟ لم يرد في ذلك شيء عن الشارع، فلذلك لا نُكلَّف معرفة هذه الكيفيات التي سكتت عنها النصوص، ولا تتوقف صحة الإيمان بهم على معرفة ذلك.

٤ ـ أنهم لا يأكلون، ولا يشربون، ولا يتناسلون، ولا ينامون، فليس لهم من هذه العادات البشرية شيء، حتى إنهم لا يموتون إلا بعد النفخة الأولى، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨].

ولقد ذمَّ الله سبحانه الكافرين الذين وصفوا الملائكة بالأنوثة، وتوعَّدهم بكتابة هذه الشهادة الكاذبة التي ليس عليها من دليل، وبيّن لهم أنهم سيسألون يوم القيامة عن هذه الافتراءات، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

٥ ـ أنهم منحوا القدرة على التشكُّل بأشكال مختلفة: لكن بالأشكال الجسمانية الحسنة، ثبت ذلك في القرآن الكريم والسنة الصحيحة.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق (٣٢٣٢).

ففي سورة مريم أن جبريل عليه السلام نزل على مريم بأمر الله سبحانه، في صورة إنسان سويّ الخلقة يبشرها بعيسى عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٦ ـ ١٩].

وفي سورة الذاريات الحديث عن الملائكة الذين حلّوا ضيوفاً على إبراهيم عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٤ ـ ٢٨].

وفي سورة هود الحديث عن الملائكة ضيوف لوط عليه السلام، حينما جاؤوا إليه على صورة شبّان مرد حسان أطمعت بهم قومه، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٧ ـ ٧٨].

وفي صحيح مسلم في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عندما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ على صفة إنسان شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه أحد من الصحابة، وأخذ يسأل رسول الله ﷺ عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، والساعة، وأماراتها، وبعد أن انصرف بمدة

سأل رسول الله ﷺ عمر: «أتدري من السائل؟» قال: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله ﷺ: «فإنه جبريل أتاكم يعلِّمكم دينكم»[1].

ولقد ورد في الحديث: أن جبريل كان ينزل على رسول الله ﷺ في صورة دِحْية بن خليفة الكلبيِّ، وكان حسن الصورة، وكان من الصحابة.

قال ابن حجر العسقلاني في الإصابة عند الكلام عن دِحْية:

«كان يضرب به المثل في حسن الصورة، وكان جبرائيل عليه السلام ينزل على صورته، جاء ذلك من حديث أم سلمة، ومن حديث عائشة، وروى النسائي بإسناد صحيح عن يحيى بن معمر عن ابن عمر رضي الله عنهما: كان جبرائيل يأتي النبيَّ ﷺ في صورة دحية الكلبيِّ. وروى الطبراني من حديث عفير بن معدان عن قتادة عن أنس: أن النبيَّ ﷺ قال: كان جبرائيل يأتيني على صورة دحية الكلبيِّ»[2].

٦ ـ أنَّ لهم قدرات خارقة متَّعهم الله بها: فهم جنود الله جعلهم قادرين على أشياء يعجز عن الإتيان بمثلها البشر، كقطع المسافات البعيدة في أسرع من لحظات، وكحمل الأشياء الثقيلة جداً، أو نقلها من مكانها، وذلك مثل الجبال، والبلاد وما أشبهها.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٨).

(٢) الإصابة، لابن حجر (٢/ ١٦٢).

وقد قال الله سبحانه وتعالى في بيان سرعتهم وقطعهم المسافات في لحظات: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]. والروح هنا هو جبريل عليه السلام.

وفي بيان قدرتهم على حمل الجبال وقلب المدن قال الله تعالى في شأن اليهود: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١]. أمر الله تعالى جبريل بأن يرفع فوق رؤوسهم جبل الطور تخويفاً وتهديداً لهم، فرفعه حتى أصبح كأنه سقيفة فوق رؤوسهم، وذلك عند تقاعسهم عن العمل بما في التوراة.

وقال الله سبحانه في شأن الملائكة الذين أرسلوا إلى لوط عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢ ـ ٨٣] وقال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٢ ـ ٧٦]. أي: قلب الملائكة بأمر الله مدينة لوط، فجعلوا عاليها سافلها، وذلك بسبب كفرهم وارتكابهم الفواحش.

وفي البخاري عن عائشة رضي الله عنها: أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقَرْن

الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلّتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمعَ قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعثت إليك ملك الجبال لتأمرَه بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلّم عليّ، ثم قال: يا محمد! فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ـ هما جبلا مكة: أبو قبيس، والذي يقابله ـ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»[1].

٧ ـ أنهم مخلوقون قبل خلق آدم عليه السلام، يدلُّ على ذلك قصة خلق آدم التي ذكرت في القرآن الكريم في أكثر من موضع، منها ما جاء في سورة البقرة ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٣٣ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٤].

٨ ـ أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون: فهم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق باب: «ذكر الملائكة صلوات الله عليهم» (٣٢٣١). وانظر شرح ذلك في فتح الباري (٦/ ٣١٦).

طائعون لله تعالى فيما يأمر، وهم معصومون عن المعاصي، فلا تقع منهم أية معصية، صغيرة كانت أم كبيرة، قال الله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[1] [الأنبياء: ١٩ـ٢٠]. وقال سبحانه: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٧].

٩ ـ أنهم يخافون الله خوف تعظيم: قال الله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٩ ـ ٥٠].

١٠ ـ أنهم مقرَّبون من الله مكرمون عنده: قال الله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٨ـ٢١]. أي: الملائكة، وقال تعالى في تكريمهم، والرد على من جعلهم أولاد الرحمن: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٧].

---

(١) «لا يستحسرون»: لا يعيون ولا يتعبون.

ج ـ أعداد الملائكة:

أعداد الملائكة لا يعلمها إلا الله سبحانه، إلا أنه قد ورد في بعض الأحاديث ما يدلُّ على أنهم خلق كثير. كما أشار قوله سبحانه إلى ذلك: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]. ومما جاء في الحديث قوله عليه الصلاة والسلام: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله»[1] والأطيط: التصويت.

د ـ وظائف الملائكة:

جاء في النصوص الشرعية ما يدلّ على أن الملائكة أصناف، وأن لكل منهم وظائف أقامه الله سبحانه فيها من غير حاجة إليهم، بل ليدلَّ بذلك على عظمته وقدرته سبحانه وعلوّ ملكه وسلطانه، والله سبحانه غني عن العالمين، فمن وظائفهم الموكلة إليهم:

أولاً: الوحي، وهذه وظيفة خاصة بجبريل عليه السلام، فهو الذي كان ينزل على الأنبياء والرسل بالوحي، قال الله سبحانه مُنوِّهاً بوظيفته هذه ومبيناً أمانته فيها: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ـ١٩٤].

ولقد أشار القرآن الكريم إلى أفضليته على سائر الملائكة، إذ خصَّه بالذكر وقدَّمه في الترتيب على سائر الملائكة في القرآن

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد برقم (٣٢١٢) وأخرجه ابن ماجه في الزهد (٤١٩٠).

الكريم، وجعله ناصراً لرسوله في معرض تهديد نساء الرسول، فقال تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤].

وسمَّاه الله سبحانه روحَ القدس، وذلك تكريماً له، فقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧].

وقال ﷺ: «إن روح القدس نفثَ في رُوعي أن نفساً لن تموت حتى تستكملَ أجلَها وتستوعب رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنّ أحدَكم استبطاءُ الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته»(١).

ثانياً: الموكلون بالأرزاق وأسبابها من السُّحُبِ والأمطار والرياح، وذلك كـ«ميكائيل» عليه السلام.

ثالثاً: النفخ في الصور، وهذا وارد في إسرافيل عليه السلام، فإنه قد ورد أنه صاحب الصور الذي ينفخ فيه بأمر الله النفخة الأولى، فيهلك من في السموات والأرض إلا من شاء ربك استثناءهم من الموت بهذه النفخة، لأن الله يتولى قبض أرواحهم بيده، ثم ينفخ فيه النفخة الثانية للبعث إلى الحياة بعد الموت. قال الله تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤) وأبو نُعيم في الحلية (١٠/ ٢٦) و(٧/ ١٥٨) وهو في شرح السُّنَّة (١٤/ ٣٠٤) وفي إسناده انقطاع.

ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. والصور: شيء كالبوق.

رابعاً: قبض الأرواح؛ وهل الذي يتولى ذلك ملك واحد، أو يقوم بذلك ملائكة كثر؟ ورد في القرآن الكريم ما يدل على أن ملائكة الموت أكثر من واحد، فقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]. وقال سبحانه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]. وورد أيضاً ما يدلُّ على أنه واحد، فقال الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۢۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾ [السجدة: ١٠ ـ ١١].

فكيف يكون الجمع بين هذه الآيات؟

الواقع: أن الذي يتولَّى عملية الموت هم صنف من الملائكة يرأسهم ملك الموت، فتارة أسند هذا العمل إلى رئيس الملائكة، وتارة أسند ذلك إلى أتباعه من الملائكة، والأتباع يقومون بمعالجة الروح من الجسد، وملك الموت يقبض الروح. هذا وقد ورد تسمية ملك الموت بعزرائيل في بعض الآثار، ومعناه عبد الجبار. قال ابن كثير: «وقد سُمِّي في بعض آثار بعزرائيل وهو المشهور، قاله قتادة وغير واحد، وله أعوان، وهكذا ورد أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت. قال مجاهد: حويت له الأرض فجعلت مثل الطست يتناول

منها متى يشاء، ورواه زهير بن محمد عن النبي ﷺ بنحوه مرسلاً، وقاله ابن عباس رضي الله عنهما»[1].

وقد ورد في الحديث ما يدلُّ على أن ملك الموت يأتي الكافر بشكل مخيف مرعب، وينزع روحه بشدة وعنف، وأنه يأتي المؤمن بشكل حسن، ويقبض روحه بلين ورفق. ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ [النازعات: ١ ـ ٢]. قال الفخر الرازي في تفسيره عند ذكر هذه الآية: «فقوله: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ هي الملائكة الذين ينزعون نفوس بني آدم، فإذا نزعوا نفوس الكفَّار نزعوها بشدة، وهو مأخوذ من قولهم: نزع في القوس فأغرق، يقال: أغرق النازع في القوس: إذا بلغ غاية المد حتى ينتهي إلى النصل، فتقدير الآية: والنازعات إغراقاً، والغرق والإغراق في اللغة بمعنى واحد. وقوله: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ النشط هو الجذب، يقال: نشطت الدلو أنشطها، وأنشطتها نشطاً: نزعتها برفق، والمراد هي الملائكة التي تنشط روح المؤمن فتقبضها، وإنما خصصنا هذا بالمؤمن والأول بالكافر، لما بين النزع والنشط من الفرق، فالنزع: جذب بشدة، والنشط: جذب برفق ولين، فالملائكة تنشط أرواح المؤمنين، كما تنشط الدلو من البئر. فالحاصل: أن قوله: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ قسم بملك الموت وأعوانه، إلا أن الأول إشارة

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥٨).

إلى كيفية قبض أرواح الكفار، والثاني إلى كيفية قبض أرواح المؤمنين»[1].

خامساً: حفظ الإنسان من شر كلِّ ذي شر: فلا يُصيب الإنسان شيء من ذلك إلا إذا كان فيه قضاء لله وقدر، قال الله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

ومعنى الآية: أن للإنسان ملائكة يتعقبونه، لا يفارقونه، بل يرافقونه من جميع الجهات، من بين يديه، ومن خلفه، يحفظونه من المخاطر الظاهرة والخفية، وذلك بأمر من الله تعالى، وإن الله لا يغير ما نزل بقوم من النعم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الأحوال الجميلة إلى الأحوال القبيحة، وإذا أراد الله بقوم هلاكاً وعذاباً، فلا يقدر من المعقبات ولا من غيرها أن يردّ ما نزل بهم من قضائه وقدره، وليس لهم إذا أراد الله بهم ذلك من والٍ يلي أمرهم، ويمنع العذاب عنهم من دون الله سبحانه.

سادساً: نفخ الأرواح في الأجنَّة وكتابة مستقبل أعمالها، وآجالها، وأرزاقها، وسعادتها، أو شقاوتها.

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفةً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم

---

(١) تفسير الفخر الرازي (٨/ ٣١٥).

يرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»(١).

سابعاً: كتابة أعمال المكلفين: من خير أو شر، فلقد وكَّل الله بكل مكلَّف ملكين؛ اسم كل واحد منهما رقيب عتيد، لا أن واحداً منهما يُسمَّى رقيباً والآخر عتيداً، قال الله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧ ـ ١٨].

وهذان الملكان لا يغفلان شيئاً مما يفعله الإنسان، وقد أعطاهما الله سبحانه القدرة على علم جميع ما يقوم به الإنسان من عمل دقّ أو عظم، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ٩ ـ ١٢].

قال الإمام اللَّقَّاني في جوهرة التوحيد:

بكلِّ عبدٍ حافظون وُكِّلوا وكاتبون خِيرةٌ لن يُهْمِلُوا

مِنْ أمره شيئاً فَعَلْ ولو ذَهِلْ حتى الأنينَ في المرض كما نُقِلْ

ثامناً: القيام برعاية أهل الجنة ونعيمهم: قال الله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق (٣٢٠٨) ومسلم في كتاب القدر (٢٦٤٥).

﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٢ ـ ٢٤]. وقال سبحانه: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣].

تاسعاً: القيام بشؤون أهل النار وعذابهم: قال الله سبحانه: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ. . . ﴾ [المدثر: ٢٦ ـ ٣١] وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

وملائكة العذاب هؤلاء يسمون: «الزبانية» قال الله تعالى: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ [العلق: ١٥ ـ ١٨].

ورئيس ملائكة النار اسمه: مالك، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٤ ـ ٧٧].

عاشراً: بشارة المؤمنين عند الموت: قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ

﴿أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣١]. وهناك وظائف أخرى للملائكة مذكورة في القرآن الكريم، والأحاديث النبوية.

هـ ـ أثر الإيمان بالملائكة في حياة الإنسان:

للإيمان بالملائكة على اختلاف صفاتهم ووظائفهم آثار وفوائد كثيرة في حياة الإنسان نذكر لك أهمها فيما يلي:

١ ـ البرهان على صدق الإيمان: إذ إن الملائكة ليسوا من عالم الشهادة، بل هم من عالم الغيب، وقد أوجب الله علينا الإيمان بهم، وجعل الإيمان بالغيب من أبرز صفات المؤمنين، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٣] فإذا آمن الإنسان بهم مع أنه لم يرهم، واعتمد في ذلك على الأخبار الصادقة، دلّ ذلك على صدق إيمانه وتمامه وصحته.

٢ ـ التأكيد على مظاهر القدرة الإلهية في خلق الملائكة أولي أجنحة، وهم قادرون على التشكل، ويتمتعون بمقدرة عظيمة تسمح لهم في اختراق كون الله الفسيح، وتنفيذ ما كلِّفوا به، وهم في طاعة تامة، وانقياد كامل لله رب العالمين ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] مما يدعو الإنسان المؤمن بالله وملائكته إلى التواضع وعدم التجبُّر والاستكبار في الأرض.

٣ ـ تنمية الشعور بالمسؤولية، ودوام المراقبة لله سبحانه: الإيمان باليوم الآخر يعني الإيمان بالبعث بعد الموت، وبالحشر

والحساب، والثواب والعقاب، وهذا معناه: أن نؤمن بمسؤوليتنا أمام الله في الدار الآخرة.

ومما يُقوّي وينمي الشعور بالمسؤولية اعتقادنا أن الله سبحانه قد وكَّل بنا ملائكة يحصون علينا أعمالنا صغيرة كانت أم كبيرة، وهم معنا يطلعون علينا، ويسجلون ذلك في سجلات سوف تنشر في ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

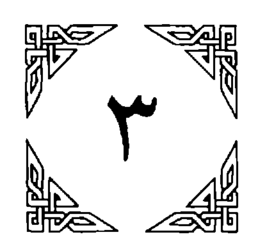
٤ً ـ تقوية الشعور برحمة الله وعظمته: وذلك حينما يعلم أن الله جلَّت حكمته، قد وكَّل بهذا الإنسان من يحافظ عليه ويصونه من الأذى، كما إنه يستغفر للعصاة من المؤمنين. قال الله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

٥ً ـ تقوية ثقة المؤمن بنصر الله وتأييده: وذلك عندما يعتقد المؤمن: أن هناك ملائكة قد كُلِّفوا بنصره وتأييده، كما حدث ذلك لرسول الله ﷺ في بدر، وفي حنين، فتقوى عند ذلك ثقة المؤمن بأن الله سينصره ويؤيده بالملائكة ما دام ينصر دين الله بصدق، وما دام يثبت على نهج الاستقامة في إيمانه وأفعاله؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ...﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣١].

٦ً ـ حمل الإنسان على التشبه بهم، في الإقدام على الطاعات، والابتعاد عن المعاصي: وذلك حينما يعلم أن الملائكة دأبهم طاعة الله، وتمجيده، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يُؤمرون، فيحمله ذلك على التشبُّه بهم، والسير على نهجهم، فتقوى بذلك معانيه الروحية، ويتدرج في مدارج الكمال.

٧ً ـ الشعور بالأنس، عندما يُوقن المؤمن في قرارة نفسه أن الملائكة موجودون في أيِّ مكان يحلُّ به أو ينفرد فيه، مما يزيل عنه أي وحشة أو غربة، ويُبعد عنه هواجسَ الخوف والترقُّب، ويستحضر وعدهم المؤكد للمؤمنين: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠] وقولهم: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣١].

* * *



الفصل الثالث

الركن الثالث

الإيمان بالكتب السماوية

أ ـ معنى الكتب والصحف:

الكتب: جمع كتاب، والكتاب شرعاً: شيء من كلام الله تعالى فيه هدى ونور، يُوحي الله به إلى أحد رسله؛ ليبلِّغه للناس، كي يعملوا به؛ فيسعدوا في الدنيا والآخرة. وهو يشمل الصحف والألواح التي يُنزلها الله على أحد رسله ليبلِّغها إلى الناس بأية لغة نزلت، بأي زمان أو مكان أنزلت. لكن جرى عرف العلماء على إطلاق لفظ «الكتب» على الكتب الأربعة: الزبور، والتوراة، والإنجيل، والقرآن الكريم. وإطلاق لفظ «الصحف» على ما عدا ذلك مما أوحى الله على جملة من رسله.

ب ـ وجوب الإيمان بالكتب السماوية:

الإيمان بالكتب السماوية المنزلة على رسل الله فرضٌ من فرائض الدين، وركن من أركانه، وأصل من أصوله، ومن يكفر بالكتب السماوية كلها إجمالاً، أو يكفر بواحد مما سمَّى الله منها في القرآن الكريم، فإنه يخرجُ من الدّين، ويُصبح جاحداً مرتداً، ليس له في الإسلام نصيب.

ودليل ركنيته بالإضافة إلى ما تقدَّم:

أ - من الكتاب العزيز قول الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ. . . ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ب - ومن السنة قوله عليه الصلاة والسلام لجبريل عندما سأله عن الإيمان: «أن تُؤمنَ باللهِ، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره»[1].

ج - عدد الكتب السماوية وعلى من أُنزلت:

اقتضت حكمة الله تعالى ورحمته بعباده أن يرسل إلى الناس رسلاً كلّما ضلُّوا عن عقيدة التوحيد، وحادوا عن جادة الحق، ليبشروهم بجنة الله ورضوانه إن هم آمنوا بالله تعالى واتقوه، ولينذروهم عذاب الله وانتقامه إن هم أغرقوا في الضلال وتمادوا في الشرك، قال الله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

والآية تُفيد أن الله تعالى كان يُزَوِّد كلَّ رسول بكتاب، ليفصلَ بين الناس الذين أُرسل إليم، فيُحقَّ الحقَّ، ويُبطل الباطلَ، ويُقيمَ العدلَ، ويمنع الظلمَ.

كما نستنتج منها: أن الكتب السماوية المنزلة على الرسل

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٨) عن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه.

كثيرة، وهي بعدد الرسل عليهم الصلاة والسلام، ويجبُ على المسلم أن يؤمنَ بما أنزلَ الله على وجه الإجمال، وأن يؤمن إيماناً تفصيلياً بأربعة كتب وعدد من الصحف؛ كما أخبر الله في القرآن الكريم، وفيما يلي بيان ذلك:

١ ـ **الكتب**: ورد التصريح بأسماء أربعة كتب أنزلها الله على أربعة من الرسل:

○ **الأول: الزبور**

وهو الكتاب الذي أنزله الله تعالى على رسوله داود عليه السلام، والزبور في اللغة معناه: الكتاب، وجمعه زُبر، قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢] أي: في كتب الملائكة وصحفهم.

وقال تعالى في إثبات إنزال الزبور على داود: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

○ **الثاني: التوراة**

وهو الكتاب الإلهي المنزل على موسى عليه الصلاة والسلام، وهو غير الصحف التي أنزلَها الله عليه، والتوراة: لفظ عبراني معناه: التعليم، والشريعة.

قال الله تعالى: ﴿الم ۝١ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى

لِلنَّاسِۗ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٤].

وجاء في حديث الشفاعة قول إبراهيم عليه السلام حين يُهرع الناس إليه يستشفعون به من هول يوم الحشر: «لست هناكم[1] ائتوا موسى عبداً كلَّمه الله وأعطاه التوراة»[2].

○ الثالث: الإنجيل

وهو الكتاب الإلهي الذي أنزله الله تعالى على رسوله عيسى عليه الصلاة والسلام. والإنجيل: لفظ يوناني معناه: (البشرى). قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

○ الرابع: القرآن الكريم

وهو الكتاب الإلهي الذي أنزله الله تعالى على خاتم أنبيائه ورسله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، وهو آخر الكتب السماوية نزولاً، وأرفعها شرفاً وعلواً، وصانه الله من التحريف والتبديل، وتكفَّل الله بحفظه إلى يوم الدين، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

---

(١) أي: هذا المقام ليس لي، بل لغيري.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٤٧٦) وفي الرقاق (٦٥٦٥).

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

وقال عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى: ٧].

٢ ـ الصحف:

وفي القرآن الكريم ما يدلُّ على أن الله تعالى أنزل صحفاً على عدد من أنبيائه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨ ـ ١٩]. واختلف العلماء في تحديد عدد هذه الصحف وعلى مَنْ أُنزلت من الرسل، وورد عنهم في ذلك ثلاثة أقوال:

١ً ـ أنها مئة صحيفة، ستون صحيفة أُنزلت على شيث، وثلاثون صحيفة على إبراهيم، وعشر على موسى قبل نزول التوراة.

٢ً ـ أنها مئة صحيفة، خمسون أُنزلت على شيث، وثلاثون على إدريس، وعشرون على إبراهيم وموسى بالسوية.

٣ً ـ أنها مئة وعشر صحف خمسون أنزلت على شيث، وثلاثون على إدريس، وعشرون على إبراهيم، واختلف في العشر الباقية؛ فقيل: أُنزلت على آدم، وقيل: أُنزلت على موسى.

والتحقيق الإمساك عن حصرها في عدد، والاعتقاد بأن الله تعالى أنزل صحفاً إجمالاً من غير تعرُّض إلى عدد.

د ـ المبادىء التي وردت في الكتب السماوية:

تشترك الكتب السماوية والصحف الرَّبانية في أصول العقيدة وأركانها الستة، وهي الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر، كما أنها تشترك في الدعوة إلى التخلُّق بالأخلاق، والآداب الإنسانية الكريمة، والبعد عن التخلق بالأخلاق الذميمة والفاسدة. ولا تختلف الكتب السماوية إلا في الأحكام التكليفية، والتشريعات العملية، التي تتنزل في كلِّ كتاب بما يتناسب مع أمة معينة وزمان ومكان محدد، ومراعيةً تطوُّر البشرية، واختلافَ المصالح والحاجات. ولا نستطيعُ الآن أن نرجعَ إلى الكتب السماوية التي سبقت القرآن الكريم؛ لإيراد الأمثلة والشواهد على ما قلناه آنفاً؛ بسبب فقدان هذه الكتب، وما اعتراها من تحريف وتغيير؛ حتى أصبح ما بقي منها مشوَّهاً، ولا نستطيع أن نُمَيِّز من خلال نصوصها المزوَّرة الحقَّ من الباطل. ولكننا نستطيعُ أن نجد كثيراً من المبادىء التي تضمنته الكتب والصحف السابقة في بعض النصوص القرآنية، نذكر منها:

١ ـ مسؤولية الإنسان عن عمله، ومجازاته الجزاء العادل، والله تعالى هو الخالق والرازق والمحيي والمميت، وهو سبحانه ربُّ الكون كله. قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾

وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ [النجم: ٣٦ ـ ٤٩].

٢ ـ فلاحُ الإنسان الذي يُطهِّر نفسَه، ويرقى بها في معارج الذكر والصلاة، قال الله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٤ ـ ١٩].

٣ ـ في التوراة هدى ونور وتحكيم ما أنزل الله فيها، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

٤ ـ المسيح مصدِّق لما سبقه من التوراة، وفي الإنجيل هدًى ونور، وتحاكم إلى شرع الله، قال الله تعالى: ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٦ ـ ٤٧].

هـ ـ الحكمة من إنزال الكتب السماوية:

تظهر الحكمة الإلهية من إنزال الكتب والصُّحف السماوية على رسله من خلال الفقرات التالية:

أ ـ **توضيحُ عقيدة التوحيد**، والكشفُ عن مستلزمات أصول الدين وأركانه. . . وقد قدَّمنا: أن الإيمان بالله تعالى فطرة إنسانية، لا تحتاج إلى تعليم، وإرشاد، قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠] ومع ذلك فإن الإيمان بالله تعالى يحتاج إلى بيان حقيقته وإيضاح ما يجب لله تعالى وما يستحيل وما يجوز في حقه سبحانه، وهذه حقائق لا تُدرك بالفطرة، بل لا بد فيها من الإرشاد والتعليم، وهذه هي أبرز مهمات الكتب السماوية[1]، وأول ما يُصرِّح به الرسول مبتدئاً رسالته ودعوته لقومه؛ فهذا نوحٌ يُعلنُ في أوَّل كلامه الدعوة إلى العبودية التامة لله تعالى والتوحيد الخالص له، فيقول: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وهذا هودٌ يُكرِّر توضيحَ عقيدة الإيمان بالله الواحد من أول وهلة فيقول: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وتتابع الرسل جميعاً يبدؤون كلامَهم ودعوتهم بالدعوة إلى

---

(١) ولذلك بقيت عقيدة التوحيد لدى الحنفاء في الجاهلية مشوشة وغير واضحة، تحتاج إلى وحي إلهي يظهر حقيقتها، ويكشف عن مستلزماتها وآثارها.

التوحيد الواضح والمنزَّه من شوائب الشرك، أو معميات الجهل والضياع.

٢ً ـ تصحيح الأخطاء والانحرافات التي تطرأ على العقيدة:

يستقيم أمر الناس على الدين الحق والعقيدة الصحيحة بعد بعثة كل رسول، ثم تنتهي مدة رسالته وحياته وينتقل إلى جوار ربِّه، ويترك لهم كتابه، ليعملوا بهديه، ويستقيموا على الإيمان بالله، والالتزام بشريعته... وبعد أجيال متعاقبة يقع الانحراف عن العقيدة الصحيحة، وتحتال الشياطين الناس عن طاعة ربهم، وتُوسوس لهم بالسوء، وتُزيِّن لهم فعلَ المعاصي. فيحتاجون إلى بعثة رسول جديد، ونزول كتاب سماويٍّ صحيح، لإعادة الأمور إلى نصابها، وترسيخ عقيدة التوحيد والاستقامة على الشريعة، وإقامة العدل في حياة الناس من جديد، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

٣ً ـ حاجة البشر إلى مرجع في أمور العقيدة والعبادة والتشريع:

إن حياة أيِّ رسول في قومه محدودة، وعمره بينهم معلوم، وأجله محتوم، فكانت الحاجة ماسَّة إلى وجود كتاب إلهيٍّ، يبقى مرجعاً للناس في فهم مبادىء الدين وأصوله، واستنباط الأحكام للقضايا الحياتية المستجدة عند غياب الرسول أو وفاته.

٤ً ـ اتساع الدعوة وانتشارها زمانياً ومكانياً:

إن حياة الرسل عليهم السلام على الأرض محدودة، وتأثيرهم

المكانيُّ محصورٌ أيضاً ضمن إمكانية اتصالاتهم بالناس، ووصول كلامهم إلى آذانهم. والكتاب الإلهي هو الخلف عن الرسول، وهو البلاغ المستمر للناس في جميع الأزمنة والأمكنة، وبخاصة عندما تكون الرسالة عامة وشاملة؛ كرسالة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

٥ً ـ تلبية حاجة البشرية إلى قوانين وتشريعات إلهية:

لا يستطيع البشر أن يتوصلوا إلى حلول مشاكلهم الحيوية المختلفة والمتشابكة فيما بينهم على الوجه الصحيح، ولو فرضنا جدلاً أنهم يستطيعون ذلك؛ فإنما يصلون إلى قوانين عادلة بعد تجارب متعددة، وأخطاء عديدة، وضحايا من الأجيال المتعاقبة. والكتب الإلهية المتتابعة، والتي خُتمت بالقرآن الكريم، تُوَفِّر على النَّاس جهودَهم المضنية في إيجاد القوانين العادلة والتشريعات المناسبة والصالحة لكلِّ زمان ومكان؛ لتحقيق فلاح البشر وسعادتهم في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

و ـ إنزالُ القرآن الكريم عاماً، وخاتماً، وناسخاً، ومهيمناً، ومحفوظاً بحفظ الله تعالى:

ومن واجبات الإيمان بالكتب السماوية الإيمان بأن القرآن العظيم ختم الله به الكتب، وميّزه عليها جميعاً بالميزات التالية:

١ً ـ أنزل الله تعالى القرآن الكريم على رسوله محمد بن عبد الله ﷺ، وجعله للناس كافة، كما جعلَ رسالة محمد ﷺ للناس عامة؛

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ: ٢٨] وقال سبحانه: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

٢ - ختم الله برسالة محمد ﷺ النبوات والرسالات، وجعل القرآن آخر الكتب السماوية وخاتمها، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وقال ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاويته، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»(١).

٣ - القرآن الكريم ناسخ للكتب والصحف السماوية السابقة، ومما يدل على ذلك:

أولاً: قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣]. أي: ليظهر دين الحق على سائر الأديان بنسخه إياها حسبما تقتضيه الحكمة.

ثانياً: قوله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»(٢) وقوله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «والذي نفسي بيده! لو

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٦٤٠٥) ومسلم في الفضائل (٢٢٨٦) (٢٢).

(٢) أخرجه مسلم في الأقضية (١٧١٨) عن عائشة رضي الله عنها.

أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظُّكم من النبيين»[1].

ثالثاً: انعقدَ إجماع الأمة الإسلامية على أن الأحكام الواردة في القرآن ناسخة لما يعارضها في الكتب السابقة، لأنها لو لم تكن ناسخة لها لجاز العمل بها، والعمل بها غير جائز لمخالفتها لما جاء في القرآن، فثبت أن القرآن ناسخ لها، كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦] فإن هذه الأشياء كانت محرمة على بني إسرائيل، ثم أحلَّها القرآن، ونسخها بما حرَّم الله في سورة المائدة بقوله سبحانه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣].

٤ ـ جعل الله القرآن مهيمناً على الكتب السابقة، أي: مسيطراً عليها، ورقيباً على ما فيها يُقرُّ الحقَّ ويكشف ما طرأ عليها من تحريف وتغيير، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

٥ ـ تكفَّل الله عز وجل بحفظ القرآن، وهذه ميزة ينفرد بها القرآن الكريم دون الكتب السماوية السابقة كلها، وذلك لأنه الكتاب الخاتم، وليبقى الحجة القائمة على الناس جميعاً وفي جميع العصور إلى قيام الساعة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٧١) والدارمي في المقدمة (٣٩).

لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٢].

ز ـ أثر الإيمان بالكتب السماوية في حياة الإنسان:

لا شكَّ أن في إرسال الرسل وإنزال الكتب السماوية تأكيداً للكرامة الإنسانية المذكورة في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]؛ وفيه إظهار لفضل الله عزَّ وجلَّ في هداية الإنسان للحق، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح: ٢٨].

والإنسان العاقل الذي يملأ الإيمانُ قلبَه، يُوقِنُ في قرارة نفسه: أنَّ الله تعالى لم يتركِ الإنسانَ هَمَلاً يتخبَّطُ في متاهاتِ التجارب للوصول إلى الأفضل والخير في حياته الدنيا، بل زوَّده بالعقل، وأكرَمه بالوحي، ورسمَ له طريقَ الهداية والاستقامة في تعاليم رسله، ومبادىء كتبه. وهذا يتطلب منه: الشكرَ العمليّ لله تعالى، والحبَّ الصادق لله سبحانه. ومصداق الشكر والحبّ في سلوك المؤمن يتجلَّى في مظهرين اثنين:

* **الأول**: الطاعة لله تعالى ورسوله ﷺ، والالتزام بتقوى الله عز وجل، التي تتلخص بفعل كل ما أمر الله به، وترك كل ما نهى الله عنه، والاعتقاد بأن التخلُّقَ بأخلاق القرآن، تخلُّقٌ بأخلاق رسول الله ﷺ، فقد كان خلقُه القرآن، يُحِلُّ حلالَه، ويُحرِّم حرامه. والاقتناع بأن مبادىء القرآن الكريم وآدابه ترجمةٌ صادقة لجميع ما ورد في الكتب السماوية من أصول الإيمان ومكارم

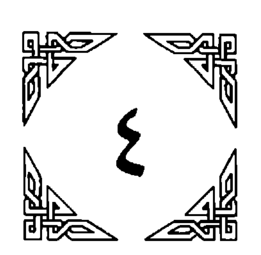
الأخلاق، وصدق الله القائل: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

* **الثاني**: الارتباط بالقرآن الكريم تلاوة، وفهماً، وتطبيقاً لأحكامه، وتذوُّقاً لأسلوبه وفصاحته، وكشفاً لبلاغته وإعجازه.

وإنَّ في الاطلاع على ما بأيدي الناس من بقايا كتب يُدَّعى بأنها سماوية، والمقارنة العلمية والموضوعية بينها وبين القرآن الكريم؛ سبيلٌ سديدٌ، يُوصل المنصف إلى تمييز كلام الخالق المحفوظ من أي تحريف أو تبديل، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

* * *

الفصل الرابع



الركن الرابع

الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام

١ ـ معنى النبوة والرسالة، والفرق بينهما.

٢ ـ حاجة الإنسان إلى النبوة.

٣ ـ طبيعة الوحي وأنواعه.

٤ ـ صفات الأنبياء وعصمتهم.

٥ ـ نبوة محمد ﷺ ومكانتها من النبوات السابقة.

أ ـ صفات الرسالة المحمدية ومميزاتها.

ب ـ دلائل نبوة محمد ﷺ.

أولاً ـ القرآن الكريم ووجوه إعجازه.

ثانياً ـ حياة النبي ﷺ وشخصيته وأخلاقه دليل على نبوته.

ثالثاً ـ إخبار الرسل السابقين برسالته عليه الصلاة والسلام وذكرهم بعض صفاته.

٦ ـ أثر الإيمان بالأنبياء والرسل في حياة الناس.

١ ـ معنى النبوة والرسالة والفرق بينهما

النبوة مأخوذة من النبأ بمعنى الخبر، قال في المصباح: «والنبأ مهموز: الخبر، والجمع: أنباء، مثل سبب، وأسباب، وأنبأته الخبر وبالخبر ونبأته به: أعلمته.والنبيء على فعيل مهموز؛ لأنه أنبأ عن الله، أي: أخبر» إذاً معنى النبوة: وصول خبر من الله تعالى إلى أحد خلقه، عن طريق الوحي، وإعلامنا أنه نبيّ، فالنبوة هي العلاقة بين الخالق والنبيّ، وهي علاقة الخبر والإنباء.

والرسالة مأخوذة من أرسل، فهي تعني تكليف الله لأحد عباده بإبلاغ الناس بشرع، فالرسالة بيان للعلاقة التي بين الله والنبيِّ والناس.

وبعد فهل هناك فرق بين النبيّ والرسول؟

الذي عليه جمهور العلماء: أن النبيَّ هو إنسان أوحي إليه بشرع سواء أمر بتبليغه للناس أم لم يؤمر.

والرسول هو إنسان ذَكَر أُوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه الناس، فالنبيّ أعم من الرسول، فكل رسول نبي لأنه أوحي إليه بشرع، ولكن ليس كل نبيّ رسولاً لأنه قد يُوحى إليه ولا يؤمر بالتبليغ. فبين الرسول والنبي عموم وخصوص مطلق.

وذهب فريق من العلماء إلى أن الكلمتين مترادفتان تردان على معنى واحد، فكل نبيٍّ رسول، وكلُّ رسول نبيّ، إلا أنه يُسمَّى

رسولاً من حيث إنَّه قد أرسل إلى الناس، ويُسمَّى نبياً من حيث أنه نبىء وأوحي إليه، وممن ذهب إلى ذلك السعد التفتازاني [1].

وهناك آراء أخرى تذكر لا حاجة إلى ذكرها هنا، لأنها لا تدخل في العقائد التي يجب أن تكون أدلتها قطعية يقينية.

* * *

---

(١) انظر حاشية الباجوري على الجوهرة (ص ٦) وحواشي السنوسية (ص ٤٣٥ فما بعدها).

٢ ـ حاجة الإنسان إلى الرسل

سنبحث بالتفصيل بعد الانتهاء من أركان الإيمان؛ عن حقيقة هذا الإنسان وبيان: أنه المخلوق المكرَّم المكلَّف المسؤول، وأنه خليفة الله في هذه الأرض، وأنه هو الذي سيُحاسب وسيُجازى عما عمل؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ، ومن هذه الصفات التي منحَها الله لهذا الإنسان تنبع حاجته إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام، وإليك صوراً من هذه الحاجة:

أولاً ـ الهداية إلى معرفة الخالق جلَّ جلاله:

الإيمان بأن لهذا العالم ربّاً خالقاً له ومدبِّراً لأموره فطرة عند الإنسان منذ أن خلقه الله بيديه، لا يحتاج إلى إقامة برهان عليه، كما لا يحتاج إلى برهان على وجود الغرائز الإنسانية، ولو تُرِك الإنسان وشأنه من غير أن يعترض سبيله معترض ما نشأ إلا مؤمناً بوجود هذا الخالق، ومعترفاً بحاجته إليه، يحسُّ بهذا في أعماق نفسه، من غير أن يكون بحاجة إلى دليل وبرهان، وهذا هو المعنى المقصود بقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] [الروم: ٣٠].

---

(١) انظر تفسير القرطبي (١٤/ ٢٥ فما بعدها).

وإلى هذا قصدَ الحديث القدسي الذي رواه مسلم: «إني خلقتُ عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطينُ فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يُشركوا بي مالم أُنَزِّلْ به سلطاناً»[1] . وقد ألمحنا إلى ذلك عند الكلام على أدلة وجود الخالق جل وعزّ.

ولكننا إذا تتبعنا تاريخ العقيدة منذ فجر التاريخ حتى اليوم وجدنا: أن الإنسان قد ضلَّ في الاهتداء إلى هذا الخالق المدبر، فظنَّه جماعة الشمس فعبدها، أو القمر أو كوكباً آخر فتوجهوا إلى ما اعتقدوه بالعبادة، واتجه قوم إلى الأرض فألّهوا بعض ما عليها من مخلوقات.

وهكذا تخبَّط الإنسان في الضلال فلم يستطع الاهتداء إلى الإله الحقيقي، خالق هذا الكون ومدبّر أمره، فكان لابدّ من مرشد يرشده، ويأخذ بيده إلى معرفة هذا الإله العظيم والمدبر الحكيم، ويبين له أن ما ألهه من مظاهر الطبيعة إن هي إلا مخلوقات الإله الخالق المدبر. وهؤلاء المرشدون هم الرسل الذين أرسلهم الله عز وجل ليقوموا بهذا الأمر خير قيام، عليهم الصلاة والسلام.

ثانياً ـ اطلاع الإنسان على المغيبات التي تتعلّق به:

الإنسان ذلك الموجود المادي، يعيش في هذا العالم المادي،

---

(١) تقدم تخريج الحديث (ص١٢٩) ومعنى اجتالتهم: استخفوا بهم، وذهبوا بهم، وأزالوهم عمّا كانوا عليه.

ولا يقع تحت مشاهدته إلا ما هو مادي، ولذلك كان جاهلاً جهلاً تامّاً بما وراء هذا العالم المادي.

ولكن هناك عوالم لا تقع تحت مشاهدته، وهو بحاجة إلى معرفة بعضها؛ إذ له علاقة بحياته ومصيره، ولا يمكن أن يتوصل إليها بجهد فكري، ولا بتأمل عقلي، وذلك كوجود الملائكة والجن، والبعث والحساب، والجنة والنار، والصراط والميزان، فهذه الأمور هي بعيدة كل البعد عما يتناوله العقل بأحكامه من الوجود والعدم، لأنها بنظره يمكن أن تكون موجودة، ويمكن ألا تكون موجودة، فترجيح أحد الاحتمالين، لابد له من مرجح يقول كلمة الفصل التي لا جدال فيها في ذلك.

لذلك كان الإنسان بحاجة إلى من يؤكِّد له وجود هذه العوالم، ويعرِّفه على أحوالها.

فأرسل الله تعالى رسله عليهم الصلاة والسلام، يبينون للناس ويؤكدون: أن هناك بعثاً وحساباً، وجَنّة وناراً، وملائكة وجِنّاً، وغير ذلك من الحقائق الثابتة من عالم الغيب، وأن هذه العوالم ليست احتمالات وهمية، وخيالات فرضية، وعلى الإنسان أن يؤمن بوجودها إيماناً لا يخالجه أدنى شك، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٩] أي: إن الله تعالى يرسل رسله ليعلموا الناس بأحوال الغيب، وبذلك يترجح جانب الوجود على جانب العدم، ويجب الإيمان بها، ولولا إرسال الرسل لما اهتدى الإنسان إلى وجودها وأحوالها.

ثالثاً ـ إيجاد منهج صالح يكفل للإنسان السعادة:

الإنسان محدود العلم لا يستطيع أن يحيط بما هو كائن، ولا بما كان، ولا يستطيع أن يعلم ما سيكون.

وهو بالإضافة إلى ذلك يقع تحت مؤثرات كثيرة، كالمال، والجاه، والحب، والبغض، والقرابة، وتأثير السلطة التي قد تستخدمها بعض الدول على بعض المواطنين لإرغامهم على تصرُّف معين.

لهذا كله فإن الإنسان غير صالح لوضع النظم الثابتة الدائمة المبنية على الدراسة الموضوعية المطلقة، مما يحقق العدالة من غير محاباة ولا تمييز. لأن النظام الثابت لابدّ من أن يصدر عن علم محيط بكل شيء، وذات مُحرَّرَةٍ من كل هوى وكل مؤثر، ومن حكمة تضع الأمور في مواضعها.

ولا يتوافر ذلك إلا في الذات الإلهية، ولذلك نقول: إن التشريع الثابت الدائم العادل لا يصدر إلا عن الله تعالى، لأنه سبحانه هو وحده صاحب العلم المحيط، وهو الحكيم الذي ليس لحكمته نهاية، والمنزَّه عن التأثر بأي مؤثر من المؤثرات مهما كان، فتشريعه هو التشريع الصالح لخلقه قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] ولكن كيف يتم تبليغ شريعة الله تعالى للناس الذين هم بحاجة إليها؟ لابدّ أن يكون هناك فئة من البشر يفهم عنها البشر ما تقول، ولكنها في استعداداتها أعلى من البشر، تكون وساطة بين السماء والأرض، حيث يلقى إليها الوحي فتقوم بتبليغ هذا الوحي إلى الناس، وتشرح لهم أهدافه

ومراميه، وهذه الفئة هم الرسل عليهم الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

رابعاً ـ إعلام الإنسان بأنه مكلّف ومسؤول ومُخْتبَر حتى لا تكون له حجة:

الإنسان في هذه الدنيا مكلَّف بأعمال يجب عليه أن يقوم بها، وهو مسؤول عما يعمله، وهو موضوع في هذه الدار موضع الابتلاء والاختبار، وكل ما يجري عليه من أمور فإنما هو أسئلة اختبارية، والواجب عليه أن يجيب عليها بالأجوبة الصحيحة، سواء أكان ذلك من نعمة أو نقمة، من صحة أو مرض، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. وقال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وقال جل جلاله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

فَلِكي يعلم الإنسان أنه مكلَّف ومسؤول، وأن حياته في هذه الدار حياة ابتلاء واختبار، لكي يعلم ذلك هو بحاجة إلى رسول يعلمه بذلك، ولولا أن الله أرسل إلى الناس الرسل مبشرين ومنذرين، لكان لهم عذر وحجة عند ربهم يوم القيامة، عند محاسبتهم على ما يفعلون، ولقالوا عند ذاك: يا ربنا لو أرسلت إلينا رسولاً لَكُنّا اتبعناه ولم نخالف لك أمراً، ولقد قال سبحانه في

ذلك: ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥]. وقال سبحانه: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال جل جلاله: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [طه: ١٣٤].

خامساً ـ حاجة الناس إلى قدوة حسنة:

الناس دائماً بحاجة إلى نماذج بشرية تتجسد فيهم الأخلاق الفاضلة، والسلوك المثالي، كي يكونوا قدوة لهم ومثالاً يحتذونه في سلوكهم.

والرسل بما أعطاهم الله من العصمة هم الذين جعلهم الله تعالى القدوة الحسنة، والأسوة الرائعة في الأخلاق والسُّلوك. قال الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١] وقال سبحانه في حق الرسل: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠] وقال سبحانه: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ [الممتحنة: ٤].

وهناك أمور كثيرة تظهر فيها حاجة المجموعة البشرية إلى الرسل، نكتفي منها بما أوردناه.

ومن هذه الأشياء ندرك: أن العقل ليس من وظائفه إدراك هذه الأشياء، لأن معظمها من الأمور الغيبية التي ليس هناك من سبيل أمام العقل لإدراكها، غير أن هذه الأشياء من مهمات الوحي.

على أن العقل وظيفته هنا: أنه إذا عرضت عليه هذه الأشياء

فليس عنده من دليل على إبطالها وإنكارها، بل لديه من الأدلة ما يجعله يقول بإمكانها.

* * *

٣ ـ طبيعة الوحي وأنواعه

لقد ذكرنا آنفاً: أن الرسول إنسان أوحي إليه بشرع، وأمر بتبليغه للناس، فالرسالة متلازمة مع الوحي، فلا رسالة إلا ويرافقها وحي.

ولكن الإنسان يتساءل عن طبيعة هذا الوحي، وعن أنواع هذا الوحي، ونحن فيما يلي نتحدث عن هذين الأمرين:

أ ـ طبيعة الوحي:

الوحي في اللغة: لقد استعمل لفظ الوحي في اللغة العربية استعمالات متعددة، كلها تدور حول العلم الخفي السريع مهما اختلفت أسباب هذا العلم.

لذلك يُطلق على الإيماء، والإشارة السريعة، وعلى الكلام الخفي، وعلى إلقاء المعنى في النفس، وعلى الإلهام سواء أكان بدافع الفطرة، أو بإشراقات الفطرة.

ومن استعمالات الوحي في المعنى اللغوي قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١] أي: أومأ، وأشار.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨] أي: ألهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٢١] أي: يوسوسون لهم.

الوحي في الشرع: نستطيع من خلال النصوص الشرعية أن نُعرِّف الوحي بأنه: إعلام من الرسول أو النبي العلم اليقيني القاطع بما أعلمه الله به، ويتجلَّى في هذا التعريف أمور:

أحدها: أن الوحي هو إعلام من الله سبحانه المحيط علمه بكل شيء، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].

ثانيها: أن الرسول أو النبي يتلقَّى هذا العلم الإلهي، وهو مستجمع كامل شعوره الفكري والوجداني حول ما يلقى إليه، دون أن يكون لإرادته واختياره تدخّل في مضمون ما يلقى إليه، أو في لفظه إن كان ما يلقى إليه لفظاً. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤] ويقول: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس: ١٥].

ثالثها: أن ما يلقى بالوحي من كلام أو معنى يقع في نفس الرسول أو النبي موقع العلم اليقيني القاطع بصحة التلقي عن الله سبحانه، بحيث لا يعتريه في ذلك أدنى تردد أو شك.

وفي هذا يقول الحق جل جلاله: ﴿ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا

تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤]. وقال سبحانه: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧]. وقال جلَّ وعلا: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: ٣١].

رابعها: أن ظاهرة الوحي هي ناموس إلهي به يتلقَّى جميع الرسل والأنبياء ما يلقى إليهم من أمر، وفي ذلك يقول ربنا سبحانه: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

ب ـ أنواع الوحي:

قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

يُستفاد من هذه الآية الكريمة: أن الوحي للرسل والأنبياء على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الوحي الذي يكون بلا كلام مسموع:

وذلك يكون بالإلقاء في القلب يقظة أو مناماً، وهو يشمل ما كان مثل صلصلة الجرس، والنفث في الروع، والإلهام، والرؤيا المنامية. وهذا النوع هو ما أشار إليه في الآية بقوله: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾.

النوع الثاني: ما كان بسماع الكلام الإلهي ولكن من غير رؤية للمتكلم، وذلك كما حصل لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام،

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١١-١٥].

وقال جلّ وعلا: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣ ـ ١٤٤]. وهذا النوع هو ما عناه قوله: ﴿ أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١].

النوع الثالث: ما يكون بوساطة إرسال ملك تُرى صورتُه ويُسمَعُ كلامه، وهذا الملك الموكل بذلك هو جبريل عليه السلام، فيوحي إلى النبي بما أمره الله أن يوحي إليه به.

وهذا النوع الثالث هو المعني بقوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾[1] [الشورى: ٥١].

ج ـ كيف كان ينزل الوحي على رسول الله ﷺ؟

لقد ذكرنا أنواع الوحي التي يخاطب الله بها رسله، ويعلمهم بما يريد منهم علماً يقينياً لا تردد فيه ولا شك.

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن (١٦/٥٣) وتفسير مفاتيح الغيب للرازي (٧/٤٠٦ فما بعدها).

وفيما يلي نتحدث عن كيفية تلقي رسول الله ﷺ للوحي.

١ً ـ أول ما بُدىء به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة، روى البخاري في صحيحه «كتاب بدء الوحي» عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي؛ الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح[١]، أي: جاءت ظاهرة واضحة لاشك فيها.

قال ابن حجر: وبدىء بذلك ليكون تمهيداً وتوطئة لليقظة [٢].

٢ً ـ ثم جاءه جبريل بغتة على غير ميعاد سابق، وذلك في غار حراء، إذ كان يذهب إليه للتعبد حينما حبّب إليه الخلاء، فكان يتعبد الليالي ذوات العدد. وأخذ يضمّه إليه بقوة ـ ثلاث مرات ـ وكان يقول له: اَقْرَأْ، فيجيب الرسول عليه الصلاة والسلام: «ما أنا بقارىء».

ولقد كان لهذا اللقاء المفاجىء أثر كبير في نفس الرسول عليه الصلاة والسلام، إذ رجع إلى أهله وهو يرجف فؤاده من الخوف ويقول: زمّلوني! زمّلوني!

٣ً ـ ثم فتر الوحي عن رسول الله ﷺ مدة قيل: إنها قرابة ثلاث سنوات [٣].

والحكمة في فتور الحي وتأخره أن يحصل له عليه الصلاة

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٣).
(٢) انظر فتح الباري (١/ ١٧).
(٣) المصدر السابق.

والسلام التشوُّق إلى العود، وليذهب عنه ما وجده من الروع [1]، وليشعر أن ما حدث له لم يكن نتيجة لرياضة روحية، وإنما كان ذلك اصطفاء واختياراً له من قبل خالقه جلّ وعلا، ولقد لاقى رسول الله ﷺ شدة من فتور الوحي.

٤ً ـ ثم جاءه الوحي بعد ذلك وهو يسير في شعاب مكة، روى البخاري عن جابر بن عبد الله قال ـ وهو يحدث عن فترة الوحي ـ فقال في حديثه: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني، زملوني فأنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [2] [المدثر: ١ ـ ٥]».

٥ً ـ ثم تتابع الوحي بعد ذلك.

ولقد كان ينزل الوحي على رسول الله ﷺ على حالات مختلفة منها: النفث والإلقاء في القلب.

ومن ذلك ما رواه أبو نعيم في الحلية ـ إن صح ـ: «إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملن

(١) فتح الباري (١/ ١٧).
(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٤).

أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته»[1].

ومنها: أنه كان يأتيه الوحي مثل صلصلة الجرس ـ الصلصلة: صوت وقوع الحديد بعضه على بعض، ثم أطلق على كل طنين ـ وكان هذا النوع من الوحي أشد الأنواع على رسول الله ﷺ[2].

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ـ وهو أشدّه عليّ ـ فيفصم عني وقد وعيت ما يقول»[3].

ومنها: أن يتمثل له الملك رجلاً فيكلّمه، ففي تتمة الحديث الذي ذكرت آنفاً: «وأحياناً يتمثل الملك رجلاً فيكلّمني فأعي ما يقول»[4].

هذا ولقد جاء في الحديث وصف لرسول الله ﷺ حينما كان ينزل عليه الوحي.

ففي البخاري: قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) فتح الباري (١/ ١٥).
(٣) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٢).
(٤) انظر تخريج الحديث السابق.

عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً[1].

وفي البخاري أيضاً: قال زيد بن ثابت: أنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي، فثقلت عليّ حتى خفت أن ترض فخذي[2].

هذا وختاماً لبحث «كيف كان ينزل الوحي على رسول الله» نذكر حديث بدء الوحي كاملاً كما رواه البخاري في مطلع صحيحه.

أخرج البخاري عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بُدىء به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها حتى جاءَه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارىء» قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطَّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء،

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، الباب الثاني عشر رقم (١/١٦٦) تعليقاً، وانظر الحديث كاملاً فيه في باب التفسير، في تفسير قوله تعالى: ﴿لا يستوي القاعدون...﴾ من سورة النساء (٤٥٩٢) موصولاً.

فأخذني فغطَّني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾ [العلق: ١ ـ ٣]» فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخلَ على خديجة بنت خويلد فقال: «زملوني، زملوني» فزملوه حتى ذهبَ عنه الرَّوْع، فقال لخديجة ـ وأخبرها الخبر ـ: «لقد خشيت على نفسي» فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدومَ، وتقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقةَ بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ـ ابن عم خديجة ـ وكان امرأً قد تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتبَ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا بن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا بن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أو مخرجيّ هم؟!» قال: نعم لم يأت رجل قطُّ بما جئتَ إلا عُودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزَّراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفترَ الوحي.

* * *

٤ ـ صفات الرسل والأنبياء وعصمتهم

قبل الخوض في بيان ما يجب في حق الرسل من الصفات وما يستحيل وما يجوز لابدّ من توضيح لحقيقة الرسول وحقيقة النبيِّ، وذلك من خلال تعريف كل منهما، وإليك بيان ذلك:

أ ـ تعريف الرسول:

عُرِّفَ الرسولُ بأنه: إنسان ذكر حرّ أوحى الله تعالى إليه بشرع، وأمره بتبليغه. وقد تبيَّن من هذا التعريف: أن الرسول يتصف بالصفات التالية:

أولاً: أن الرسول إنسان بشر، من لحم، وعظم، وأعصاب، ودم، قال تعالى مخاطباً الرسول ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠] وقال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ...﴾ [إبراهيم: ١١٠]. وعلى هذا فالرسل تجري عليهم ما يجري على البشر من الأعراض البشرية، شريطة ألا تنقص من مراتبهم العلية، كما سيأتي عند البحث في عصمة الأنبياء.

فهم يأكلون، ويشربون، ويتزوَّجون، وينامون، ويمرضون، ولا يعلمون من الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه، قال الله تعالى في ذلك: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقال سبحانه: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقال سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧].

والحكمة من كون الرسول إنساناً بشراً، فيه جميع غرائز البشر ومتطلباتهم، أن يكون في دعوته وأفعاله وأخلاقه وسلوكه حجَّة عليهم، وأن يضرب بنفسه المثل على استطاعة البشر تطبيق ما أمرهم الله به، وابتعادهم عما نهى عنه.

ثانياً: أنه ذكر فلا يجوز أن يكون أنثى، وعلى هذا إجماع علماء المسلمين، ولم يحدث أن أرسل الله تعالى رسولاً امرأة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧ ـ ٨]. واشتراط الذكورة إنما كان لأن الرسالة مهمة شاقة تطلب الكفاح، والسفر، وخوض المعارك، وتحمل المشاق، والرجل أقدر على ذلك من المرأة.

ثالثاً: الحرية، فلابد أن يكون الرسول حراً، لأن العبودية مطعن يطعن به الكفَّار على الرسول، ويُعيِّرونه بها، هذا بالإضافة إلى أنها قيد لا يتفق مع المهمة التي أرسل الرسول من أجلها.

رابعاً: أنه أوحي إليه بشرع، وقد مضى قريباً معنى الوحي وأنواعه.

خامساً: أنه مأمور بتبليغ هذه الرسالة إلى من أرسل إليهم. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

٢ ـ تعريف النبي:

عُرِّف النبي بأنه: إنسان أُوحي إليه بشرع سواء أُمر بتبليغه أم لم يؤمر. ولكنه إذا أُمر بتبليغه ضمَّ إلى وصف النبوة وصف الرسالة فكان نبياً رسولاً.

ومن تعريف النبي نجد أن تعريفه قريب من تعريف الرسول، غير أن العلماء اختلفوا في معنى النبي في أمرين اثنين هما: هل يكون النبي أنثى؟. وهل يكون النبي عبداً رقيقاً؟ وفيمايلي نتحدث عن هذين الأمرين.

أ ـ هل يكون النبيُّ أنثى؟

لقد مضى في بحث الرسول: أن الإجماع قد وقع على أن الرسول لا يكون أنثى، بل يشترط أن يكون ذكراً، نظراً للمهمات التي تُلقى على عاتق الرسول في التبليغ، أما النبيُّ فقد اختلف علماء العقيدة في ذلك.

فذهب بعض العلماء إلى جوازه بل وقوعه، فقد أوحي إلى بعض من النساء، منهنّ: سارَّة زوج إبراهيم، فقد قال الله في

شأنها: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

ومنهن: مريم بنت عمران، فقد قال الله سبحانه في شأنها: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٢ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢ ـ ٤٣].

ومنهن: أم موسى فقد قال الله في شأنها: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ [القصص: ٧].

فهذه الآيات فيها دلالات على أن بعضاً من النساء قد أوحي إليهن، بل إن وحيه لمريم قد شمل التوجيه، والتشريع، والتشريف، ولا معنى للنبوّة إلا هذا.

وممن ذهب إلى نبوة مريم خاصة الإمام القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» وأيّد ما ذهب إليه بالأدلّة[1].

وذهب الجمهور إلى أنَّ الأنثى لا تكون نبيّاً، كما أنها لا تكون رسولاً، فالذكورة شرط في كلٍّ من الرسالة والنبوّة.

وقال هؤلاء: إننا نؤمن بأن هذا القدر من الوحي قد حصل لهؤلاء النساء اللواتي ذكرهن الله تعالى في كتابه الكريم، ولكن لا يلزم من ذلك أن يكنّ نبيّات، لأن هذا غير كاف للانتظام في سلك النبوة، فالوحي إلى «سارة» وإلى «أم موسى» لم يكن فيه شيءٌ من التشريع. هذا مع أنَّ الوحي لهما كان نوعاً من الإلهام،

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١١/ ٩٠).

وهو قدر مشترك للناس كلهم، بل يكون هذا الوحي للحيوان، قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا . . .﴾ [النحل: ٦٨].

وأما مريم وإن كان ما أوحي إليها فيه شيء من التشريع إلا أن الله سبحانه حينما امتدحها امتدحها بأنها صدّيقة، ولو كانت نبية لكان الامتداح بأنها نبية أولى، لما فيه من معنى التكريم والتشريف، قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

قال الإمام سراج الدين علي بن عثمان الأوشي الفرغاني في منظومته «بدء الأمالي»:

وما كانت نبياً قطُّ أنثى ولا عبد وشخص ذو فعال

أي: ذو فعل قبيح.

ب ـ هل يكون النبيُّ عبداً؟

مرّ في تعريف الرسول: أنه من الواجب أن يتصف بالحرية، فهل يشترط مثل ذلك في النبي؟

ذهب بعض العلماء إلى أن ذلك لا يُشترط في النبي ﷺ وعدُّوا من الأنبياء لقمان، وممن عدّ من الأنبياء لقمان: الشعبي، وعكرمة.

وذهب الجمهور إلى أنه يشترط في النبوة الحرية، كما يشترط الذكورة، وذهبوا إلى أن لقمان كان حكيماً ولم يكن نبياً. وقد نقل

القرطبي[1] حديثاً عن ابن عطية في ذلك فقال: وروي من حديث ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يكن لقمان نبياً ولكن كان عبداً كثير التفكُّر حسن اليقين، أحبَّ الله تعالى فأحبَّه فمنّ عليه بالحكمة، وخيّره في أن يجعله يحكم بالحق، فقال: رب إن خيّرتني قبلت العافية وتركت البلاء، وإن عزمت علي فسمعاً وطاعة فإنك ستعصمني» ذكره ابن عطية.

٣ ـ صفات المرسلين عليهم الصلاة والسلام:

الرسالة سفارة، والرسول سفير بين الله وعباده، أرسله الله تعالى ليقوم بأداء مهمة معينة، وهي تبليغ شريعة الله، وهداية الناس إلى صراط الحق، ولذلك لابد أن يجتمع فيه من الصفات ما يؤهّله للقيام بهذا الواجب. ولذلك اقتضت حكمته سبحانه أن يختص برسالته من يكون مستجمعاً للصفات التي تؤهله لحمل هذه الرسالة، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وأهم الصفات التي يجب أن تتوافر فيهم بالإضافة إلى الصفات التي ذكرت في تعريف الرسول الصفات التالية، وهي ما يعبر عنه في كتب العقيدة بـ«يجب في حق الرسل»:

أولاً ـ الفطانة:

وهي: التفطن، والتيقظ، لإلزام الخصوم، ونقض دعاويهم الباطلة، وما اشتراط ذلك إلا لأن الرسول له مهمة علمية، ومهمة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٥٩ ـ ٦٠).

تربوية، ومهمة قيادية وسياسية، فلابدّ من أن يتحقَّق في حاملها من الاستعداد ما يؤهِّله للقيام بذلك. وهذه الصفة هي صفة الفطانة، وقد ورد في القرآن الكريم آيات تدل على أن الرسل كانوا على أعلى مستوى من الفطنة، والذكاء، وقوة الحجة، من ذلك ما ورد في إبراهيم عليه الصلاة والسلام، قال الله تعالى بعد أن ساق الأدلة التي احتجَّ بها إبراهيم على قومه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]. وتحدَّث القرآن الكريم عن جدال إبراهيم للنمروذ، وانتصار إبراهيم عليه بالدليل والبرهان حينما كان يدعي النمروذ الربوبية، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وذكر القرآن الكريم حواره مع قومه بعد أن كسر الأصنام، وإقامته البرهان على ضلالهم وانحرافهم وضعف عقولهم فيما كانوا يعبدون، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٥٤ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ

يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١ ـ ٧٠].

وقال سبحانه في شأن نوح: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢] قالوا ذلك له بعد أن أقام عليهم الحجة، وأسكتهم بالبرهان.

وقد أمر الله رسوله محمداً ﷺ بأن يجادل الكافرين، ويقيم عليهم الحجة والبرهان، قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

فمن كان مأموراً بأن يجادل ويقرع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان، لابدّ أن يكون متصفاً بالفطانة؛ ليصح قيامة بذلك.

وبدهي أنه إذا وجب أن يتصف بالفطانة استحال أن يتصف

بضدها، وهي الغباوة، والبلاهة، والبلادة؛ لأن النقيضين لا يجتمعان.

ثانياً ـ الصدق:

الصدق: هو مطابقة الكلام للواقع، فالرسل صادقون فيما أخبروا به عن الله، لأن الله سبحانه أيدهم بالمعجزات، فلو لم يكونوا صادقين للزم عدم تأييد الله عز وجل إياهم بالمعجزات (١).

ولقد ذكر الله سبحانه في آيات كثيرة اتصاف رسله بالصدق، قال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٤ ـ ١٠٥].

وقال تعالى في محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧٠].

وقال أيضاً: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ـ٤٧].

هذا وإذا أوجبنا الصدق في أخبارهم كان من المستحيل عليهم

---

(١) انظر حاشية الباجوري على الجوهرة (ص٧١).

الكذب، سواء أكان ذلك على الله أم على الناس.

ثالثاً - التبليغ:

المراد بالتبليغ: إعلام الناس وإخبارهم بما أمروا بإبلاغهم إياه، وعدم كتمان شيء منه؛ لأن مهمة الرسول إبلاغ الناس ما أنزل إليهم من عند الله تعالى، فإن الرسول إذا لم يتصف بهذه الصفة بطل أن يكون رسولاً، قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥] وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

هذا وفي الواقع أن الرسل قد قاموا بالتبليغ خير قيام، ولم يكتموا شيئاً مما أمرهم الله بتبليغه وقد شهد القرآن الكريم لهم بذلك، قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٨ - ٣٩].

وقال تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٨].

هذا ولو أن رسولاً كتم شيئاً مما أمر بتبليغه للناس، لكان أحق الناس بالكتمان سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فيما لامه به

وعاتبه عليه. وذلك كما في قصة ابن أُمِّ مكتوم حينما أعرض عنه رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى معاتباً له: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ١ ـ ١٠].

وكما في قصة زينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة الذي قد كان رسول الله تبناه في الجاهلية، قال الله سبحانه: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

روى مسلم والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: لو كان النبي ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ...﴾ [1] [الأحزاب: ٣٧]. وقال عمر و ابن مسعود وعائشة والحسن: ما أنزل الله على رسوله آية أشد من هذه الآية [2].

رابعاً ـ الأمانة:

الأمانة: وهي ـ كما أوضحها الشيخ الباجوري ـ حفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبُّس بمنهي عنه، ولو نهي كراهة، أو خلاف الأولى، فهم محفوظون، ظاهراً من الزنى، وشرب الخمر،

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧٧) والترمذي في التفسير (٣٠٧٠).
(٢) انظر تفسير القرطبي (١٤/ ١٨٩).

والكذب، وغير ذلك من منهيات الظاهر، ومحفوظون باطناً من الحسد، والكبر، والرياء، وغير ذلك من منهيات الباطن.

والدليل على وجوب اتصافهم بالأمانة عليهم الصلاة والسلام: أنهم لو خانوا بفعل محرم، أو مكروه، أو خلاف الأولى لكنا مأمورين باتباعهم فيه، لأن الله قد أمرنا باتباعهم في أقوالهم، وأفعالهم، وأحوالهم من غير تفصيل، وهو تعالى لا يأمر بمحرم، ولا مكروه، ولا خلاف الأولى، فلا تكون أفعالهم محرمة، ولا مكروهة، ولا خلاف الأولى.

هذا؛ ومما يدخل في وصف الأمانة عصمتهم عن المعاصي والمخالفات، وسنفرد لعصمة الأنبياء والرسل بحثاً خاصاً إن شاء الله تعالى.

هذا؛ وبدهي أيضاً أنه إذا وجب في حقهم الأمانة استحال عليهم ضدها، وهي الخيانة بمفهومها الواسع.

خامساً ـ العصمة من الأمراض المنفرة أو ما يخلّ بأداء رسالتهم:

كون الرسول رسولاً يستدعي أن يخالط الناس ويجتمع معهم، ليهديهم سبيل الرشاد، وليقودهم إلى ما فيه الخير والسداد.

فكون الرسول يُصاب بمرضٍ منفر يتعارض مع مهمته التي أرسله الله من أجلها، لذلك حمى الله رسله أن يُصابوا بأحد الأمراض المنفرة، كالجذام، والبرص، وما يذكره أرباب القصص من أن أيوب ابتلي في جسده حتى أصبحت له رائحة كريهة تُشمُّ من

مكان بعيد، فهذا باطل لا أصل له [1].

وكما يستحيل عليهم الأمراض المنفرة يستحيل الجنون، والإغماء الطويل، لأن ذلك يخلّ بما وجب عليهم من أعمال الرسالة.

وأما السهو: فإنه يمتنع عليهم فيما يكون من الأخبار البلاغية وغير البلاغية، وأما في الأفعال غير البلاغية فجائز ذلك في حقه، ولقد سها رسول الله ﷺ في صلاة الظهر أو العصر.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ إحدى صلاتي العشيِّ، فصلَّى ركعتين ثم سلَّم، فقام إلى خشبة معروضة في المسجد فاتكأ عليها كأنَّه غضبان، ووضع يدَه اليمنى على اليسرى، وشبَّكَ بين أصابعه، ووضعَ خده الأيمن على ظهر كفه اليسرى، وخرجت السرُّعان من أبواب المسجد فقالوا: قصرت الصلاة؟ وفي القوم أبو بكر وعمر فهابا أن يُكلِّماه، وفي القوم رجلٌ يقال له: ذو اليدين، فقال: يا رسول الله أنسيت أم قصرت الصلاة؟ فقال: «لم أنس ولم تقصر، فقال: أكما يقول ذو اليدين؟» فقالوا: نعم، فتقدَّم فصلى ما ترك ثم سلَّم [2].

وأما النسيان فهو ممتنع في البلاغيات قبل تبليغها؛ قولية كانت أو فعلية، وأما بعد التبليغ فيجوز نسيان ما ذكر، على أن يكون

---

(١) انظر حاشية الباجوري على الجوهرة (٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٨٢) ومسلم في المساجد (٥٧٣) (٩٧).

الإنساء من الله تعالى لا من أعمال الشيطان، إذ ليس للشيطان على الرسل سبيل.

ومما يتصل بهذا الموضوع تأثر الأنبياء بالسحر، فقد ذهب جمهور العلماء إلى جوازه بالمقدار الذي لا يخلّ بإداء رسالته، فيكون ذلك كالمرض، وقد ورد في الحديث: أن الرسول ﷺ سُحر: وقد أثّر السحر في جسده عليه الصلاة والسلام.

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: سحرَ رسولَ الله ﷺ رجلٌ من بني زُرَيق يقال له: لبيد بن الأعصم، كان رسول الله ﷺ يُخيَّل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله..»[1].

وقد كتب ابن حجر في فتح الباري كلاماً نفيساً في شرح هذا الحديث يبين فيه: أن الذي أصاب رسول الله من السحر هو نوع من المرض، ونسوق هنا بعضاً من هذا الكلام، قال:

«قال المازري: أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث، وزعموا أنه يحطُّ منصب النبوة ويشكِّك فيها، قالوا: وكل ما أدى إلى ذلك فهو باطل، وزعموا أن تجويز هذا يعدم الثقة بما شرعوه من الشرائع، إذ يحتمل على هذا أن يخيل إليه أن يرى جبريل وليس هو ثم، وأنه يوحى إليه بشيء ولم يوح إليه بشيء، قال المازري: وهذا كله مردود، لأن الدليل قد قام على صدق النبي ﷺ فيما بلغه عن الله تعالى، وعلى عصمته في التبليغ، والمعجزات شاهدات بتصديقه، فتجويز ما قام الدليل على خلافه باطل، وأما ما يتعلّق ببعض أمور

---

(١) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٦٣).

الدنيا التي لم يبعث لأجلها، ولا كانت الرسالة من أجلها، فهو في ذلك عرضة لما يعترض البشر، كالأمراض، فغير بعيد أن يخيل إليه في أمر من أمور الدنيا مالا حقيقة له مع عصمته عن مثل ذلك في أمور الدين، قال: وقد قال بعض الناس: إن المراد بالحديث أنه كان ﷺ يخيل إليه أنه وطىء زوجاته ولم يكن وطئهنَّ، وهذا كثيراً ما يقع تخيّله للإنسان في المنام، فلا يبعد أنه يخيل إليه في اليقظة.

قلت: وهذا قد ورد صريحاً في رواية ابن عُيينة في الباب الذي يلي هذا، ولفظه: حتى يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن.

ثم قال: قال عياض: يحتمل أن يكون المراد بالتخيل المذكور: أنه يظهر له من نشاطه ما ألفه من سابق عادته من الاقتدار على الوطء، فإذا دنا من المرأة فتر عن ذلك، كما هو شأن المعقود.

ثم قال: ويؤيد جميع ما تقدم: أنه لم ينقل عنه في خبر من الأخبار أنه قال قولاً فكان بخلاف ما أخبر به، ثم قال: واستدل ابن القصار على أن الذي أصابه كان من جنس المرض بقوله في آخر الحديث: أما أنا فقد شفاني الله، وفي الاستدلال بذلك نظر، لكن يؤيد المدعى: أن في رواية عمرة عن عائشة عند البيهقي في الدلائل: فكان يدور ولا يدري ما وجعه، وفي حديث ابن عباس عند ابن سعد: مرض النبي ﷺ وأُخِذ عن النساء، والطعام، والشراب، فهبط عليه ملكان... الحديث»[1].

---

(١) انظر فتح الباري (١٠/٢٢٦) فما بعدها.

٤ً ـ عصمة الرسل والأنبياء:

لقد مرّ بنا: أن من الصفات الواجبة للرسل والأنبياء «الأمانة» وقد بيَّنَّا: أن الأمانة هي حفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبُّس بمنهي عنه، وهنا يتساءل الإنسان هل من الممكن أن يقع الرسول أو النبي في معصية، فإن قلتم: نعم؛ فلا معنى لذكر عصمة الأنبياء والرسل، وإن قلتم: لا يقع، فما هو تأويل المعاصي التي وقعت من الرسل والأنبياء كآدم، وموسى، وغيرهما من الأنبياء؟.

والجواب على ذلك: أن حياة الرسل والأنبياء تنقسم إلى فترتين:

الفترة الأولى: فترة ما بعد النبوة والرسالة.

الفترة الثانية: فترة ما قبل النبوة والرسالة.

ولكل فترة من هاتين الفترتين حكم يخصُّها كما سنوضحه إن شاء الله. وكما أن حياة الرسل تنقسم إلى فترتين، كذلك المعاصي تنقسم إلى نوعين:

أ ـ كبائر: وهي ما جاء على ارتكابها وعيد شديد كالزنى والربا، أو رُتِّب على فعلها حدّ، أو وُصِفَ صاحبها بالفسق، أو لُعِنَ فاعلها، وفي رأس هذه الكبائر: الشرك بالله تعالى، ويُضاف إلى الكبائر في الحكم الصغائر التي فيها خِسَّة وتُخِلُّ بالمروءة.

ب ـ الصغائر: وهي الذنوب التي لم يرد على فعلها وعيد شديد.

أما الكبائر: فقد أجمع العلماء على أنَّ الرُّسل معصومون منها

سواء أكان ذلك قبل النبوة أو بعدها، وما يذكر من أن إبراهيم كان شاكّاً في أول أمره ثم اهتدى عن طريق التأمل والتفكير فليس بصحيح، بل إنه نشأ مؤمناً بالله منذ طفولته، وما كان منه من قوله للكوكب: هذا ربي، وللقمر كذلك، وللشمس كذلك، فإنما هو من قبيل التسليم الجدليِّ، لإقامة الحجة على الخصم، وإليك النص القرآنيّ الذي يتحدَّث عن ذلك. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٧٤ ـ ٨٣].

ففي قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ...﴾ إشارة إلى أن هذا الأسلوب كان من أجل إقامة البرهان على قومه.

وأما ما يذكر في شأن داود من أنه رأى زوجة قائد له فعشقَها ورغب في زواجها، فأخذ يرسل زوجها في البعوث ليقتل كي يتزوَّج زوجته من بعده، فجاءه ملكان في صورة رجلين ينبهانه على عظيم ذنبه، وذلك ما قصَّه الله علينا بقوله: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢١ ـ ٢٦] فقصة باطلة مختلقة لا تليق بمن هو من سوقة الناس، فما بالك بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

هذا وقد ردّ الإمام الفخر الرازي في تفسيره هـذه القصة من عدة وجوه، وبيَّن: أن النص القرآني نزل في رجلين نزلا عليه وهّما بقتله، ثم أعرضوا عن ذلك عندما رأوا عنده جماعة، واختلقوا هذا السؤال ستراً لفعلتهم فاستغفَر لسوء ظنه بهم، أو لغير ذلك، أو:

إنه نزل في رجلين سألاه عن هذا السؤال، وكانت مؤاخذة الله إياه من حيث إنه سارع إلى الإجابة قبل السماع من الطرف الآخر، وهناك أمور أخرى ذكرها الإمام الفخر رحمه الله.

٥ ـ المعجزة:

أ ـ حقيقة المعجزة:

لقد علمنا من القصص القرآني ومما تحدَّث به التاريخ: أن كلَّ أمة جاء فيها رسول يدّعي أنه مرسل من قبل الله إليهم، كانت تطلب منه أن يأتي ببرهان يدلُّ على صدقه فيما يدَّعي، ومن حق هذه الأمة أن تطلبَ هذا البرهان، إن لم يحصل لها العلم بنبوته من طريق آخر، وذلك للتثبت من صحة نبوته وصدقه فيما يدعي. ففي قصة موسى مع فرعون قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٤ ـ ١٠٦]. وقال الله في شأن قوم صالح: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤].

فكان الله جلَّت قدرته وحكمته يؤيد رسله بالبرهان على شكل معجزة، سواء أكان ذلك مما طلبوه، أو من غير ذلك.

ولكن الله جلَّت حكمته كان يأتي بالمعجزة في ظاهرها من النوع الذي برع فيه هؤلاء القوم الذين جاءت إليهم المعجزة غالباً، حتى يتحقَّق الإعجاز.

فقوم موسى عليه السلام برعوا بالسحر وما شاكله، فأيَّد الله

موسى بقلب العصا حيَّة، وبإخراج يده من جيبه فإذا هي بيضاء من غير سوء.

وفي عهد عيسى عليه السلام برعَ الناس في الطب والعلاج، فأيَّده الله سبحانه بإبراء الأكمه، والأبرص، وإحياء الموتى بإذنه، ويصنع الطير من الطين، فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله.

وكان قوم نبيِّنا الذين أرسل إليهم أول الأمر قد بلغوا في الفصاحة والبلاغة مالم يبلغه غيرهم، فكانوا أئمة القول، وفرسان الفصاحة والبلاغة، فكانت معجزة الرسول العظمى هي القرآن الكريم الذي نزل بلغتهم، وتحدَّاهم أن يأتوا بما يماثله فصاحة وبلاغة فعجزوا عن ذلك، وأقروا بعجزهم وضعفهم عن مجاراته، ولو في أقصر سورة من سوره، ومن هنا قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «ما من الأنبياء نبيٌّ إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى الله إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[1].

ب ـ تعريف المعجزة:

المعجزة: هي أمر خارق للعادة يجريه الله سبحانه وتعالى على يد أحد أنبيائه، وهو منزل منزلة قوله تعالى: صدق عبدي فيما يبلغ عني. ومن خلال هذا التعريف ندرك: أن المعجزات لا تتعلق بالمستحيلات العقلية؛ كالجمع بين النقيضين، أو كوضع الجرم

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨١) ومسلم في الإيمان (١٥٢) (٢٣٩) واللفظ له.

الكبير في الجرم الصغير، مع بقاء الكبير كبيراً والصغير صغيراً وما أشبه ذلك.

فالمعجزات أمور ممكنة عقلاً، ولكن العادة جرت على خلافها، فتكون المعجزة خرقاً لهذه العادة.

ج ـ الحكمة من المعجزة:

١ ـ إثبات صدق مدعي النبوة: وذلك: أنه سبحانه حينما يجري هذه المعجزات على أيدي رسله، إنما يُجريها باعتبار أن الشواهد المادية والمعنوية الخارقة للمعتاد المألوف في قوانين الكون وأنظمته، تضع الباحث عن الحق أمام البرهان الواضح، الدالِّ على صدق الرسول في دعواه الرسالة.

وذلك لأن الذين يتحدَّاهم الرسول بالمعجزة لا يستطيعون الإتيان بمثلها منفردين أو مجتمعين، في حدود قدراتهم الممنوحة لهم بحسب مستواهم.

٢ ـ تكريم الرسول: فهي إلى جانب ما تحمله من كونها دليلاً على صدقه فيما يدعيه من الرسالة، فقد تكون تكريماً له، كما هي الحال في معجزة الإسراء والمعراج فإنها قد وقعت بعد أن اشتد أذى قومه له، ومات عمه أبو طالب وكان يُدافع عنه، وماتت زوجه خديجة وكانت تشدُّ من أزره، وتساعده بما تستطيع، وبعد أن ذهب إلى الطائف يدعو إلى الإيمان، فردّه أهلها أشنع ردّ كما هو مذكور في السيرة، فأراد الله أن يكرمَه، فعرج به إلى الملكوت الأعلى ليرى من آيات ربِّه الكبرى.

٣ ـ تنبيه الغافلين من الكافرين: فتكون المعجزة أشبه شيء

بالهزة العنيفة التي تُوقظ النائم من سباته، ليفتح عينيه ويعي ما حوله، ومن هذا النوع ما ذكره أبو نُعيم في دلائل النبوة من قصة الأراشي، حين يسأل أبا جهل حقاً له عنده، فدلّه كبراء قريش على محمد ﷺ ليستنقذَ له حقَّه ـ وذلك استهزاءً بمحمد عليه الصلاة والسلام ـ فرافقه رسول الله إلى دار أبي جهل، فضربَ عليه بابه، فقال: من هذا؟ فقال: محمد فاخرج إليّ، قال: فخرج إليه وما في وجهه رائحة، قد انتقع لونه، فقال له: أعط هذا الرجل حقَّه، قال أبو جهل: نعم، لا تبرح حتى أعطيه الذي له، فدخل فخرج إليه بحقه، فدفعه إليه، ثم انصرف رسول الله ﷺ، وقال للأراشي: الحق بشأنك، فأقبلَ الأراشي حتى وقف على ذلك المجلس فقال: جزاه الله خيراً، فقد ـ والله ـ أخذ لي الذي لي، فلما جاءهم أبو جهل قالوا له: ويلك! مالك؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت، فقال: ويحكم والله إن هو إلا ضرب الباب وسمعت صوته فملئت رعباً، فخرجت إليه وإنَّ فوق رأسه لفحلاً من الإبل، ما رأيت مثل هامته ولا قَصَرته ولا أنيابه لفحل قط، والله لو أَبَيْتُ لأكلني[1].

هذه المعجزة تنبيه لأبي جهل وأقرانه، لعلَّهم ينتبهون من غفلتهم، فيتبعون الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام.

د ـ **وجوب الإيمان بالمعجزة**: يجب على المسلم أن يعتقد: أن الله عزّ وجل قد أيّد أنبياءه ورسله الذين أرسلهم إلى الناس بمعجزات تُبيِّن صدقهم في دعوتهم، وتوضِّح للناس ارتباطَهم بالله

---

(١) دلائل النبوة لأبي نُعَيم (٢ / ٢٧٢ ـ ٢٧٤) والقَصَرة: أصل العنق.

جلَّ جلاله، وأنهم مؤيدون منه سبحانه.

هـ ـ نماذج من المعجزات التي وقعت للرسل السابقين:

١ ـ طوفان نوح:

بعث الله سيدنا نوحاً إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله وحده، ونبذ ما كانوا يعبدون من الأصنام، ولبث يدعوهم تسعمئة وخمسين عاماً، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت: ١٤] فلم يؤمن به إلا القليل طيلة هذه المدة الطويلة، وكان قومه يستهزئون به ويؤذونه، ويُوصي بعضهم بعضاً بذلك، ولما يئس من استجابتهم دعا عليهم فقال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦ ـ ٢٧] فأمره سبحانه أن يصنع سفينة ليحملَ فيها من قد آمن، وأصناف الحيوانات، ثم أرسل عليهم الطوفان، فلم ينج منهم إلا مَنْ حمله نوح في السفينة، ولقد تحدَّث القرآن الكريم عن هذه الحادثة بأروع بيان، وأبلغ تصوير، فقال سبحانه في سورة هود:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا

عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا
تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ
أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ
لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم
بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن
يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ
فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن
قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا
وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ
وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ
مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ
عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ
زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا
قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ
رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي
مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ
يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا

ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٢٥ ـ ٤٩].

٢ ـ عدم إحراق النار إبراهيم عليه السلام:

إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء، وقد أرسله الله إلى قوم يعبدون الأصنام والكواكب، وكان على القوم ملك ظالم، فناقشه إبراهيم وأقام عليه الحجة، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ولقد حكىٰ الله سبحانه قصَّته مع قومه، وكيف أنقذه الله سبحانه من النار، فقال عزّ من قائل: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ

مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١ ـ ٧٠].

والمعجزة في ذلك: أن النار سبب للإحراق عند ملاقاتها الأجسام، ولكن الله حفظ جسم إبراهيم فلم تؤثر فيه النار، خرقاً للعادة.

٣ ـ ناقة صالح:

أرسل الله صالحاً إلى قومه ثمود ليهديَهم إلى الله تعالى وعبادته

وحده، فلم يتبعه منهم إلا قليل، وطلبوا منه دليلاً على أنه رسول من عند الله، والدليل هو أن تخرج لهم ناقة من صخرة عيّنوها له، فدعا صالح ربَّه، فاستجابَ له، وأخرج لهم من الصخرة ناقة، ولكنهم بدلاً من أن يُؤمنوا عقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم، فعاقبَهم الله على ما اقترفوه من ذنب بالصيحة فأصبحوا هالكين، وفي ذلك يقول الله عزّ وجل:

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٣ ـ ٧٩].

ووجه الإعجاز في ذلك: أنه لم تجر العادة بخروج ناقة من الصخرة، وإن كان ذلك داخلاً ضمن قدرة الله تعالى، فخروج

الناقة من الصخرة أمر خارق للعادة أجراه الله جلَّت قدرته على يد الرسول صالح عليه السلام.

٤ ـ معجزات سيدنا موسى عليه السلام:

أولاً: معجزة اليد، فكان سيدنا موسى يُدخل يَده في جيبه ثم يُخرجها فإذا هي بيضاء للناظرين من غير أن يكون بياضها عن مرض، ولقد ذكر الله سبحانه هذه المعجزة في غير موضع من القرآن الكريم، ولقد قال الله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢].

ثانياً: معجزة العصا. فكان لموسى في عصاه ثلاث معجزات أجراها الله سبحانه على يديه:

الأولى: قلب العصا حيَّة، وذلك عندما اجتمع السحرة، وألقوا حبالهم وعصيهم خيل للناس من سحرهم أنها تسعى، وأمر الله سيدنا موسى عليه السلام بأن يلقي عصاه، فألقاها فإذا هي تلقف ما يأفكون. ولقد ذكر الله سبحانه هذه المعجزة في غير ما موضع من القرآن الكريم، قال الله تعالى في سورة طه: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٦٥ ـ ٧٠].

الثانية: انفلاق البحر، وذلك عندما خرج موسى عليه السلام

وقومه من مصر، وأدركهم فرعون عند البحر، فأمر الله موسى أن يضرب البحر بعصاه، ففعل ذلك، فانفلق البحر، ومشى فيه موسى بمن معه، وتبعهم فرعون فأغرقه الله في البحر هو وقومه، وفي ذلك يقول الله جل جلاله: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٥٢ ـ ٦٨].

الثالثة: تفجُّر الماء من الحجر، وذلك عندما كان موسى مع بني إسرائيل في التيه، ونفد الماء الذي معهم، فأمره الله بأن يضرب الحجر بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً على عدد الأسباط، قال الله تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

٥ ـ معجزات عيسى عليه السلام:

لقد ثبت لسيدنا عيسى عليه السلام معجزات كثيرة ذكرها القرآن الكريم:

أولاً: كان يصنع من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله.

ثانياً: إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله من غير تناول دواء.

ثالثاً: إحياء الموتى بإذن الله تعالى، وقد ذكر الله ذلك جميعاً في سورة المائدة فقال سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

رابعاً: الإخبار بالمغيبات، فكان يخبر قومه بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، قال الله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٨ ـ ٤٩].

خامساً: رفع الله إياه إلى السماء: وذلك عندما أراد اليهود قتله، فأنقذه الله منهم، ورفعه إليه، قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ

﴿ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥] ومعنى متوفيك هنا: آخذك إليّ وافياً روحاً وجسداً، وليس معناها مأخوذاً من الوفاة بمعنى الموت.

وقال سبحانه رداً على اليهود الذين زعموا أنهم قتلوا المسيح عيسى عليه السلام: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦ ـ ١٥٨].

فسيدنا عيسى عليه السلام لم يُقتل، ولم يُصلب، بل رفعه الله إليه، وقد دلَّت الأخبار الصحيحة على أنه سوف ينزل في آخر الزَّمان، ويحكم بشريعة سيدنا محمد ﷺ، ويكون نزوله من أشراط الساعة، ففي صحيح مسلم والبخاري: أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده! ليُوشكنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكونَ السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها»[1] ويضع الجزية: يعني يبطلها لذهاب موجبها بالإسلام.

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٤٨) ومسلم في الإيمان (١٥٥) (٢٤٢).

٦ ـ معجزات نبينا محمد عليه الصلاة والسلام:

لا نعلم أحداً من الأنبياء قد أجرى الله على يديه من المعجزات عدد ما أجراه على يد سيدنا محمد ﷺ، وقد ذكرَ الإمام النووي في مقدمة شرح صحيح مسلم: أن معجزات الرسول محمد ﷺ تزيد على ألف ومئتي معجزة، وقال البيهقي في المدخل: بلغت معجزات محمد ﷺ ألفاً، وقد جمعَها البيهقي في كتابه «دلائل النبوة» والحافظ أبو نُعَيْم في كتابه «دلائل النبوة».

وإليك بيان أشهر هذه المعجزات:

أولاً ـ القرآن الكريم:

وهو المعجزة الأبدية الخالدة، التي تحدَّى بها العالم من إنس وجن، وقديم وحديث إلى يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وإنما كان هذا القرآن معجزة خالدة، لأن رسالة محمد ﷺ خاتمة الرسالات السماوية، فمن الضروري أن يكون هناك معجزة خالدة لتكون دليلاً على صدق محمد ﷺ ما بقي الدهر، ألا وهي القرآن الكريم.

وإنما كانت معجزات الرسل السابقين آنيَّة، لأن رسالتهم آنيَّة تنتهي بمجيء الرسول الذي يأتي من بعدهم إلى أولئك القوم، حتى جاءت رسالة محمد التي هي خاتمة الشرائع وأتمها وأكملها، ومحمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، فلا نبيَّ بعده: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ

لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وسنتكلم عن معجزة القرآن الكريم عندما نتحدث عن إعجاز القرآن، ووجوه إعجازه إن شاء الله تعالى.

ثانياً ـ انشقاق القمر:

سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يأتيهم بمعجزة تثبت صدقه فيما يدعي من أنه رسول الله إليهم، فأجرى الله على يده معجزة انشقاق القمر.

روى البخاري ومسلم: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين حين أشار إليه، فقال: «اشهدوا، اشهدوا». فقال كفَّار قريش: سحركم ابن أبي كبشة، يعنون النبي: ﷺ، فقال رجل لهم: إن كان سحرَ القمر فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحرَ الأرض كلَّها، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر هل رأوه؟ فأتوا فسألوهم فأخبروهم: أنهم رأوا مثل ذلك، فقالوا: هذا سحر مستمر، فأنزل الله قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١ ـ ٢][1].

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٣٦) ومسلم في صفات المنافقين (٢٨٠٠) (٤٣).

ثالثاً: نبع الماء من بين أصابعه ﷺ:

إن حادثة تكثير الماء قد تعدَّد وقوعها منه عليه الصلاة والسلام، فتارة تكون بوضع يده في ركوة الماء، وتارة تكون بمج الماء في البئر، أو بغرس رمح أو نحوه في إناء أو بئر، وقد حدث هذا في الحضر في المدينة، كما حدث في السفر في الحديبية وغيرها، وروى ذلك الجمع الغفير من المسلمين، كأنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وجندب بن ناجية.

قال القرطبي رحمه الله: قضية نبع الماء من بين أصابع الرسول ﷺ تكررت منه في عدة مواطن في مشاهد عظيمة، ووردت من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي.

روى البخاري عن جابر رضي الله عنه قال: عطش الناس يوم الحديبية، والنبي ﷺ بين يديه ركوة، فتوضأ، فجهش الناس نحوه، فقال: «ما بالكم؟» قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا من بين يديك، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه، كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا. قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مئة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مئة» [١].

رابعاً ـ تكثير الطعام:

ومن المعجزات التي جرت على يد سيدنا محمد عليه الصلاة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب (٣٥٧٦).

والسلام، وألحقت بما ثبت عنه قطعاً تكثير الطعام القليل، بحيث يأكل منه العدد الوفير من الناس فيكفيهم، وقد حدثَ ذلك مرَّات كثيرة منه عليه الصلاة والسلام، وروى ذلك لنا العدد الوفير عن العدد الوفير، وممن روى ذلك من الصحابة، عليّ بن أبي طالب، وأنس بن مالك، وأبو هريرة، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وأبو سعيد الخدري، وجابر بن عبد الله، وأبو أيوب الأنصاري، وسمرة بن جندب.

ومن جملة الحوادث التي نقلت في ذلك ما رواه البخاري عن أنس بن مالك قال: قال أبو طلحة لأم سُلَيم: لقد سمعت صوتَ الرسول ﷺ ضعيفاً أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟ قالت: نعم، فأخرجت أقراصاً من شعير، ثم أخرجت خماراً فلفت الخبز ببعضه، ثم دسَّته تحت يدي، ولاثتني ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ، قال: فذهبت به، فوجدته ﷺ في المسجد ومعه الناس، فقمت عليهم، فقال لي رسول الله ﷺ: «آرسلك أبو طلحة؟» فقلت: نعم، قال: «بطعام»؟ قلت: نعم، فقال ﷺ لمن معه: «قوموا»، فانطلق، وانطلقت بين أيديهم حتى جئتُ أبا طلحة فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سُلَيم قد جاء رسول الله ﷺ بالنَّاس، وليس عندنا ما نُطعمهم! فقالت: الله ورسوله أعلم، فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ، فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه، فقال رسول الله ﷺ: «هلمّي يا أم سُلَيم ما عندك؟!» فأتت بذلك الخبز فأمر رسول الله ففتّ، وعصرت أم سليم عُكَّة فأدَمَتْه، فقال رسول الله ﷺ فيه ما شاء الله أن يقول، ثم قال: «ائذن لعشرة»، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا،

ثم قال: «ائذن لعشرة»، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة»، فأذن لهم فأكلوت حتى شبعوا، ثمَّ خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأكلَ القوم كلُّهم حتى شبعوا، والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً[1].

وتكثير الطعام القليل حتى يكفي العشرات من الناس أمر خارق للعادة، شاهد على صدق نبوة محمد عليه الصلاة والسلام.

خامساً ـ حنين الجذع إليه عليه الصلاة والسلام:

روى البخاري عن أنس بن مالك: أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: كان المسجد مسقوفاً على جذوع من نخل، فكان النبيُّ ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنع له المنبر فكان عليه، فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العِشَار، حتى جاء النبيُّ ﷺ فوضعَ يدَه عليها، فسكنت[2].

سادساً: إخباره عليه الصلاة والسلام بالمغيبات ووقوعها كما أخبر:

العلم بالغيب خاص بالله سبحانه، ولا يطلع عليه بذاته إلا هو سبحانه، إلا أنه سبحانه قد يُطلع بعضاً من رسله على بعض من

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب (٣٥٧٨). و«لاثتني ببعضه»: أي: لفّتني به. والمراد: أنها لفّت بعضه على رأسه وبعضه على إبطه.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المناقب (٣٥٨٥). و«العشار»: جمع عشراء، وهي الناقة التي انتهت في حَمْلها إلى عشرة أشهر.

الغيب، فيعلم ذلك بإطلاع الله إياه على ذلك لا بذاته، قال الله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧].

ولقد أطلع الله جل جلاله رسوله محمداً على أمور من الغيب فكانت تقع كما أخبر، وجعل ذلك دليلاً على صدقه فيما يدعيه من الرسالة، وقد تواترت الأخبار بذلك عنه عليه الصلاة والسلام بما لا يدع مجالاً للشك في ذلك.

فمن ذلك إخباره بذهاب ملك كسرى وقيصر على يد المسلمين، فقد روى البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعدَه، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله»[١] وقد وقع ذلك كما أخبر.

ومن ذلك: ما أخبرَ به رسول الله ﷺ سراقة بن مالك عندما اتَّبعه في الهجرة، بأنه إن عمَّى خبرَه فسيُلبسه الله سواري كسرى. وقد لبسهما سراقة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما فتحت فارس[٢].

ومن ذلك: ما أخبر به رسول الله ﷺ من أن الحسن بن علي

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦١٨) وفي الأيمان والنذور (٦٦٣٠).
(٢) انظر الإصابة (٣ / ٦٩) وأسد الغابة (٢/ ٣٣٢) والسيرة الحلبية (٢/ ٥٩ ـ ٦٠).

رضي الله عنهما سيكون سبباً في القضاء على فتنة تقع بين المسلمين، وواسطةً لحقن دمائهم.

روى البخاري وغيره عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: أخرج النبيُّ ذات يوم الحسن، فصعد المنبر فقال: «ابني هذا سيِّد، ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين»[1] وقد حدثَ ذلك أيام معاوية عندما تنازل عن طلب الخلافة، وحقن بذلك دماء المسلمين.

ومن ذلك: ما أخرجَه البخاريُّ عن أنس رضي الله عنه قال: خطبَ رسول الله ﷺ فقال: «أخذ الراية زيد فأُصيب، ثم أخذها جعفر فأُصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأُصيب، ثم أخذها خالد بن الوليد عن غير إمرة ففتح عليه، وما يسرُّني ـ أو قال ـ ما يسرُّهم أنهم عندنا» وقال: وإن عينيه لتذرفان[2]. وكان ذلك في غزوة مؤتة، فأخبرَ الرسولُ بذلك قبل أن يأتَيه خبرهم، وقد كان رسول الله ﷺ قد أمَّر زيداً، فإن أصيب فجعفر، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة.

ومن ذلك: إخباره بأن الإسلام سيعلو، وأن رقعته ستمتد، وأن نظامه سيسود، وأن الأمنَ في ظله سينتشر.

روى البخاري عن خبَّاب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسِّد بردةً له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب (٣٦٢٩).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد (٢٧٩٨).

ألا تدعو الله لنا؟ قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصدُّه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصدُّه ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ هذا الأمر حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[1].

وروى البخاري أيضاً عن عديٍّ بن حاتم قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتى إليه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: «يا عديّ هل رأيتَ الحِيْرة؟» قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها، قال: «فإن طالت بك حياة لترينّ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوفَ بالكعبة، لا تخاف أحداً إلا الله». قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعَّار طيىء[2] قد سعَّروا البلاد؟ «ولئن طالت بك حياة لتفتحنّ كنوز كسرى» قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لتَرَيَنَّ الرجل يُخرِجُ ملء كفه من ذهب أو فضة، يطلب من يقبله منه، فلا يجد أحداً يقبله منه، وليلقينّ الله أحدكم يوم يلقاه، وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فيقولن: ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أعطك مالاً وأفضّل عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم» قال

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦١٢).

(٢) دُعَّار: جمع: داعر، وهو الرجل الخبيث المفسد، وأراد بـ«دعار طيىء»: قطاع الطريق. (النهاية ٢/ ١١٩).

عديّ: سمعت النبي ﷺ يقول: «اتَّقُوا النَّارَ ولو بشقّ تمرة، فمن لم يجد شقَّ تمرة فبكلمة طيبة» قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترونّ ما قال النبيُّ أبو القاسم ﷺ يخرج ملء كفه...»[1].

هذه جملة يسيرة مما أخبر به، ووقع كما أخبر، وكل ذلك دليل على صدقه في دعوى الرسالة.

سابعاً ـ الإسراء والمعراج:

الإسراء: هو الذهاب ليلاً برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

والمعراج: هو الصعود برسول الله ﷺ إلى السموات العلا فما فوقها. وقد ثبت الإسراء بالآية القرآنية في أول سورة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وقد ثبت المعراج بالأحاديث التي بلغت مبلغ التواتر مما تراه في البخاري ومسلم وغيرهما من كتب الحديث، وأشار القرآن الكريم إلى ذلك في سورة النجم.

وذهب جماهير السلف والخلف إلى أن الإسراء والمعرج كانا بجسده عليه الصلاة والسلام وروحه، واستدلُّوا على ذلك:

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٩٥).

١ ـ بقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾. ووجه الاستدلال: أن الظاهر في قوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ أنه بروحه وجسده، ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى المجاز إلا عند تعذر الحقيقة، وليس في الإسراء بجسده يقظة استحالة، لأن الأمر منوط بقدرة الله تعالى، ولو كان هذا الأمر في المنام لقال: «سبحان الذي أسرى بروح عبده».

٢ ـ بقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] فهذا دليل على أن المعراج كان بالروح والجسد يقظة لا مناماً.

٣ ـ أن الإسراء والمعراج لو كانا في المنام، لما كان فيه آية ولا معجزة، ولما استبعده الكفار ولا كذّبوه، ولا ارتدَّ الضعفاء ممن أسلم، ولما افتتنوا في ذلك، لأن مثل هذا في المنام لا ينكر، إذ إنه قد يقع هذا لبعض الناس.

هذا ولقد كانت تذهب السيدة عائشة إلى أن ذلك كان في المنام وتقول: ما فقدتُ جسدَ رسول الله ﷺ.

وما قالته عائشة رضي الله عنها لا ينهض دليلاً على ما ذهبَ إليه الجمهور، لأن حادثة الإسراء والمعراج كانت في مكة قبل الهجرة، والرسول عليه الصلاة والسلام دخل بعائشة في المدينة المنورة بعد الهجرة، فما نفته هو غير ما أثبته الجمهور [١].

---

(١) انظر فتح الباري (٧/ ١٣٩ فما بعدها).

طرق ثبوت المعجزة:

بعد أن تحدَّثنا عن معجزات الرسل بوجه عام، وعن معجزات رسولنا عليه الصلاة والسلام بوجه خاص، لسائل أن يسأل: ما الطرق التي تثبت بها المعجزة حتى يحصلَ التصديق بوقوعها؟

اعلم: أن هناك معجزات أخذ الناس يتناقلونها فيما بينهم، من غير نظر إلى الطريق التي وصلت إلينا هذه المعجزة بها، حتى اختلط صحيح المعجزات بباطلها، وصادقها بكاذبها، ومما جعلَ بعض الناس يقدمون على إنكار المعجزات من حيث هي، نظراً لما وقع فيها من الخلط والتدجيل والكذب.

والحق: أن هناك معجزات ثابتة لا يسعُ المؤمن إنكارها، وإليك بيان الطرق التي تثبت بها المعجزة:

تثبت المعجزة إما بالمشاهدة أو الخبر الصادق.

أولاً ـ أما ثبوتها بالمشاهدة، فهو خاص بمن عاصر المعجزة وحدثت أمامه، فمن شاهد انشقاق القمر بأُمِّ عينه، وحنين الجذع، ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ، علم علماً لاشكَّ فيه أن هذا قد وقع فعلاً.

ثانياً ـ ثبوتها بالخبر الصادق: المعجزات التي أتى بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والتي أتى بها نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ما عدا القرآن الكريم، فإنما طريق ثبوتها الخبر الصادق، لأنها كانت معجزات آنيَّة، حدثت وانقضت ولا سبيل لإثباتها إلا الخبر الصادق.

والخبر الصادق قسمان:

أحدهما: الخبر المتواتر، وقد مرّ تعريفه، وهذا يكون في الخبر الوارد في القرآن الكريم، والحديث المتواتر الذي ثبت نقله عن الرسول عليه الصلاة والسلام.

ولقد تحدَّث القرآن الكريم عن معجزات: كانفلاق البحر عندما ضربه موسى بعصاه، وانقلاب العصا حيَّة، وخروج ناقة صالح من الصخرة، مما تحدَّثنا عنه سابقاً، وسقنا أدلته من القرآن الكريم، وكذلك تحدَّثت السُّنَّة المطهَّرة المتواترة عن معجزات لنبينا عليه الصلاة والسلام، كتكثير الطعام، ونبع الماء من بين أصابعه عليه الصلاة والسلام. إن قلنا إن هذا متواتر[1].

ثانيهما: الخبر الصادق الآتي عن طريق لم يصل إلى حدّ التواتر، وهو ما يُسمَّى بخبر الآحاد. وذلك كحنين الجذع وما أشبه ذلك.

وهذا النوع من المعجزات يُقبل، ولكن في درجة أدنى من القسم الأول.

و ـ حكم الإيمان بالمعجزات:

أولاً: الإيمان بثبوت المعجزات واجب، ومنكر المعجزات

---

(١) وهو المشهور الذي رواه عن الرسول ﷺ عدد من الصحابة لم يبلغ حدَّ التواتر، ثم يرويه عن الصحابة جمع من التابعين يتوافر فيهم شرط التواتر، ثم يرويه عنهم جمع مثلهم، وهكذا... ويجعله الأحناف في الاحتجاج كالمتواتر. انظر: المنهل الراوي من تقريب النواوي، تحقيق الدكتور مصطفى الخن (ص ٤٠).

كافر، لأن المعجزة ثابتة بالأدلة القطعية، وحسبك أن القرآن تحدَّث عن ذلك.

ثانياً: الإيمان بمعجزة بعينها إن كانت ثابتة بدليل قطعي كالقرآن الكريم والسُّنَّة المتواترة فهو واجب، وإن كانت ثابتة بدليل ظني كأحاديث الآحاد فالإيمان بها واجب أيضاً، إلا أنه لا يُكفَّر جاحدها بل يُفَسَّق إن كان الحديث مشهوراً، ويُعزَّر إن كان الحديث صحيحاً.

وفي ذلك يقول الإمام الباجوري: «واعلم أن ما كان منها معلوماً بالقطع منقولاً بالتواتر، كالقرآن فلا شك في كفر منكره، ومالم يكن منها كذلك فإن اشتهر كنبع الماء من بين أصابعه ﷺ، فُسِّق منكره، وإن لم يشتهر وثبت بطريق صحيح أو حسن عُزِّرَ منكره»[1].

ز ـ شروط المعجزة:

وليكون الأمر الخارق للعادة معجزة، لابد من أن تتحقق الأمور التالية:

الأول: أن يتحقَّق كونها من الأمور الخارقة للمعتاد المألوف في قوانين الكون وأنظمته، وأن من تجري على يده هذه المعجزة، لا يتمكن بصفته البشرية بالغاً ما بلغت به القدرة الجسمية أو الروحانية، لا يتمكن من فعلها أو القيام بمثلها بحسب المعتاد المألوف في قوانين الكون وأنظمته، لولا أن الخالق العظيم أجراها

---

(١) تحفة المريد، للباجوري (ص ٨١).

على يديه، تأييداً له في أنه رسول صادق فيما ينقل عن ربه.

الثاني: التحدي، وذلك أن يتحدَّى بها الرسول من تناولتهم دعوته، وشملتهم رسالته، وذلك بأن يطلب منهم أن يأتوا بمثله، مع توفر الوسائل لديهم، وإزالة الموانع، ووجود المقتضي.

الثالث: أن تكون على يد من يدعي النبوة أو الرسالة، وأما إذا ظهرت على يد عبد الله صالح من غير دعوى النبوة فهي «الكرامة». وأما إذا ظهرت على يد واحد من عوامّ الناس تخليصاً له من شدة فهي «المعونة».

وأما إذا ظهرت على يد فاسق خديعة له ومكراً به فهي «الاستدراج».

وأما إذا ظهرت على يده تكذيباً له فهي «الإهانة» كما قيل: إنه قد وقع لمسيلمة الكذاب من أنه تفل في عين أعور لتبرأ، فعميت الصحيحة.

الرابع: أن تكون مقرونة بدعوى النبوة، والرسالة، حقيقة أو حكماً، بأن تأخَّرت بزمن يسير، وأما إذا وقعت قبل النبوة أو الرسالة تأسيساً لها فهي «الإرهاص» كما وقع من تظليل الغمام له عليه الصلاة والسلام قبل البعثة.

الخامس: أن تكون موافقة للدعوى، وأما إذا كانت مخالفة لها فليست بالمعجزة، وذلك كأن يقول: الدليل على صدقي في انفلاق البحر، فانفلق الجبل.

السادس: ألا تكون مكذبة له، فخرج ما إذا قال: آية صدقي نطق هذا الجماد، فنطق الجماد قائلاً بأن هذا المدعي كذَّاب.

السابع: أن تتعذر معارضته، فخرج بذلك السحر والشعبذة وما إلى ذلك[1]، وهذا ما يعبر به تارة بقولهم: أن تعجز الأمة وجميع البشر عن المعارضة بمثلها على الصورة الخارقة.

ح ـ موقف العلم من المعجزة:

لقد مرّ بنا في مبحث قانون السببية: أن الرابط بين الأسباب والمسببات ليست رابطة عقلية، يُحيل العقل تخلفها، بل إن الرابطة رابطة عادية، تكرر فيها وجود المسبب عند وجود السبب، فنظم العقل قاعدة هي: أن المسببات توجد عندما توجد أسبابها.

ولقد دعا العقل إلى هذا دوام الإلف لذلك، وعدم التخلُّف، فالشمس كل يوم تطلع من المشرق، وتفيض على العالم النور، فأخذ العلم قانوناً يقول فيه: إن الشمس باستمرار تطلع من المشرق، ولكن لو محَّصْنا هذا الكلام تمحيصاً علميّاً دقيقاً، لرأينا أن هذا الحكم ليس بقانون عقلي لا يصح مخالفته، بل الذي دعانا إلى ذلك هو الإلف والاستمرار وعدم التخلُّف.

هذا ولقد مرّ بك: أن المعجزة هي أمر خارق للعادة يُجريه الله على يد أحد أنبيائه، فالمعجزة ليست أمراً خارقاً للأمور العقلية، كما إنها ليست من صنع الإنسان الرسول، بل هي من صنع الله سبحانه وتعالى.

والله الذي آمنا بوجوده وقدرته، وأنه خالق لكل شيء، وأنه خالق الأسباب والمسببات، وهو وحده الذي ربط بينها، وأوجد

---

(١) انظر تحفة المريد، للباجوري (ص ٧٨).

المسببات عند وجود أسبابها، فالإله الذي هذا شأنه قادر أن يفك الأسباب عن مسبباتها، فيوجد الأسباب ولا تترتب عليها مسبباتها، ويوجد المسببات من غير أن تسبقها أسبابها. وإلا لكان لنظام السببية قدرة حاكمة على الإله، فلا يمكن له أن يخالفها بحال. فالترابط إذاً ترابط عادي لا عقلي، وفي هذا يقول الفيلسوف مالبرانش:

إنما نرى نحن توالي الحادثات، ولا نرى الرابطة التي تربط أحد الطرفين بالآخر، فلماذا تبقى هذه الرابطة مستخفية عنا؟ لكونها شيئاً إلهياً لا يُوجد مثله في المخلوقات [1].

وقال أميل سينيه:

إن العلم مع كونه ترقَّى كثيراً في مطالعة الطبيعة، لم يثبت في وقت من الأوقات: أن القوانين الطبيعية قوانين ضرورية هندسية يعني: أنها ليست مستحيلة التغيُّر [2].

وقال لينبتز: ليست القوانين الطبيعية عندية محضة كما ادعى «بايل» ولا ضرورية بالضرورة الهندسية.

وقال الرياضي الشهير «هانري بووانكاريه» في كتابه: «الفرضية والعلم»: القانون التجريبي عرضة دائماً للتصحيح فهو لا يزال يتوقع تبديله بقانون أقوى منه.

وقال استوارت ميل: إن الله الذي أوجد سلسلة الأسباب

---

(١) موقف العقل والعلم لمصطفى صبري (٤/ ٣٤).

(٢) المصدر السابق.

والعلل قادر على تعطيل عمل هذه السلسلة، فلا تكون المعجزة خارقة للعادة بهذا الاعتبار، ولا يختل قانون السببية، فسبب المعجزة إرادة الله.

وكان «استوارت ميل» هذا لا يرى الوجوب والضرورة في أي مسألة تثبت بالتجربة مهما كثر عدد التجارب الواقعة في أزمنة الماضي، فهي ليست بشيء إزاء عدد الحالات غير المتناهية التي يحتفظ بها المستقبل احتياطاً.

وقال هيوم: إذا أمعنا في النظر فنحن لا نرى القوانين والأسباب، وإنما نرى الحادثات والنتائج، فنقول بالعِلِّيَّة والضرورة من غير أن نراهما [1].

هذا من الناحية العلمية والعقلية، وأما من ناحية الواقع فإننا قد علمنا: أن هناك رسلاً جاؤوا، وأتوا بمعجزات متنوعة كلها خارقة للعادة، وما تعارفه الناس من بناء المسببات على الأسباب، وحاول الناس أن يقوموا بشيء منها فأخفقوا، فلا مجال للعلم والعقل في إنكار المعجزة ما دامت قد ثبت وقوعها بالأدلة المتواترة، وقد قالوا في القاعدة المشهورة المنطقية: «الوقوع أقوى أدلة الإمكان» وقد أصبحَ وقوع المعجزة واضحاً وضوحَ الشمس.

وكيف يصحُّ في الأذهان شيء   إذا احتاجَ النَّهارُ إلى دليل؟!



---

(١) هذه النصوص من المصدر السابق (٤/ ٣٥).

٥ ـ نبوة محمد ﷺ ومكانتها من النبوات السابقة

أ ـ صفات الرسالة المحمدية ومميزاتها:

إذا نظرنا إلى نبوة سيدنا محمد ورسالته وجدناها تتصف بصفات تتميز بها عن غيرها من الرسالات السماوية، وتكون بها في أعلى مستوى من الرسالات التي أنزلها الله على رسله، وسنبرزُ فيما يلي أبرز هذه الصفات:

أولاً ـ العموم:

إذا نظرنا إلى الآيات التي تتحدث عن رسالات الرسل، وجدنا أن هذه الرسالات مقصورة على الأمة التي أرسل فيها الرسول، لا تتعدَّاها إلى سواها من الأمم، حتى إنه قد وجد في عصر واحد رسولان، وذلك كرسالة إبراهيم ولوط عليهما السلام، فكلٌّ منهما قد أرسل إلى قوم غير القوم الذين أُرسل إليهم الآخر، وفي بلد غير البلد الذي أُرسل فيه الآخر.

وفي بيان أن كلَّ رسول أُرسل إلى قومه خاصَّة، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٩] وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ [المائدة: ٢٠] وقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] وقال جل وعزّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا

﴿نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي تتحدث عن ذلك.

أما رسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فقد كانت للناس جميعاً أسودهم، وأبيضهم، عربيهم، وعجميهم، في جميع جوانب الأرض، سواء من وجد في عصره، ومن أتى بعده إلى يوم القيامة.

ولقد دلَّت وتضافرت على ذلك الآيات القرآنية، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨] وقال جلّ جلاله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقال جلّ وعزّ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

قال البيضاوي في تفسير هذه الآية: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ «أي: بالقرآن، واكتفى بذكر الإنذار عن ذكر البشارة، ومن بلغ: عطف على ضمير المخاطبين، أي: لأنذركم به يا أهل مكة، وسائر من بلغه من الأسود والأحمر، أو: من الثقلين، أو: لأنذركم به أيها الموجودون، ومن بلغه إلى يوم القيامة، وهو دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله ومن بعدهم، وأنه لا يؤاخذ بها من لم يبلغه».

وقال تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ٧٩] وقال جلَّت قدرته: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ

ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢]. وقال عزّ من قائل: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وقال ﷺ في الحديث الصحيح: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، ولم تحلّ لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»[١] وقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفس محمد بيده! لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار»[٢].

هذا وكون سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام مرسلاً إلى الناس كافة هو مما علم من الدِّين بالضرورة، فيكفر من لم يؤمن بذلك.

وقد ذهبت فرقة من اليهود ـ وهم العيسوية ـ إلى أن بعثة محمد ﷺ خاصَّة بالعرب، وكلامهم هذا ظاهر البطلان، إذ إنهم لما صدَّقوه بالرسالة لزمهم تصديقه في كل ما يخبر به، وقد أخبر رسول الله ﷺ: أنه رسول إلى الناس عامة. والرسول لا يكذب،

---

(١) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥) ومسلم في المساجد (٥٢١).
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٥٣).

فلزم تصديقه حتماً، وقد نُسب هذا القول إلى فرقة من النصارى[1].

هذا وقد قام الرسول عليه الصلاة والسلام بما كُلِّف به من إبلاغ رسالته للناس في عصره، فأرسل رسله، وبعثَ كتبه إلى الأقطار، فأرسل إلى كسرى، وقيصر، والنجاشي، والمقوقس وسائر ملوك الأطراف يدعوهم إلى الإسلام.

ثم كلَّف أتباعه عليه الصلاة والسلام أن يحملوا رسالته من بعده إلى أهل الأرض، فقاموا رضوان الله عليهم بهذا الأمر خير قيام.

وكما أنه عليه الصلاة والسلام قد أُرسل إلى الإنس، أُرسل إلى الجن أيضاً، وقد آمن به عليه الصلاة والسلام فريق من الجن في حياته، وقد التقى عليه الصلاة والسلام بفئة منهم. قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١ ـ ٢] وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٢].

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١٧٠).

روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجنّ وما رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث، فاضْرِبوا مشارقَ الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فمرَّ النفر الذين أخذوا نحو تهامة، وهو بنخل، عامدينَ إلى سوق عكاظ، وهو يُصليِّ بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآنَ استمعوا له، وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا! إنا سمعنا قرآناً عجباً يَهدي إلى الرشد فآمنَّا به ولن نشرك بربنا أحداً، فأنزل الله عزّ وجلّ على نبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[1] [الجن: ١ وما بعدها].

وروى مسلم في صحيحه أيضاً عن عامر قال: سألت علقمة: هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن قال: فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا:

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة (٤٤٩) (١٤٩).

استطير، أو اغتيل، قال: فبتنا بشرِّ ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاءٍ من قبل حراء، قال: فقلنا: يا رسول الله! فقدناك، فطلبناك، فلم نجدك، فبتنا بشرِّ ليلة بات بها قوم، فقال: «أتاني داعي الجن، فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن» قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم، وآثار نيرانهم، وسألوه الزادَ، فقال: «لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة علف لدوابكم»[1].

ثانياً ـ الشمول:

وإذا نظرنا إلى رسالة سيدنا محمد ﷺ من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة، وجدناها شاملة لما يحتاج إليه الإنسان من شؤون الدنيا والآخرة على وجه يكفل المصلحة للناس جميعاً، ويؤمن لهم السعادة الحقيقية إذا هم التزموا بها، وعملوا على تحقيقها، كما أن السير على خلافها يُحقِّق للبشرية الشقاء، والبؤس، والاضطراب، قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦].

وإليك فيما يلي أبرز الأمور التي تضمَّنها القرآن الكريم والسنة الشريفة:

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٥٠) (١٥٠).

أ ـ الأحكام الاعتقادية:

فقد بيَّنت الرسالة المحمدية الأحكام الاعتقادية أوضح بيان، فقد تحدَّثت عما يجب على المكلَّف الاعتقاد به، والإيمان بموجبه، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وقال رسول الله ﷺ: «الإيمان أن تؤمنَ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره»[١].

وقد فصَّل القرآن الكريم الأحكام الاعتقادية، وكذلك السنة الشريفة، مما نجده مفصلاً في هذا الكتاب.

٢ ـ الأحكام الخلقية:

ولقد انطوت الرسالة المحمدية على منهج أخلاقي متكامل، يسمو بالإنسان إلى أرقى مثال من الفضيلة والاستقامة، وكانت أحكام هذا المنهج أحكاماً تفصيلية، فقد أوضحت ما يجب على المكلَّف أن يتحلَّى به من الفضائل، وما يجب أن يتخلَّى عنه من الرذائل.

اقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٨).

يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨]. وتأمل في الآيات التالية التي جاءت في سورة الإسراء، قال الله تعالى:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ

رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٣٩].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١١ ـ ١٣].

وقال سبحانه: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ٩ ـ ١١].

هذا وليس باستطاعتنا في هذه العجالة أن نحصي ونستقصي الآيات الكريمة التي تحدَّثت عن النظام الأخلاقي المتكامل في الإسلام، والتي تناولت كل الجوانب الأخلاقية، سواء أكان ذلك في نطاق الفرد أو الأسرة أو المجتمع، وحسبك في استقصاء ذلك أن ترجع إلى كتاب «دستور الأخلاق في القرآن الكريم» من تأليف الدكتور محمد عبد الله دراز لتجد فيه تحقيق ما ذكرنا لك.

هذا في القرآن الكريم، وأما السنة الشريفة فقد طفحت بالأحاديث التي تحثُّ الإنسان على التمسُّك بالأخلاق الفاضلة والشيم الكريمة.

انظر إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «الراحمون يَرْحَمُهم الرحمن تبارك وتعالى: ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء»[1] وقوله: «ليس المؤمن بالطعّان، ولا اللعّان، ولا الفاحش، ولا البذيء»[2] وقوله: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[3]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، بحسب امرىء من الشرِّ أن يحقرَ أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه، وماله، وعرضه، إن الله لا ينظرُ إلى صوركم وأجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، التقوى هاهنا، التقوى هاهنا، التقوى هاهنا ـ ويُشير إلى صدره ـ ألا ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عبادَ الله إخواناً، ولايحلّ لمسلم أن يهجرَ أخاه فوق ثلاث»[4] وقال: «من ظلم معاهداً، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة»[5].

هذا قُلٌّ من جِلٍّ من الأحاديث التي تتحدَّث عن الأخلاق الإسلامية، وقد ألفت كتب كثيرة في ذلك، ولك أن ترجع إلى

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٤١) والترمذي في البر (١٩٢٥).
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤١٦) وابن حبان (١٩٢) الإحسان.
(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (١٠) وأبو داود في الجهاد (٢٤٨١) والنسائي في الإيمان (٨/ ١٠٥).
(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٠) (٥٨).
(٥) أخرجه أبو داود في الخراج والإمارة (٣٠٥٢).

كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي لترى العجبَ العجاب من الأحاديث التي وردت في ذلك.

هذا ولابدّ من الإشارة هنا إلى: أن الأخلاق في الإسلام لا تقتصر على معاملة الإنسان للإنسان، بل تتعدَّى ذلك إلى معاملة الإنسان للحيوان، فلقد قال رسول الله ﷺ: «دخلت النار امرأةٌ في هرَّة حبستها، لا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكلُ من خَشَاش الأرض»[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: «بينا رجل يمشي فاشتدَّ عليه العطش، فنزل بئراً، فشربَ منها، ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهثُ، يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفَّه، ثم أمسكه بفيه، ثم رقي، فسقى الكلب، فشكرَ الله له، فغفر له» قالوا: يا رسول الله! وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: «في كلِّ كبدٍ رطبة أجرٌ»[2].

وفي البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه: أنه دخل دار الحكم بن أيوب فإذا قوم قد نصبوا دجاجةً يرمونها فقال: نهى رسول الله ﷺ أن تصبّر البهائم. ومعنى أن تصبر: أن تحبس لترمى حتى تموت[3].

وفي البخاري ومسلم أيضاً عن ابن عمر: «أن النبيَّ ﷺ لعنَ

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٣١٨) ومسلم في التوبة (٢٦١٩).
(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٠٩) ومسلم في السلام (٢٢٤٤).
(٣) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٥١٣) ومسلم في الصيد (١٩٥٦).

من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً»[1]» والغرض هو المنصوب للرمي.

وعند أبي داود عن جابر: أن الرسول عليه الصلاة والسلام مُرّ عليه بحمار قد وُسم في وجهه فقال: «أما بلغكم أني لعنت من وسمَ البهيمة في وجهها، أو ضربها في وجهها»[2].

هذا ولقد بلغ من تقدير الإسلام للأخلاق، والعناية بها أن جعل من أجلّ الأهداف التي شرعت العبادات؛ لتحقيقها تربية الإنسان تربية أخلاقية كريمة.

فالصلاة: وسيلة لتطهير النفس حسياً ومعنوياً، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وقال جلّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٣].

والزكاة: تجسيد عملي للتعاون، وتطهير النفس من رذيلة الشح والأخلاق الذميمة، قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ

---

(١) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٥١٤) ومسلم في الصيد (١٩٥٨).
(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥٦٤).

وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠] وقال جلت حكمته: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

والصوم: خير وسيلة للاستقامة، وضبط النفس، وقوة الإرادة، وتجنب الفواحش، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ لم يدعْ قول الزور والعمل به فليس لله حاجةٌ في أن يدعَ طعامَه وشرابَه»[١] وقال عليه الصلاة والسلام: «الصيام جنَّة فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتَله أو شاتَمه فليقل: إني صائم، إني صائم، والذي نفسي بيده لخُلوف فم الصائم أطيبُ عند الله من ريح المسك، يترك طعامَه وشرابَه من أجلي، الصيام لي وأنا أجزي به، والحسنة بعشر أمثالها»[٢].

والحج: ميدان رحب لتدريب النفس على جميل الأخلاق، قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧] وقال عليه الصلاة والسلام: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٠٣).

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٨٩٤).

رجع كيوم ولدته أمه»[1].

٣ ـ الأحكام العملية:

الأحكام العملية هي التي تتعلَّق بما يصدرُ عن المكلَّف من أقوال، وأفعال، وعقود، وتصرُّفات تُوصف بالصحة أو الفساد والبطلان، وهذه الأحكام هي التي تُشكِّل فقهَ القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة.

وهذه الأحكام العملية ـ حسب اصطلاح الأصوليين والفقهاء ـ تنقسم إلى قسمين أساسيين:

القسم الأول: أحكام العبادات، وهي الأحكام التي تتعلَّق بما شرع من العبادات الخاصة التي تنظم علاقة الإنسان بربِّه تبارك وتعالى، كأحكام الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والنذر، واليمين، وما شاكل ذلك.

القسم الثاني: أحكام المعاملات، وهي الأحكام التي تتعلَّق بما يصدر عن المكلَّف من عقود وتصرفات، وما يأتيه من جنايات، وما يُوقع عليه من عقوبات، وغير ذلك من الأحكام التي تهدف إلى تنظيم علاقات المكلفين، ومعاملة بعضهم بعضاً، سواء أكان ذلك بين الأفراد، أم بين الجماعات، أم بين الأمم.

وهذا القسم من الأحكام يتنوَّع حسب الاصطلاحات الحقوقية الحديثة إلى أنواع عدَّة، حسب ما يتعلَّق به من تصرفات، وما تهدف إليه من تنظيم ومصلحة، ومن هذه الأنواع:

---

(١) أخرجه البخاري في المحصر (١٨١٩).

أ ـ نظام الأسرة: وهو ما يُسمَّى بالأحوال الشخصية، وهذا النظام يتناول الأسرة من بدء تكوينها إلى النهاية، وهذه الأحكام كثيرة مفصَّلة في كُلٍّ من القرآن والسنة، وذلك كمشروعية المهر، ومشروعية التحكيم، ومشروعية الطلاق، ووجوب النفقة، ومن تحلّ من النساء ومن تحرم، وأحكام الإرث، وحفظ أموال اليتامى، وآداب دخول البيت، وما أشبه ذلك من الأحكام.

ب ـ الأحكام المدنية: وهي الأحكام التي تتعلَّق بمعاملات الأفراد ومبادلاتهم، ويقصد بها تنظيم علاقاتهم المالية، وحفظ ممتلكاتهم، وصيانة كل حق لصاحبه، ومن هذه المعاملات: البيع، والإجارة، والرهن، والكفالة، والشركة، وما يترتب عليها من حقوق، وما ينشأ عنها من التزامات.

جـ ـ الأحكام الجنائية: وهي الأحكام التي تتعلَّق بما يصدر عن المكلف من جرائم وما يستحقه عليها من عقوبات، وذلك كعقوبة القتل والسرقة والزنى والقذف وقطع الطريق وما أشبه ذلك.

د ـ الأحكام الدولية: وهي الأحكام التي تتعلَّق بتنظيم معاملة المسلمين لغيرهم، سواء أكان ذلك داخل الدولة الإسلامية أم خارجها، وذلك كالصلح، والهدنة، والقتال، ومعاملة الأسرى، وما أشبه ذلك.

هـ ـ الأحكام الاقتصادية والمالية: وهي الأحكام التي تتعلَّق بتنظيم الموارد والمصارف في الدولة، ويقصد بها تنظيم العلاقات المالية بين الدولة والأفراد، كجباية الأموال، وكيفية توزيعها.

و ـ أحكام المرافعات: وهي الأحكام التي يقصد بها تنظيم الإجراءات القضائية لتحقيق العدل بين الناس، وذلك كالشهادة واليمين، وعدالة الشهود، وما أشبه ذلك.

ز ـ الأحكام الدستورية: وهي الأحكام التي تتعلَّق بنظام الحكم وأصوله، ويقصد بها تحديد علاقة الحاكم بالمحكوم، وواجب كل منهما نحو الآخر، وطريقة اختيار الحاكم، وما أشبه ذلك.

ح ـ الأحكام العسكرية: وهي الأحكام التي تنظم سير القتال، وتبين ما يجب على المكلَّف التزامه في ميادين المعارك.

إن كل ما ذكرناه لك منصوص عليه في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ومن خلال هذا العرض السريع والموجز، تدرك: أن رسالة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام كانت شاملة لكل ما يحتاج إليه الإنسان فرداً ومجتمعاً، في كل جانب من الجوانب الفكرية، والعبادية، والمالية، وغير ذلك، مما لا تراه مستوفى في أية رسالة سماوية غير الإسلام.

ثالثاً ـ الرسالة المحمدية خاتمة الرسالات السماوية:

إن محمداً عليه الصلاة والسلام هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وإن رسالته خاتمة الرسالات السماوية، فلا رسول بعده، ولا شريعة سماوية تأتي من بعده. والاعتقاد بذلك أصل من أصول الدين، يكفر منكره، ويخرج عن دائرة الإسلام جاحده.

وقد نصَّ القرآن الكريم على ذلك، وكذلك السنة الصحيحة،

وأجمع على ذلك المسلمون سلفاً وخلفاً.

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وقال عليه الصلاة والسلام: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاويته، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[١].

وجاء في صحيح البخاري: أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك، واستخلف علياً، فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء؟ قال: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه ليس نبيّ بعدي»[٢].

هذا ولقائل أن يقول: إنه قد ثبت بالأدلة التي بلغت مبلغ التواتر: أن سيدنا عيسى عليه السلام سوف ينزل إلى الأرض، ونزوله من أمارات الساعة، وعيسى نبيّ ورسول، فقد ثبت: أنه يأتي نبيّ بعد محمد ﷺ.

والجواب على هذا: أن سيدنا عيسى لا ينزل بوصفه نبياً حاملاً لرسالة جديدة، بل ينزل مصدقاً لمحمد عليه الصلاة والسلام، ومؤيداً لشريعته وحاكماً بها، كما قد ورد في ذلك أحاديث.

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٣٤) ومسلم في كتاب الفضائل (٢٢٨٦) (٢٢).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤١٦).

رابعاً ـ رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ناسخة لكل الشرائع السابقة

الرسالات السماوية تتضمن جانبين:

أحدهما: الأمور الاعتقادية: وهذه الأمور بما أنها حقائق ثابتة لا تتغير، فلا يمكن أن يطرأ عليها نسخ أو تبديل أو تغيير، فالإيمان الذي نادى به إبراهيم هو الذي نادى به موسى وعيسى، ومحمد، وجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام.

الثاني: الأمور التشريعية التي تتعلَّق بتصرفات الإنسان من عبادة، ومعاملة، فهذه عرضة للتغيير والتبديل، لأن مصالح العباد قد تغيرت بتغير الأحوال والأزمان، وهذا يقتضي تغير الأحكام تبعاً لتغير المصالح.

ومن هنا كانت تنزل رسالات من السماء فيها أحكام تشريعية تخالف أحكاماً سابقة، ذكرت في رسالة سابقة، نظراً إلى حاجة الناس إلى مثل هذه التشريعات الجديدة، وهذا هو النسخ، إذ النسخ: بيان انتهاء حكم شرعي بدليل شرعي آخر، أو رفع حكم شرعي بدليل شرعي آخر، ففي شريعة آدم عليه السلام كان يحلّ للرجل أن يتزوج بأخته التي لم تلد معه في بطن واحد، وذلك نظراً لحاجة البشرية إلى ذلك، ولولا هذا لانقرضت البشرية من لدن آدم، ولمَّا انتشرت البشرية نزلت شريعة تحرم الزواج من الأخوات، لكن كانت تبيح شيئاً آخر مما جاء الإسلام بتحريمه. وفي بعض التشريعات السماوية تحريم تعدد الزوجات نظراً لقلة النساء وكثرة الرجال، وفي بعضها على العكس من ذلك ففيها تعدد

الزوجات، نظراً لقلة الرجال وكثرة النساء.

واستمرَّ الأمر على ذلك حتى جاء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فكان خاتم النبيين، وكانت رسالته خاتمة الرسالات، وكانت أيضاً ناسخة لجميع الشرائع قبله، وقد أجمع المسلمون على ذلك، ولم يقع بينهم خلاف في هذا، إلا أن علماء المسلمين قد بحثوا في مسألة: وهي ما إذا قصَّ علينا القرآن الكريم أو السنة الصحيحة من أحكام الشرائع قبلنا، ولكن لم يرد في شرعنا ما يدل على أنه مكتوب علينا، أو منسوخ في حقنا، فهل يعدّ هذا شرعاً لنا، ويلزمنا العمل به؟

ذهب الحنفية، والمالكية في هذا فقط إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا، وأنه حجة يلزمنا العمل بها.

وذهب الشافعية، وهو قولٌ لأحمد، إلى أن شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا، بل على علماء المسلمين أن يجتهدوا في أمثال هذه القضايا. ولكلّ من الاتجاهين أدلة استدلَّ بها، ومكان البحث في هذه المسألة، ومالها من أدلة، وما عليها هو «علم أصول الفقه» فليبحث في هذه المسألة هناك.

والدليل بعد إجماع المسلمين على أن شريعة محمد عليه الصلاة والسلام ناسخة قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وكفى دليلاً على أن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ناسخة للشرائع قبلها: أن الله سبحانه وتعالى أخذ العهد على جميع الأنبياء: إن أدركوا زمان رسالة محمد أن يتبعوه، وينصروه، ويؤمنوا

برسالته، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١ ـ ٨٢].

ب ـ دلائل نبوة محمد عليه الصلاة والسلام:

هناك أدلة كثيرة على نبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ورسالته، نذكر أهمها فيما يلي:

أولاً ـ المعجزات وأعظمها القرآن الكريم

١ ـ لقد ذكرنا فيما مضى: أن المعجزة هي أمر خارق للعادة يجريه الله على يد واحد من رسله، وهي قائمة مقام: صدق عبدي فيما يبلغ عني. وذكرنا شروط الأمر الخارق ليكون معجزة، وأن أبرز هذه الشروط: التحدِّي.

وذكرنا أيضاً: أن الله جلَّت قدرته قد أيَّد رسوله محمداً عليه الصلاة والسلام بمعجزات كثيرة مادية ومعنوية، وأن أبرز معجزة وأعظمها هي المعجزة الخالدة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، ألا وهي «القرآن الكريم».

٢ ـ القرآن الكريم وتحدّي العالم أن يأتوا بمثله

سأل العرب محمداً عليه الصلاة السلام أن يأتيهم بآية تبرهن على صدق دعواه في رسالته، فأخبرهم الله جل جلاله بأن القرآن الكريم الذي ينزل على محمد هو أعظم دليل وأقوى برهان على

صدقه فيما يدَّعي، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٠ ـ ٥١].

ولكن الكافرين ظلُّوا في عنادهم، وجحودهم، وإصرارهم، وأنكروا أن يكون في شيء من آي القرآن ما يدلُّ على صدق محمد ﷺ في دعواه، وقالوا: ﴿ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: ٣١].

وحينئذ تحدَّاهم الله سبحانه ـ كما تحدّى البشرية جمعاء ـ وطلب منهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فعجزوا عن ذلك، وسجَّل القرآن الكريم عجزَهم هذا فقال سبحانه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

ثم تحدَّاهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات فعجزوا، وقال الله سبحانه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود: ١٣ ـ ١٤].

ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله فعجزوا أيضاً، قال الله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣] وقال عزّ وجل: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن

دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس: ٣٨ ـ ٣٩].

وقد كان من مقتضى بلاغتهم المعروفة، وقولهم: لو نشاء لقلنا مثل هذا، وما يعتلج في صدورهم من الحقد والكراهية لهذا الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام، وما كانوا يقومون به من بحث دائب للوقوف على وسيلة ما لإفساد أمره عليه، ومنع دعوته من السير في طريق النجاح، كان من مقتضى ذلك كله أن ينهضوا لمعارضته ومجاراته بفصول من كلامهم البليغ، على نحو ما كانوا يفعلونه في أسواقهم الأدبية من المساجلة والمقارضة في فنون الكلام، ليقطعوا بذلك خطره عنهم، وليعلنوا بذلك لمن قد ينخدع بهذا الذي يأتيهم به، أنهم قد جاؤوا بمثله، أو خير منه.

ولكنهم ـ رغم كل هذه الدواعي والحوافز ـ لم يفعلوا شيئاً، ولم يستجيبوا لتحدِّي القرآن من محاولة ما، غير أنهم تحولوا عن قولهم السابق: ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾ [الأنفال: ٣١] إلى زعم: أن ما جاء به محمد هو سحر، أو كهانة، أو هو شعر فريد، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٠] وكما قال تعالى: ﴿ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [الصافات: ٣٦].

ولقد كتب القاضي عياض فصلاً عن عجز العرب عن معارضة القرآن مع وجود الدواعي لذلك فقال فيه: «فلم يزل يقرعهم ﷺ أشدَّ التقريع، ويوبخهم أغلظ التوبيخ، ويسفه أحلامهم، ويحط

أعلامهم، ويشتت نظامهم، ويذم آلهتهم وإياهم، ويستبيح أرضهم، وديارهم، وأموالهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عن مماثلته، يُخادعون أنفسهم بالتشغيب، وبالتكذيب، والاغتراء بالافتراء، وقولهم: إن هذا إلا سحر يؤثر، وسحر مستمر، وإفك افتراه، وأساطير الأولين، والمباهتة، والرضا بالدنيئة، كقولهم ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨] و﴿فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥] و﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، والادعاء مع العجز بقولهم ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١] وقد قال لهم الله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٤] فما فعلوا ولا قدروا، ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة كشف عُوارَه لجميعهم»[1].

ثم إن آيات التحدِّي ظلت مسجلة في كتاب الله تعالى، تقرع آذان الأدباء، والشعراء، والبلغاء على اختلاف نحلهم ومذاهبهم، في كل عصر وقرن، فما استطاع واحد منهم مهما كان عصره وتاريخه أن يسجل عملاً ما يصحُّ أن يقال: إنه قد عارض به القرآن، فأتى بشيء حسن.

فهذا من أجلى الدلالات المادية الملموسة على ثبوت وصف الإعجاز للقرآن الكريم، إذ هو دلالة الواقع خلال التاريخ والقرون.

---

(١) الشفا للقاضي عياض (١/ ٥٠٥_٥٠٦).

ومما يدلُّ على عجزهم عن المعارضة ما ذكره صاحب المواقف إذ قال: «أمّا أنه تحدى به فقد تواتر، وآيات التحدِّي كثيرة، وأمّا أنه لم يعارَضْ فلأنه لو عورض لتواتر، لاسيما والخصوم أكثر من حصى البطحاء، وأحرص الناس على إشاعة ما يبطل دعواه»[1].

وبعد فما هي الجوانب والوجوه التي كان بها القرآن الكريم معجزاً؟

٣ ـ وجوه إعجاز القرآن الكريم

لقد تحدَّث العلماء عن وجوه إعجاز القرآن الكريم كثيراً، وأفردوها بمؤلفات تفوق الحصر.

فهناك الإعجاز من حيث اللفظ، سواء أكان ذلك من حيث الأسلوب البديع، أم من حيث اختيار الكلمة، أم من حيث الجملة القرآنية وصياغتها، وهناك الإعجاز التشريعي.

وهناك الإعجاز من حيث الإخبار بالمغيبات، ووقوعها كما أخبر.

وهناك الإعجاز العلمي. إلى غير ذلك من وجوه الإعجاز.

ثانياً ـ حياة النبي ﷺ وشخصيته وأخلاقه دليل على نبوته

إن الدارس لحياة الرسول عليه الصلاة والسلام، والمطَّلِع على الأخلاق التي كان يتخلَّق بها ﷺ ليؤمن تمام الإيمان، ويذعن حقيقة الإذعان بأنه عليه الصلاة والسلام هو رسول من عند الله تعالى، قد أحاطه بالعصمة، ورعاه بعين رعايته، ليقدمه إلى الناس

---

(١) المواقف، للإيجي (٣٤٩).

بشراً كاملاً، ورسولاً مبلغاً، وإنساناً فذّاً تتحقق فيه كل صفات الرجولة والكمال، وقال سبحانه في حقه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وحسبك أن ترجع إلى أي كتاب من كتب السيرة التي تتحدَّث عن شخصية الرسول لتدركَ من خلالها: أنه لا يمكن أن تتجمع هذه الصفات إلا في رسول قد اصطفاه الله، واختاره لتحمل رسالته وأدائها إلى الناس.

ونشير لا على سبيل التحديد إلى كتاب «الشفا في تعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض رحمه الله، فقد جمع فيه من خصائص الرسول محمد عليه الصلاة والسلام وصفاته ما لا تجده مذكوراً إلا في كتب عِدَّة.

ولقد ذكر صاحب المواقف أن ما يتمتع به محمد عليه الصلاة والسلام من صفات رفيعة، وأحوال عالية، هو من جملة المسالك التي يستدل بها على صحة رسالته عليه الصلاة والسلام، فقال:

«المسلك الثاني ـ وارتضاه الجاحظ، والغزالي ـ: الاستدلال بأحواله قبل النبوة، وحال الدعوة، وبعد تمامها؛ وأخلاقه العظيمة، وأحكامه الحكيمة، وإقدامه حيث يحجم الأبطال، ولولا ثقته بعصمة الله إياه من الناس لامتنع ذلك عادة، وأنه لم يتلوَّنْ حاله وقد تلونت به الأحوال، من أمور من تتبعها علم أن كل واحدٍ منها، وإن كان لا يدل على نبوته، لكن مجموعها مما لا يحصل

إلا للأنبياء»[1].

وإليك طرفاً مما ورد في كتب السيرة من اتصافه عليه الصلاة والسلام بالأخلاق الفاضلة، سواء أكان ذلك قبل النبوة أم بعدها.

١ ـ شهادة خديجة رضي الله عنها عند بدء الوحي

فلقد نزل الوحي على رسول الله ﷺ في غار حراء، وقد حبِّب إليه الخلوة فيه للتعبد، وكان لنزول الوحي وقع عظيم في نفسه؛ لأنه لم يعتده من ذي قبل، فرجع إلى زوجه خديجة يرجف فؤاده رعباً وهلعاً، وقال: زمِّلوني! زمِّلوني! فزمَّلوه حتى إذا ذهب عنه الروع قال لخديجة بعد أن أخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي. فقالت له خديجة: كلا! والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتُقْري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

وذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، فأخبرَه رسول الله بما وقع، فقال ورقة: هذا الناموس الذي نزل على موسى، ياليتني فيها جَذَعاً، ليتني أكون حياً، إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجيّ هم؟! قال: نعم: لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يُدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً[2].

فهذه خديجة رضي الله عنها تستدلُّ من خلال صفاته التي تعرفها فيه، على أن الله لا يخزيه أبداً، ولذلك حينما أمر الرسول

---

(١) المواقف، للإيجي (٣٥٦).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي (٣).

بالتبليغ كانت خديجة أول من آمن به عليه الصلاة والسلام.

٢ ـ شهادة أبي سفيان قبل إسلامه وتصديق هرقل له

في البخاري ومسلم عن ابن عباس: أن أبا سفيان أخبره: أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً في الشام، في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهو بإيلياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا ترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبيّ؟ فقال أبو سفيان: قلت: أنا أقربهم نسباً. قال: أدنوه مني، وقرِّبوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذَبني فكذِّبُوه، قال: فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذباً لكذبت عليه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبلَه؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه مِنْ ملكٍ؟ قلت: لا، قال: فأشرافُ الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤُهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتد أحدٌ منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدَّة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم تُمْكنِّي كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا، وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟

قلت: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة.
فقال للترجمان: قل له: سألتُك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرُّسل تبعث في نسب قومها، وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله، وسألتك: هل كان من آبائه مِنْ مَلِكٍ؛ فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من مَلِكٍ قلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتُك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال: فذكرت أن لا، فقد أعرف: أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتُك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أَنَّ ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت: أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك: أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك: بِمَ يأمركم؟ فذكرت: أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة، والصدق، والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدميّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشَّمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه...[1].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي (٧).

٣ ـ ما استدلَّ به الجُلَنْدى ملك عمان على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام

بعث النبيُّ ﷺ عمرو بن العاص إلى الجُلَنْدى يدعوه إلى الإسلام، فقال الجُلَنْدى: لقد دلَّني على هذا النبيِّ الأميّ: أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له، وأنه يَغلِب فلا يبطر، ويُغلَب فلا يهجر، وأنه يفي بالعهد وينجز الوعد، وأشهد أنه نبيٌّ [١].

٤ ـ ما قاله العلاء بن الحضرمي للمنذر بن ساوى ملك البحرين

بعثَ رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي بكتاب إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين، فلما قدمَ العلاء على المنذر قاله له: يا منذر إنك عظيم العقل في الدنيا فلا تصغرنَّ عن الآخرة، إن هذه المجوسية شرُّ دين، ينكح فيها ما يستحيا من نكاحه، ويأكلون ما يتكره من أكله، ويعبدون في الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة، ولست بعديم عقل ولا رأي، فانظر هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا ألا نصدقه؟ ولمن لا يخون ألا نأتمنه؟ ولمن لا يخلف ألا نثق به؟ فإن كان هذا هكذا فهذا هو النبيُّ الأميُّ الذي والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول: ليت ما أمر به نهى عنه، أو ما نهى عنه أمر به، أو ليته زاد في عفوه، أو نقص من عقابه، إذ كل ذلك منه على أمنية

---

(١) انظر الإصابة لابن حجر في ترجمة الجلندى (١/ ٢٦٢).

العقل، وفكر أهل النظر [1].

٥ ـ شهادة قريش له بالأمانة والصدق

عندما بنت قريش الكعبة البيت الحرام، وأرادت وضع الحجر في موضعه، اختلفوا فيما بينهم من الذي يضع هذا الحجر، لأنهم يرون أن في ذلك شرفاً لهم، فقال أبو أمية المخزوميّ: يا قوم! لا تختلفوا وحكِّموا بينكم من ترضون بحكمه، فقالوا: نكل الأمر لأول داخل، فكان هذا الداخل هو محمد الأمين المأمون عليه الصلاة والسلام، فاطمأن الجميع له لما يعهدونه فيه من الأمانة وصدق الحديث، وقالوا: هذا الأمين رضيناه، هذا محمد؛ لأنهم كانوا يتحاكمون إليه في الجاهلية، فكان لا يُداري ولا يُماري [2].

ولما أنزل الله سبحانه قوله: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] صعد على الصفا، وجعل يُنادي بطون قريش بطناً بطناً، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر الخبر، فقال عليه الصلاة والسلام: «أرأيتم لو أخبرتكم: أنّ خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مصدقيّ؟» قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» [3].

وبالجملة فإن الصفات التي كان يتصف بها عليه الصلاة

---

(١) انظر السيرة الحلبية (٣/ ٣٥٠).

(٢) انظر السيرة الحلبية (١/ ١٩٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير (٤٧٧٠) ومسلمٌ في كتاب الإيمان (٢٠٨).

والسلام من بدء حياته حتى قبضه الله إليه لهي أعظم دليل على أنه رسول من عند ربه، وأنه صادق فيما يتحدَّث به عن ربه، وهو كما قال هرقل: لم يكن ليذرَ الكذب على الناس، ويكذب على الله.

هذا ولقد قال القاضي عياض في كتابه «الشفا» عند التحدُّث عن الأخلاق المحمودة والخصال الجميلة: أما أصل فروعها، وعنصر ينابيعها، ونقطة دائرتها، فالعقل الذي منه ينبعث العلم والمعرفة، ويتفرَّع عن هذا ثقوب الرأي، وجودة الفطنة والإصابة، وصدق الظن، والنظر للعواقب، ومصالح النفس، ومجاهدة الشهوة، وحسن السياسة والتدبير، واقتناء الفضائل، وتجنب الرذائل، وقد أشرنا إلى مكانه منه ﷺ، وبلوغه منه، ومن العلم الغاية التي لم يبلغها بشر سواه، وإن جلالة محله من ذلك ومما تفرع عنه متحققة عند من تتبع مجاري أحواله، واطراد سيرته، وطالع جوامع كلامه وحسن شمائله، وبدائع سيره، وحِكَم حديثه، وعلمه بما في التوراة والإنجيل والكتب المنزلة، وحكم الحكماء، وسير الأمم الخالية وأيامها، وضرب الأمثال، وسياسات الأنام، وتقرير الشرائع، وتأصيل الآداب النفسية، والشيم الحميدة، إلى فنون العلم التي اتخذ أهلها كلامه ﷺ فيها قدوة، وإشاراته حجة، كالعبارة، والطب، والحساب، والفرائض، والنسب، وغير ذلك، مما سنبينه في معجزاته إن شاء الله تعالى، دون تعليم، ولا مدارسة، ولا مطالعة كتب من تقدم، ولا الجلوس إلى علمائهم، بل نبي أمي لم يعرف بشيء من ذلك، حتى شرح الله صدره، وأبان أمره، وعلمه، وأقرأه، يعلم ذلك بالمطالعة والبحث عن حاله ضرورة،

وبالبرهان القاطع على نبوته نظراً ،فلا نطول بسرد الأقاصيص وآحاد القضايا»[1].

وقال الإمام السنوسي في «شرح الكبرى» عند الحديث على دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام: «الوجه الخامس: الاستدلال بسيرته، وأوصافه التي تواترت إلينا، وهي كثيرة.

أحدها: ملازمة الصدق من أول عمره إلى آخره، فإن أحداً ما سمع منه كذبة قط، وقد اعترف له أعداؤه بذلك، وأيضاً لو صدر منه الكذب ولو مرة في عمره لنبذه أعداؤه بذلك.

وثانيها: ترك الدنيا والإعراض عن زخارفها على الدوام، حتى إن قريشاً عرضوا عليه المال، والزوجة، والرئاسة لترك هذه الدعوى، فلم يلتفت إليها.

وثالثها: كان في أعظم الدرجات في السخاوة، حتى إنه سبحانه عاتبه عليها بقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] والشجاعة حتى إنه لم يفرَّ قط، ولا تزحزح للفرار، حتى في يوم أحد ونحوه مما عظم فيه الرعب.

ورابعها: كان في غاية الفصاحة والبلاغة، حتى إن فصاحته قد أعيت بلغاء الخطباء من العرب العرباء، ولذا قال ﷺ: «أُوتيت جوامعَ الكلم»[2].

---

(١) الشفا، للقاضي عياض (١/ ٧٨ ـ ٧٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٩٦) ومسلم في المساجد (٥٢٣) والترمذي في السير (١٥٥٣).

وخامسها: أنه عليه الصلاة والسلام تحمّل في أداء الرسالة أنواعاً من المشاق والمتاعب، لا يثبت معها إلا من هو على الحق من الله تعالى، وهو مع ذلك مصرّ على دعوى الرسالة، ولم يظهر في عزمه فتور، ولا في إصراره قصور.

سادسها: أنه عليه الصلاة والسلام كان مع أهل الدنيا في غاية الترفع، ومع الفقراء والمساكين في غاية التواضع.

وسابعها: ما كان عليه من حسن الخلق حتى إنه لا يزداد مع الغضب إلا حلماً.

وثامنها: حسن ذاته الكريمة، وما اشتملت عليه من المحاسن التي هي خرق عادة ولم توجد لبشر سواه. وما أحسن قول عبد الله ابن رواحة الأنصاري رضي الله عنه في ذلك يُشير إلى محاسنه ﷺ خَلْقاً وخُلُقاً:

لو لم يكن فيه آياتٌ مبيّنةٌ   لكانَ منظرُه ينبيكَ بالخبر

ولهذا لما أسلم أبو ذر رضي الله عنه عند رؤيته إياه قال: لما رأيتُ وجهَه عرفت أنه ليس وجه كذاب. ولا خفاء أن مجموع هذه الأوصاف، بل بعضها لا يكون لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»[1].

ثالثاً: إخبار الرسل السابقين برسالته عليه الصلاة والسلام وذكرهم بعض صفاته

---

(١) شرح الكبرى بحاشية الحامدي للإمام السنوسي (٤٨٤ ـ ٤٨٥).

قد مرّ بنا: أن سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن رسالته هي خاتمة الرسالات السماوية، وأنها ناسخة للشرائع التي قبلها جميعها، وأن الله سبحانه قد أخذ العهد على جميع الأنبياء إن هم أدركوا زمانه أن يؤمنوا به وينصروه ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١ ـ ٨٢].

ولهذا بشَّر الله برسالته في لسان أنبياء كثيرين، ولكنه بشكل خاص بشّر به في كتب الدِّيانتين: اليهودية والنصرانية، ليحثَّ أتباعهما على اتباع رسالة محمد ﷺ حينما يجيء من بعثته، وليجعل في كتبهم حجة عليهم إذا هم أخذتهم العصبية في غير الحق، أو حجبهم حسدهم للأمة التي سيكون منها هذا النبي العظيم، ولقد أخبر القرآن الكريم: أن عيسى عليه السلام بشّر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد، قال الله تعالى في كتابه العزيز حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

ولقد كان أهل الكتاب قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام يعلمون هذا جيداً، وكانوا يترقبون ظهور هذا النبيّ الذي يختم الله به النبوات والرسالات، وكان اليهود في الجزيرة العربية يستنصرون

به على أعدائهم من المشركين، ويقولون: اللهم انصرنا بنبيٍّ آخر الزَّمان المنعوت في التوراة.

ولكنهم عندما بُعث محمد عليه الصلاة والسلام، ورأوا: أن هذا النبيَّ لم يكن من بني إسرائيل، بل جاء من العرب أولاد عمهم إسماعيل عليه السلام حسدوهم على ذلك، وكفر به كثير منهم بغياً من عند أنفسهم، وهم يعلمون صدق رسالته، وقد سجَّل القرآن عليهم ذلك، فقال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٨٩ ـ ٩٠].

ولقد نصّ القرآن الكريم على أن أهل الكتاب يعرفون محمداً أنه رسولٌ لا يشكون في رسالته، كما يعرف أحدهم ابنه فلا يشك في أنه ابنه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٦ ـ ١٤٧].

ووعد الذين يؤمنون منهم بمحمد الذي بشَّرت به كتبهم، وعدهم بأن يدخلهم في رحمته، وينعم عليهم بجنته، وأخبر: أن هؤلاء هم المفلحون، قال الله تعالى: ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧].

وقد كان اعتراف كثير من اليهود والنصارى بما جاء في كتبهم في وصف محمد عليه الصلاة والسلام بناء على ذلك.

وبناء على ما جاء في كتبهم من التبشير بنبي آخر الزمان، وبيان صفاته، ومكان مبعثه، ووصف رسالته؛ آمن كثير منهم بمحمد عليه الصلاة والسلام، وأيقنوا بالحق الذي جاء به، ولنذكر لك أمثلة على ذلك.

١ ـ عبد الله بن سلام كان من أحبار اليهود وعلمائهم، وقد كان أعلم اليهود بالتوراة، وقد قرأ في التوراة صفات محمد عليه الصلاة والسلام، ولما قدم رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى المدينة التقى به، وأيقن برسالته، وآمن به بعد أن اختبر صدقه في دعواه الرسالة.

روى البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: بلغ عبدَ الله بن سلام مقدمُ رسول الله ﷺ المدينة فأتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شيءٍ ينزع الولد إلى أبيه؟ ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله ﷺ: «خبرني بهن آنفاً

جبريل» قال: فقال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة. فقال رسول الله ﷺ: «أما أول أشراط الساعة: فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد حوت، وأما الشبه في الولد: فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها». قال: أشهد أنك رسول الله. ثم قال: يا رسول الله! إن اليهود قوم بُهْت، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك، فجاءت اليهود ودخل عبد الله البيت، فقال رسول الله ﷺ: «أي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟» قالو: أعلمنا، وابن أعلمنا، وأخيرنا، وابن أخيرنا، فقال رسول الله ﷺ: «أفرأيتم إن أسلم عبد الله؟» قالوا: أعاذه الله من ذلك. فخرج عبد الله إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. فقالوا: شَرُّنا وابن شَرِّنا، ووقعوا فيه[1].

٢ ـ النجاشي ملك الحبشة: فلقد أرسل النبيُّ ﷺ إليه كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام، وقد حمل الكتاب عمرو بن أمية الضَّمْري رضي الله عنه، ولما وصل الكتاب إليه وعلم مضمونه قال: «أشهد بالله إنه للنبيّ الذي ينتظره أهل الكتاب».

وقد كان النجاشيُّ نصرانياً نسطورياً، ومذهب نسطور قائم على التوحيد، وإنكار ألوهية المسيح عليه السلام. وفيما يلي نص كتاب

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء (٣٣٢٩).

النبيِّ عليه الصلاة والسلام إلى النجاشي، ونص كتاب النجاشي إلى رسول الله ﷺ.

نص كتاب الرسول عليه الصلاة والسلام إلى النجاشي

«بسم الله الرحمن الرحيم، سلم أنت، فإني أحمد إليك الله الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، وأشهد: أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول، الطيبة، الحصينة، فحملت بعيسى من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني، وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عزّ وجل، وقد بَلَّغْتَ ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى».

ولما وصل الكتاب إليه وضعه على عينيه، ونزل عن سريره فجلس على الأرض، ثم أسلم، ودعا بحق من عاج وجعل فيه كتاب رسول الله ﷺ وقال: لن تزال الحبشة بخير ما كان هذا الكتاب بين أظهرهم.

ثم كتب النجاشيُّ إلى رسول الله ﷺ الكتاب التالي:

نص الكتاب الذي أرسله النجاشي إلى النبي عليه الصلاة والسلام

«بسم الله الرحمن الرحيم. إلى محمد رسول الله، من النجاشي الأصحم بن أبجر: سلام عليك يا نبيَّ الله ورحمة الله وبركات الله الذي لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام، أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فوربِّ السماء

والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك وبايعتُ ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين».

وقال لعمرو حامل الكتاب: «أشهدُ بالله إنه للنبيِّ الذي ينتظره أهل الكتاب، وإن بشارة موسى عليه الصلاة والسلام براكب الحمار، كبشارة عيسى عليه الصلاة السلام براكب الجمل، وإن العيان ليس بأشفى من الخبر، ولكن أعواني من الحبشة قليل فأنظرني حتى أكثر الأعوان وألين القلوب»[1].

٣ ـ اعتراف عبد الله بن صُوريا ـ وهو من علماء اليهود ـ بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام

أخرج ابن سعد عن أبي هريرة قال: أتى رسول الله ﷺ المدراس ـ موضع يجلس فيه أهل الكتاب من اليهود للدراسة والقراءة ـ فقال: «أخرجوا إليّ أعلمكم» فقالوا: عبد الله بن صوريا. فخلا به رسول الله ﷺ، فناشده بدينه وبما أنعم الله عليهم، وأطعمهم من المن والسلوى، وظلَّلهم به من الغمام: «أتعلم أني رسول الله؟» قال: اللهم نعم، وإن القوم ليعرفون ما أعرف، وإن صفتك ونعتك لمبين في التوراة، ولكنهم حسدوك. قال: «فما يمنعك

---

(١) انظر الكتابين وما بعدهما في السيرة الحلبية المسماة بإنسان العيون (٣/ ٣٤٤ فما بعدها).

أنت؟» قال: أكره خلاف قومي، وعسى أن يتبعوك ويُسلموا فأسلم.

٤ ـ إسلام مخيريق: مخيريق عالم من علماء يهود المدينة، وهو من بني النضير، وعندما خرج رسول الله ﷺ إلى أحد قال لليهود: ألا تنصرون محمداً، والله إنكم لتعلمون: أن نصرته حق عليكم فقالوا: اليوم السبت، فقال: لا سبت، وأخذ سيفه بعد أن أسلم، ومضى إلى النبيِّ ﷺ فقاتل حتى أثبتته الجراح، فلما حضره الموت قال: أموالي إلى محمد يضعها حيث شاء، وكانت له بساتين كثيرة، فجعلها رسول الله ﷺ صدقة تصدَّق بها على المحتاجين من المسلمين[١].

هذا وقصص كثير من اليهود والنصارى الذين آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام بناء على ما قرؤوه في كتبهم، وعلموه عن أنبيائهم؛ قصص كثير لا مجال هنا لاستيعابه، ولكن لقائل أن يقول: أين هذه النصوص من التوراة أو الإنجيل التي تبشر بمحمد عليه الصلاة والسلام، وتذكر بعض صفاته لتكون دلالة عليه؟

تبشير النصوص السابقة بمحمد عليه الصلاة والسلام

النقول الدالة على نبوته عليه الصلاة والسلام مما ورد في الكتب السابقة كثيرة، تتضمنها بطون كتب العقيدة والسيرة والتاريخ، ولكننا ننقل هنا حديث العلماء عنها، وإليك بعضاً منها مما كتبه جهابذة العلماء في ذلك:

---

(١) انظر الإصابة للحافظ ابن حجر (٦/ ٧٣).

أولاً: قال الإمام السنوسي في «شرح الكبرى» في معرض الاستدلال على صدق نبوته عليه الصلاة والسلام:

«وأما النقلي فهو نصُّه تعالى على نبوته في الكتب الماضية، وذكر الأنبياء له وإيصاؤهم على اتباعه، وهذا الدليل وحده كاف دون المعجزة، فإن شهادة من ثبتت نبوته لأحد بالنبوة دليل قاطع على ثبوت نبوته، وإن لم تظهر معجزة على يده.

وقد تواترت عن الأحبار الأخبار عن كتبهم وأنبيائهم، قبل بعثته معينين اسمه، وبلده، وصفته، وأيضاً فلم يزل نص نبوّته ـ والحمد لله ـ موجوداً في التوراة والإنجيل والزبور إلى الآن مع مبالغتهم في تبديلها، وذلك يدلُّ على الاعتناء بأمره فيها، وكثرة ترديد ذكره فيها على وجه لا يزيل جميعه التبديل، وقد اطّلع علماؤنا رضي الله عنهم على كثير من تلك النصوص فيما بأيدي اليهود والنصارى من الكتب الآن»[1].

ثانياً: وقال القاضي عياض في كتابه «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»:

«ومن دلائل نبوّته وعلامات رسالته ما ترادفت به الأخبار عن الرهبان الأحبار وعلماء أهل الكتاب، من صفته وصفة أمته، واسمه، وعلاماته، وذكر الخاتم الذي بين كتفيه، وما وجد في أشعار الموحِّدين المتقدِّمين من شعر تُبَّع والأوس بن حارثة، وكعب بن لؤي، وسفيان بن مجاشع، وقس بن ساعدة، وما ذكر

---

(١) انظر «شرح الكبرى» للسنوسي (ص ٤٨٥ ـ ٤٩٢).

عن سيف بن ذي يزن وغيرهم، وما عرف به من أمره زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وعثكلان الحميري، وعلماء يهود، وشامول عالمهم صاحب تبع من صفته وخبره، وما أُلْفِيَ من ذلك في التوراة والإنجيل مما قد جمعه العلماء وكتبوه وبينوه، ونقله عنهما ثقاتٌ ممن أسلم منهم مثل: ابن سلام، وبني سعية، وابن يامين، ومخيريق، وكعب، وأشباهم، ممن أسلم من علماء يهود، وبحيراء، ونصطور الحبشة، وصاحب بصرى، وضغاطر، وأسقف الشام، والجارود، وسلمان، والنجاشي، ونصارى الحبشة، وأساقف نجران، وغيرهم ممن أسلم من علماء النصارى.

وقد اعترف بذلك هرقل، وصاحب رومة عالما النصارى ورئيساهم، ومقوقس صاحب مصر، والشيخ صاحبه، وابن صوريا، وابن أخطب، وأخوه، وكعب بن أسد، والزبير بن باطيا، وغيرهم من علماء اليهود، ممن حمله الحسد والنفاسة على البقاء على الشقاء، والأخبار في ذلك كثيرة لا تنحصر.

وقد قرع أسماع يهود والنصارى بما ذكر أنه في كتبهم من صفته، وصفة أصحابه، واحتجَّ عليهم بما انطوت عليه من ذلك صحفهم، وذمّهم بتحريف ذلك، وكتمانه، وليّهم ألسنتهم ببيان أمره، ودعوتهم إلى المباهلة على الكاذب، فما منهم إلا نفر عن معارضته، وإبداء ما ألزمهم من كتبهم إظهاره، ولو وجدوا خلاف قوله لكان إظهاره أهون عليهم من بذل النفوس والأموال، وتخريب الديار، ونبذ القتال، وقد قال لهم: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

إلى ما أنذر به الكهان، مثل شافع بن كليب، وشقّ، وسطيح، وسواد بن قارب، وخُنافر، وأفعى نجران، وجَذل بن جذل الكندي، وابن خلصة الدوسي، وسعد بن بنت كريز، وفاطمة بنت النعمان، ومن لا ينعدّ كثرة.

إلى ما ظهر على ألسنة الأصنام من نبوته وحلول وقت رسالته، وسمع من هواتف الجانّ، ومن ذبائح النصب، وأجواف الصور، وما وجد من اسم النبي ﷺ والشهادة له بالرسالة مكتوباً في الحجارة والقبور بالخط القديم ما أكثره مشهور، وإسلام من أسلم بسبب ذلك معلوم مذكور»[١].

ثالثاً: وجاء في كتاب «نور اليقين» مما بشر به موسى عليه السلام بنبينا محمد عليه الصلاة والسلام، ونقله عن الإصحاح الثامن من سفر التثنية:

«وسوف أُقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوتهم، وأجعل كلامي في فمه، ويُكلِّمهم بكل شيء آمره به، ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي فأنا الذي أنتقم منه، فأما النبي الذي يجترىء علي بالكبرياء، ويتكلم باسمي بما لم آمره به، أو باسم آلهة أخرى فليقتل».

وجاء فيه أيضاً: وروى القاضي عياض في الشفا: أن عطاء بن يسار سأل عبد الله بن عمرو بن العاص عن صفة رسول الله ﷺ فقال: والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا

---

(١) الشفا، للقاضي عياض (١/ ٧١٥ـ٧٢٥).

﴿ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة [١]، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتَّى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً».

ومما جاء فيه أيضاً عن بشارة عيسى عليه السلام به ﷺ: «بشر عيسى عليه السلام قومه في الإنجيل بالفارقليط، ومعناه قريب من محمد أو أحمد، ويصدقه في القرآن قول الله تعالى في سورة الصف: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]. وقد وصف المسيح هذا الفارقليط بأوصاف لا تنطبق إلا على نبينا فقال: «إنه يوبِّخ العالم على خطيئته، وأنه يعلّمهم جميع الحق، لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكلٍّ ما يسمع. وهذا ما ورد في القرآن الكريم في سورة النجم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

وقد ورد في إنجيل برنابا الذي ظهر منذ زمن قريب، وأخفته حجب الجهالة ذكر اسم الرسول عليه السلام صراحة [٢].

وإنجيل برنابا هذا عثر على أول نسخة منه سنة ١٩٠٧م مكتوبة

---

(١) روى بعض هذا الحديث الإمام البخاري في التفسير (٤٨٣٨).
(٢) انظر نور اليقين، لمحمد الخضري (٢١ ـ ٢٤).

باللغة الإيطالية، عثر عليها كريمر أحد مستشاري ملك بروسيا، وقد ترجمه إلى العربية الدكتور خليل سعادة.

رابعاً: وكما جاءت البشارة به في الكتابين التوراة والإنجيل جاءت أيضاً في كتب أخرى.

ففي كتاب «لماذا أسلمنا» الذي نشرته رابطة العالم الإسلامي مايلي: «جاء في الكتاب «البارسي» المقدس «دساتير ١٤» مترجماً أصلاً من البهلوية: «عندما ينحدر الفارسيون إلى الحضيض الخلقي، سيولد رجل في الجزيرة العربية، يزلزل أتباعه عرشهم ودينهم وكلَّ شيء لَدَيْهِم، وسيغلب جبابرة الفرس المتغطرسين، وإن البيت المعمور ـ أي الكعبة ـ الذي يضم كثيراً من الأصنام سيطهر من هذه الأصنام، وسيصلي الناس متجهين إليه، وسيتولى أتباعه على مدن بارسيس، وتاوس، وبلخ، والمواقع الكبرى المحيطة بها، سيختلف الناس كثيراً بشأنه، أما عقلاء فارس فسينضمون إلى أتباعه» [1].

هذا وفي الباب نقول كثيرة، كلها تدور حول أن الكتب القديمة، والرسالات السماوية قد بشَّرت بقدومه، ووصفته بصفات لا تنطبق هذه الصفات إلا عليه، عليه الصلاة والسلام.

* * *

---

(١) من كتاب: لماذا أسلمنا؟ (ص ١٧٦).

٦ ـ ثمرات الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام

تمهيد:

لابد لنا قبل ذكر الثمرات من الانتباه إلى عدم تكرار ما ذكرناه في فقرة سابقة عن حاجة الإنسان إلى الرسل، إذ هي بعد نزول الرسل تُصبح آثاراً وفوائد، ولابد من الاعتراف بأن رسالة محمد ﷺ تمثل الرسل جميعاً، وهي الرسالة الخاتمة، والرسالة الباقية؛ حتى قيام الساعة. أما الثمرات فهي:

أ ـ **المحبّة**، وهي شاملة، تبدأُ من حبِّ الله تعالى، وحبِّ رسوله ﷺ، ثم تنتهي بحبِّ الخلق جميعاً؛ تطبيقاً لقول رسول الله ﷺ: «ثلاث من كنَّ فيه وجدَ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يُحبَّ المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[1] وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه»[2].

٢ ـ **الطاعة**، وتشتمل على طاعة الله، وطاعة رسوله ﷺ، وطاعة أولي الأمر، وطاعة الوالدين، ولا تكون الطاعة لغير الله إلا

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (١٦) ومسلم في الإيمان (٤٣).
(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٧٦) ومسلم في الإيمان (٤٥).

في المعروف، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. يقول الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

٣ - **الأسوة الحسنة**، ويمثل الرسل جميعاً النموذج الحيَّ، والتطبيق العمليّ، والمثل الأعلى، لكلٍّ ما جاؤوا به من عقائد وعبادات وتشريعات وأخلاق من عند الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]. وقال ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ في أَمْرِنَا هَذا ماليسَ منه فهو ردٌّ»[1].

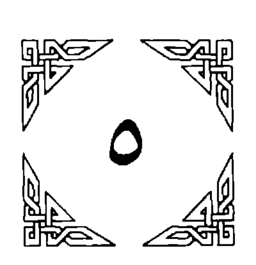
٤ - **الدعوة إلى الله تعالى**، واتباع مسلك الرسل جميعاً بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والتَّمَثُّل بما تحلَّى به الرسلُ من الصبر والمصابرة، والتضحيات الكبيرة لإنجاح الدعوة وإيصالها إلى جميع الناس، قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

٥ - **الإصلاح**، والأمر بالمعروف والنهيُ عن المنكر، والنصيحة، والبدءُ بإصلاح النفس أولاً، ثم إصلاح الأقرب فالأقرب وضمن حدود الاستطاعة، وأن الله لا يُكلِّف نفساً إلا وسعها؛ قال ﷺ: «الدِّين النصيحة» قلنا: لمن؟ قال: «لله، ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامَّتهم»[2].

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٧) ومسلم في الأقضية (١٧١٨).
(٢) أخرجه البخاري في الأحكام (٧٢٠٤) ومسلم في الإيمان (٥٥) (٩٩).



الفصل الخامس

الركن الخامس

الإيمان باليوم الآخر

● مقدمة حول مسؤولية الإنسان ووقوع اليوم الآخر

أ ـ مسؤولية الإنسان:

لا ريب أنَّ الإنسانَ مخلوقٌ مكرّم عند ربِّه، وأنه مستخلف في هذه الأرض، وأن الله سبحانه قد جعلَ هذا الكون كله مسخراً لخدمته ومنفعته، وأنه مكلَّف من قبل ربِّه بتكاليف متعددة، وأنه مخلوق حرّ مختار، وأن هذه الحياة هي ميدان اختبار له، وأنه مسؤول أمام ربه تبارك وتعالى، ثم يكون بعد ذلك الجزاء.

ولكن يا ترى متى يكون الجزاء؟ إن الله سبحانه جعل يوماً يقوم فيه الناس لرب العالمين، ويحاسب فيه كل إنسان على ما عمل، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

إن هذا اليوم الذي جعله الله للحساب وللثواب وللعقاب هو ما يسمى في عرف الشارع باليوم الآخر، سمي بذلك لأنه آخر يوم ولا يوم بعده.

ب ـ وقوع اليوم الآخر:

وقبل أن نذكرَ حقائق اليوم الآخر وعوالمه بدءاً بالحياة البرزخية وانتهاءً بالجنَّة والنَّار، لابد لنا أن نسوقَ بعض الأدلة العقلية على وقوعه من كتاب الله تعالى:

١ً ـ كمال الربوبية والألوهية: واكتمال القدرة الإلهية لا تكون إلا بوجود يوم آخر، يبعث الله فيه الناس من قبورهم، ويوقفهم للحساب والجزاء الربَّاني العادل. ولولا تحقُّق وقوع هذا اليوم لما كان للأوامر، والمباحات، ولا للنواهي، والمحرمات، جزاء ولا معنى، ولذلك لا يكون الرئيس أو الملك حاكماً في هذه الدنيا إذا لم يملك سلطة الثواب والعقاب. ومن هنا قرنَ الله سبحانه بين الإيمان به عز وجلَّ وبين الإيمان باليوم الآخر في (٢٨) موضعاً في القرآن الكريم، كلها جاءت مثل قوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [المائدة: ٦٩].

٢ً ـ استحالة العبث: إذ لو لم تُبعث الخلائق بعد الموت، ويُنقلوا إلى دار أخرى معدَّة للجزاء؛ لكان خلقهم لمجرد الإحياء والإماتة من غير أن تترتب على ذلك عاقبة حميدة؛ ضياعاً وعبثاً، كمن يبني بيتاً لمجرد البناء والتخريب، لا لمصلحة الإيواء، أو الانتفاع به، وهذا من العبث الذي لا يليق بحكمة الصانع الحكيم؛ قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

٣ً ـ عدم التسوية: بين المطيع والعاصي في الكرامة والنعمة؛ لأن الحكمة الإلهية تأباها، والعقل السليم يرفضها، ومن يقبل

التسوية بينهما يُعدُّ سفيهاً. وقد وقعت التسوية بينهما في الدنيا بأنواع من النعم الظاهرة؛ كالصحة، وسلامة الأعضاء، وحيازة الأموال، وسائر وجوه الإحسان؛ فكان لابدَّ من دار أخرى يقع فيها التفاضل بينهما، قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

٤ ـ **تحقيق العدالة الإلهية**: إن انتصاف المظلوم من الظالم حسن محمود في العقل، وقد نرى كثيراً من المظلومين في الحياة الدنيا ماتوا قبل الانتصاف لهم، والله سبحانه أعدل الحاكمين، لا يُوصف بالجور بوجه من الوجوه، فيجب القول بدار آخرة ينتصفُ فيها المظلوم من الظالم، تحقيقاً للعدالة الإلهية، ولوصفه تعالى بالعدل؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] وقال سبحانه: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ ـ ٣٦].

وإليك الحديث عن هذا اليوم في الفقرات التالية:

أولاً ـ عالم البرزخ

الموت حقيقة مدركة، لا يصح من أحد إنكارها، والموت واقع بالإنسان لا محالة، ومهما أراد الإنسان الفرار من الموت، وإقامة الحواجز والحصون بينه وبينه فإنه ليس بقادر على ذلك، ولو وصل في العلم الطبي إلى أعلى الدرجات، ولقد أوضح الله تعالى هذه

الحقيقة في كتابه العزيز في أكثر من موضع، فمما قاله سبحانه في ذلك: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال جلّ وعلا: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الجمعة: ٨].

وقال سبحانه: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

هذا هو الموت، فما الذي يكون بعد الموت؟ إن ما يكون بعد الموت هو من الأمور الغيبية كما ذكرنا، فلا سبيل للعقل ولا للتجربة إليه، بل مردّ العلم به إلى خبر الصادق، وقد أخبر الصادق أن الإنسان إذا مات، انتقل إلى عالم جديد هو عالم البرزخ، فما هذا البرزخ؟ وما يحدث فيه؟

مفهوم البرزخ: البرزخ في اللغة العربية: الحاجز بين شيئين، ومنه قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩ ـ ٢٠] وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

والبرزخ في عرف الشرع: ما يكون بين الموت ويوم القيامة، أو هو ما بين الدنيا والآخرة، فأهل البرزخ ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون، ولا مع أهل الآخرة يُجازون على أعمالهم في جنة

أو نار، ولقد بلغنا من أحوال البرزخ ثلاثة أمور: ضغطة القبر ـ سؤال الملكين ـ عذاب القبر ونعيمه، وإليك بيان ذلك:

١ ـ ضغطة القبر:

ورد في الحديث: أن الإنسان بعدما يلحد في قبره يضغط عليه ضغطة لا يعلم حقيقتها ولا كيفيتها إلا الله سبحانه، وهذه الضغطة لا ينجو منها أحد، سواء أكان مؤمناً أم كافراً، صالحاً أم طالحاً. ولكن الفرق بين الصالح والطالح: أن الصالح الذي يقف عند حدود الله تعالى يضغطه القبر ضغطة واحدة لطيفة ثم ينفرج عنه، وأما الطالح: فإن الضغط الشديد يدوم عليه إلى يوم القيامة، يدلُّ على ذلك ما أخرجه النسائي: أن رسول الله ﷺ قال: «هذا الذي تحرَّك له العرش ـ يعني سعد بن معاذ ـ وفُتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة؛ لقد ضُمَّ ضمَّة، ثم فُرج عنه»[1].

وروى البيهقي عن عائشة رضي الله عنها، عن النبيِّ ﷺ قال: «للقبر ضغطة لو كان أحد ناجياً منها نجا سعدُ بن معاذ»[2].

٢ ـ سؤال الملكين للميت:

ما إن يموت الميت ويُواريه أهلُه الترابَ، حتى يُحضِرَ الله

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب الجمعة (٤/ ١٠٠).
(٢) أخرجه البيهقي في كتاب إثبات عذاب القبر (١٢٠) وهو في مسند أحمد (٦/ ٥٥) وانظره في سير أعلام النبلاء؛ للذهبي (١/ ٢٩١).

سبحانه إليه مَلكيْنِ ليسألاه عن أقواله في الله والرسول ﷺ، آآمن بهما أم كفر؟

وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن سؤال الملكين للميت في قبره عام لجميع المكلفين، المسلم منهم والكافر.

أما غير المكلَّفين؛ كالصبيان والمجانين ومن لم تبلغهم الدعوة، فإنهم لا يُسألون في البرزخ، لأن سؤال القبر نتيجة للتكليف في الدنيا، وهؤلاء غير مكلَّفين فكيف يُسألون؟!

ومن الأدلة التي يُستدل بها على سؤال الملكين في القبر قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. ويوضح وجه الاستدلال بهذه الآية الكريمة ما رواه مسلم في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ قال: نزلت في عذاب القبر، يُقال له: من ربّك؟ فيقول: ربي الله، نبيِّي محمد ﷺ، فذلك قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ [1] [إبراهيم: ٢٧].

وما رواه البخاري ومسلم، عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبدَ إذا وُضع في قبره، وتولَّى عنه أصحابه وإنه ليسمعُ قرعَ نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ - لمحمد ﷺ - فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله

---

(١) أخرجه مسلم في الجنَّة (٢٨٧١) (٧٣).

ورسوله. فيقال له: انظر مقعدَك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة، فيراهما جميعاً، قال: وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنتَ تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقوله الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت ويُضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين»[1].

وقد ثبت في الأحاديث النبوية: أن أحد الملكين يُسمَّى: منكراً والآخر: نكيراً، سميا بذلك لنكارة منظرهما.

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما: المنكر والآخر: النكير، فيقولان...»[2] إلى آخر الحديث: وهو حديث طويل.

وعن عثمان بن عفان قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم وسلوا له بالتثبيت فإنه الآن يسأل»[3].

والمراد من سؤال القبر السؤال في البرزخ بين الموت والبعث،

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٧٤) ومسلم في الجنة (٢٨٧٠).
«لا دريت ولا تليت»: أي: لا فهمت ولا قرأت القرآن. والمعنى: لا دريت ولا اتبعت من يدري. و«الثقلان»: الإنس والجن.

(٢) أخرجه الترمذي في الجنائز برقم (١٠٧١). وسيأتي في عذاب القبر.

(٣) أخرجه أبو داود في الجنائز برقم (٣٢٢١).

سواء أكان ذلك في القبر أو في غيره، وقد أضيف السؤال إلى القبر بالنظر إلى أن أكثر الموتى من الناس يُقبرون.

٣ ـ عذاب القبر ونعيمه:

في هذه الفترة ـ فترة البرزخ ـ مرحلة من مراحل الجزاء الربَّانيِّ بالثواب أو العقاب، ويدلُّ عليه مجموعة من نصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة، فمما ورد في القرآن الكريم قوله في شأن آل فرعون: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥ ـ ٤٦].

ومما ورد في الحديث الشريف ما أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشيِّ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة»[١].

وأخرج البخاري ومسلم، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرّ النبي ﷺ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يُعذبان في كبير» ثم قال: «بلى إنه كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة». ثم أخذ جريدة رطبة فشقَّها نصفين، فغرز في كلِّ قبر واحدة، قالوا: يا رسول الله لم فعلت هذا؟ قال:

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٧٩) ومسلم في الجنة (٢٨٩٦٦).

«لعله أن يُخفَّف عنهما مالم ييبسا» [1].

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يُقال لأحدهما: المنكر وللآخر: نكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، ثم يُفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين، ثم يُنَوَّرُ له فيه، ثم يقال له: نم، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه. حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك. وإن كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون فقلت مثلهم، لا أدري، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئم عليه فتختلف فيها أضلاعه، فلا يزال فيها معذَّباً حتى يبعثه الله في مضجعه ذلك» [2].

هل عذاب القبر ونعيمه جسماني وروحاني معاً؟ أي: على النفس والبدن.

إن هذا السؤال قد طرح على الإمام ابن تيمية، وقد أجاب عنه

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (٢١٦) وأخرجه مسلم في كتاب الطهارة (٢٩٢) وروي فيها: «لا يستنزه» و«لا يستبرىء» أي: لا يتجنبه ولا يتحرَّز منه.

(٢) أخرجه الترمذي في الجنائز برقم (١٠٧١).

فيما نقله تلميذه ابن القيم، قال: «وقد سُئل شيخ الإسلام عن هذه المسألة، ونحن نذكر لفظ جوابه فقال: بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة، تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن، وتنعم وتعذب متصلة بالبدن، والبدن متصل بها، فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين، كما تكون على الروح منفردة عن البدن»[1].

هذا وقد عرض ابن القيم سؤالاً حول عذاب القبر ونعيمه وسؤال الملكين، ثم أجاب عنه، أما نص السؤال فهو: «ما جوابنا للملاحدة والزنادقة المنكرين لعذاب القبر، وسعته، وضيقه، وكونه حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنة، وكون الميت لا يجلس ولا يقعد فيه، قالوا: فإنا نكشف القبر فلا نجد فيه ملائكة عمياً وصمّاً يضربون الموتى بمطارق من حديد، ولا نجد هناك حيَّات، ولا ثعابين، ولا نيراناً تأجج، ولو كشفنا حاله في حالة من الأحوال لوجدناه لم يتغير، ولو وضعنا على عينيه الزئبق، وعلى صدره الخردل، لوجدناه على حاله، وكيف يفسح مدّ بصره أو يضيق عليه، ونحن نجده بحاله، ونجد مساحته على حد ما حفرناها لم يزد ولم ينقص، وكيف يسع ذلك اللحد الضيق له، وللملائكة، وللصورة التي تؤنسه أو توحشه؟ قال إخوانهم من أهل البدع والضلال: وكل حديث يُخالف مقتضى العقول والحس، يقطع بتخطئة قائله، قالوا: ونحن نرى المصلوب على خشبة مدة طويلة لا يسأل، ولا يجيب، ولا يتحرك ولا يتوقد

---

(١) كتاب الروح، لابن القيم (ص ٥١).

جسمه ناراً، ومن افترسته السباع، ونهشته الطيور، وتفرقت أجزاؤه في أجواف السباع، وحواصل الطيور، وبطون الحيتان، ومدارج الرياح كيف تسأل أجزاؤه مع تفرُّقها؟ وكيف يتصور مسألة الملكين لمن هذا وصفه؟ وكيف يصير القبر على هذا روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار؟ وكيف يضيق عليه حتى تختلف أضلاعه؟» [1].

وأما الجواب عن هذا السؤال فقد ذكره في أمور، ونحن فيما يلي نوجز لك بعضاً مما ذكره رحمه الله، وإليك ذلك:

الأمر الأول: أن يُعلمَ: أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، لم يخبروا بما تحيله العقول، وتقطع باستحالته، بل أخبارهم قسمان:

أحدهما: ما تشهد به العقول والفطر.

الثاني: مالا تدركه العقول بمجردها، كالغيوب التي أخبروا بها عن تفاصيل البرزخ واليوم الآخر، وتفاصيل الثواب والعقاب، ولا يكون خبرهم محالاً في العقول أصلاً، وكل خبر يظن أن العقل يُحيله فلا يخلو من أحد أمرين: إما أن يكون الخبر كذباً عليهم، أو أن يكون ذلك العقل فاسداً.

الأمر الثاني: أن يُفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير، فلا يحمل كلامه مالا يحتمله، ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان.

---

(١) كتاب الروح، لابن القيم (ص٥١).

وقد حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب مالا يعلمه إلا الله، بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، بل هو أصل كل خطأ في الأصول والفروع، ولا سيما إذا أُضِيف إلى ذلك سوء القصد.

الأمر الثالث: أن الله سبحانه جعل الدور ثلاثاً: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، وجعل لكلِّ دارٍ أحكاماً تختص بها، وركَّبَ هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان والأرواح تبعاً لها، ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح، وإن أضمرت النفوس خلافه، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعاً لهما، فكما تبعت الأرواح الأبدان في أحكام الدنيا فتألمت بألمها، والتذت براحتها، وكانت هي التي باشرت أسباب النعيم والعذاب، تبعت الأبدان الأرواح في نعيمها وعذابها، والأرواح حينئذ هي التي تباشر العذاب والنعيم، فالأبدان هنا ظاهرة، والأرواح خفية، والأبدان كالقبور لها، والأرواح هناك ظاهرة والأبدان خفية في قبورها، تجري أحكام البرزخ على الأرواح فتسري إلى أبدانها نعيماً أو عذاباً، كما تجري أحكام الدنيا على الأبدان فتسري إلى أرواحها نعيماً أو عذاباً، ومثال ذلك مثال النائم فإنه تجري الأحكام على روحه فيتأثر الجسم بذلك.

الأمر الرابع: أن الله جعل أمر الآخرة وما كان متصلاً بها غيباً، وحجبها عن إدراك المكلَّفين في هذه الدار، وذلك من كمال حكمته، وليتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم، فالمحتضر يرى

الملائكة، ويشاهدهم عياناً، ومَنْ حوله لا يرون شيئاً.

الأمر الخامس: أن النار التي في القبر والخضرة، ليست من نار الدنيا ولا من زروعها، فيشاهده من شاهد نار الدنيا وخضرتها، بل ذلك هو من نار وخضرة الآخرة فلا يحس به أهل الدنيا، وهناك أمور كثيرة يحسّ بها غير الإنسان في دار الدنيا، ولا يحسُّ بها الإنسان، لأنه ليس مؤهلاً لذلك في هذه الدار، وفي ذلك يقول الله سبحانه: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ١٩ ـ ٢٢].

الأمر السادس: أن الله سبحانه يحدث في هذه الدار ما هو أعجب من ذلك، فهذا جبريل كان ينزل على النبيِّ ﷺ، ويتمثل له رجلاً فيكلمه بكلام يسمعه، ومَنْ إلى جانب النبيِّ ﷺ لا يراه ولا يسمعه، وكذلك غيره من الأنبياء، وأحياناً يأتيه الوحي في مثل صلصلة الجرس، ولا يسمعه غيره من الحاضرين، وهؤلاء الجن يتحدَّثون ويتكلَّمون بالأصوات المرتفعة بيننا ونحن لا نسمعهم، فكيف يستنكر من يعرف الله سبحانه، ويقرّ بقدرته أن يحدث حوادث يصرف عنها أبصار بعض خلقه حكمة منه ورحمة بهم، لأنهم لا يُطيقون رؤيتها وسماعها، والعبد أضعف بصراً وسمعاً من أن يثبت لمشاهدة عذاب القبر.

الأمر السابع: أنه غير ممتنع أن ترد الروح إلى المصلوب، والغريق، والمُحَرَّق، ونحن لا نشعر بها، لأن ذلك الردّ نوع آخر غير المعهود، فهذا المغمى عليه، والمسكوت، والمبهوت أحياء،

وأرواحهم معهم، ولا نشعر بحياتهم، ومن تفرَّقت أجزاؤه لا يمتنع على من هو على كل شيء قدير أن يجعل للروح اتصالاً بتلك الأجزاء على تباعد ما بينها وقربه، ويكون في تلك الأجزاء شعور بنوع من الألم واللذة، وإذا كان الله تعالى قد جعل في الجمادات شعوراً وإدراكاً تسبح ربها به، وتسقط الحجارة من خشيته، وتسجد له الجبال والشجر، ويسبح له الحصى والمياه والنبات. فإذا كانت هذه الأجسام فيها الإحساس والشعور، فالأجسام التي كانت فيها الروح والحياة أولى بذلك، قال الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقال سبحانه: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [صۤ: ١٨] وقال جل جلاله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ١٨]. وقد كان بعض الصحابة يسمعون تسبيح الطعام، وسمعوا حنين الجذع اليابس في المسجد، وسمع الناس تسبيح الحصى بيد رسول الله وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما»[(١)].

هذا ولأن عذاب القبر أمرٌ عظيم أمرنا رسول الله ﷺ أن نستعيذ من عذاب القبر، وكان يأمر أصحابه بذلك، فقد روى مسلم عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: «تعوَّذوا من عذاب القبر» فقالوا: نعوذُ بالله من عذاب

---

(١) انظر هذا المبحث في كتاب الروح، لابن القيم (ص ٦١ ـ ٧٤).

القبر[1]. وفي البخاري: كان رسول الله ﷺ يدعو: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجَّال»[2].

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يعلِّمهم هذا الدعاء؛ كما يعلمهم السورة من القرآن يقول: «قولوا: اللهم إنا نعوذُ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات»[3].

ثانياً ـ علامات قيام الساعة «أشراط الساعة»

لقد تضافرت الرسالات السماوية على أن حياة البشر سوف تنتهي على سطح الأرض، وسيمرُّ على الأرض زمان ليس فيها من حيٍّ من بني الإنسانية، ثم يبعث الله الناس من قبورهم ليحاسب كلاً على ما عمل في هذه الدار، ثم يجازيه بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً.

ولكن جلَّت حكمته جعل قبل انتهاء الحياة على الأرض علامات وأشراطاً تدلُّ على قرب هذا الحدث العظيم، وهذه العلامات هي ما يسمَّى بعلامات يوم القيامة، أو بأشراط الساعة،

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة برقم (٢٨٦٩).
(٢) أخرجه البخاري في الجنائز رقم (١٣٧٧).
(٣) أخرجه مسلم في المساجد (٥٩٠).

والساعة: يوم القيامة، وسميت بذلك لأنها تأتي بغتة في ساعة، أي: مدة قليلة.

والأشراط: الأمارات والعلامات، مفردها: شرط ـ بفتح الشين والراء ـ قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨].

أشراط الساعة:

تنقسم أشراط الساعة وعلاماتها إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أشراط ظهرت وانقضت، وهي الأمارات الصغرى، منها: بعثة النبي ﷺ، فقد روى البخاري، ومسلم، وغيرهما قوله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين»[(١)] وقرَّب بين أصبعيه: السبابة والوسطى.

ومنها: انشقاق القمر. فقد قال الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] وقد وقع ذلك في عهد النبي ﷺ.

أخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: انشقَّ القمرُ على عهد رسول الله ﷺ شقتين، فقال النبيُّ ﷺ: «اشهدوا»[(٢)].

وأخرج أيضاً، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنَّ أهلَ مكَّة

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٤) و(٦٥٠٥) عن أنس وعن أبي هريرة رضي الله عنهما. ومسلم في الجمعة(٨٦٧) عن جابر رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري في المناقب برقم (٣٨٧١).

سألوا رسولَ الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاقَ القمر [1].

ومنها: ظهور نار من أرض الحجاز تُضيء لها أعناق الإبل ببصرى. فقد روى البخاري ومسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقومُ الساعة حتى تخرجَ نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى»[2].

وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة ـ وكان شيخ المحدثين في زمانه، وأستاذ المؤرخين في أوانه ـ: «إن في سنة أربع وخمسين وستمئة في يوم الجمعة خامس جمادى الآخرة منها، ظهرت نار بأرض المدينة المنورة، في بعض تلك الأودية، طول أربعة فراسخ، وعرض أربعة أميال، تُسيلُ الصخرَ حتى يبقى مثل الآنك ـ الرصاص الأبيض أو الأسود ـ ثم يصير مثل الفحم الأسود، وأن ضوءها كان الناس يسيرون عليه بالليل إلى تيماء ـ بلد في أطراف الشام ـ وأنها استمرت شهراً، وقد ضبط ذلك أهل المدينة وعملوا فيه أشعاراً، وذكر غير واحد ممن كانوا صبيحة تلك الليلة بحاضرة بصرى الشام أنهم شاهدوا أعناق الإبل في ضوء هذه النار» [3].

القسم الثاني: الأمارات الوسطى، وهي ما ظهر ولم ينقض، بل لا يزال في ازدياد، منها: ما أخرجه الترمذي عن حذيفة

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب برقم (٣٨٧٢) ومسلم في صفات المنافقين برقم (٢٨٠٠ و٢٨٠٢ و٢٨٠٣).

(٢) أخرجه البخاري في الفتن (٧١١٨) ومسلم في الفتن (٢٩٠٢).

(٣) انظر النهاية لابن كثير (١/ ١٣ فما بعدها). وانظر الإشاعة للبرزنجي (ص ٣٨ ـ ٣٩) وشذرات الذهب (٧/ ٤٥٤).

رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع»[1] أي: حتى يكون اللئام الحمقى ونحوهم رؤساء الناس.

ومنها: إسناد الأمور إلى غير أهلها، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ في مجلس يُحدِّث القوم، جاءه أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يُحدِّث، فقال بعض القوم: سمع ما قال، فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثَه قال: «أين أُراه السائل عن الساعة؟» قال: ها أنا يا رسول الله! قال: «فإذا ضُيِّعتِ الأمانة فانتظر الساعة» قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وُسِدَ الأمرُ إلى غير أهله فانتظر الساعة»[2].

ومنها: انتصار المسلمين على اليهود، فقد أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقومُ الساعة حتى يقاتلَ المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى يختبىءَ اليهوديُّ من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودي خلفي فتعالَ فاقتلْه، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود»[3].

ومنها: عود أرض العرب مروجاً وأنهاراً، فقد أخرج مسلم

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٦) واللكع: العَيِيُّ الأحمق اللئيم.

(٢) أخرجه البخاري في العلم برقم (٥٩).

(٣) أخرجه مسلم في الفتن برقم (٢٩٢٢). والغرقد: شجر يسمى: العوسج، ذو شوك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقومُ الساعة حتى يكثر فيكم المال فيفيض، حتى يخرجَ الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحداً يقبلها منه، وحتى تعودَ أرضُ العرب مروجاً وأنهاراً»[1]، وفي قوله عليه الصلاة والسلام «تعود» إشارة إلى أن أرض العرب كانت كذلك في غابر الأزمان، وفي هذا معجزة للنبي ﷺ، وقد أثبت العلماء: أن الجزيرة العربية كان فيها من الأشجار والمروج الشيء الكثير، إلا أنها منيت بعد ذلك بالجدب.

ومنها: كثرة القتل. فقد أخرج مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقومُ الساعة حتى يكثرَ الهَرْجُ» قالوا: وما الهَرْجُ يا رسول الله؟! قال: «القتل، القتل»[2].

ومنها: كثرة الجهل ورفع العلم. فقد أخرج البخاري، عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويكثر الجهل، ويكثر الزنى، ويكثر شرب الخمر، ويقلَّ الرجال، وتكثرَ النساء، حتى يكون لخمسين امرأة القَيِّم الواحد»[3]. والمراد بالعلم الذي يُرفع: العلمُ بالدِّين، وقد بيّن رسول الله ﷺ كيف يُرفع هذا العلم، ففي البخاري ومسلم: «إن الله لا يقبضُ العلمَ انتزاعاً ينتزعه من صدور العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتَّخذ الناسُ رؤوساً

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة برقم (١٥٧) (٦٠).
(٢) أخرجه مسلم في الفتن برقم (٢٨٨٨) (١٨).
(٣) أخرجه البخاري في العلم برقم (٨١).

جهَّالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم فضَلُّوا وأضَلُّوا»[1].

وهناك الشيء الكثير من هذه الأمارات قد حوته كتب الحديث، مما أخبر به عليه الصلاة والسلام من الفتن، والزلازل، والأحداث، والملاحم التي تقعُ بين يدي الساعة، وقد وقع معظم ذلك.

القسم الثالث: الأماراتُ العظمى، وهي التي يعقبها قيام الساعة، وهي المقصودة عند الإطلاق، وهي كثيرة، إلا أننا نتحدث عن العشر التي جمعت في حديث واحد.

أخرج مسلم، والترمذي، وأبو داود عن حذيفة بن اليمان قال: اطّلع النبي علينا ونحن نتذاكر فقال: «ما تذاكرون؟» قالوا: نذكر الساعة، قال: «إنها لن تقومَ حتى تروا قبلَها عشر آيات» فذكرَ: الدخان، والدجَّال، والدابَّة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوفات: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في العلم برقم (١٠٠) ومسلم في العلم برقم (٢٦٧٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة برقم (٢٩٠١)، وأبو داود في الملاحم (٤٣١١) والترمذي في الفتن برقم (٢١٨٢)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٤١).

الأمارة الأولى ـ خروج الدجَّال:

أ ـ الدجَّال مأخوذ من الدجَل بمعنى: الكذب، أو بمعنى: التغطية، سُمِّي بذلك لأنه كذَّاب، أو لأنه يموه، ويُغطِّي الحق بالباطل.

٢ ـ صفته: بيَّن لنا رسولُ الله ﷺ بعض الصفات الخَلْقِيَّة للدجال، فمن صفاته: أنه قصير، جسيم، أحمر الوجه، أعور العين اليسرى، قد غطَّتها جلدة غليظة، أما عينه اليمنى فهي جاحظة، فوق رأسه شعر شديد الجعودة، بشع المنظر، منفرج الرجلين في المشي.

روى مسلم عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدجَّال ممسوح العين عليها ظَفَرة غليظة، مكتوب بين عينيه: كافر، يقرؤه كلُّ مؤمن كاتب وغير كاتب»[١].

وأخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر: أن رسولَ الله ﷺ قال: «بينما أنا نائم بالكعبة فإذا رجل جسيم أحمر، جعد الشعر، أعور العين، كأن عينه عنبة طافئة، قالوا: هذا الدجَّال»[٢].

وفي مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نبيٍّ إلا وقد حذَّر أمته الأعور الكذَّاب، ألا إنه أعور

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن برقم (٢٩٣٤). الظفرة: جلدة تغشى البصر، وقال الأصمعي: لحمة تنبت عند المآقي.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٢٥٧) ومسلم في الإيمان برقم (١٦٩).

وإن ربكم ليس بأعور ومكتوب بين عينيه ك ف ر»[1].

وروى أبو داود: أن المسيح الدجَّال رجل قصير، أفحج[2]. والأفحج: المنفرج الرجلين في المشي.

٣ ـ مكان خروجه، وتطوافه في الأرض: اتفقت روايات الحديث على أن الدجَّال سيخرج من جهة المشرق.

أخرج الترمذي بسند صحيح، عن أبي بكر الصديق: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «الدجَّال يخرج من أرض بالمشرق يُقال لها خراسان، يتبعه أقوام كأن وجوههم المجانّ المطرقة»[3].

ثم يتجه نحو المغرب، فيمر بأصبهان، فيتبعه من يهودها سبعون ألفاً.

روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: «يتبع الدجَّال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة»[4].

ثم يتابع سيره نحو الغرب، فيدخل البلاد، ويتبعه أهل

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن برقم (٢٩٣٣).

(٢) أخرجه أبو داود في الملاحم (٤٣٢٠).

(٣) أخرجه الترمذي في الفتن برقم (٢٢٣٨). والمجانّ: جمع مجنّ، وهو الترس الذي يستر حامله.

(٤) أخرجه مسلم في الفتن برقم (٢٩٤٤). الطيالسة: جمع طيلسان، وهو ثوب يلبس على الكتف، يحيط بالبدن، ينسج للبس، خال من التفصيل والخياطة.

الفساد، ويدخل المدن والقرى، إلا مدينتين لا يستطيع دخولهما، وهما: مكة، والمدينة المنورة، يمنعه الله من دخولهما.

روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس من بلد إلا سيطؤها الدجَّال، إلا مكة والمدينة، وليس نَقْب من أنقابها إلا عليه ملائكة صافِّين تحرسها، فينزل بالسبخة فترجف المدينة ثلاث رجفات، يخرج إليه منها كلُّ كافر ومنافق»[1].

٤ ـ دعوته: لقد ورد في الأحاديث ما يدلّ على أنه يَدَّعي الألوهية، ويقوم بأعمال عجيبة ليسيطرَ بها على عقول السُّذَّج، وضعاف الإيمان، ويلفتهم عن الإيمان، ولذلك حذَّر الرسول عليه الصلاة والسلام أُمَّته منه، ومن فتنته، وأخبر: أن الأنبياء من قبله كانوا يحذرون أممهم منه أيضاً.

روى أبو داود، والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قام النبيُّ ﷺ فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكرَ الدجَّال فقال: «أنذركموه، وما من نبيٍّ إلا وقد أنذره قومه، لقد أنذره نوح قومه، ولكني سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبيّ: إنه أعور، وإن الله ليس بأعور». ورواه مسلم أيضاً[2].

هذا وقد روى مسلم حديثاً يذكر فيه بعض ما يفعله الدجَّال من

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن برقم (٢٩٤٣).

(٢) أخرجه مسلم في الفتن برقم (٢٩٣٣) وأبو داود في الملاحم (٤٣١٦) والترمذي في الفتن (٢٢٣٥).

الأمور العجيبة التي سلَّطه الله عليها، ففيه عن أبي سعيد الخدريّ، قال: قال رسول الله ﷺ:

«يخرجُ الدجَّال، فيتوجه قِبلَه رجل من المؤمنين، فتلَقاه المسالحُ، مسالحُ الدجَّال ـ المسالح: قوم معهم سلاح يرقبون في المراكز كالخفراء ـ فيقولون له: أين تعمد؟ فيقول: أعمد إلى هذا الذي خرج، قال: فيقولون له: أوما تؤمن بربنا؟ فيقول: ما بربّنا خفاء، فيقولون: اقتلوه، فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكم ربُّكم أن تقتلوا أحداً دونه، قال: فينطلقون به إلى الدجَّال، فإذا رآه المؤمن قال: يا أيها الناس هذا الدجَّال الذي ذكر رسول الله ﷺ، قال: فيأمر به الدجَّال فَيُشَبَّح، فيقول: خذوه، وشجُّوه، فيوسع ظهره وبطنه ضرباً، قال: فيقول: أوما تُؤمن بي؟ قال: فيقول: أنت المسيح الكذَّاب، قال: فيؤمر به، فيؤشر بالمنشار من مفرقه حتى يفرّق بين رجليه، قال: ثم يمشي الدجَّال بين القطعتين ثم يقول له: قم فيستوي قائماً، قال: ثم يقول له: أتُؤمن بي؟ فيقول: ما ازددتُ فيك إلا بصيرة، قال: ثم يقول: يا أيها الناس إنه لا يَفْعَلُ بعدي بأحدٍ من الناس. . .»[(١)].

٥ ـ مدة لبثه في الأرض ونهايته: لقد تساءل أصحابُ رسول الله ﷺ عن مدة لبثه في الأرض، فذكر لهم رسولُ الله ﷺ: أن مدة لبثه أربعون يوماً، ثمَّ فصّل لهم ذلك. ثم بيَّن: أن عيسى عليه السلام يقتله بفلسطين بباب لدّ.

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن برقم (٢٩٣٨).

فقد أخرج مسلم عن النوّاس بن سمعان رضي الله عنه قال:

ذكر لنا رسول الله ﷺ الدجَّال ذات غداة فخفّض فيه ورفّع، حتى ظنناه في طائفة النَّخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: «ما شأنكم؟» قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجَّال غداة فخفّضت فيه ورفّعت، حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: «غير الدجَّال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنَّه شاب قطط، عينه طافئة، كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خَلَّةً بين الشام والعراق، فعاث يميناً وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا» قلنا: يا رسول الله! وما لبثه في الأرض؟ قال: «أربعون يوماً يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم» قلنا: يا رسول الله! فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «لا، اقدروا له قدره» قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم، فيؤمنون به، ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت درّاً، وأسبغه ضروعاً، وأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين، ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمرّ بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلَّل وجهه

يضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقيّ دمشق، بين مهرودتين ـ ثوبين مصبوغين بورس ـ واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدَّر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحلّ لكافر يجد ريح نفَسه إلا مات ـ ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه ـ فيطلبه حتى يدركه بباب لدّ، فيقتله، ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة. .»[(١)].

٦ً ـ الاستعاذة منه: ولما كان أمر الدجَّال من الخطورة بمكان، فقد كان رسول الله ﷺ يستعيذ من فتنته، ويأمر أصحابه بذلك.

روى البخاري أن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ كان يدعو في الصلاة: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات، اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم»، فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيذ من المغرم؟ فقال: «إن الرجل إذا غرم حدَّث فكذب ووعد فأخلف»[(٢)].

٧ً ـ الحكمة من وجود الدجَّال: الحكمة من ذلك اختبار الناس ليتحقق التمايز بين المؤمن وغير المؤمن، وخاصة المنافقين الذين يتظاهرون بالإيمان.

وعلى العموم فإن لله أن يبتلي عباده ويختبرهم بما يعلم أنه

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن برقم (٢٩٣٧).
(٢) أخرجه البخاري في صفة الصلاة برقم (٨٣٢).

صالح للاختبار، سواء أكان ذلك علماً، أو غنى، أو صحة، أو فقراً، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

الأمارة الثانية ـ نزول عيسى ابن مريم عليه السلام:

١ ـ عيسى ابن مريم لم يمت بعد ولم يقتل ولم يصلب: فقد نصَّ القرآن الكريم على أن عيسى عليه السلام لم يقتل، ولم يصلب بل بقي على قيد الحياة، وأن الله سبحانه قد رفعه إليه، تكريماً له. قال الله سبحانه وتعالى في شأن اليهود:

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦ ـ ١٥٨].

٢ ـ ثبوت نزوله عليه السلام إلى الأرض: لقد ثبت نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض في آخر الزمان بالكتاب الكريم، والسنة الشريفة.

أما ثبوت ذلك في الكتاب الكريم ففي آيتين:

إحداهما: قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩].

وجه الاستدلال: أن الضمير في موته عائد على عيسى عليه السلام، فيصبح معنى الآية: أن أهل الكتاب من يهود ونصارى سيؤمنون بعيسى عليه السلام إيماناً صحيحاً، وذلك بأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، ولا يكون ذلك إلا

قبل موته وبعد نزوله من السماء قبيل قيام الساعة. وهذا يؤكد ما يعتقده المسلمون من أن عيسى عليه السلام لم يمت، وأنه رفع حياً إلى السماء، وأنه يحيا الآن حَياةً ـ الله أعلم بكيفيتها ـ وأنه سيعود إلى الأرض مرة ثانية، ليقيم شريعة الإسلام وأحكامه، ولا يأتي برسالة جديدة، وتصبح الملة آنذاك ملة واحدة.

وقد ورد تفسير هذه الآية بنزول عيسى عليه السلام، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعن أم سلمة رضي الله عنها، وعن قتادة ـ وهو من علماء التابعين ـ وعن ابن زيد ـ وهو شيخ مالك ـ والزهري، وعن الحسن البصري، وعن غيرهم[1].

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝٦٠ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٥٧ ـ ٦١].

مكان الشاهد: الآية الأخيرة ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ [الزخرف: ٦١] فالضمير فيها كما ترى عائد على ابن مريم الذي تتحدَّث عنه الآيات السابقة، والمعنى: أن عيسى ابن مريم دليل على قيام الساعة، وإنما يكون كذلك بنزوله من السماء حكماً عدلاً مقسطاً، ويوضح هذا المعنى القراءة السبعية الأخرى (وإنه لَعَلَمٌ

---

(١) انظر تفسير الطبري (٤ / ٣٥٦) وابن كثير (١/ ٧٠٣).

للساعة) أي: علامة ودليل عليها، ولا ينبغي أن يكون للآية أي معنى غير هذا، وهو المعنى الذي فسَّرها به ابن عباس والحسن البصري وقتادة وغيرهم من مشاهير المفسرين.

وأما ثبوت ذلك في الحديث الشريف فقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة نذكر بعضاً منها:

١ ـ ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده! ليُوشكنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها» ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[1] [النساء: ١٥٩].

٢ ـ ما أخرجه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين إلى يوم القيامة. قال: فينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم: تعال صلِّ لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة»[2].

٣ ـ ما رواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، وغيرهم عن

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء برقم (٣٤٤٨) ومسلم في الإيمان برقم (١٥٥) واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٩٢١).

النوّاس بن سمعان،وقد مرَّ بك هذا الحديث عند الكلام عن الدجَّال وفيه يقول: «فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدَّر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحلّ لكافر يجد ريح نَفَسِهِ إلا مات، ونَفَسهُ ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله» (١).

٤ ـ ما رواه أحمد، وأبو داود، وابن جرير، بطرق مختلفة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الأنبياء إخوة لعلاَّت، أمهاتُهم شتَّى ودينهم واحد، وإني أولى الناس بعيسى ابن مريم، لأنه لم يكن نبيٌّ بينه وبينه، وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان مُمَصَّران ـ فيهما صفرة خفيفة ـ كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويدعو الناس إلى الإسلام، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدجَّال، فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى، ويصلِّي عليه المسلمون» (٢).

٣ ـ سيرته وأعماله ومكثه في الأرض:

دلَّت الأحاديث الصحيحة على أن سيدنا عيسى عليه السلام بعد نزوله يقوم بأعمال عدّة منها:

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان برقم (١٥٦).
(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢/٤٦٣) وابن جرير في التفسير (٤/ ٣٦١) وأبو داود في كتاب الملاحم (٤٣٢٤).

١ً ـ يكسر الصليبَ، ويثبت للذين قالوا عنه إنه إله: أنه عبد الله ورسوله، أرسلَه إلى بني إسرائيل، ويبطل ما يدَّعِيه النصارى: أنه ابن الله سبحانه.

٢ً ـ يقتل الخنزير: لأن الخنزير نجسُ العين، ويحرم أكله.

٣ً ـ يضع الجزية: أي: يرفعها على معنى أنه لم يبق من تجب عليه الجزية، لأن الناس يُصبحون آنذاك على ملة واحدة.

٤ً ـ يقتل الدجَّال: وقد مرّ أنه يُدركه بباب لُدٍّ بفلسطين، فيقتله ويقضي على فتنته.

٥ً ـ يقضي على يأجوج ومأجوج بدعائه عليهم كما سيأتي.

٦ً ـ يحكم بالأحكام الشرعية المحمدية، إذ إنه لا يأتي بتشريع جديد، فلا يتناقض نزوله مع كون محمد عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين.

ولقد مرّ بنا أنه يمكث في الأرض أربعين سنة، وجاء أيضاً فيما أخرجه الإمام أحمد: إنه بعد ذلك يتوفَّى ويصلِّي عليه المسلمون، ويدفنونه عند نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

٤ ـ موقفان منحرفان في شأن عيسى عليه السلام:

علمت مما سبق أن عيسى عليه السلام هو رسول من عند الله، وأن الله أنجاه من كيد اليهود، وأن الله رفعه إليه جسداً وروحاً، وأنه سينزل إلى الأرض جسداً وروحاً، وقد أثبتنا ذلك كله إما بالآيات القرآنية، وإما بالأحاديث النبوية الصحيحة، وإما بكليهما. ومع هذا لم تمنع الأدلة التي أقمناها من ظهور طائفة من

الناس قد باعت نفسها للشيطان، بثمن بخس دراهم معدودة، أو مناصب زائفة، أو مكاسب دنيوية زائلة، فكانوا في هذه الصفقة من الخاسرين، وفيما يلي نتحدث عن فئتين من هؤلاء:

الفئة الأولى: هي فئة من الكتَّاب الذين تخرَّجوا في مدارس الاستعمار، فهؤلاء أنكروا أن يكون عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام قد رفع بجسمه إلى السماء، وحتى لا يقفوا موقفاً عدائياً من صريح الآية القرآنيَّة، أخذوا يؤوِّلون بأنه رفع الروح، أو رفع الدرجة، ومن ثم فإنهم أنكروا نزوله إلى الأرض أيضاً قرب قيام الساعة، نابذين كتاب الله وراء ظهورهم، وسنة رسوله دبر آذانهم، متجاهلين مواقف جمهرة علماء المسلمين والجهابذة من المفسرين والمحدثين.

ولقد اتخذوا ذريعة لهذا الإنكار، ووسيلة لهذا الشذوذ قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٥].

لقد فهموا من قوله تعالى: ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ أن معناها مميتك، ولو رجعوا إلى اللغة العربية لوجدا أن التَّوَفِّي معناه: أخذ الشيء وقبضه وافياً، ويرادفه الاستيفاء، تقول: استوفيت حقي وتوفيته، أي: قبضته وافياً كاملاً.

أما التَّوَفِّي بمعنى الإماتة التي هي قبض الروح، فهو نوع من أنواع التوَفِّي الذي يشملها ويشمل غيرها، وإنما سرى الوهم إلى

هؤلاء من كثرة استعمال العامة من الناس، هذه الكلمة بمعنى الموت فقط، وغفلتهم عن معناها الأصلي في اللغة.

على أن الزمخشري في كتابه «أساس البلاغة» نصَّ على أن استعمال الوفاة بمعنى الموت إنما هو من قبيل المجاز، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا عند تعذر الحقيقة، بأن هناك قرينة صارفة.

ومما يقوّي نفي احتمال المجاز في «متوفيك» دلالة الآية القاطعة الأخرى التي لا مجال للتأويل فيها، يقول الله عزّ وجل:

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧ ـ ١٥٨].

ثم أليس في قوله تعالى: ﴿رفعه إليه﴾ في هذا الموطن دلالة على أن المراد رفع الجسم لا رفع الدرجة، إذ ما فائدة هذه الجملة بعد نفي القتل والصلب؟ أو لم يكن مرفوع الدرجة قبل ذلك؟!.

الفئة الثانية: فئة تسمى «القاديانية» أو «الأحمدية» تنتسب لغلام أحمد القادياني الذي ظهر في الهند في بلدة «قاديان» وادّعى أنه هو المسيح الموعود، وادّعى أن الذي وعد الله بظهوره هو مثيل عيسى وليس عيسى نفسه، وأنه إنما يظهر في الأرض دون أن ينزل من السماء، وأنه هو المثيل الذي وعد الله بظهوره، ثم راح يزعم أنه نبي ورسول مستقل مؤيد بتشريع، ثم صاغ لنفسه وحياً كالقرآن، ومضى يختلق لنفسه معجزات يزعم أنها مؤيدات له، وابتنى لنفسه

مسجداً في بلدته وسمَّاه «المسجد الأقصى» وسمَّى بلدته مكة المسيح، وجعل مقبرة سمَّاها مقبرة الجنة، وسمَّى أزواجه أمهات المؤمنين، واستمر يقوم بدعوته هذه والاستعمار البريطاني من ورائه إلى أن مات في الخلاء بوباء الكوليرا سنة ١٣٢٦هـ. ولم يزل له أتباع ينادون بدعوته ويبشرون بها وخاصَّة في أوربا. ولقد تبيَّنَ لك كذب هذا المدعي بما أوردناه من صفات عيسى عليه السلام، ولقد كنا تحدَّثنا عن شيء من هذا عند الكلام على أن محمداً عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين.

الأمارة الثالثة ـ خروج يأجوج ومأجوج:

أ ـ حقيقتهم ودليل وجودهم:

يأجوج ومأجوج اسمان أعجميان لأقوام يبلغون من الكثرة مبلغاً عظيماً، ويفسدون في الأرض أيما إفساد.

غير أن القرآن الكريم أخفى على الناس ميعاد ظهورهم، فلا يعلم أجل ذلك أحد إلا الله عزَّ وجل، ولكنه نصَّ على أن ظهورهم علامة من العلامات الكبرى لاقتراب الساعة، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٦ ـ ٩٧].

وقال جلّ جلاله: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ۝٩٢ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ۝٩٣ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ۝٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ۝٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا

﴿سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٢ ـ ٩٩].

وفي الحديث الشيء الكثير الذي يدلُّ على خروجهم، من ذلك:

١ ـ ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن زينب بنت جحش أن النبيَّ ﷺ استيقظَ من النوم محمرًّاً وجهه يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه» حلَّق بأصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينت بنت جحش: فقلت: يا رسول أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخَبث»[1].

٢ ـ ما رواه مسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد عن النوّاس بن سمعان من الحديث الطويل الذي ذكرناه سابقاً وفيه: «ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدَب ينسلون، فيمرّ أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمرّ آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء...»[2].

٣ ـ ما رواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: اطَّلع علينا النبيُّ ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء والفتن برقم (٣٣٤٦ و٧٠٥٩) ومسلم في الفتن برقم (٢٨٨٠).

(٢) أخرجه مسلم في الفتن رقم (٢٩٣٧).

ونحن نتذاكر، فقال: «ما تذاكرون؟» قالوا: نذكر الساعة، قال: «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات»، وعدّ منها يأجوج ومأجوج[1]، وقد مر بك الحديث في أول بحث أشراط الساعة.

فأنت ترى أن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة، قد دلَّت دلالة قاطعة على: أن من أشراط الساعة ظهور هذه الأمة التي تعثو في الأرض فساداً، فكان الإيمان بذلك من الضروريات التي لا بدّ منها للإيمان بالكتاب والسنة.

ب ـ سيرتهم ونهايتهم:

ورد في مسلم بيان ذلك في حديث النَّوَّاس بن سمعان الذي مرّ ذكره، وفيه يقول:

«فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حَدَبٍ ينسلون، فيمرّ أوائلهم على بحيره طبرية فيشربون ما فيها، ويمرّ آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مئة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم، فيصبحون فرسى ـ قتلى ـ كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن (٢٩٠١) وأبو داود في الملاحم (٤٣١١) والترمذي في الفتن (٢١٨٢) وابن ماجه في الفتن (٤٠٤١).

ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب نبيُّ الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البخت، فتحملهم، فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً لا يكنّ منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة»[1].

هذا ولا بدّ من التنبيه هنا إلى أن أناساً أخذوا يذكرون أحاديث عن يأجوج ومأجوج، ويبالغون في ذكر صفاتهم، إن هذه الأحاديث لا أساس لها من الصحة، ونحن لم نكلف بأن نؤمن إلا بما جاء في القرآن، أو بما صحَّ من حديث رسول الله ﷺ.

الأمارة الرابعة ـ ظهور دابة الأرض:

دابة الأرض تعبير قرآني عن حيوان نَكِلُ علم نوعه وشكله وهيئته إلى الله عز وجل، وهذا الحيوان يظهر للناس قُبَيْلَ الساعة، والحكمة من ظهورها تمييز المؤمن من الكافر، فتسم المؤمن بما يدل على إيمانه، وتسم الكافر بما يدل على كفره، وحينئذ لا ينفع نفساً إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل. ولقد ورد ذكر الدابة هذه في القرآن وفي السنة.

أما القرآن الكريم ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].

وأما السنة الشريفة: فما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد، سمعت

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن برقم (٢٩٣٧) والزلقة: المرآة.

رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً»[1].

وما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدجَّال، والدابة، وخويصة أحدكم، وأمر العامة»[2].

وقد مرّ بك قريباً حديث حذيفة بن أسيد حينما عدّ أمارات الساعة العشر، وذكر منها دابة الأرض.

وروى مسلم عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث إذا خرجنَ لا ينفع نفساً إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجَّال، ودابة الأرض»[3].

الأمارة الخامسة ـ طلوع الشمس من مغربها:

ومعنى طلوع الشمس من مغربها: أنها تظهر للناس من جهة المغرب في وقت الصباح، على عكس ما هي عليه الآن من طلوعها من جهة المشرق، ولعل هذا بدء اختلال الكون؛ لأنَّ طلوع الشمس من مغربها هو آخر أمارات الساعة.

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن برقم (٢٩٤١).

(٢) أخرجه مسلم في الفتن (٢٩٤٧).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان برقم (١٥٨) (٢٤٩)، والترمذي في تفسير سورة الأنعام (٣٠٧٢).

ولقد وردت آيات كثيرة تدل على اختلال نظام الكون عند قيام الساعة، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ١ ـ ٧] ومنها قوله سبحانه: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ١ ـ ٥] إلى غير ذلك من الآيات.

وطلوع الشمس من مغربها ثابت بالقرآن، مفسّرٌ بالسنة النبوية.

قال سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وقد ورد تفسير هذه الآية على لسان رسول الله ﷺ بخروج الشمس من مغربها، روى البخاري في كتاب التفسير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقومُ الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمن من عليها، فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل»(١).

الأمارة السادسة ـ خروج الدخان:

وهذه الأمارة ثابتة في السنة، وقد مضى حديث مسلم في ذلك،

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٦).

وروى الطبراني: «إن ربكم أنذركم ثلاثاً: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه، والثانية: الدابة، والثالثة: الدَّجال»[1].

الأمارة السابعة والثامنة والتاسعة ـ ثلاثة خسوفات:

خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وقد مرّ الحديث في ذلك.

الأمـارة العـاشرة ـ نـار تخـرج مـن اليمـن تطـرد النـاس إلى محشرهم:

وهذه الأمارة هي من آخر الأمارات، وتكون قبيل قيام الساعة. ومكان محشر الناس الذي تسوقهم النار إليه: أرض الشام، وقد ثبت ذلك في عدة أحاديث عن النبي ﷺ.

ثالثاً ـ قيام الساعة والبعث والحشر والنشر

أ ـ قيام الساعة:

بعد أن يفتضح أمر الناس بظهور الدابة، ويتميز الكافر من المؤمن، يرسل الله تعالى ريحاً طيبة يموت بها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

روى مسلم في صحيحه: «أن الله يبعث ريحاً من اليمن ألين من

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٦٥) عن هذا الحديث: إسناده جيد.

الحرير، فلا تدع أحداً في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته»[1].

وهكذا لا يبقى على وجه الأرض إلا الكفار، فتقوم عليهم الساعة.

روى مسلم في صحيحه والترمذي عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله»[2].

وفي مسلم: آخر حديث النوّاس بن سمعان الذي مرّ ذكره: «فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة»[3].

ب ـ النفخ في الصور:

بعد ذلك ينفخ في الصور **النفخة الأولى**، فيهلك من في السموات والأرض إلا من شاء الله. ويكون بهذه النفخة انتهاء الحياة من على ظهر الأرض، وتسمى هذه النفخة نفخة الصعق، والصور: شيء كالبوق، قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان برقم (١١٧).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان برقم (١٤٨) والترمذي في الفتن برقم (٢٢٠٧).

(٣) أخرجه مسلم في الفتن برقم (٢٩٣٧).

وقد وصف القرآن الكريم ما يحدث بهذه النفخة، فقد جاء فيه: أن الله يطوي السماء كطيِّ السجل للكتب، وإن الله سبحانه يقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] فلا يُجيبه أحد، فيجيب نفسه قائلاً: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وتتبدل الأرض غير الأرض والسموات، فيبسطها، ويسطحها، ثم يمدها مدّ الأديم، كما قال سبحانه: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧].

النفخة الثانية: وبعد أن يمرّ على الناس زمان طويل في باطن الأرض، ينفخ في الصور نفخة ثانية، فيخرج الناس من قبورهم، قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥١ ـ ٥٢] وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨]. وهذا ما يسمى بالبعث، وهو ما يسمى أيضاً بالنشر والنشور، وبهذا البعث يبدأ اليوم الآخر الذي نتحدث عنه فيما يلي:

ج ـ اليوم الآخر وأحواله:

اليوم الآخر هو اليوم الذي ليس بعده يوم أبداً، حيث تتلاشى حدود الزمان، ويبقى الزمن المطلق.

وقد أوجب الله سبحانه علينا الإيمان باليوم الآخر، وجعله ركناً من أركان الإيمان وهو ـ كما ذكرنا ـ برهان على عدالة الله سبحانه.

* * *

رابعاً ـ أحوال يوم القيامة

تجري على الناس يوم القيامة أحوال كثيرة، وها نحن نسوقها حسب ترتيبها في الوقوع:

١ ـ البعث:

لقد ذكرنا أنه يبتدىء اليوم الآخر بالبعث، فكيف يكون هذا البعث؟

إذا مات ابن آدم بلي جسده كله، ولا يبقى منه إلا ذرة صغيرة تسمَّى: «عَجْب الذنب» وهذا يكون في رأس العصعص، وقد ثبت ذلك في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وليس شيء من الإنسان إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عَجْب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة»[١]. فإذا أراد الله تعالى البعث أنزل من السماء ماء على ذلك الجزء الباقي، ثم يحيي إسرافيل، ويأمره أن ينفخ في الصور النفخة الثانية، وهي نفخة الإحياء، فتنبت الخلائق كما ينبت البَقْل، كما قال عليه الصلاة والسلام: «ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل»[٢]، وينادي الربُّ الأرواحَ فتعود إلى

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير برقم (٤٩٣٥) ومسلم في الفتن برقم (٢٩٥٥).

(٢) انظر المصدرين السابقين.

أجسادها التي كانت فيها في هذه الدنيا، فيقوم الخلائق قائلين: ﴿ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ [يس: ٥٢].

والبعث يتناول جميع مخلوقات الله تعالى من إنسان، وحيوان، وجماد، ومَلَكٍ، وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ﴾ [الزلزلة: ٤] قال: «أتدرون ما أخبارها؟ أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمل يوم كذا، كذا وكذا. فهذه أخبارها»[١] ولا يمكن أن تشهد إلا إذا بعثها الله.

وقد جاء في البخاري عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة: أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «أراك تحبُّ الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن، ولا إنس، ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة، قال أبو سعيد: سمعته من رسول الله ﷺ»[٢].

هذا ولما كان البعث بعد الموت مكان استغراب عند الإنسان، بيّن الله سبحانه قدرته على ذلك في كثير من الآيات، وبأساليب شتى، ومما قاله الله سبحانه في ذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٩).
(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦٠٩).

مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥ ـ ٧].

وقال عزّ من قائل: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٨٣].

وقال جل جلاله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٦ ـ ٦٨].

٢ ـ الحوض:

○ لقد أعطى الله تعالى سيدنا محمداً ﷺ نهراً في الجنة يُسمَّى:

«الكوثر» يصبُّ منه ميزابان على أرض في الموقف، وهذه الأرض التي يصبُّ فيها هذان الميزابان تُسمَّى: الحوض.

روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال:

«بينما أنا أسير في الجنة إذا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوَّف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربُّك، فإذا طينه ـ أو: طيبه ـ مسك أذفر»(١).

وفيه أيضاً عن عائشة رضي الله عنها، وقد سألها أبو عبيدة عن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] قالت: نهر أعطيه نبيكم ﷺ شاطئاه عليه درّ مجوّف، آنيته كعدد النجوم»(٢).

وفي الترمذي عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج»(٣) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وروى الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسماً، قلنا: ما يضحكك يا رسول الله؟! قال: «لقد أنزلت عليّ آنفاً سورة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٨١).

(٢) انظر هذا الحديث والذي قبله في البخاري عند تفسير سورة الكوثر (٤٩٦٥).

(٣) أخرجه الترمذي في التفسير برقم (٣٣٦١).

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١ ـ ٣]» ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه نهر وعدنيه ربي عزّ وجل، عليه خير كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم في السماء، فيختلج العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمتي، فيقول: إنك لا تدري ماذا أحدث بعدك»[1].

والحوض هو أول ما يتجه إليه الخلق بعد البعث، لأنهم قد خرجوا من قبورهم عطاشاً، فيردون حياض الأنبياء، إذ إن لكلِّ نبيٍّ حوضاً، كما قال ﷺ: «إن لكل نبيٍّ حوضاً، وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة»[2] أخرجه الترمذي.

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ترد أمتي عليّ الحوض، وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله» قالوا: يا نبي الله أتعرفنا؟ قال: «نعم. لكم سيما ليست لأحد غيركم، تردون عليّ غراً محجَّلين من آثار الوضوء، وليصدّنّ عني طائفة منكم فلا يصلون، فأقول: يا رب هؤلاء من أصحابي! فيجيبني ملك فيقول: وهل تدري ما أحدثوا بعدك؟»[3].

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة برقم (٤٠٠).
(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة برقم (٢٤٤٣).
(٣) أخرجه مسلم في الإيمان برقم (٢٤٧).

وفي البخاري أحاديث كثيرة تدلُّ على وجود الحوض. منها: «أنا فرطكم على الحوض، من ورده شرب منه، ومن شرب منه لم يظمأ بعده أبداً، ليردنّ عليّ أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم يُحال بيني وبينهم»[1] ومنها: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض»[2].

وقد ورد في صفات هذا الحوض أحاديث كثيرة منها: ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله! ما آنية الحوض؟ قال: «والذي نفس محمد بيده! لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها، ألا في الليلة المظلمة المصحية، آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه، يشخب فيه ميزابان من الجنة، من شرب منه لم يظمأ، عرضه مثل طوله، ما بين عُمان إلى أيلة، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل»[3].

ومنها: ما رواه مسلم عن جابر بن سمرة عن رسول الله ﷺ، قال:

«ألا إني فرط لكم على الحوض، وإنَّ بعد ما بين طرفيه كما بين صنعاء وأيلة، كأن الأباريق فيه النجوم»[4].

٣ ـ الحشر:

الحشر لغة: الجمع، قال تعالى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ

---

(١) انظر البخاري أول كتاب الفتن رقم (٦٥٧٥) ورقم (٦٥٧٦).
(٢) المصدر السابق.
(٣) أخرجه مسلم في الفضائل برقم (٢٣٠٠).
(٤) أخرجه مسلم في الفضائل برقم (٢٣٠٥).

وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧] وقال سبحانه: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

والحشر شرعاً: جمع الخلائق يوم القيامة للعرض على الله تعالى والحساب بين يديه.

ولقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تتحدَّث عن يوم الحشر، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

وفي هذا المحشر تقع أهوال عظيمة تفوق حدّ التصور، ويكفي أن تعلم: أن الشمس يوم القيامة تدنو من الخلائق حتى تكون منهم قدر ميل، فيكون الناس على قرب منها.

عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُدنىٰ الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يُلجمه العرق إلجاماً»[1] قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه.

ويطول قيام الناس في هذا الموقف العصيب، ويهوج الناس، ويموجون، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد.

ولكن هول الموقف لا يكون على جميع الناس، فهناك أناس

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها برقم (٢٨٦٤).

صدقوا الله تعالى في هذه الدنيا فنجاهم من هول ذلك الموقف، وأظلَّهم بظلٍّ عرشه يوم لا ظلَّ إلا ظله.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«سبعة يُظلُّهم الله تعالى في ظلِّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»[1].

وهناك فريق من المؤمنين المخلصين لا يشعرون بطول ذلك اليوم رغم طوله، فلقد جاء في مسند الإمام أحمد: قيل: يا رسول الله! يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ما أطول هذا اليوم؟! فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده! إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يُصلِّيها في الدنيا»[2].

ولقد أشار القرآن الكريم إلى لطف الله بالمؤمنين في ذلك اليوم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ۝١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة برقم (١٤٢٣) ومسلم في الزكاة برقم (١٠٣١).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٥٧).

خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١ ـ ١٠٣] وقال سبحانه: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٧ ـ ١٢].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

ويحشر الناس يوم القيامة حفاة، عراة، غرلاً، ويحشر معهم جميع أجزائهم المتصلة والمنفصلة عنهم في حال حياتهم في الدنيا.

روى البخاري، ومسلم، والنسائيّ: عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال النبي ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة حفاةً، عراة، غرلاً» قلت: يا رسول الله! النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟! قال: «يا عائشة! الأمر أشدّ من أن ينظر بعضُهم إلى بعض»(١).

وفي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إنكم محشورن حفاة، عراة، غرلاً، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق برقم (٦٥٢٧) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها برقم (٢٨٥٩) والنسائي في الجنائز (٤/ ١١٤). وغرلاً: جمع أغرل، وهو الذي لم تقطع منه الجلدة التي على حشفة الذكر.

أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. وأول من يُكسى يوم القيامة إبراهيم، وإن أناساً من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: أصحابي! أصحابي! فيقول: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ...﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾[1] [المائدة: ١١٧ ـ ١١٨]».

أما أرض المحشر فقد مرّ بنا أن نظام الكون يختل، فالأرض تهتز وتمور، والكواكب تنتثر، وقال الله سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. فالتبديل لا بدّ كائن وواقع، ولكن كيف يكون ذلك؟

لقد اختلف العلماء في تحديد كيفية هذا التبديل على قولين:

أحدهما: أن تبديل الأرض هو عبارة عن تغيير صفاتها، وتسوية آكامها، ونسف جبالها، ومدّ أرضها، وروي هذا مرفوعاً إلى النبي ﷺ، فقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ: أنه قال: «تُبَدَّلُ الأرض، فيبسطها، ويمدّها مدّ الأديم العكاظيّ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً»[2].

وتبديل السماء: تكوير شمسها وقمرها، وتناثر نجومها، وقيل: اختلاف أحوالها، فتارة تكون كالمهل، وتارة تكون كالدِّهان.

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء برقم (٣٣٤٩).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٤٨٢).

ثانيهما: أن التبديل هنا: هو إزالة السموات والأرض والإتيان ببدلهما، ولقد رجَّح القرطبيُّ هذا القول، وأيَّده بمؤيدات، وعلى كل فقد ورد في صفات الأرض التي يكون عليها المحشر أحاديث، منها: ما رواه البخاري، ومسلم: عن سهل بن سعد الساعديِّ، عن النبي ﷺ قال: «يُحشر النَّاسُ يومَ القيامة على أرض بيضاءَ عفراءَ، كقرصة النقيّ ـ الدقيق الحواريِّ ـ ليس فيها معلَم لأحد»[1] المعلَم: علامة الملك ببناء أو غيره.

٤ ـ الشفاعة:

ثبوتها: الشفاعة يوم القيامة ثابتة بالقرآن والسُّنة الصحيحة.

أما القرآن الكريم، فقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وأما السنة، فما رواه الترمذي عن ابن عباس قال: «جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه، قال: فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون، فسمع حديثهم، فقال بعضهم: عجباً إن الله اتخذ من خلقه خليلاً، اتخذ من إبراهيم خليلاً، وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى كلَّمه الله تكليماً، وقال آخر: فعيسى كلمة الله وروحه، وقال آخر: آدم اصطفاه الله، فخرج عليهم فسلَّم وقال: «قد سمعت كلامكم وعجبكم، إن إبراهيم خليل الله

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق برقم (٦٥٢١) ومسلم في صفات المنافقين برقم (٢٧٩٠).

وهو كذلك! وموسى نجيّ الله وهو كذلك، وعيسى روح الله وكلمته وهو كذلك، وآدم اصطفاه وهو كذلك، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر! وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر! وأنا أول شافع وأول مشفَّع يوم القيامة ولا فخر! وأنا أول من يحرك حَلقَ الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر! وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر!»[1].

وما رواه البخاري: «أُعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي... وأُعطيت الشفاعة»[2] والأحاديث التي تثبت الشفاعة كثيرة، وهي مبثوثة في كتب الحديث.

أنواع الشفاعة: والشفاعة على نوعين: الأولى: شفاعة الرسول عليه الصلاة والسلام، والثانية: شفاعة غيره من الأنبياء والشهداء وصالحي المؤمنين.

١ً ـ شفاعة الرسول عليه الصلاة والسلام:

للرسول عليه الصلاة والسلام شفاعة عامة وشفاعة خاصة.

أ ـ أما الشفاعة العامة ـ وهي من خصائصه عليه الصلاة والسلام إكراماً له وإعلاء لقدره ـ فتكون عندما يشتد هول الموقف على الخلائق، ويطول عليهم الوقوف، ويتمنى أحدهم الخلاص من هذا الموقف ولو إلى جهنم، ويلجأ الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا لهم عند الله ليتفضل بفصل الحساب، ويعتذر الجميع، ويتقدم سيدنا

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب رقم (٣٦١٦).
(٢) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥).

محمد ﷺ، فيشفعه الله في الخلائق فيشفع لهم، ويتفضل الله تعالى بفصل الحساب.

وقد ورد في هذه الشفاعة العامة أحاديث كثيرة رواها البخاري، ومسلم، وغيرهما.

ب ـ وأما الشفاعة الخاصة له عليه الصلاة والسلام، فتكون خاصة لأمته، وتحصل بإدخال قوم الجنة بغير حساب، كما تحصل الشفاعة في قوم استوجبوا النار بأعمالهم، فيشفع لهم عند الله فلا يدخلونها، كما تكون شفاعته عليه الصلاة والسلام في إخراج من قال: لا إله إلا الله من النار، كما تكون في رفع درجات قوم في الجنة.

٢ ـ شفاعة الأنبياء والصالحين والقرآن:

لقد ورد في القرآن الكريم ما يدلُّ على أن هناك من يشفع غير سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فلقد قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ [طه: ١٠٩].

ولقد بيَّنت السنة أصنافاً ممن يشفعون يوم القيامة، من ذلك ما رواه ابن ماجه بسند حسن، عن عثمان رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء»[١].

والعلماء هم العاملون بعلمهم، والذين يعلِّمون الناس

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد (٤٣١٣).

ما ينجيهم في الآخرة من عذاب الله تعالى. ويشفع كل واحد من هؤلاء على قدر مكانته عند الله تعالى، فقد قال ﷺ: «إن من أمتي من يشفع للفئام ـ الجماعة الكثيرة ـ ومنهم من يشفع للقبيلة، ومنهم من يشفع للعصبة، ومنهم من يشفع للرجل حتى يدخلوا الجنة»(١).

وقال: «يشفع عثمان بن عفَّان يوم القيامة في مثل ربيعة ومضر»(٢).

هذا ومهما قلنا في الشفاعة فإنها لا تتناول من مات على كفره، ولقد قال الله تعالى: في كتابه الكريم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨].

٥ ـ الحساب:

بعد أن يقبل الله شفاعة الرسول عليه الصلاة والسلام للخلائق الواقفة في المحشر يتفضل الله سبحانه بحساب الخلائق على أعمالها.

والحساب: هو إطلاع الله عباده على أعمالهم، وما جنوه في دار الدنيا من تصرفات فعلية، أو قولية، أو اعتقادية، خيراً كانت، أو شراً، يطلعهم ربهم على ذلك تفصيلاً.

والحكمة من هذا الحساب: أن يظهر الله فضائل أعمال المتقين

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة برقم (٢٤٤٠).
(٢) أخرجه الترمذي في صفة الجنة برقم (٢٤٣٩).

ومناقبهم، وفضائح العصاة ومثالبهم، وذلك على رؤوس الأشهاد.

هذا بالإضافة إلى إبراز عدل الله تعالى وفضله على المؤمنين من خلقه جلّ وعلا.

والآيات الدالّة على الحساب كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

وقوله سبحانه: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٦ ـ ٨].

وقوله عز وجل: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٦].

وقال جلّ وعلا: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٥ ـ ١٧].

أصناف الناس في الحساب:

والناس في الحساب ليسوا على درجة واحدة، إذ لا يعقل أبداً

أن يتساوى في الحساب من ألزم نفسه التقيُّد بأحكام الله تعالى، مع من دخل في جند الشيطان، فهو يعمل بوحيه وإرشاده، ولذلك كان الناس في الحساب على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول ـ صنف يدخل الجنة بغير حساب:

روى البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «عرضت علي الأمم، فأجد النبيَّ يمر معه الأمة، والنبيَّ يمر معه النفر، والنبيَّ يمر معه العشرة، والنبيّ يمر معه الخمسة، والنبيّ يمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير، قلت: يا جبريل هؤلاء أمتي؟ قال: لا؛ ولكن أنظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد كثير. قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفاً قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب، قلت: ولم؟ قال: كانوا لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكَّلون» فقام عكاشة بن مِحْصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «اللهم اجعلْه منهم» ثم قام إليه رجل آخر قال: ادعُ الله أن يجعلني منهم، قال: «سبقك بها عكاشة»[1].

الصنف الثاني ـ صنف يُحاسب حساباً يسيراً بلا مناقشة ولا تشديد:

وهؤلاء تُعرض عليهم أعمالهم عرضاً، ثم يتجاوز الله تعالى عن سيئاتهم، وهؤلاء هم الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم، وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق برقم (٦٥٤١).

﴿يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧ ـ ٩].

وقد نقل البخاريُّ لنا صورة حساب هؤلاء، فقد روى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يُدْنَى المؤمن من ربِّه، حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه: تعرف ذنب كذا؟ يقول: أعرف، يقول: ربّ أعرف ـ مرتين ـ فيقول: سترتها في الدنيا، وأغفرها لك اليوم، ثم تطوى صحيفة حسناته، وأما الآخرون، أو الكفار، فينادى على رؤوس الأشهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾»[1] [هود: ١٨].

الصنف الثالث ـ يُحاسب حساباً عسيراً:

وهؤلاء يناقشون ويدقق عليهم في الحساب. وهم الذين تحدَّث عنهم البخاري، فقد روى في صحيحه أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي ﷺ قال: «من حُوسب عذِّب» قالت عائشة فقلت: أوليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]، قالت: فقال: «إنما ذلك العرض، ولكن من نُوقش الحساب يهلك»[2].

○ هذا ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنَّ أول ما يحاسب عليه المرء

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير برقم (٤٦٨٥).
(٢) أخرجه البخاري في العلم برقم (١٠٣).

من حقوق الله تعالى الصلاة، وأول ما يحاسب عليه من حقوق العباد: الدماء.

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «إن أول ما يُحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيء قال الرب عزّ وجل: انظروا هل لعبدي من تطوع، فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك»[1].

وروى البخاري ومسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول ما يُقضى بين العباد في الدماء»[2].

ولا بد من الإشارة هنا أيضاً: أن هناك ذنوباً لا يغفرها الله تعالى من ذلك: الشرك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]. ومن ذلك: الذنوب المرتكبة بالاعتداء على حقوق العباد، كالسب، والسرقة، ونحو ذلك، فهذه الذنوب الأصل فيها عدم المغفرة، ولكن قد يتجاوز الله تعالى عنها بعد إرضاء صاحب الحق. ولقد قال رسول الله ﷺ: «أتدرون من المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة،

---

(١) أخرجه الترمذي في الصلاة برقم (٤١٣).

(٢) أخرجه البخاري في الديات برقم (٦٨٦٤) ومسلم في القسامة برقم (١٦٧٨).

وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقْضَى ما عليه، أُخِذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»[1].

كيف يتم تسلُّم صحف الأعمال؟

أخرج الترمذي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يُعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان: فجدال ومعاذير، وأما العرضة الثالثة: فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فآخذ بيمينه، وآخذ بشماله»[2].

فأمَّا الذين يأخذون كتابهم بيمينهم فهم المؤمنون المخلصون، فإذا أخذوها بأيمانهم طاروا فرحاً، وأخذوا يعرضون كتبهم على الناس، سعداء بما آل إليه أمرهم من نعيم الله، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٤].

وأما الذين يأخذون كتابهم بشمالهم من وراء ظهورهم فهم الكافرون الذين لا يؤمنون بالله تعالى، وما إن يستلمون كتبهم حتى يُسقَطَ في أيديهم، ويتمنوا الموت الأبدي، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة برقم (٢٥٨١).

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة برقم (٢٤٢٥).

كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة: ٢٥ ـ ٣٧]. وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٠ ـ ١٢] أي: يأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره.

٦ ـ وزن الأعمال:

بعد الحساب وتسلم الكتب يجري الوزن، وهو وزن عام شامل لجميع ما اقترف الإنسان من آثام، وما عمله من صالحات، وهو ميزان دقيق عادل لا يخطىء، صنع الله الذي أتقن كل شيء، قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وإن الذي عليه جمهور العلماء: أن الذي يُوزن هو الأعمال لا السجلات، واستدلوا على ذلك بأحاديث عديدة منها:

أ ـ مارواه مسلم والترمذي: عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصَّدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن

حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه، فمعتقها، أو موبقها»[1].

٢ ـ ما أخرجه البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن: خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[2].

والخلق في وزن الأعمال يكونون على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: هم الذين ثَقُلتْ موازينهم، ورجحت كفة الحسنات على كفة السيئات، وهؤلاء هم أصحاب الجنة، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٦ ـ ٧].

الصنف الثاني: هم الذين خفَّت موازينهم، ورجَحت كفة السيئات على كفة الحسنات، وهؤلاء هم أصحاب النار، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ٨ ـ ١١].

الصنف الثالث: هم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم، وهؤلاء هم أهل الأعراف، ويبقى هؤلاء حتى يمتحنهم الله، فأمرهم موكول إليه سبحانه.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان برقم (٢٢٣)، والترمذي في الدعوات برقم (٣٥١٧).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد برقم (٧٥٦٣)، وهو آخر حديث فيه.

ولسائل أن يسأل: ما حقيقة هذا الميزان الذي تُوزن به الأعمال؟

والجواب على ذلك: أننا في هذه الدنيا عندنا عدة موازين، وكل ميزان معد للأمر الذي يقوم به، ويختلف تركيبه عن تراكيب الموازين الأخرى، فميزان للحرارة، وميزان للكثافة، وميزان للضغط، وميزان للأجسام، وهكذا.

والله سبحانه قادر على إيجاد ميزان يتناسب مع وزن الأعمال، ولكن معرفة حقيقة هذا الميزان موكول إلى علم الله سبحانه.

٧ ـ الصراط:

بعد وزن الأعمال يتجه الخلائق إلى الصراط.

أ ـ معنى الصراط:

الصراط في اللغة معناه: الطريق، وأما في مصطلح الشارع فإنه قد أطلق على معنيين: أحدهما في الدنيا، وهو المنهج الذي شرعه الله لعباده وأمرهم باتباعه، وهذا هو المعنى بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ثانيهما في الآخرة: وهو الجسر الذي ينصب على نار جهنم يوم القيامة، فيجتاز عليه الناس كلهم على اختلاف مذاهبهم، وأحزابهم، واتجاهاتهم، فالمؤمنون ينجون بحسب حالهم، والآخرون يسقطون في نار جهنم، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الصراط بقوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١ ـ ٧٢].

قال الإمام النووي رحمه الله في شرح مسلم: ولقد أجمع السلف على إثبات الصراط، وهو جسر على متن جهنم يمرّ عليه الناس كلهم، فالمؤمنون ينجون على حسب حالهم، والآخرون يسقطون فيها، أعاذنا الله الكريم منها.

٢ ـ صفة الصراط وحقيقته:

لقد ورد في الحديث بعض صفات لهذا الصراط الذي يمرّ عليه الناس يوم القيامة، من ذلك:

أ ـ أنه زلق تزل فيه الأقدام: فقد روى البخاري في صحيحه ومسلم: عن أبي سعيد الخدري في حديث طويل عن الرسول عليه الصلاة والسلام: «ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم» قلنا: يا رسول الله! وما الجسر؟! قال: «مدحضة مزِلَّة، عليه خطاطيف، وكلاليب، وحسكة مفلطحة لها شوكة عُقَيْفاء، تكون بنجد يقال لها السعدان، المؤمن عليها كالطرف، وكالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل، والركاب...»[١].

ب ـ أنه أدق من الشعر وأحدّ من السيف: فقد روى الإمام أحمد في مسنده: عن عائشة رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ قوله: «ولجهنم جسر أدق من الشعر وأحدّ من السيف»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد برقم (٧٤٣٩) ومسلم في الإيمان برقم (١٨٣).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١١٠).

وأخرج مسلم: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «بلغني: أن الجسر أدقّ من الشعرة وأحدّ من السيف»(1) وهذا له حكم الحديث المرفوع.

٣ـ كيفية اجتياز الصراط:

بعد وزن الأعمال يتجه الناس إلى الصراط لاجتيازه، ويكون سيد الخلائق محمد عليه الصلاة والسلام أول من يجتاز الصراط مع أمته، كما ثبت ذلك بالحديث الصحيح.

أخرج البخاري، ومسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ويُضرب الصراط بين ظهري جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجيزها، ولا يتكلَّم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلِّم سلِّم»(2).

ويجتاز المؤمن الصراط ونوره يسعى بين يديه، لا يتعثر ولا يلتوي، كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢]. فمنهم من يمرّ كطرفة عين، ومنهم من يمرّ كالبرق، ومنهم من يمرّ كالريح، ومنهم من يمرّ كالطير، ومنهم من يمرّ كأجاويد الخيل، ومنهم من يمرّ كراكب الإبل، كلٌّ حسب عمله وإخلاصه لله تعالى، وقد مرّ بك من قريب الحديث

---

(1) أخرجه مسلم في الإيمان برقم (١٨٣).

(2) أخرجه البخاري في التوحيد برقم (٧٤٣٧) ومسلم في الإيمان برقم (١٨٢).

الذي يدل على ذلك. وفي الصراط يقول الإمام الغزالي: «وهذا ممكن فيجب التصديق به، فإن القادر على أن يطيّر الطير في الهواء قادر على أن يسيّر الإنسان على الصراط»[1].

أما الكافرون والمنافقون الذين تنكَّروا لرسل الله ومبادئهم، فإنهم سرعان ما تنزلق أرجلهم عن الصراط، فتخطفهم خطاطيف فتلقيهم في النَّار. وقانا الله من ذلك!

٤ ـ الحكمة من الصراط وبيان أهواله:

إن هذا الصراط الذي يمرُّ عليه الناس إن هو إلا تجسيد معنى الصراط الذي ألزم الله به عباده في الدنيا، فمن ضيَّق على نفسه سبل العيش والحياة فالتزم بالحلال، وامتنع عما حرَّمه الله حتى لا يخرج عن صراط الله ومنهجه، اتسع أمامه الصراط على متن جهنم، ومن وسَّع على نفسه سبل العيش والحياة آخذاً بالحلال والحرام، وتجاوز حدود الله وأحكامه؛ ضاق عليه ذلك الصراط غداً.

ولقد تحدَّث الإمام الغزالي رضي الله عنه في كتابه: «إحياء علوم الدين» مبيناً حكمة هذا الصراط وأهواله فارجع إليه إن شئت[2].

٨ ـ الجزاء:

لقد تبين لك من خلال الحديث عن الصراط: أن الناس في الآخرة ينقسمون إلى فريقين على حسب أعمالهم: فريق في الجنة، وفريق في السعير، ولا بدّ هنا من التأكيد على حقيقتين:

---

(١) إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي (١/ ١١٥).
(٢) المرجع السابق (٤/ ٥٢٤).

الأولى: أن النعيم في الجنة، والعذاب في النار هما للروح والجسد معاً؛ لأن البعث والحشر والحساب يكون لهما معاً، وسيأتي توضيح ذلك عند الحديث عن الجنة والنار قريباً.

الثانية: أن كلاً من الجنة والنّار يخلد من دخل إليهما، ما عدا عصاة المؤمنين فهؤلاء يعاقبون على مقدار أعمالهم إذا لم يعف الله عنهم، ثم يؤخذون إلى الجنة ليثابوا على إيمانهم، ولن يخلد أحد من المؤمنين في النار، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٦ ـ ١٠٨] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦١ ـ ١٦٢].

وما أكثر الآيات في القرآن الكريم الدالّة على خلود أهل الجنة في الجنة، وخلود أهل النار في النار.

ومما يدلُّ على أن عصاة المؤمنين يخرجون من النار ويدخلون الجنة: ما رواه البخاري ومسلم والترمذي: عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه ما يزن ذرّة»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان برقم (٤٤) ومسلم في الإيمان برقم=

هذا وإذا استقرَّ أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، أعلن على الفريقين: أن حياتهم على هذا الشكل خالدة.

روى البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إذا صار أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم ينادى: يا أهلَ الجنة خلود ولا موت! ويا أهل النار خلود ولا موت! فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم»[1].

٩ ـ الجنة والنار وما جاء في وصفهما:

قلنا: إن الناس ينقسمون يوم القيامة إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في النار، فما هي حقيقة الجنة؟ وما هي حقيقة النار؟

ولكن قبل أن نجيبَ على هذا السؤال، لا بدّ لنا من تساؤل آخر: هل الجنة والنار مخلوقتان وموجودتان الآن؟

جمهور أهل السنة، وأبو علي الجبَّائي، وأبو الحسين البصري يذهبون إلى أن الجنة والنار مخلوقتان وموجودتان الآن، واستدلُّوا على ذلك بدليلين:

أحدهما: قصة آدم وحواء، وإسكانهما الجنة وإخراجهما منها بالزلَّة، وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٨]

= (١٩٣) والترمذي في صفة جهنم برقم (٢٥٩٣).

(١) أخرجه البخاري في الرقاق برقم (٦٥٤٨) ومسلم في الجنة برقم (٢٨٥٠).

والهبوط في الأصل النزول من الأعلى إلى الأسفل. وإذا كانت الجنة مخلوقة فالنار كذلك، إذ لا قائل بالفرق.

ثانيهما: قوله تعالى في صفتهما: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] بلفظ الماضي، وهو صريح في وجودهما(١). ومن الأدلة: أحاديث المعراج الصحيحة.

أً ـ الجنة وما جاء في صفتها:

الجنة مأخوذة من مادة ج ن ن، وهذه المادة تعني في اللغة العربية: الستر، ومنه: المجن، والجنين، والمجنون، ومنه: الجنة بمعنى: البستان، سميت بذلك لاستتار أرضها بالأشجار والمروج.

وأما الجنة في عرف الشرع: فهي الدار التي أعدَّها الله في الآخرة للصالحين من عباده.

ولقد جاء في القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة وصف لهذه الجنة نذكر منها ما يلي:

أ ـ مكان الجنة:

مكان الجنة فوق السماء السابعة، وسقفها عرش الرحمن، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣ ـ ١٥] وقد ثبت: أن سدرة المنتهى فوق السماء السابعة، أما كون سقفها عرش الرحمن: فقد ثبت في

---

(١) انظر المواقف، للإيجي (٣٧٤ ـ ٣٧٥).

الحديث الذي أخرجه الترمذي عن عبادة: أن رسول الله ﷺ قال: «في الجنة مئة درجة، ما بين كلٍّ درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنه تفجر أنهار الجنة الأربعة، ومن فوقها يكون عرش الرحمن، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس»(١).

ب ـ أبوابها ومفاتحها:

للجنة ثمانية أبواب، فقد روى البخاري ومسلم، عن سهل، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «في الجنة ثمانية أبواب، فيها باب يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون»(٢).

ومفتاح الجنة «لا إله إلا الله» فقد روى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مفتاح الجنة: شهادة أن لا إله إلا الله»(٣).

ج ـ بناء الجنة وترابها وغرفها وأشجارها وثمارها:

روى الترمذي عن أبي هريرة قلت: يا رسول الله مم خُلِق الخلق؟ قال: «من الماء» قلت: الجنة ما بناؤها؟ قال: «لبنة من فضة ولبنةٌ من ذهب، وملاطها المسك الأَذْفَر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران»(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة الجنَّة برقم (٢٥٣١).
(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق برقم (٣٢٥٧) ومسلم في الصيام برقم (١١٥٣) (١٦٦).
(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٢٤٢).
(٤) أخرجه الترمذي في صفة الجنة برقم (٢٥٣٦). والملاط: ما =

ولقد جاء في القرآن الكريم: أن في الجنة غرفاً، قال الله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠].

وجاء في الحديث وصف لهذه الغرف، فقد روى البخاري ومسلم والترمذي: «أن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق إلى المغرب»[١].

وقد ذكرَ القرآن الكريم: أن في الجنة فاكهة، ورماناً، وروى البخاري ومسلم: عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مئة عام لا يقطعها»[٢].

د ـ أول من يدخل الجنة وآخر من يدخلها:

أول من يدخل الجنة محمد عليه الصلاة والسلام، روى مسلم: عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك»[٣] ثم يدخل خلف رسول الله ﷺ أمَّتُه على أفواج، وجه الواحد منهم كالبدر المنير. روى البخاري في

= يجعل من الطين بين سافي البناء.

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق برقم (٣٢٥٦) ومسلم في صفة الجنة برقم (٢٨٣١) والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٦).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٥٥٣) ومسلم برقم (٢٨٢٧).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان برقم (٣٣٣).

صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين على آثارهم كأحسن كوكب درّيّ في السماء إضاءة. . .»[1].

وروى البخاري ومسلم: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها، وآخر أهل الجنة دخولاً الجنة، رجل يخرج من النار حبواً، فيقول الله تبارك وتعالى له: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيُخَيَّل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى، فيقول الله تبارك وتعالى له: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى! فيقول له: اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، فيقول: أتسخر بي وأنت الملك، قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه، قال: فكان يقال: ذاك أدنى أهل الجنة منزلة»[2].

فإذا كان هذا ما يناله أدنى أهل الجنة منزلة، فكيف بمن كان أعلاهم منزلة، فاللهم إنا نسألك الفردوس في الجنة يا رب العالمين!

هذا وليس في الجنة كبير في السن ولا صغير فيه، وإنما هم جميعاً في سنٍّ واحدة هي ثلاث وثلاثون سنة.

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق برقم (٣٢٤٦).
(٢) أخرجه البخاري في الرقاق برقم (٦٥٧١) ومسلم في الإيمان برقم (١٨٦).

روى الترمذي في سننه عن معاذ بن جبل: أن النبي ﷺ قال: «يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً مكحَّلين أبناء ثلاثين أو أبناء ثلاث وثلاثين سنة»[1] وقال: حديث حسن غريب.

هـ ـ طعام أهل الجنة وشرابهم ولباسهم ونساؤهم:

ليس في الجنة طعام محدّد، بل فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذّ به الأعين، إمعاناً في النعيم، قال الله تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠ ـ ٧٢].

فإن اشتهى الفاكهة وجدت، وإن اشتهى اللحوم وجدت، وإن اشتهى غير ذلك كان له ما يشتهي، قال الله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠ ـ ٢١].

أما شرابهم: فرحيق مختوم ممزوج بالمسك، قال الله تعالى: ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ [المطففين: ٢٥ ـ ٢٦] أو ماء ممزوج بالكافور، أو الزنجبيل، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥] وقال: ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٧ ـ ١٨].

فهم يأكلون ويشربون بكل سعادة، لأن الله تعالى يقول: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة الجنة برقم (٢٥٤٥).

ولكن أين تذهب فضلات هذا الطعام والشراب؟ وهل في الجنة مراحيض وكُنُف كما الحال في الدنيا؟

يجيب عن هذا السؤال ما ورد في صحيح مسلم عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أهل الجنة يأكلون فيها، ويشربون، ولا يتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوَّطون، ولا يمتخطون» قالوا: فما بال الطعام؟ قال: «جشاء، ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد؛ كما تلهمون النَّفَس»(١).

وأما لباس أهل الجنة فثيابهم فيها: السندس، والإستبرق، وحليّهم فيها: الذهب، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ(٢) مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ [الكهف: ٣١].

وليس هذا فحسب، بل لهم فيها ما يشتهون من اللباس والحلي وغيرها، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

وأما نساء أهل الجنة فكلهن في عمر الورد عذارى، كل واحدة منهن تحبُّ زوجها الحبَّ الشديد، ولا يمتد طرفها إلى غيره، فهن في أوج الإخلاص له، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة برقم (٢٨٣٦).

(٢) السندس: ما رقَّ من الديباج، والإستبرق: ما غلظ من الديباج.

أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا[1] أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٣٥ ـ ٣٨]
وقال سبحانه: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾
[الرحمن: ٥٦] وقد جاء في وصف جمالهن أحاديث كثيرة منها:
ما رواه البخاري، والترمذي عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ
قال: «ولو أنَّ امرأة من أهل الجنة اطلعت على أهل الأرض
لأضاءت ما بينهما ولملأته ريحاً، ولَنَصيفُها على رأسها خير من
الدنيا وما فيها»[2].

و ـ إحلال الرضوان على أهل الجنة:

وإن مما يُطَمْئِن أهلَ الجنة على نعيمهم المقيم الذي لا شقاء
بعده، ويجعلهم يتقلبون في السعادة الأبدية، ويطمئنون على أبديتها
اطمئناناً لا يعرف القلق؛ تطمين الله لهم بأن رضاه عليهم لا سخط
بعده أبداً.

أخرج البخاري، ومسلم، والترمذي عن أبي سعيد رضي الله
عنه: أن النبيّ ﷺ قال: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة!
فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير بين يديك! فيقول: هل
رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط
أحداً من خلقك؟! فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟
فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟! فيقول: أحلّ عليكم

---

(١) العُرُب: جمع عروب، وهي المتحببة إلى زوجها.
(٢) أخرجه البخاري في الجهاد برقم (٢٧٩٦) والترمذي في فضائل الجهاد برقم (١٦٥١).

رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً»[1].

هذا ومما يزيد المؤمنين في الجنة شعوراً بزيادة إكرام الله لهم رؤيته سبحانه في الجنة، فقد أخرج مسلم عن صهيب قال: «إن النبيَّ ﷺ تلا هذه الآية: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦] ثم قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تُريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحبّ إليهم من النظر إلى ربهم عزّ وجل»[2].

هذا وقد مرّ الحديث عن رؤية الله في الجنة يوم القيامة عند الحديث عن صفات الله عزّ وجل.

٢ ـ النار وما جاء في صفتها:

إن الباحث في أمر النار وما جاء فيها من آيات وأحاديث، لا يستطيع أن يحيط بها وصفاً لكثرة ما جاء فيها، فحسبنا هنا أن نتناول بعض جوانب مما ورد في شأن النار؛ التي جعلها الله عقاباً للكافرين الجاحدين.

أ ـ أبواب النار ودركاتها:

لقد أخبرنا الله تعالى في كتابه: أن لجهنم سبعة أبواب، فقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد برقم (٧٥١٨) ومسلم في الجنة برقم (٢٨٢٩) والترمذي في صفة جهنم برقم (٢٥٥٨).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان برقم (١٨١).

﴿جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤] وكل باب من هذه الأبواب في طبقة من طبقات جهنم، يعني: أن جهنم سبع طبقات بين كل طبقة وأخرى باب، وكل طبقة تسمى دَرْكاً.

وهذه الطبقات هي: جهنم، والسعير، ولظى، وسقر، والجحيم، والهاوية، والحطمة.

وإذا أردت أن تعرف عمق جهنم وصفتها ـ وهي أصغر دركات جهنم ـ فاقرأ هذا الحديث الذي أخرجه عتبة بن غزوان عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الصخرة العظيمة لتلقى من شفير جهنم فتهوي فيها سبعين عاماً، وما تفضي إلى قرارها»[١].

وفي مسلم عن أبي هريرة قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة ـ سقطة ـ فقال النبي ﷺ: «تدرون ما هذا؟» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفاً، فهو يهوي في النار إلى الآن حتى انتهى إلى قعرها»[٢].

وفي مسلم أيضاً عن أبي هريرة: أن النبيَّ ﷺ قال: «ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حرّ جهنم» قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله! قال: «فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها»[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة جهنم برقم (٢٥٧٥).
(٢) أخرجه مسلم في الجنة برقم (٢٨٤٤).
(٣) أخرجه مسلم في الجنة برقم (٢٨٤٣).

ب ـ بعض صفات أهل النار:

الصفة الأولى: أن جلودهم في حالة تبديل دائم، يدوم عليهم العذاب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

الصفة الثانية: تضخم أجسامهم ليكون العذاب عليهم أشد، فإننا ندرك في الدنيا أن زيادة المساحة المتألمة أكثر عذاباً، فمن تحرق يده كلها أكثر ألماً ممن تحرق أصبعه.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة: عن النبي ﷺ: أنه قال: «ما بين منكبيْ الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع»[١].

ج ـ طعام أهل النار وشرابهم:

لن نُفصِّل لك القول في أهل النار الذين يكبون في النار على وجوههم، ومن فوقهم النار ومن تحتهم النار، وعن أيمانهم النار، وعن شمالهم النار، فهم غرقى في النار، طعامهم نار، وشرابهم نار، ولباسهم نار، ومهادهم نار، فهم بين مقطعات النار وسرابيلهم من قطران، تثقلهم السلاسل، وتضربهم مقامع الحديد، فهم يتلجلجون في مضايق النار، ويتحطمون في دركاتها، تغلي بهم النار كغلي القدور، ويهتفون بالويل والثبور، ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤوسهم الحميم، يصهر به ما في بطونهم والجلود،

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق برقم (٦٥٥١) ومسلم في الجنة برقم (٢٨٥٢).

ولهم مقامع من حديد، تهشم بها جباههم، فيتفجر الصديد من أفواههم، وتنقطع من العطش أكبادهم، وتسيل على الخدود أحداقهم، وتسقط من الوجنات لحومهم، وكلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها. لن نفصل لك القول في هذا إذ قد ذكر القرآن الكثير منه، وعرضه عرضاً تهلع له النفوس، وترتجف منه الأفئدة، ولكن حسبنا هنا أن نقدم لك صورة عن طعام أهل النار وشرابهم.

أ ـ أما طعامهم فهو ثلاثة أصناف: ذكرها الله سبحانه في كتابه الكريم، كل صنف من أهل النار يأكل صنفاً من هذا الطعام.

الصنف الأول: الزقوم، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ [الواقعة: ٥١ ـ ٥٣] فهم إذاً لا يأكلون لقمة أو لقمتين، وإنما يملؤون منها بطونهم، وشجرة الزقوم هذه قد جاء وصفها في القرآن الكريم نفسه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٤٦] وقال سبحانه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ [الصافات: ٦٢ ـ ٦٦]. ولقد جاء في الحديث وصف طعمها. فلقد روى الترمذي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا؛ لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف

بِمَنْ يكون طعامه؟!»[1] قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

الصنف الثاني: الضريع، قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦ ـ ٧] والضريع: هو نبت ذو شوك لاصق بالأرض تسميه قريش «الشبرق» إذا كان رطباً، فإذا يبس فهو «الضريع» لا تقربه دابة ولا ترعاه، وهو سمّ قاتل، وهو أخبث الطعام، وأشنعه.

الصنف الثالث: الغسلين، قال الله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۝ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة: ٣٥ ـ ٣٧]والغسلين: هو الصديد السائل من أجساد أهل النار وفروجهم.

والصفة العامة لهذه الأصناف الثلاثة التي هم طعام أهل النار: أنها يغص بها الآكل، إذ لا يكفي في العذاب أكلها مع ما هي عليه من بشاعة في الطعم والمنظر، بل يزاد على ذلك أنها تقف في الحلوق، فيغص بها الآكل. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٢ ـ ١٣].

٢ ـ وأما شرابهم: فهو الحميم، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يونس: ٤] وقد جاء وصف هذا الحميم في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧] وقال سبحانه: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة جهنم برقم (٢٥٨٥).

[الكهف: ٢٩] وقال سبحانه: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

د ـ أخفّ أهل النار عذاباً:

لقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري، ومسلم، والترمذي بيان لمن هو أخفّ الناس عذاباً، فقد رووا عن النعمان ابن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لَرَجُلٌ، تُوضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه»[1] فاللهم أجرنا من عذاب النار، وأدخلنا جنتك بسلام يا أرحم الراحمين!

خامساً ـ ثمرات الإيمان باليوم الآخر

١ ـ استدامة المراقبة: واستحضار يوم الله، الذي يُنصب فيه ميزان العدل، وتُنشر فيه صحف الأعمال، ويُساق الناس زمراً إما إلى الجنة وإما إلى النار. فالمؤمن باليوم الآخر يراقب الله في السر والجهر، ويُحاسب نفسَه، ويتقي الله في جميع أحواله وأفعاله، مُرَدِّداً في حذر ووجل قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

٢ ـ تقويم السلوك: إن الوقوف بين يديْ الله للحساب، يستدعي من المؤمن أن يُقبِلَ نحو الخير مهما كلَّفه من تضحيات،

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق برقم (٦٥٦١) ومسلم في الإيمان برقم (٢١٣) والترمذي في صفة جهنم برقم (٢٦٠٧).

ويُحجِمَ عن الشرِّ بكل ما أوتي من قوة؛ ليزيدَ من حسناته، ويُقلِّل من سيئاته، فيأخذ صحيفتَه بيمينه، ويُجاهر بفوزه، ونجاته، مستيقناً أن يكون ممن قال الله عنه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٢].

٣ ـ **التوازن** بين العمل للدنيا والعمل للآخرة، وملاحظة: أن الحياة الدنيا دار ابتلاء، وهي مزرعة الآخرة. والمؤمن لا تخدعه الحياة الدنيا بمغرياتها، ولا يلتصق مع ثقلة التراب في جسده برغباتها وشهواتها. كما أنه لا يزهد في الحياة الدنيا إلى درجة تُقعده عن العمل، فيُصبح عالةً على غيره، يعيشُ على آمالٍ سرابٍ في الآخرة. بل يبقى مجاهداً في ساحة الوسطية الإسلامية، المطلوبة في قول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١] وقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

٤ ـ **تعميق الإيمان بعدل الله**: لأن المؤمن باليوم الآخر يعتقدُ: أن هذه الدنيا دار ممر، لا دار جزاء ومستقر، وتعتريها النقائصُ والمنغِّصَات، وقد ورد في الحديث أنها لو كانت تعدلُ عند الله جناحَ بعوضة ما سقى منها كافراً شَرْبة ماء.

أما الدَّارُ الآخرة: فهي دار الجزاء العادل، والقسطاس المستقيم، يُقيمه الإله العدل، الذي لا يظلمُ أبداً، ولا يجورُ في

حكمه على أحد، كما لا يحرمُ أحداً من ثواب يستحقه، تحقيقاً لوعده القاطع سبحانه: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وهذا الاعتقاد الجازم بما يتحقق في اليوم الآخر، يُسهم في تعميق الإيمان بعدل الله، الذي يبلغ: في ذلك اليوم غايته ومنتهاه، وتمامه وكماله؛ لأنه من كمال الله سبحانه وتعالى.

* * *

الفصل السادس

الركن السادس

٦

الإيمان بالقضاء والقدر

أ ـ تعريف القضاء والقدر لغة وشرعاً

١ ـ تعريف القضاء والقدر لغة:

القضاء في اللغة معناه: الحكم، والصنع، والتقدير، قال الله سبحانه: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣] أي: حكم، وقال سبحانه: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢] أي: صنعهن، وقدَّرهن، فأحسن سبحانه الصنعة، وأتقن التقدير.

والقَدر معناه في اللغة: تبيين كمية الشيء بمقدار مخصوص، ونظام محدود، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩] وقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢].

٢ ـ تعريف القضاء والقدر شرعاً:

القضاء: هو إرادة الله تعالى الأزلية المتعلقة بالأشياء على وفق

ما ستوجد عليه في المستقبل، كإرادته الأزلية أن يخلق هذا الإنسان على وجه الأرض.

والقدر هو إيجاد الأشياء على مقاديرها المحدودة بالقضاء، كإيجاد الله هذا الإنسان فعلاً على وجه الأرض طبق ما سبق في قضائه.

وأقرب الأمثلة الآن إلى الأذهان في تصوير القضاء والقدر، هو ما نراه في شكل البنايات والعمارات، فأولاً يسبق البناء علم المهندس، فيخطط الخرائط ويرسمها، ويُعيِّن ارتفاع البناء، وعدد الغرف، والمنافع، وما يكون فيها من أبواب، ومنافذ، يقدّر ذلك ويُحدِّده، ويقدر ما يوضع فيه من الحديد والإسمنت والحجر، وما إلى ذلك من التصميمات، وهذا مثال للقضاء، ثم يأتي من بعد ذلك المقاول وينفذ ما قدَّره المهندس، وهذا مثال القدر، وكلا القضاء والقدر لله وحده.

ب ـ وجوب الإيمان بهما:

يتفرع وجوب الإيمان بالقضاء والقدر وضرورته من دليلين اثنين:

أحدهما: الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن عمر رضي الله

عنه: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره»[1].

الثاني: ما سبق من بيان: أن الله سبحانه يتصف بالإرادة والعلم والقدرة، فالقضاء فرع عن ثبوت صفة العلم والإرادة لله عزّ وجل، والقدر فرع عن ثبوت صفة القدرة له.

ومعنى وجوب الإيمان بهما ـ كما ذهب أهل السنة والجماعة ـ هو أنه يجب على المكلَّف أن يؤمن بأن الله سبحانه وتعالى، علم أولاً بجميع ما يقع في المستقبل من أفعال العباد وغيرها، وأراد وقوعها في زمنها المحدد، كما يجب عليه أن يؤمن بأنه سبحانه وتعالى إنما أوجدها حين أوجدها على القدر المخصوص، والوجه المعيَّن الذي سبق العلم به، والإرادة له.

ومن هنا نعلم: أنه لا علاقة للقضاء والقدر بمسألة الجبر مطلقاً، كما يتوهم بعض الناس؛ لأن الله سبحانه بموجب ألوهيته، لا بدّ أن يكون عالماً بما سيفعله عباده من مختلف الأعمال، وبما سيقع ويحصل في ملكه، وأنه مريد له، وإلا كان ذلك نقصاً في صفاته التي ذكرناها. ثم لا بدّ أن تقع هذه الأمور مطابقة لعلم الله عنها، وإلا لانقلب علمه جهلاً، وهو محال.

وواضح: أن هذا كله لا علاقة له بكون هذه الأفعال قد صدرت عن أصحابها على وجه القسر والإكراه، أو بمحض الإرادة والاختيار، فقد علمت أن صفة العلم صفة كاشفة، وكل شأنها أنها

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان (٨).

تكشف الأمور على ما هي عليه، أو على ما ستوجد عليه، وهو شيء لا علاقة له بالجبر والاختيار.

ويقول الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم بعد أن عرَّف القضاء والقدر: قال الخطَّابي: «وقد يحسب كثير من الناس: أن معنى القضاء والقدر إجبار الله سبحانه وتعالى العبد، وقهره على ما قدَّره وقضاه، وليس الأمر كما يتوهمونه، وإنما معناه: الإخبار عن تقدَّم علم الله سبحانه وتعالى بما سيكون من أكساب العبد وصدورها عن تقدير منه»[١].

وذكر ابن حجر في شرحه على حديث عمر ـ رضي الله عنه ـ عن الإيمان تعريف القضاء فقال: «والقضاء: علم الله أولاً بالأشياء على ما هي عليه، والقدر: إيجاده إياها على ما يُطابق العلم»[٢].

جـ ـ خالقية الله لفعل الإنسان لا تسلبه الاختيار:

إذا علمت هذا فإن لسائل أن يقول: فهب أن العلم لا علاقة له بالأشياء إلا على وجه الكشف عنها كما ذكرت، ولكن أليس وجود الأشياء التي قضى الله أنها ستوجد «أي: علم بوجودها» بموجب خلقه: هو وبموجب إرادته هو؟ وإذاً فقد انتهى الأمر إلى القسر، والإكراه، إن لم يكن بتعلّق العلم فبتعلق الخلق والإرادة.

والجواب: أن كل شيء لا يُوجد ولا يتكيف إلا بخلق الله جل جلاله، ولا يتم أيضاً إلا بإرادته، أما ما يترتب عليه في ظنك من

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ١٥٤ ـ ١٥٥).

(٢) فتح المبين بشرح الأربعين لابن حجر الهيتمي (٦٤).

القسر والإجبار فإليك بيان بطلانه، بالنسبة لقضية الخلق أولاً، ثم لقضية الإرادة ثانياً.

تنقسم مخلوقات الله تعالى إلى قسمين:

القسم الأول: مخلوقات لا كسب لأحد فيها، وهي كل ما يقع في الكون على وجه القسر والحتم، كحركة الأفلاك والفصول، ونموّ الأشجار، والنباتات، والإنسان، وككثير من وظائف الإنسان وحركاته، كالنوم، واليقظة، وحركة الارتعاش، والموت، وما أشبه ذلك، ولا كلام لنا في هذا القسم، إذ لا إشكال فيه، خصوصاً إذا كنت قد علمت: أن الإنسان ليس مكلفاً ولا مؤاخذاً بالنسبة لشيء من تصرفاته وأوضاعه القسرية، ولا يتعلّق بها ثواب ولا عقاب.

القسم الثاني: مخلوقات اكتسابية يتصف بها الإنسان بكسبه وسعيه الاختياري، كإقباله على الطعام، والشراب، والدراسة، وكمختلف ما يختاره لنفسه من السلوك، والأعمال، وهذا ما يتعلّق به الإشكال.

فاعلم أولاً: أن أفعال الإنسان الاختيارية من جملة مخلوقات الله عزّ وجل، فالله هو الذي يخلق فيك الإقبال على الدراسة والانصراف عنها، وهو الذي يخلق فيك تصرفاتك كلها من طاعة، وعصيان، ثبت ذلك بالدليل العقلي البين، إذ لو لم يكن شيء من ذلك بخلق الله وقدرته، لما اتصف إذاً بكل صفات الكمال، ولكان ذلك بتأثير مستقل من غيره، وهو محال على الله تعالى، كما قد دلّ

على ذلك الدليل القاطع وهو قوله عزّ وجل: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

والفعل من جملة الأشياء بلا شك، هذا ما عليه عامة أهل السنة والجماعة.

غير أن خلق الله لأفعالك لا يستلزم أن تكون مكرهاً عليها، وليس بينهما أي تلازم، إلا فيما يتوهم بعض الناس.

ذلك لأن تلبسك بفعل ما، يتوقف على أمرين اثنين: وجود هذا الفعل في الخارج (أي: وجود مقوماته كلها المادية والمعنوية) ثم اكتسابك له عن طريق انبعاثك نحوه، فأنت مريد ومختار بوصفك كاسباً ومنبعثاً إليه، لا بوصفك خالقاً وموجداً لمقوماته وعناصره.

وإيضاح ذلك بالبيان الحسي أن تقول: إنَّ اليد وما فيها من حياة، وشرايين، وأعصاب، ودماء، وبما تتصف به بسبب كل ذلك من القدرة على الحركة، كل ذلك بخلق الله عزّ وجل، والورق الذي أمامك في صورته، وجوهره، وخصائصه من خلق الله أيضاً، والقابلية الموجودة في القلم للكتابة هو أيضاً من خلق الله عزّ وجل.

وتلاقي هذه العناصر كلها لتوجد خطاً مرقوماً على الورق، لا شك أنه هو أيضاً بقدرة الله عزّ وجل وخلقه. فهذا معنى قولنا: إن الله هو الخالق لفعل الإنسان.

ولكن هل ينسب إليك أنك قد كتبت سطراً على الورق بمجرد تكامل هذه العناصر كلها؟ لا، إن خالقية الله لهذه العناصر كلها لا تعني أنك قد كتبت، وهذا واضح جداً، إذاً لا بدّ لكي تُوجَدَ

الكتابة منك من أن تعزم في نفسك على الكتابة، وأن تنبعث إرادتك إلى التنفيذ، فحينئذٍ يأذن الله تعالى للقوة التي أودعها في يدك أن تلبي، وللشرايين والأوردة أن تساعدك على قصدك، وللحبر أن ينساب كما تشاء، وللورق أن يتأثر بذلك على النحو الذي تتحقق فوقه الكتابة. وعندئذ تسمى: كاتباً، وينسب إليك كسب هذا الفعل، على الرغم من أن الله عزّ وجل هو الخالق له، أي: فالقصد، والعزيمة، والكسب منك، وذلك بسرّ الإرادة التي ركبها الله في نفسك، وخلق الفعل وأسبابه القريبة والبعيدة من الله تعالى، وإنما تكون المقاضاة والمحاسبة على القصد والكسب، لا على خلق الوسائل والأسباب، وخلق الفعل نفسه.

وهذه حقيقة نعلمها جميعاً في حياتنا الاجتماعية والقانونية، فالمقاضاة إنما تكون على الكسب لا على جوهر الفعل المستقل بذاته.

إن الذي يدعس بسيارته إنساناً فيقتله، لا يقاضى على الفعل لأنه ليس هو صاحب الفعل بالذات، بل صاحب الفعل المباشر هو السيارة نفسها، ولكنه يقاضى على الكسب، والذي جاء بالعمال فحفروا له في قارعة الطريق حوضاً أو بئراً، لا يعاقب على إفساده للطريق العام لأنه هو الفاعل، بل لأنه هو الكاسب، والذي جاء بقارورة السم فوضعها في مكان قارورة الدواء التي إلى جانب المريض، فتناول منها المريض فمات يقاضى ويقاصص، مع أنه ليس هو الفاعل، ولكنه الكاسب للفعل والمتلبس به.

والله عز وجل إنما يقاضي عباده، ويحاسبهم على هذا الشيء

الذي اسمه: الكسب، أي: الانبعاث النفسي إلى التلبُّس بالفعل، ألا تلاحظ قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [المؤمن: ١٧]. وقوله: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ [الزمر: ٤٨]. وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠]. إلى ما هنالك من الآيات الكثيرة الأخرى التي تنصُّ على أن مناط الأجر والثواب والعقاب والجزاء، إنما هو كسب الإنسان، أي: انبعاثه نحو الشيء الذي أمر به، أو نُهي عنه، وإنما شاء الله أن يجعل خلقه وقدرته وفقاً لانبعاثهم، حتى يكون ذلك بمثابة السجل الذي تثبت فيه هذه الانبعاثات مجسدة في مظهر الفعل الذي ظهرت فيه.

فقد علمت إذاً أن تعلُّق صفة الخلق بكل ما قد علم الله وجوده، فيما لا يزال لا يستلزم شيئاً من القسر والجبر المتوهمين.

أما أن علمه بوجود هذه المخلوقات والأفعال يستلزم تعلق إرادته بها، فواضح أنه لا إشكال في ذلك بالنسبة للقسم الأول من المخلوقات، وأما القسم الثاني، وهو المخلوقات الاكتسابية القائمة على الاختيار الإنساني، فقد يتعين عليك أن تعلم: أن إرادة الله عزّ وجل، متعلقة بخلق سر الإرادة في كيانك، وهو مستلزم كما تعلم لتعلق الإرادة الإلهية بما تختاره أنت من الشؤون والأفعال بموجب هذه الإرادة التي منحتك إياها، ولكن ذلك ليس موجباً لأن تكون مجبراً غير مخير، وإلا لوقع التناقض بين قولنا: إنه وهبك سر الإرادة التي تنبعث بها إلى اختيار الأفعال، وقولنا: إن ما تختاره

بموجبها فعل قسري تقوم به جبراً عنك.

د ـ مصير الإرادة الإنسانية أمام إرادة الله عز وجل:

ولكي تتضح هذه النقطة تمام الوضوح ـ وهي أن من جملة ما أراده الله تعالى أن تكون هناك إرادة للإنسان ـ نقول:

قد علمنا: أن إرادة الله تعالى مطلقة وكاملة، وصالحة للتعلق بكل الممكنات، فكيف نتصور أن تكون للإنسان أيضاً إرادة إلى جانبها؟ وقد علمنا ببراهين التجربة والمشاهدة: أن الإنسان يُريد ويختار في كثير من سلوكه وتصوراته، فما نوع هذه الإرادة وحقيقتها؟ بل وما مصيرها في جنب إرادة الله تعالى؟

والجواب: أن الله عزَّ وجل لما خلق الإنسان أقامه على نوعين من الحركة والتصرف كما أوضحنا ذلك آنفاً، وذكرنا أن النوع الثاني منهما ينشأ عن سر عجيب خاص أودعه الله عزّ وجل في الإنسان، ألا وهو الاختيار والإرادة، فقد تعلَّقت إرادة الله ـ عز وجلَّ ـ بأن يغرس في كيان الإنسان هذا السرَّ العجيب الذي هو محور التكليف فيه، وأن يجعله يصدر في كثير من تصرُّفاته عن هذا السرِّ الذي به سمِّي حراً ومختاراً.

وتوضيح ذلك: أنَّ إرادة الله تعالى تعلَّقت بأن تكون مريداً، فسرت إرادة الله عزّ وجل بذلك إلى كل ما تريده وتختاره من الأعمال، وإذاً فلا يمكن أن يقع أي تعارض بين إرادة الله تعالى وما تختاره عن طريق إرادتك الخاصة، إذ لو فرضنا أن الله غير مريد لعمل قد اخترته بإرادتك، كان معنى ذلك أنه سبحانه غير مريد لإرادتك التي وجهتك إلى ذلك الفعل، وهو مناقض لما ثبت من أن

الله عزّ وجل قد شاء لك أن تكون مريداً، وشاء أن يخلق فيك هذا السر، فثبت بطلان فرض: أن الله قد لا يُريد العمل الذي تختاره، وللزم أيضاً أن يكون الله تعالى مغلوباً على أمره حينما فعلت ما لا يريده.

ولنوضح ذلك بمثال يقرب هذه الحقيقة:

خادم عندك في الدار تُريد أن تمتحنه وتعلم مدى صدقه وأمانته في الخدمة والمعاملة، ولكي تصل إلى بغيتك هذه أعطيته مبلغاً من المال، وبعثته إلى السوق لشراء بعض الحاجات، وفسحت له المجال أن يتصرَّف كما يشاء، دون أن تضع عليه رقيباً، أو تُضَيِّقَ عليه السبيل.

فأنت بترتيبك هذا أردت أن يكون حراً فيما يفعل ويذر، لا يستجيب إلا لنداء ضميره، وتفكيره الداخلي، بحيث يتمتع بإرادة لا يشوبها قسر، حتى تعلم بذلك طويته، فإذا عاد وقد خان الأمانة فيما أعطيته من المال وما عاد به من المتاع فأنت في الواقع مريد لهذه النتيجة، وإذا عاد وقد حقَّق منتهى الأمانة في عمله، فأنت مريد أيضاً لهذه النتيجة؛ إذ أنت لم ترد إطلاق يده بالتصرف كما يشاء إلا وأنت مريد لظهور نتيجة ذلك، أيّاً كانت النتيجة، سواء أكنت قد أحببتها ورضيتها أم لا.

إذا تبيّن ذلك لك، علمت: أن مصير الإرادة الإنسانية في جنب إرادة الله ليس إلا كمصير إرادة الخادم في جنب إرادة سيده، ولله المثل الأعلى، فإرادتك المتعلِّقة بتصرفاتك الاختيارية منطوية تحت إرادة الله تعالى، ولكن لا على طريق القسر والإكراه، وإنما عن

طريق بثّ سرّ الإرادة والاختيار في كيانك، وكانت حكمته من ذلك أن تكسب بموجبها كل ما تحب دون قسر أو إكراه، لتتجلى طويتك في سلوكك، فتستأهل بذلك مثوبة الله أو عقابه، وواضح: أن سلوكك هذا يصبح بذلك من مراد الله عزّ وجل.

هـ ـ الفرق بين الإرادة والرضا:

قد يتوهم بعض الناس: أن الإرادة والرضا شيء واحد، أي: إن جميع ما يريده يرضاه، وجميع ما يرضاه يريده.

والصحيح: أن هناك فرقاً شاسعاً بين الإرادة والرضا، فالإرادة ـ كما ذكرنا ـ تتعلَّق بالممكن سواء أكان مما يحب أو يكره، كما اتضح لك ذلك من مثال الخادم السابق، ومثل الإرادة: المشيئة.

وأما الرضا، فهو قبول الشيء، والإثابة عليه، ومثل الرضا المحبة، وكذا الأمر، وقد قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]. وقال سبحانه: ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ ﴾ [الزمر: ٧]. وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴾ [الصف: ٤].

هذا ونختم موضوع الفرق بين الإرادة والمشيئة من طرف، والرضا والمحبة من طرف آخر بمناظرة وقعت بين القاضي عبد الجبار المعتزلي وأبي إسحاق الإسفراييني.

قال الإمام الباجوري: «حكي أن القاضي عبد الجبار الهمذاني دخل على الصاحب بن عبَّاد وعنده الأستاذ أبو إسحاق

الإسفراييني، فلما رأى الأستاذ قال: سبحان من تنزَّه عن الفحشاء، فقال الأستاذ: سبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء، فقال عبد الجبار: أفيريد ربنا أن يُعصى؟ فقال الأستاذ: أفيعصى ربنا كرهاً؟ فقال عبد الجبار: أرأيت إن منعني الهدى وقضى عليَّ بالردى، أحسن إليّ أم أساء؟ فقال الأستاذ: إن منعك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ما هو له فهو يخصُّ برحمته من يشاء»[1].

و ـ مشكلة الشر والآلام:

على الإنسان قبل أن يتحدَّث عن هذه المشكلة أن يدرك الحكمة من وجوده على ظهر هذه الأرض.

إن الحكمة من وجوده هو ابتلاؤه واختباره، فإن أجاب عن الأسئلة التي تُطرح عليه بجواب صحيح كان في الآخرة من النّاجين، وإن أجاب عنها بجواب غير صالح كان في الآخرة من الهالكين. ولقد أوضح الله سبحانه هذه الحقيقة عندما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [تبارك: ٢].

وفي ميدان الاختبار والامتحان للممتحن والمختبر أن يضع من الأسئلة ما يعتقد أنه هو الوسيلة الصحيحة لكشف حقيقة الممتحن، كما أن لهذا الممتَحَن الحرية الكافية لأن يُجيب عن هذه الأسئلة بما يشاء.

فالأسئلة ليست كلها من نوع واحد، ومن جهة واحدة، بل

---

(١) حاشية الجوهرة، للباجوري (ص ٣٩).

هي متعددة ومتنوعة على حال يُستشف منها مقدرة هذا الممتَحن.

وبما أن هذه الدار امتحان واختبار فقد نوّع الله سبحانه الأسئلة المطروحة على عباده فمنها الفقر، ومنها الغنى، ومنها الصحة، ومنها المرض، ومنها الخير، ومنها الشر، وكل ذلك امتحان، واختبار، ولقد قال الله سبحانه في بيان ذلك: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

ومن هذا المنطلق لا نرى في ما نُعانيه من آلام، وما يُصيبنا من شرٍّ لا نرى في ذلك مشكلة، ما دمنا نعتقد أننا في قاعة امتحان، وأن هذه أسئلة يجب أن نُجيب عنها بجواب صحيح.

ز ـ فوائد إيمانية:

ومما تقدَّم نضع أمام عقل المؤمن وقلبه فوائد ذهبية تحسمُ أيَّ جدلٍ كلاميٍّ، أو مُمَاحَكة لفظية في هذا الركن الهامِّ من عقيدتنا الإسلامية:

الفائدة الأولى: المسؤولية تقتضي الحرية، وتدلُّ على الاختيار التَّامِّ في الأعمال الكسبية، والتكاليف الشرعية، قال تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠] وقال سبحانه ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣].

الفائدة الثانية: الفرق بين المشيئة والرضا، فالله عز وجلَّ يشاء كل ما يجري في هذا الكون أو يكون، وما من حركة ولا سكون إلا

بإرادته ومشيئته، وهو سبحانه يشاءُ الإيمان والخير وجميع الفضائل، ويرضى بها، ويشاء الكفر والشر وجميع المعاصي، ولا يرضى بها، وإرادته لها جميعها لا تعني الجبر أو الإكراه، بل أعطى الناس حرية التعرف والاختيار ابتلاء وامتحاناً، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

الفائدة الثالثة: الفرق بين المعصية والمصيبة، فالمعصية من الإنسان، وهو مسؤول عنها، ومعاقبٌ عليها، وتقع بإرادة الله ومشيئته، ولكنه سبحانه لا يرضى بها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]. أما المصيبة فهي من الله تعالى، وتُصيب الإنسان لحكمة لا يعلمُها إلا الله، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن: ١١]. والاحتجاج بالقضاء والقدر إنما يكون في المصائب لا في المعاصي.

الفائدة الرابعة: عِلْمُ الله كاشف لا مجبر؛ لأنه سبحانه يعلم الماضي والحاضر والمستقبل؛ قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ولو كان علمه سبحانه مُجبِراً أو مكرِهاً لكان ظلماً، وهو مستحيل على الله تعالى.

الفائدة الخامسة: الاعتذار بالقدر بعد القعود وترك العمل عجز وكسل، والسلف الصالح من أمة الإسلام دفعتهم عقيدة القضاء والقدر إلى الجهاد في سبيل الله، وبناء الحضارة، وتحقيق

المجد والعزة، أما الكُسالى والخانعون من خَلَف هذه الأمة، فعجزوا عن بلوغ الكرامة الإنسانية، وتستروا بالمراوغة والقدر، وتشدَّقوا بالأفكار الشيطانية الفارغة، والعبارات الفلسفية التافهة.

ح ـ آثارُ الإيمان بالقضاء والقدر في حياة الإنسان:

١ً ـ اكتمال الإيمان وصحته: لأن الإيمانَ بالقضاء والقدر إيمانٌ بعلم الله وقدرته وحكمته وعدله، وتسليمٌ يقينيٌّ بقول الله جلَّ وعلا: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] وقوله ﷺ: «وتؤمن بالقدر خيره وشره»[١].

٢ً ـ الشجاعة والإقدام: فإذا أخذ المؤمنُ بالقضاء والقدر في العمل طلباً للرزق الحلال، وفي الجهاد قتالاً لأعداء الله؛ فإنه يُقبل على ذلك كلِّه بشجاعة وإقدام، لأنه يُؤمن أنَّ الأمرَ بيد الله، وأنَّ البشَرَ لا يملكونَ له ضرّاً ولا نَفْعاً إلا بإذن الله. وهو مطمئن النفس، ثابت الخطى، لا يعرف الجبن ولا الإحجام، لأنَّ مشاعره في يقظة تامة وإحساس كامل بالتوجيه الإلٰهي الحاسم ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

٣ً ـ الامتناع عن المحرمات: لأن الإيمان بالقضاء والقدر يولِّد في النفس عفة وقناعة، عفة عن الحرام، وقناعة بالحلال، والتزاماً عملياً بقول الله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] وقول رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس! اتقوا الله،

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وأجملوا في الطلب، فإنَّ نفساً لن تموتَ حتى تستوفيَ رزقها، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، خذوا ما حلَّ ودعُوا ما حَرُمَ»[1].

٤ ـ **الرضا**: مع الصبر والتسليم لقضاء الله وقدره، وقد بيَّن الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم مفهوم الرضا والصبر اللذين يثمرهما الإيمان بالقدر فقال: «هما الرضا بالمقدور من المصائب والنوائب، والصبر على طاعة الله تعالى، والصبر عن معصيته، وعلى أنواع المكاره. وليس المقصود الرضا بالكفر والعصيان والفسوق عن أمر الله، ولا الصبر على الذل والضيم، فإن الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية والهوان، فليكن رضاك تبعاً لرضا ربِّك، وصبرك في طاعة الله وفي سبيله»[2].

٥ ـ **الأخذ بالأسباب**: والإيمان بالقدر لا يُنافي تعاطي الأسباب كاملة والتوكُّل على الله تعالى؛ لأن النتائج والثمرات لا يصلُ إليها المؤمن إلا بإذن الله، وقد ظهرَ: أن الأسباب المشروعة من القدر حين سُئل رسول الله ﷺ: أرأيت رقىً نسترقي بها، وتقىً نتقي بها، وأدوية نتداوى بها، هل تردُّ من قدر الله شيئاً؟ فقال: «هي من قَدَر الله»[3].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في التجارات (٢١٤٤) والحاكم في المستدرك (٢/ ٤) وابن حبان في صحيحه (٣٢٢٨).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ١٠١).
(٣) أخرجه الترمذي في الطب (٢٠٦٥) والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٠٢) وانظر زاد المعاد؛ لابن القيم (٣/ ٦٦).

وأوضحَ شيخ الإسلام ابن تيمية المعنى الشرعي للأخذ بالأسباب بقوله: «الالتفات إلى الأسباب واعتبارها مؤثرة في المسببات شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقصٌ في العقل، والإعراض عن الأسباب المأمور بها قَدْحٌ في الشرع»[1].

وما أعظمه من فرق شاسع بن التواكل والفهم الخاطىء للقدر، وبين التوكل والأخذ بالأسباب، والتسليم للقَدَر! قال معاوية بن قُرَّة: لقي عمر بن الخطاب ناساً من أهل اليمن، كانوا يحجُّون بلا زاد، فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكِّلون! قال: بل أنتم المتواكلون، إنما المتوكِّل الذي يُلقي حبَّه في الأرض، ثم يتوكَّلُ على الله[2].

٦ ـ **الدعاء**: وهو الطلب من الله تعالى على سبيل التضرع، أن يتلطف بعبده المؤمن، والدعاء بهذه الصفة يمنع نزول القضاء، أو يُخفِّفه إذا نزل بمشيئة الله؛ يقول الله تعالى: ﴿ **بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ** ﴾ [الأنعام: ٤١]. وقال ﷺ: «لا يرد القدر إلا الدعاء»[3] وقال: «لا ينفعُ حذرٌ من قدر، والدعاء ينفعُ مما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل، فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة»[4].

---

(١) مجموع فتاوى الشيخ ابن تيمية (٨/ ٥٢٨).
(٢) مدارج السالكين؛ لابن قيم الجوزية (٢/ ١١٦).
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٤٩٣).
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٥٠).

ولذلك قال اللَّقَّاني في الجوهرة:

وعِنْدَنا أنَّ الدُّعاءَ يَنْفَعُ كما مِنَ القُرآنِ وَعْداً يُسْمَعُ

وشرحه الإمام الباجوري بقوله:

والدعاء ينفع في القضاء المبرم والمعلَّق: أما القضاء المعلَّق فلا استحالة في رفع ما عُلِّق رفعه منه على الدعاء، ولا في نزول ما عُلِّق نزوله منه على الدعاء، وأما القضاء المبرم فنفعه فيه تنزيل اللطف منه سبحانه وتعالى بالداعي، وإن لم يرفعه البتة. وانقسام القضاء إلى المبرم والمعلق إنما هو بحسب اللوح المحفوظ، أما بحسب العلم فجيمع الأشياء مبرمة؛ إذ العلم لا يتغير البتة، لكنه لا يترك الدعاء اتكالاً على ذلك، كما لا يترك الأكل اتكالاً على إبرام الله تعالى الأمر في الشِّبع[1].

* * *

(١) شرح جوهرة التوحيد (ص ٣٤٣).

الباب الثالث

الكون والإنسان

الفصل الأول
الكون

تمهيد:

المقصود بالكون هنا لا يقتصر على الأرض التي نعمرها، بل يتناول ذلك، ويتجاوزه إلى النجوم، والكواكب، وإلى الشمس، والقمر، وإلى القوانين التي تربط هذه الأشياء بعضها إلى بعض، حتى إنه يشمل ما يبصره الإنسان، وما لا يبصره، وما خلق، وما يخلق.

وفي البحث التالي لا يعنينا أن نبحث عن كل شيء يتعلَّق بالكون، فإن كلَّ جانب من جوانبه له علم تفرَّد بالبحث عنه، وإنما يعنينا في هذا البحث أشياء تتعلَّق بهذا الكون؛ قد عرضت لها النصوص الشرعية، فأصبحت ذات ارتباط وثيق بالعقيدة وبالعلم الذي يتحدث عنها، وإليك هذه الأشياء:

١ ـ خلق الكائنات في ستة أيام

أ ـ أدلة هذا الخلق:

جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة تنصُّ على أن الله جلَّت قدرته قد خلق السموات والأرض ـ وهما الكون جميعه ـ في ستة أيام. فمن الآيات التي تنصُّ على ذلك:

١ ـ قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٢].

وقد ورد في بعض الآثار: أن ابتداء الخلق كان في يوم الأحد، والانتهاء في يوم الجمعة، وأن الإنسان قد خلق في آخر ساعة من يوم الجمعة، وأما يوم السبت فلم يكن فيه خلق قطُّ.

ب ـ مقدار اليوم:

وقد اختلف العلماء في مقدار اليوم المذكور في الآيات المذكورة وغيرها على قولين:

أحدهما: أن اليوم مقدار كاليوم المعروف، وردّ هذا القول بأنه لم يكن هناك شمس ولا ليل ولا نهار حتى يحدد اليوم بذلك.

والثاني: أن مقدار هذا اليوم كمقدار يوم من أيام الآخرة، كلّ يوم مقداره ألف سنة، أخذاً من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

جـ ـ الحكمة من هذا الخلق:

والحكمة من جعل الخلق في هذا المقدار من الزمن ـ وهو سبحانه قادر أن يقول لها كوني فتكون ـ هي:

١ ـ إرادته سبحانه أن يعلِّم عباده الرفق والتثبت في الأمور، وبخاصة رسوله الكريم ﷺ الذي كان يلاقي من أذى المشركين ووقوفهم في سبيل دعوته، وتألُّبهم على مناصرة الباطل ومنابذة الحق.

٢ ـ بديع صنع الله في الكون، وجعله من أعظم الأدلة على وجوده: إن أعظم دليل أقامه الله تعالى لعباده، ليدلَّ على وجوده هو هذا الكون البديع بكل ما فيه، بسمائه وأرضه، وكواكبه وأفلاكه، وجماده، وحيوانه، ونباته، وقوانينه، وقواه، ذلك الكون الذي صاغه الله سبحانه على أسمى ما يكون من الإتقان والإبداع.

ولكن وجود الدليل لا يكفي في الدلالة على المطلوب، ما لم يرافق ذلك تفكير حرٌّ واعٍ خالٍ من المؤثرات.

فمن هنا أوجب الله على الإنسان أن يجيل طرفه، ويعمل عقله وتفكيره في هذا الكون، متنقلاً من كائن إلى كائن، متفحِّصاً ما أودع فيه من إتقان وإبداع، كي ينتقل من المخلوق إلى وجود الخالق، ومن جمال المصنوع إلى قدرة الصانع.

لقد أمره أن ينظر ويتأمل ويتفكر فيما يلي:

١ ـ في نفسه وذاته، أين كان؟ وكيف وجد؟ وما هي المراحل التي مرّ عليها عبر هذه الرحلة؟ ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِن مَّآءٍ

دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٥ ـ ٩].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

٢ ـ في طعامه الذي عليه مدار حياته وقوام عيشه، كيف يتكوَّن وينشأ من التراب والماء؟ وما هي العوامل والقوانين التي وضعها الله لتعمل على إنتاج هذا الغذاء المناسب لكل حيّ كائن على سطح هذه الأرض؟

قال الله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

٣ ـ في هذه الأرض التي عليها مستقره، ومنها نشأ، وإليها يعود، ماذا أودع الله فيها من إبداع وتنظيم يحفظ به حياة هذا الإنسان على ظهرها، حتى لو اختلَّ هذا النظام بعض الاختلال؛

لكانت حياة الإنسان؛ بل حياة الكائنات الحية جميعها في حيز العدم والهلاك، قال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١].

٤ ـ وفي عالم الحيوان الذي يشاركه الحياة على ظهر الأرض، كم فيه من تنظيم وإبداع يأخذ بالألباب!

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨ ـ ٦٩].
﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

٥ ـ وفي المطر كيف يتشكل؟ وكيف يهطل؟

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

٦ً ـ وفي السموات وما أودع فيها من أجرام، وفي هذا الترابط العجيب من عالم السماء وعالم الأرض، ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧ ـ ٤٠].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦١ ـ ٦٢] ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

٧ً ـ وفي البحر، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

وبعد: فلا شكَّ أن من ينظر في هذا الكون هذه النظرة الفاحصة، ويفكر فيه التفكير الحرّ الواعي غير المتأثر لابدّ أن يعود من هذه الرحلة مفعماً قلبه بالإيمان الذي لا يتزحزح، ومملوءة نفسه بعظمة هذا الخالق العظيم؛ الذي أحسن كل شيء خلقه.

٢ ـ تسخير هذا الكون للإنسان

أ ـ معناه:

ومعنى التسخير: أن هذا الكون بجميع أجرامه وقواه هو مصنوع لخدمة هذا الإنسان ومهيأ لمنفعته، ولقد ابتدعه سبحانه على غير نظام سابق، وهذا النظام يساعد هذا النوع الإنساني على استبقاء حياته على ظهر الأرض.

ولقد أوضح سبحانه هذا التسخير في آي كثيرة من القرآن، حتى إنه لا يذكر فيه جزءاً من أجزاء هذا الكون إلا مشيراً إلى ما فيه من منفعة لهذا الإنسان.

ب ـ أدلته:

من الأدلة الدالة على التسخير:

١ً ـ قوله تعالى في منافع الأنعام: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٥ ـ ٧].

٢ً ـ قوله في البحر: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

٣ً ـ قوله في الماء والنبات: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً

﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠ ـ ١١].

٤ ـ قوله في الليل والنهار والشمس والقمر: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

٥ ـ قوله في تسخير الكون جميعه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

هذا وغني عن البيان: أن هذا التسخير يحمل بين جوانبه دفعاً لهذا الإنسان إلى التجربة، والاختبار، والمعرفة، والعلم بما أودع الله في هذا الكون من أسرار، حتى يتمكن من استخدامه والاستفادة منه، كما أراد الله أن يستفيد؛ إذ لا يتحقّق كمال التسخير إلا بالعلم.

إذاً فالنصوص الآنفة الذكر التي تتحدث عن التسخير هي في الحقيقة تحمل بين طياتها دعوة صريحة إلى العلم، وبيان أن هذا الدين هو دين العلم، وبخاصةٍ هذا العلم الكوني الذي يأخذ بيد الإنسان إلى الإيمان بالله عن وعي وإدراك والذي عناه الله بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

والعلم الكوني بدوره يدفع إلى تعظيمه وشكره ومحبته.

٣ ـ نهاية هذا الكون

أ ـ تفكك هذا الكون:

لقد مرّ بك غير مرّة: أن الله قد أبدع هذا الكون على أتم نظام

وأسمى قانون، وربط بعضه ببعض في تناسق عجيب، والسؤال الآن: هل يبقى هذا النظام أبدياً على ما هو عليه؟ وهل يبقى هذا التعاون والتناسق بين أجزائه؟ أم إن جديداً سوف يحدث؟

للجواب على هذا السؤال نقول: إن هذه المسألة ليست من الأمور التي يستطيع العقل أن يبت فيها بنفي أو إثبات، لأنها من الأمور المستقبلة المغيبة، بل الذي يستطيع أن يثبتها أو ينفيها هو الخبر الصادق، لأنها من اختصاصاته كالبعث والحساب والجزاء، وحسب العقل في هذا المجال أن يحكم بعدم استحالتها، وأنها من الأمور الجائزة التي تحتمل الطرفين.

والله سبحانه الذي يعلم المستقبل كما يعلم الماضي، والذي بيده مقاليد السموات والأرض يتصرف بهما كيف يشاء، والذي هو على كلِّ شيء قدير، قد أخبرنا بأن هذا النظام الكوني سوف يتلاشى ويضمحل، وستتلاشى معه الحياة على ظهر الأرض لتبدأ حياة أخرى على وفق نظام آخر تكون هذه الحياة نتيجة واستمراراً لما سبقها من حياة.

٤ ـ قانون السببية والعلية في الكون

أ ـ حقيقة السبب والعلة:

إذا نظرت إلى هذا الكون وجدت أنه ما من شيء من الأشياء إلا وهو محتاج في وجوده إلى شيء آخر، فالمحتاج إليه يُسمَّى سبباً وعلة، والمحتاج يُسمَّى مسبباً أو معلولاً، ومن هنا قال في المواقف:

«تصور احتياج الشيء إلى غيره ضروري، فالمحتاج إليه

يسمى: علة، والمحتاج: معلولاً»[1] هذا وإن أبدى العلماء فرقاً بين السبب والعلة، إلا أننا هنا نقصد بهما شيئاً واحداً.

ولنضرب لك مثالاً على ذلك: توالد النّاس وتكاثرهم، واختلاف الأزمنة والفصول، وسبيل الزراعة والبناء والاستنبات.

غير أن هذه الأسباب الظاهرة أمامك تتناقص كلما أمعنت التأمل، وسبرت أغوار الأسباب نفسها، كما تتناقص فروع الشجرة أمامك كلما دنوت بنظرك نحو جذعها إلى أن تتجمع الأسباب المختلفة كلُّها في سبب رئيسي واحد، وهو السبب الواجب، أو واجب الوجود، وهو الله عزّ وجل. وقد مرّ بك شيء من هذا في صفات الله عزّ وجلّ.

فهذه الظاهرة التي نلمسها في الوجود، والتي لا يسعنا إنكارها، نسميها: قانون السببية في الكون.

ب ـ كيف يتفق قانون السببية هذا مع ما علمناه من أن العالم كله إنما هو من قسم الممكنات؟

لابدّ من تصوير الإشكال أولاً. فنقول: من المعلوم أن الشيء لا يُسمَّى سبباً لغيره إلا إذا أثر فيه إيجاداً، أو إعداماً، أو تكييفاً. وهذا التأثير لابد أن يكون حتمياً ما دام المؤثر سبباً، وإلا امتنع كونه كذلك.

وإذا كان الأمر كذلك فلا بدّ من القول بأن هذا الكون ـ أو معظم مظاهره على أقل تقدير ـ ضروري الوجود، وأن سيره على

---

(١) المواقف للإيجي (٨٥).

هذا الشكل الذي نراه واجب وضروري أيضاً، من أجل أنّه نتيجة أسباب معينة مختلفة، ثبت كونها أسباباً بالحسِّ والمشاهدة.

وثبوت الحتمية والضرورة له يناقض ما قد ثبت من أن هذه الموجودات كلها من قسم الممكن، وأنه لا يترتب على فرض فقدانها أو فقدان بعض منها محالٌ عقلي.

فالجواب: أن الأمر مشكل حقيقة. لو قلنا: إن الأسباب المبثوثة في الكون أسباب حقيقية، أي: ثبت لها التأثير بذاتها دون الاحتياج إلى من يثبت فيها التأثير. إلا أننا لا نقول ذلك، إذ من المستحيل بداهة أن تكون هذه الأسباب مؤثرة بذاتها، مع ما نعلمه فيها من صفة الحدوث بعد العدم، فكيف يكون التأثير فيها نابعاً من جوهرها الذاتي، وهذا الجوهر نفسه قد كان مفقوداً قبل حين، ثم اكتسب الوجود بتأثير سبب آخر، ويقال الكلام نفسه في حق هذا السبب الآخر، وفي حق الأسباب الأخرى الكثيرة المختلفة.

وإذاً فما معنى كون هذه الأمور أسباباً؟ إن معنى ذلك محصور في أن الله عزّ وجل ربط بينها وبين أمور أخرى بمحض إرادته وقدرته فقط، فظهر استمرار هذا الارتباط أمامنا بمظهر السببية والتأثير، فاستعرنا له كلاً من هاتين الكلمتين على سبيل المجاز، وأنت تعلم بأن طول الاقتران بين أمرين في الوجود والعدم قد يخيل إلى الذهن ارتباطاً سببياً بينهما، وإن لم تكن ثمة أيُّ رابطة حتمية في واقع الأمر.

ويتضح لك هذا المعنى فيما يسميه علماء النفس برد الفعل الشرطي، إذ ثبت عندهم بالتجربة: أن أيَّ مؤثر من المؤثرات

المختلفة في النفس، إذا تكرَّر وجوده بمصاحبة أمر ما ولو بمحض المصادفة، فإن هذا المصاحب يكتسب هو الآخر في النفس شيئاً من قوة ذلك المؤثر، فيفعل فعله، ويحقق نتيجته أو قريباً منها.

ويمثلون لذلك بالتجربة التي قام بها «بافلوف» وهو عالم روسي، من تقديم الطعام لطائفة من الكلاب الجائعة عند قرع جرس معين على أسماعها، وكرَّر ذلك مدة متصلة من الأيام فكان يظهر تأثرها لمرأى الطعام في كل مرة بسيلان اللعاب من أفواهها، ثم إنه قرع الجرس وحده بعد ذلك دون أن يقدم لها الطعام، فظهر فيها الأثر ذاته الذي كان يظهر عند مرأى الطعام.

وتفسير ذلك بالنسبة لما نحن بصدده: أن الكلاب لما رأت مقارنة صوت الجرس لظهور الطعام أمامها، واستمرت هذه المقارنة أمامها مدة من الزمن، رسخ هذا الارتباط في تصورها، وأثر تأثيراً معيناً في نفوسنا، ولو قلنا: إنَّ الكلاب لها عقل على قدرها تفكر فيه، لقلنا: إنها ظنت من طول استمرار هذه المقارنة أن الجرس هو السبب المؤثر في ظهور الطعام وحضوره.

وما قصة الإنسان أمام هذا الوجود إلا كقصة هذه الكلاب أمام الجرس والطعام، فقد تعلَّقت إرادة الله تعالى بألا يظهر عشب الأرض إلا بعد نزول الأمطار من السحاب، وتعلَّقت إرادته بألا تنزل قطرات المطر إلا بعد أن تتلبد الغيوم، وتتكاثف بقدر معين، ضمن درجة معينة من البرودة، وتعلَّقت إرادته بألا يتوالد الناس إلا عندما يتزاوجون، وهكذا، ولو شاء الله عزّ وجل لفرّق بين هذه الأمور، وقطع الصلة فيما بينها، وترك كل واحد منها

يسير في طريق، ويظهر مستقلاً عن الآخر.

وإذاً فإن ما نُسمِّيه نحن بقانون السببية في الكون، ليس اسمه في الحقيقة إلا قانون المقارنة المجردة، أسميناه كذلك؛ لأنه ظهر لنا في مظهر السببية، واستقر كذلك في أخيلتنا.

إلا أن هذه التسمية لا تتفق مع حقائق العلم وواقع الأمر، كما قد رأيت، فلذلك أطلق العلماء على هذه الأسباب: الجعلية، أي: هي أمور جعلها الله بمحض المقارنة، فهي مجعولة جعلاً، وليست أسباباً ذاتية مؤثرة، وما قد تلمحه فيها من مظاهر التأثير والعلِّيَّة ليس كذلك في الحقيقة، بل هي المقارنة ليس غير.

غير أن الإمام الغزالي رحمه الله لا يرى تنافياً بين أن تكون الأسباب الكونية جعلية كما قلنا، وبين أن يكون فيها تأثير أودعه الله عزّ وجل فيها، يسلبه عنها عندما يشاء، وهو يرى: أن هذا هو الحق، أي: فالمسألة ليست مسألة مقارنة مجردة؛ كمقارنة الجرس للطعام، بل هناك تأثير كامن في السبب المقارن، ولكنه ليس تأثيراً منبثقاً من ذاته، بل مودع فيه من قبل الله عزّ وجل، فإذا أراد الله تعطيل السبب عن سببيته أزال عنه هذه القوة المودعة فيه.

وتحليل الغزالي هذا أقرب إلى الانسجام مع التعليلات العلمية لظاهر الأشياء، وتكويناتها، إلا أنه أبعد عن مسلك الجمهور وما اتفق عليه من قولهم: «إن المسببات توجد عند وجود الأسباب لا بها».

ونحن نرى: أن الخلاف ينتهي بعد مراحل يسيرة من النظر إلى الوفاق، فهو خلاف يكاد يكون لفظياً؛ إذ المقصود: أن تأثير

الأسباب الكونية ليس تأثيراً حتمياً، وإنما هو بإرادة الله عزّ وجل، فهي أمور لا علاقة لها في الأصل بغيرها، ولكن الله جعلها أسباباً لها، سواء قلنا إنه أودع فيها قوة مؤثرة، أم لم يُودع فيها هذه القوة.

جـ ـ الحكمة من خضوع الكون لقانون السببية:

والسؤال الذي لابدّ من إيراده هنا هو: فإذا كانت هذه الأسباب جعْلية كما قلت، ففيم جعلها الله كذلك؟ وهلاَّ فرق بين هذه الأمور المجتمعة، وأبعدها عن بعضها حتى لا ينخدع بها الناس فيتوهموا أنها أسباب مؤثرة؟ وهي ليست كذلك.

والجواب: أن أبرز مظاهر دلالة الكون على وجود الخالق عزّ وجل إنما هو مظهر التناسق والانسجام فيه، كما أوضحنا ذلك عند الكلام على الإيمان بوجود الله، وليس معنى التناسق والانسجام فيه شيئاً غير ظاهرة السببية والعلية الشائعة والسارية في كل صوره وأجزائه.

إذاً فلكي يدلَّ الكون دلالة باهرة على وجود الله عزّ وجل ينبغي أن يكون متناسقاً.

ولكي يتم فيه التناسق ينبغي أن يكون مرتباً بعضه على بعض، بأن يكون هذا محتاجاً، وذلك محتاجاً إليه، فيتلاقيان طبقاً للحاجة التي بينهما، فإذا تجلَّى من الكون هذا التناسق تنبَّهتَ لما قلناه من ضرورة تناقص العلل في المسائل المتناسقة، كلما أمعنت النظر أكثر، وكلما سبرت مزيداً من أغوار هذه العلل والمعلولات، فتسير متأملاً في هذا السبيل، إلى أن تنتهي بك هذه العلل المثيرة إلى العلَّة

الوحيدة الكبرى الكامنة خلف كل ما قد رأيتَ، أي: إلى واجب الوجود، وهو الله تعالى.

إن الذي يتأمل أجهزة وآلات معينة ومنتشرة، لا يمكن أن يصدق أنها جميعاً من صنع شخص واحد هو الموجد لها، إلا إذا تأمل فرآها يتمم بعضها بعضاً، متعاونة لدى التركيب في إيجاد عمل نوعي معين، وكلما ازداد لمساً لهذا الانسجام، وسبر مزيداً من دقائقه؛ ازداد يقيناً بوحدة الصانع، وذلك كأن يعمد فيركبها إلى بعضها تركيبها الصحيح المتصور، وإذا هي قد انقلبت في يده ساعة تضبط الزمن، وإذا هي من صنع معمل معين معروف.

وهكذا اقتضت رحمة الله بعباده أن يجعل من كونه أفصح بيان ناطق بألوهية الله وحده، وبأنه الخالق المبدع للكون كله، فجعلك في حاجة مستمرة إلى كثير من الأمور المعينة، ثم جعل بينك وبين هذه الأمور حلقات من الوسائط والأسباب، كلما تجاوزت واحدة منها إلى الأخرى تبدَّى لك جديد من معنى الانسجام بين أجزاء الكون وجزئياته، ووقعت على ما بينها من تعاون ومشاركة في سبيل تحقيق أغراضك وحاجاتك، حتى تستيقنَ أخيراً بأن من وراء هذا الكون كلِّه من يدبره هذا التدبير، ويؤلف بينه هذا التأليف.

ولو أن الله خلقك غير محتاج إلى شيء، وخلق الكائنات الأخرى كذلك ـ وهو قادر أن يفعل ذلك ـ لما وجدت أمامك فرصة لاكتشاف معنى التناسق والتلاؤم فيها، ولفقدت بذلك أبرز مظهر من مظاهر الدلالة على وجود الله تعالى.

د ـ ما يجب على المسلم اعتقاده بناء على ذلك:

هذه المسألة الأخيرة هي ثمرة كلِّ ما قد ذكرناه من المسائل الثلاث السابقة.

إن على المسلم أن يعتقد اعتقاداً جازماً: أنه لا تأثير في الكون لأي شيء إلا لله عز وجل، وأن كل ما يتراءى لنا من مظاهر الأسباب والعلل إنما هو أسباب وعلل جعلية، جعلها الله عزَّ وجل كذلك، وأن ما قد يجده الباحث فيها مما يُسمِّيه العلم بالعوامل والمؤثرات وما إلى ذلك، إنما هو كذلك من حيث الظّاهر فقط، والعلم لا شأن له بالأشياء إلا أن يصفها على ما هي عليه في أدق مظاهرها، ثم يمارس هذا الوصف بالتجربة في مجالات متكررة، وإذا كان العلم إنما يصف واقعاً لا يزيد عليه، فإن هذا الواقع لا يزيد على المقارنة المستمرة، أما إمكان الانفصال فشيء آخر، وهيهات أن يتوصل العلم إلى أن مقارنة الأسباب بمسبباتها أمر حتمي لا مناص من تلازمهما، ولا حيلة لانفكاكهما.

وإذ قد ثبت الدليل القطعي على ما قلناه، فقد كان جحود ذلك كفراً بإجماع المسلمين، ولا معنى لإثبات ألوهية الله بعد هذا الجحود كما هو معلوم، كما لا معنى بعد ذلك للإيمان بشيء من المعجزات والخوارق التي أُكرم بها الأنبياء والمرسلون، كتحول نار إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى برد وسلام، وكولادة عيسى عليه الصلاة والسلام دون وساطة أب، وكإبرائه الأكمه والأبرص، وإحيائه الموتى بإذن الله، وكل ذلك مما نصَّ عليه القرآن بصريح العبارة وجليِّ البيان.

وجماع كل هذا الذي ذكرناه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

هـ ـ هل من ضير في استعمال ألفاظ تدلّ على سببية الأشياء بعضها لبعض إذا سلمت العقيدة؟

لعلك تسأل بعد هذا عن حكم استعمال المسلم ألفاظاً تعبر عن سببية بعض الأشياء وتأثيرها، وذلك بسبب طول الإلف، وظهور هذه الأشياء بمظهر الأسباب الذاتية المؤثرة؟ كقول القائل: لقد نفعني هذا الدواء، وشفاني هذا الطبيب، وأينع الزرع بكثرة المطر. فالجواب: أن ذلك إذا صاحب اعتقاداً بتأثير واحد من هؤلاء فقد كفر بالاتفاق كما أوضحنا ذلك آنفاً، أما إن صاحبه الاعتقاد بأن المؤثر في ذلك إنما هو الله جل جلاله، فلا ضيرَ فيه؛ لأن تعبيره هذا جاء موافقاً لظاهر ما أقيم الكون عليه من قانون السببية الجعلية.

* * *

الفصل الثاني
الإنسان

تمهيد:

إن الإسلام ـ هو الدين العام الذي أنزله الله للناس جميعهم، مهما تراخت أزمانهم، واختلفت ألوانهم، وألسنتهم، ومهما تباعدت قارّاتهم، وبلدانهم، وهو الدين الشامل الذي لم يترك شاردة ولا واردة، ولا عظيماً ولا بسيطاً مما يعني الإنسان إلا وبيّنه أتم بيان. إن هذا الدين قد أوضح لنا فيما أوضح حقيقة هذا الإنسان الذي يعمر هذه الأرض، ويتمتع بخيراتها، وينعم بما أودع الله فيها، وكيف وُجِد عليها، وما هي النهاية التي تنتظره، وكيف تكون هذه النهاية.

كما أوضح لنا حقيقة هذا الكون المحيط بالإنسان، وما هي الروابط والعلاقات التي تكون بينه وبين هذا الوجود العظيم المتنوع المتناسق، وما يجب أن يأخذ منه، وما يجب أن يدع، وما هي النهاية التي تنتظر هذا الوجود أيضاً؟.

كما أنه قد بيّن لنا أموراً تتعلق بحياتنا ومسؤوليتنا، والمنهاج الذي يجب علينا أن نسير عليه لنحقق الحكمة من وجودنا.

وفي كل هذا الإيضاح والبيان إظهار لفضل الله على هذا الإنسان

وعنايته به، وإرواء لما فطر عليه من التطلع لمعرفة المجهول، وتنظيم لحياته حتى لا تذهب جهوده سدى، وبيان للحقيقة التي قد يتعذَّر، أو يتعسَّر الوصول إليها عن طريق البحث والتجربة، وإعمال الفكر.

وإنك لتجد بعض ذلك في هذا البحث الموجز عن الإنسان وإليك بيان ذلك:

١ ـ بدء خلق الإنسان

أ ـ حقيقة الإنسان: الإنسان في نظر الإسلام هو أحد المخلوقات الكونية التي أسكنها الله هذه الأرض، وهو يشاركها الكثير من صفاتها، وينفرد هو بصفات خاصة به.

١ ـ يشارك التراب في أصل خلقته وعناصر تركيبه وتكوينه.

٢ ـ ويشارك النبات في نموه، وفي الكثير من مواد تركيبه، وما يتغذَّى به الإنسانُ من النبات هو الصلة المستمرة بينه وبين التراب.

٣ ـ ويشارك الحيوان ـ على كثرة أنواعه ـ في كثير من صفاته وغرائزه، في طعامه وشرابه، وفي توالده، وتناسله، فهو من هذه الناحية نوع من أنواعه.

٤ ـ ويمتاز الإنسان عن غيره من الحيوان ـ من حيث الشكل ـ بما ميزه الله به من قامة مستقيمة، وخَلْقٍ سويّ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] ويمتاز ـ من حيث الحقيقة ـ بما ميَّزه الله به من العقل، الذي بالتفكير به وإعماله يترقَّى عما دونه من سائر

الحيوان. إذاً الإنسان: هو هذا الكائن النامي الحيّ العاقل المفكر.

ب ـ خلق آدم وحواء وانتشار الإنسان منهما

١ ـ إن آدم هو أول إنسان خلقه الله تعالى على وجه الأرض، ولم يكن قبله من إنسان، فهو وحده أبو الوجود الإنساني كلّه. ثم خلق الله سبحانه حواء زوجاً لآدم، ثم أنشأ منهما بشراً كثيراً رجالاً ونساءً، وعلى هذا دلّت الآيات القرآنية.

يقول الله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

جـ ـ الإنسان على هذه الخِلقْة منذ وُجد

١ ـ الإنسان مخلوق من تراب:

اتفقت الرسالات كلُّها على أن الإنسان الأول ـ وهو آدم عليه السلام ـ مخلوق من تراب، ولقد جاءت الآيات القرآنية مقررة لهذه الحقيقة، فمن الآيات الدالة على ذلك:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة: ٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠].

والصلصال: طينٌ يابس. والحمأ: الطين الأسود، وكل ذلك أصله من التراب.

٢ ـ خلقة الإنسان حينما وجد

وهل الإنسان منذ وجد وُجد على هذه الخلقة التي هو عليها الآن من استواء في القامة، واعتدال في الخلق، وعقل، وتفكير، أو كان خلقاً آخر، ثم تطوَّر حتى وصل إلى مرتبة الإنسان؟ إن الذي عليه جمهور العلماء من المسلمين هو أن الإنسان منذ نشأته الأولى مخلوق على هذه الهيئة التي هو عليها الآن، لم يطرأ عليه في خلقته أيُّ تعديل، أو تبديل، أو تغيير، فلم يكن نوعاً آخر من الحيوان، ثم تطوَّر هذا النوع عبر الأجيال حتى أصبح هذا النوع الإنساني، ولم يكن يمشي على أربع؛ ثم إن حاجيات معاشه جعلته ينتصب على قدميه، ثم يعتدل تكوين جسمه على ما ينسجم مع هذه الحالة الطارئة.

وحجتهم في ذلك ظواهر أدلة وردت في هذا الدين الحنيف منها:

١ً ـ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

و«الـ» هنا دالّة على الحقيقة، والماهية، والجنس، أي: إن ماهية هذا الإنسان وجنسه مخلوق على أحسن استقامة واعتدال.

٢ً ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٨].

٣ً ـ ما روي في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن

رسول الله ﷺ قال: «خلق الله آدم على صورته»[1] أي: إنه منذ وجد كانت صورته الصورة نفسها التي استمرَّ عليها، وعرف بها، ولم ينشأ على شكل، ثم انتقل منه إلى شكل آخر، هذا إذا أرجع الضمير إلى آدم. ويرى بعض شرَّاح الحديث أن الضمير في صورته راجع إلى الله، والمقصود بالصورة: الصفة، أي: إن الله خلقه عالماً حكيماً سميعاً بصيراً، وهذه هي صفات الله عزّ وجل.

وعلى كلٍّ من الرأيين فهو دالّ على المطلوب، لأن مساق الحديث تكريم الله لآدم منذ أول نشأته وخلقه.

هذا الذي ذهب إليه جمهور العلماء، وهو الذي يتلاقى وينسجم مع تكريم الله للإنسان، واستخلافه إياه في هذه الأرض.

٣ ـ نظرية التطور (النشوء والارتقاء)

في عام ١٨٥٩ م خرج دارون على العالم بكتابه المشهور في أصل الأنواع، ثم أصدر من بعده في سنة ١٨٧١ م كتابه في «تسلل الإنسان» وقدَّم للناس نظرية مفادها أن الإنسان تطور من نوع سابق له من الكائنات نتيجة لمبدأين هما: مبدأ تنازع البقاء، ومبدأ الانتخاب الطبيعي.

أما مبدأ تنازع البقاء: فمعناه: أن الأحياء في تنازع دائم مع الطبيعة ومع بعضها، وفي هذا التنازع إنما يتم الفوز للفرد الذي تؤهله صفاته للغلبة والبقاء، فإذا تمَّ الفوز للذي تؤهله صفاته للبقاء حقَّ الفناء على الذي لا تؤهله صفاته لذلك.

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة (٢٨٤١) (٢٨).

وأما مبدأ الانتخاب الطبيعي فخلاصته: أن ناموس الوراثة كما ينقل التباينات ينقل جميع الصفات التي يحملها الأصل إلى الفرع، مادية كانت أو معنوية، أصلية أو مكتسبة، وهذه الصفات منها النافع؛ كالقوة، والصحة، والذكاء. ومنها الضار؛ كالأمراض، والعاهات، والشذوذ. أما الضارة فتنتهي إلى أحد أمرين: إما أن تتلاشى بتغلب النافعة عليها، وإما أن تتغلب فتؤدي إلى تلاشي صاحبها بذاته أو بنسله.

وأما النافعة فهي التي تجعل صاحبها ممتازاً، أو فائزاً في معركة تنازع البقاء، ثم تتوارث الفروع هذه الصفات النافعة جيلاً بعد جيل، وبعد مرور ألوف من الأجيال يبلغ حداً يجعل من الفرد الممتاز نوعاً جديداً، وهذا هو مبدأ الانتخاب الطبيعي الذي رآه داروِن سبباً لتكوين الأنواع الحية الموجودة اليوم على سطح الأرض، وكلها ترجع في رأيه إلى نوع واحد.

وليس في مذهب داروِن هذا نكران لوجود الله، بل على العكس من ذلك كان يعترف أن الله هو الخالق لأصل هذه الأنواع، لا أن أصل الأنواع تولَّد تولُّداً ذاتياً بنفسه وبفعل الطبيعة.

هذا ولا نريد هنا أن نعرض أدلة داروِن ومن على شاكلته ونناقشها، ولكن حسبنا أن نبين هنا أن تَدرُّجَ الكون وتسلسله في التناسق الخلقي هو مما أدركه علماء المسلمين، ولكن هذا التدرج لا يعني أن بعض هذه الأنواع قد انبثق من نوع آخر أقلّ منه درجة.

وحسبك في ذلك أن ترجع إلى ما كتبه ابن مسكويه، أحمد بن

محمد المتوفَّى عام (٤٢١ هـ) وما كتبه ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد مؤسس علم الاجتماع المتوفى عام (٨٠٨ هـ) في مقدمته.

٢ ـ تكليف الإنسان ومسؤوليته

أ ـ تكريم الله للإنسان:

لقد كرَّم الله هذا الإنسان، وفضَّله على كثير ممن خلق تفضيلاً، ولقد ثبت تكريم الإنسان وتفضيله بدليل نقلى وعقلي:

أما الدليل النقلي فهو قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

والاستدلال من هاتين الآيتين على تكريم الإنسان وبخاصةٍ الإنسان الأول ـ آدم عليه السلام ـ ظاهر الدلالة.

وأما الدليل العقلي فيتمثل في الأمور التالية:

أ ـ إن النفس الإنسانية تتميز عن جميع النفوس والموجودات الأخرى بتلك القوى المدهشة العجيبة، ألا وهي القوة العاملة المدركة لحقائق الأشياء، ومن خصائص هذه القوى: أنها هي الوسيلة لمعرفة الله سبحانه، فإذا كان الأمر كذلك كانت هذه النفس أشرف النفوس الموجودة في العالم.

ب ـ تسخير الله الكون لهذا الإنسان، وما ذاك إلا لبيان

مكانته، وشرفه، وسيادته على هذا الكون، وسيمرّ بك موضوع التسخير هذا قريباً.

جـ ـ الصفات التي تميّز بها الإنسان عن غيره إن هي إلا فيوضات من صفات الربوبية؛ كالعلم، والقدرة، والإرادة، وغير ذلك، فإذا كان الإنسان في حقيقته مستودعاً لظلال أو فيوضات من صفات الله سبحانه وتعالى، فأجدر به أن يكون أشرف المخلوقات، وأكرمها.

ب ـ هل الإنسان أفضل من الملائكة؟

لقد اتّفق العلماء على أن الإنسان أفضل الكائنات المخلوقة جميعها ما عدا الملائكة، وأما تفضيله على الملائكة فقد وقع بينهم خلاف في ذلك. وإليك البيان:

أ ـ ذهب ابن عباس رضي الله عنه إلى أفضلية الملائكة على الإنسان مطلقاً ما عدا محمداً عليه الصلاة والسلام، فهو بالإجماع أفضل الخلق على الإطلاق، وممن ذهب إلى تفضيل الملائكة على الإنسان: المعتزلة، والفلاسفة، وبعض الأشاعرة، وحجتهم لما ذهبوا إليه أمور، منها:

أ ـ قوله تعالى في الملائكة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٧] وقوله فيهم أيضاً: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] ووجه الاستدلال بهاتين الآيتين: أن الملائكة مجردون عن الشهوات، خاضعون لأمره، وغيرهم قابل للمعصية،

مزوَّد بالحاجات والشهوات، ومن لا تخطر على باله معصية أفضل ممن ليس كذلك.

وأجيب بأن الإنسان قد يحصل على الكمالات والفضائل العلمية والعملية مع وجود العوائق والموانع من الشهوة والغضب وسنوح الحاجات الضرورية الشاغلة عن اكتساب الكمالات، ولا شك أن العبادة وكسب الكمالات مع الشواغل والصوارف أشق وأدخل في الإخلاص، فيكون أفضل.

٢ ـ قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»[١].

قال القرطبي: وهذا نصّ في أفضلية الملائكة.

ب ـ وذهب جمهور أهل السنة إلى أن رسل البشر أفضل من رسل الملائكة، ورسل الملائكة أفضل من عامة البشر، وعوام البشر وهم الصالحون من المسلمين أفضل من عوام الملائكة، وحجتهم في ذلك أمور:

١ ـ أمر الله الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤] ومقتضى الحكمة: الأمر للأدنى بالسجود للأعلى دون العكس.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] ووجه الاستدلال: أن كل واحد من أهل اللسان يفهم منها أن

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة في التوحيد (٧٤٠٥).

القصد تفضيل آدم على الملائكة، وبيان زيادة علمه، واستحقاقه التعظيم والتكريم؛ لأنها مسوقة لهذا الغرض.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧] والبرية: الخليقة، فيدخل فيهم الملائكة.

٤ ـ ما رواه أبو داود وغيره، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «إن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم»[١].

جـ ـ وذهب جماعة إلى الإمساك عن الحديث في هذا التفاضل لأنه مما لا دليل قطعي عليه، وليس داخلاً في جملة العقائد التي هي أصول الدين.

قال القرطبي في تفسيره: قال بعض العلماء: ولا طريق إلى القطع بأن الأنبياء أفضل من الملائكة، ولا بأن الملائكة خير منهم؛ لأن طريق ذلك خبر الله تعالى، وخبر رسوله، أو إجماع الأمة، وليس هاهنا شيء من ذلك.

وقال تاج الدين ابن السبكي: «ليس تفضيل البشر على الملك مما يجب اعتقاده، ويضرّ الجهل به، والسلامة في السكوت عن هذه المسألة، والدخول في التفضيل بين هذين الصنفين الكريمين على الله تعالى من غير دليل قاطع دخول في خطر عظيم، وحكم في مكان لسنا أهلاً للحكم فيه»[٢].

---

(١) أخرجه أبو داود في العلم (٣٦٤١) والترمذي في العلم (٢٦٨٣) وابن ماجه في المقدمه (٢٢٣).

(٢) انظر حاشية الجوهرة، للشيخ الباجوري (٧٧).

ج ـ استخلاف الإنسان في الأرض

١ ـ أدلة الاستخلاف:

من مظاهر تكريم الله للإنسان أن جعله خليفة له في الأرض، ولقد جاء في القرآن الكريم نصوص كثيرة تشير إلى هذا الاستخلاف، فمن ذلك:

١ً ـ قوله تعالى للملائكة عند إرادة خلق الإنسان: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

٢ً ـ قوله تعالى في حق داود عليه السلام: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٣٨].

٣ً ـ وقوله تعالى في حق الصالحين من عباده: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

٤ً ـ وقوله تعالى في حق الناس: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

٥ً ـ وقوله تعالى في شأن قوم موسى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن

﴿يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

٢ ـ معنى الاستخلاف

وحقيقة الاستخلاف في هذه الآيات وأمثالها: أن الله عهد لهذا الإنسان بالقيام في إمضاء أحكامه وتنفيذ أوامره، وإعمار هذه الأرض على الطريقة التي أمره بها. فالذي يستحق لقب خليفة الله هو من يقوم بواجب الاستخلاف على الوجه المطلوب.

٣ ـ ما يترتب على الاستخلاف

ويترتب على هذا الاستخلاف أمور نجملها فيما يلي:

أً ـ إن الملك في هذا الكون لله وحده، فليس لأحد حق في ملكية أصلية، فالله وحده هو المالك الحقيقي، وهو الذي يملك حق التصرف في هذا الكون كيفما يشاء، ويختار، ويحيي، ويميت، ويغني، ويفقر، ويعز، ويذل، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

٢ً ـ الإنسان هو سيد هذه الأرض، يستمد سيادته هذه من ربِّه الذي منحه هذا التكريم، فليس شيء يستحق السيادة غيره، ولقد زوَّده بما يؤهله لهذه السيادة، وفي رأس ما زوَّده به: العقل الذي هو المميِّز الوحيد له عن غيره من الكائنات في هذه الأرض حيوانات وغيرها، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

ومن هنا نعلم: أن الإنسان الذي يهمل عقله، فلا يفكر فيه، ولا يستعمله، بل يحجبه عن التفكير، هذا الإنسان ليس بجدير لأن ينال شرف الاستخلاف؛ لأنه انحدر إلى مستوى البهائم التي لا تملك نظير هذه القوة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

٣ً ـ إن الإنسان في هذه الأرض لا يحقُّ له أن يتصرَّف إلا على الطريقة التي أمره بها المستخلِف، فحريته في هذا الكون ليست حرية مطلقة، يتصرف كيفما يشاء ويختار، بل هي حرية محدودة بالحدود التي وضَعَها المالك الحقيقي؛ الذي هو الله سبحانه، ومن هنا كثيراً ما نسمع القرآن الكريم يُوصي هذا الإنسان بالتزام الوقوف عند هذه الحدود، وينذره إن تجاوز هذه الحدود بحلول عقاب الله وغضبه عليه، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وقال: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

٤ً ـ ما دام الإنسان مستخلَفاً فمن واجبه أن يسعى ليعلم ما هو مستخلف عليه، وليحصِّل على هذا العلم يجب عليه أن يبحث، ويجرب، ومن هنا كان الاستخلاف من أعظم الدوافع في طريق العلم التجريبي؛ الذي يزيده كل يوم خبرة، واطلاعاً، وانتفاعاً بما أوجده الله في هذا الكون.

ومن أجل ذلك لفت القرآن نظر الإنسان إلى ما أودع في هذا الكون من أسرار، ليعرف كيف يستخدمها من جهة، وليستدل بها على قدرة خالقها من جهة أخرى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]. وقد مرَّ بك هذا المعنى في موضع آخر من هذا الكتاب.

د ـ تسخير الكون للإنسان:

من مظاهر تكريم الله للإنسان أيضاً تسخير الكون له، ومعنى التسخير: أن هذا الكون بجميع أجرامه، وقواه، وقوانينه مصنوع لخدمة هذا الإنسان، ومهيَّأ لمنفعته، ولقد ابتدعه سبحانه على نظام يساعد هذا النوع على استبقاء حياته على ظهر الأرض، وقد مرّ بك هذا المبحث عند الكلام على الكون، وبديع صنع الله فيه.

هـ ـ تكليف الإنسان بتكاليف شرعية:

١ ـ الحياة الدنيا ابتلاء وتكليف:

بعد أن أُهبِط آدم إلى الأرض، وجُعلت سكناً له ولذريته من بعده، أعلمه الله جلّ جلاله: أن الحياة في هذه الدنيا هي تكليف، واختبار، وابتلاء، فمن قام بهذه التكاليف حقَّ القيام، واجتاز مرحلة الاختبار بنجاح فهذا هو الإنسان الذي حقَّق ما أراده الله منه، وسيكون مآله العودة إلى دار الخلود التي عرضها كعرض السموات والأرض، ومن أعرض عن هذه التكاليف فلم يقم بحقها، ولم يرعها حقَّ رعايتها، ولم يجتز هذا الاختبار بنجاح؛ فسيكون مصيره إلى جهنم دار العقاب، وما الحياة الآخرة إلا امتداد للحياة الدنيا، وانتقال من مرحلة الزرع إلى مرحلة الحصاد، قال

تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ ـ ٣٩].

٢ ـ ابتدأ تكليف الإنسان منذ وُجد على الأرض:

ومنذ أن هبط آدم إلى الأرض أنزل الله عليه شريعة ورسالة، وكلَّفه أن يقوم بها، وأن يبلِّغَها أولاده كي يقوموا بها، ويعملوا بمقتضاها، فكان آدم عليه الصلاة والسلام أول رسول أرسل على هذه الأرض.

ثم تعاقبت الأنبياء والرسل من ذريته، ولقد اقتضت حكمة الله سبحانه أن يرسل إلى الأمم رسلاً كلما ضلُّوا الطريق، وانحرفوا عن الجادة رحمة بهم، وإقامة للحجة عليهم ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

ولقد كانت رسالة نبينا محمد ﷺ خاتمة الرسالات والشرائع، وكان محمد عليه الصلاة والسلام بذلك خاتم الأنبياء والمرسلين، وكانت رسالته للناس كافة إلى يوم القيامة ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

٣ ـ حقيقة هذه التكاليف:

إن هذه التكاليف التي أنزلها الله على رسله من لدن آدم إلى محمد عليه الصلاة والسلام، وأمرهم أن يبلِّغوها إلى أممهم، هذه التكاليف تحتوي على جانبين هامين، لا تقوم حياة الإنسان على

الشكل الصحيح إلا بهما، وهذان الجانبان هما: العقيدة، والتشريع.

أ ـ الجانب الأول: العقيدة:

وهي تعني: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقضاء والقدر خيره وشره، وهي ما يُعبَّرُ عنها بأركان الإيمان وأصول الدِّين، وهذا الجانب من الرسالات السماوية لم يختلف ولم يتغير على تعدُّد الرسالات لأنه من الحقائق الثابتة التي ليست في ذاتها عرضة للتغير والتبدل، وسنوضح ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ب ـ الجانب الثاني: التشريع:

ومعناه: إيجاد الخط الذي يجب أن يسير المرء عليه في حلِّ مشاكله المختلفة الجوانب، ويجب علينا في هذا الجانب أن نعلم الأمور التالية:

١ً ـ وجود تشريع يعني: أن الله جلَّت حكمته لم يترك الإنسان هملاً، بل رعاه من أول وجوده على هذه الأرض، وأوجد له منهاجاً يقوده إلى السعادة في الدنيا والآخرة إن هو سار عليه.

٢ً ـ إنَّ تطبيق التشريع الإلهي هو الذي يتحقَّق به رضوان الله تعالى، وهو طريق العودة إلى جنة الخلد التي أهبط منها الإنسان الأول الذي هو آدم عليه السلام.

٣ً ـ إنَّ ثمرة وفائدة هذا التطبيق للتكاليف الشرعية ليست بعائدة إلى الله سبحانه، فالله هو الغني عن العالمين، لا تنفعه

طاعتنا، ولا تضرُّه معصيتنا، وإنما فائدتها وثمرتها يجنيها الإنسان نفسه؛ لأنها هي الطريق الواضح الذي يسعده في الدنيا والآخرة.

٤ ـ إنَّ تطبيق التشريع الإلهي هو الصورة العملية للعقيدة، فالإيمان ليس عقيدة فحسب، بل هو عقيدة وعمل.

٥ ـ إن التكاليف الإلهية لم تكن على وتيرة واحدة، بل اختلفت باختلاف التصور، وتغيرت من رسالة إلى أخرى، فالتشريعات كانت تضيق وتتسع على حسب البيئة، والحاجة، والوسط؛ الذي نزلت فيه الرسالات، إلى أن جاءت خاتمة الرسالات السماوية رسالة سيدنا محمد ﷺ، فنسخت سائر التشريعات، وأتت بتشريعات خالدة ثابتة لا تتغير أبد الآبدين، ودهر الداهرين، كما سنوضح ذلك. وهي في الوقت نفسه صالحة لكل زمان ومكان، وبها ختمت الرسالات السماوية، وتمَّ ما أراده الله لهذا الإنسان من منهاج، ولعلَّ هذا هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاويته، فجعلَ الناسُ يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلاَّ وُضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[١].

٦ ـ إنَّ هذه التشريعات والتكاليف ثلاثية الأهداف فهي:

١ ـ تُنَظِّمُ علاقة الإنسان بخالقه عن طريق العبادة، فالإنسان

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٣٤) ومسلم في الفضائل (٢٢٨٧) والترمذي في الأمثال (٢٨٦٢).

يشعر باستمرار بالحاجة إلى خالقه، وضرورة الاتصال به والمثول بين يديه، والالتجاء إليه، والاحتماء به، ومناجاته، ودعائه، وإنما يتم ذلك عن طريق تنفيذ التشريعات والتكاليف التعبدية التي يأمر بها سبحانه عباده، وهي وحدها التي تكون طريق الوصول إليه جلَّ جلاله، لا بما يبتكره الإنسان نفسه من أساليب وطرق، «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ»[1].

٢ ـ وتُنَظِّمُ علاقة الإنسان مع نفسه، فنفسُ الإنسان مطيته التي تُوصله إلى الهدف المنشود، لا جرم أن الإنسان بحاجة إلى تحديد علاقته معها، حتى لا يعنتها، ولا يرهقها فتنقطع به في منتصف الطريق، «إنَّ المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»[2]. وانظر إلى قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «أما أنا فإني أصلي، وأنام، وأصومُ، وأفطر، وأتزوَّج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[3].

٣ ـ وتُنظِّم علاقة الإنسان مع غيره ممن يشاركه في إقامة حياة اجتماعية، فالإنسان منذ فطر اجتماعي بطبعه، ميال إلى إقامة حياة يتساعد على إقامتها مع آخرين من أبناء جنسه، فكان لا بد من وجود تنظيم يُعرِّفه ما يأخذ وما يدع، حتى لا تسوء علاقاته مع

---

(١) أخرجه مسلم في الأقضية (١٧١٨).
(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٨/٣) وانظره في فتح الباري (٢٩٧/١١).
(٣) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٣) ومسلم في النكاح (١٤٠١) (٥).

الآخرين، كي يسود بينهم الوئام والوفاق، ويتحقق استخلاف الله للإنسان على أكمل صورة.

و ـ مهمة الإنسان على هذه الأرض:

ومن خلال ما سبق يتوضح لنا: أن الإنسان المكرَّم، المسخَّر له ما في السموات وما في الأرض، المستخلف في هذا الكون، المكلَّف بتكاليف إلٰهية؛ هذا الإنسان مهمته على ظهر هذه البسيطة بشكل موجز: هي الإيمان بالله تمام الإيمان، والتطبيق لأحكامه وشرائعه تمام التطبيق؛ كي يسعد في حياته الدنيوية، وكي يتمكن في نهاية المطاف من العودة إلى جنة الخلد.

ز ـ نهاية الإنسان:

دلَّت النصوص القرآنية على أن لحياة الإنسان على ظهر الأرض نهاية، وأن هذه النهاية ستكون الموت والفناء، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧].

ومعنى هذا الفناء: أن حياة هذا النوع البشري ستنتهي، ولن يبقى أيُّ فرد من أفراده على وجه الأرض، سواء في ذلك المؤمن والكافر، والكبير والصغير.

جاء في الحديث عن أمارات الساعة: «فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة»[1]. ويكون هذا الفناء الكلي عند النفخ

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن (٢١٣٧)، ويتهارجون: قال النووي: =

بالصور النفخة الأولى. قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وجاء في الحديث عن النبي ﷺ: أنه قال في حديث طويل: «ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع لِيتاً، وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله فيصعق، ويصعق الناس»[1].

* * *

= يُجامع الرجال النساء بحضرة الناس.

(١) أخرجه مسلم في الفتن (٢٩٤٠) واللِّيت: صفحة العنق. وأصغى: أمال. ويلوط حوض إبله: يُطَيِّنه ويُصلحه.

الباب الرابع
من الأمور الغيبية

- □ الفصل الأول: الرُّوح
- □ الفصل الثاني: الجِنُّ والشياطين

الفصل الأول

الرُّوح

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

١ ـ معنى الرُّوح في اللغة

الرُّوح: بالضم، النَّفس. قال ابن الأنباري: والرُّوح والنَّفْس واحد، غير أن الروح مذكر، والنفس مؤنثة عند العرب. وفي التنزيل ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] وتأويل الروح: مابه حياة الأنفس.

وقال الفراء: الروح: هو الذي يعيش به الإنسان، لم يُخبر الله تعالى به أحداً من خلقه، ولم يُعطِ علمه العباد. قال: وسمعت أبا الهيثم يقول: الرُّوح إنما هو النَّفَس الذي يتنفسه الإنسان، وهو جار في جميع الجسد، فإذا خرج لم يتنفس بعد خروجه، فإذا تمَّ خروجه بقي بصره شاخصاً نحوه حتى يُغمَّض.

ومن المجاز في الحديث: «تحابُّوا بذكر الله وروحِه» أراد: ما يحيا به الخلقُ ويهتدون، فيكون حياة لهم، وهو القرآن. وقال ابن الأعرابي: الروح: القرآن، والروح: النَّفْس.

وقال أبو العباس: وقوله عز وجل ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن

﴿يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]. ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النحل: ٢].

هذا كله معناه الوحي؛ سمي روحاً، لأنه حياةٌ من موت الكفر، فصار بحياته للناس كالروح الذي يحيا به جسد الإنسان[1].

وقال ابن الأثير في «النهاية»: وقد تكرَّر ذكر الروح في القرآن والحديث، ووردت فيه على معانٍ، والغالب منها: أن المراد بالروح الذي يقوم به الجسد، وتكون به الحياة. وقد أُطلق على القرآن، وعلى الوحي، وعلى جبريل في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وهو المراد بروح القدس في قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢][2].

وقال الراغب الأصفهاني في «مفرداته»: الرَّوْح والرُّوح: في الأصل واحد، وجُعل الرَّوْح اسماً للنَّفس، وذلك لكون النَّفَس بعض الرُّوح، كتسمية النوع باسم الجنس، نحو تسمية الإنسان بالحيوان، وجُعل اسماً للجزء الذي به تحصلُ به الحياة والتحرُّك، واستجلاب المنافع، واستدفاع المضارّ، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] وقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] وإضافته إلى نفسه

---

(١) تاج العروس (٦/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨).
(٢) النهاية في غريب الحديث (٢٧١).

إضافة ملك، وتخصيصه بالإضافة تشريفاً له، وتعظيماً؛ كقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾[1] [الحج: ٢٦].

٢ ـ معنى الروح في الاصطلاح

الروح: جوهر بسيط مجرَّد مُحْدَث بأمر الله تعالى، وتكوينه وتأثيره إفادة الحياة للجسد[2].

والرُّوح عبارة عن جسم نوراني علويّ متحرك مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس، سار فيه سريان الماء في الورد، والدهن في الزيتون، والنار في الفحم، لا يقبل التحلُّل، والتبدُّل، والتفرُّق، والتمزُّق، مفيد للجسم المحسوس الحياةَ وتوابعها، ما دام صالحاً لقبول الفيض، لعدم حدوث ما يمنع من السريان كالأخلاط الغليظة، ومتى حدث ذلك حصل الموت، لانقطاع السريان، والروح عبارة عن ذلك الجسم[3].

وقد فرَّق العلماء بين الروح الإنسانية والروح الطبيعية:

أ ـ **الروح الإنسانية**: عرفها الإمام الغزالي فقال: «إنها اللطيفة العالمة المدركة التي هي حقيقة الإنسان، وهي المخاطب، والمعاقب، والمطالب، ولها علاقة مع القلب، وهي أمر عجيب تعجز أكثر العقول والأفهام عن إدراك حقيقته»[4]

---

(١) مفردات القرآن (ص ٣٦٩).
(٢) روح المعاني للآلوسي (١٥/ ١٥٤ ـ ١٥٥).
(٣) المصدر السابق.
(٤) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٢).

بدن الإنسان، وعلى القوة والتأييد. والقوى في البدن تُسمَّى: أرواحاً، فيقال: الرُّوح الباصر، والرُّوح السامع، والروح الشامُّ[1].

وتُطلق الروح على قوة المعرفة بالله والإنابة إليه ومحبته، وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته، ونسبة هذه الروح إلى الروح؛ كنسبة الروح إلى البدن، فللعلم روح، وللإحسان روح، وللمحبة روح.

والناس متفاوتون في هذه الأرواح، فمن الناس من تغلبُ عليه هذه الأرواح، فيصيرُ روحانياً، ومنهم من يفقدها أو أكثرها، فيصيرُ أرضياً بهيمياً[2].

٤ ـ حكم البحث عن حقيقة الروح

للعلماء في حكم البحث عن حقيقة الروح موقفان متعارضان:

الموقف الأول: عدم جواز البحث عن حقيقة الروح؛ لأن الله استأثر بعلمه، ولم يُطلع عليه أحداً من خلقه، فلا يجوز البحث عن حقيقتها بأكثر من أنها موجودة، وآثارها محسوسة.

واستدلوا على موقفهم بالكتاب والسُّنة: فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. ومن السنة ما رواه البخاري ومسلم: عن عبد الله بن مسعود، قال: بينما أنا أمشي مع النبيِّ ﷺ في

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية؛ للقاضي أبي العز الدمشقي(٢/ ٥٦١ ـ ٥٦٩).
(٢) المصدر السابق.

حرث، وهو متكىء على عسيب[١]؛ إذ مرَّ بنفر من اليهود، فقال بعضهم لبعضٍ: سلوه عن الروح. فقالوا: ما رابَـكم إليه؟[٢] لا يستقبلكم بشيء تكرهونه. فقالوا: سلوه، فقام إليه بعضُهم فسأله عن الروح، فأمسكَ النبيُّ ﷺ فلم يردَّ عليه شيئاً، فعلمت أنه يُوحى إليه، فقمتُ مكاني، فلما نزل الوحيُ قال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴾[٣] [الإسراء: ٨٥]. وقد لخصَّ صاحب الجوهرة هذا الموقف بقوله:

ولا تخضْ في الروح إذ ما وردَا　　　نصٌّ من الشارع لكنْ وُجِدا

الموقف الثاني: جواز الخوض في بيان حقيقتها، والبحث عن تعريفٍ اصطلاحيٍّ لها، وقد سبقَ أن عرَّفها علماء اللغة والشرع، كابن القيم والغزالي وإمام الحرمين[٤] والآلوسي، وغيرهم. وهؤلاء الذين خاضوا في الكلام عن الروح قالوا: إن اليهود سألوا عن الروح سؤال تعجيز وتغليظ، لكونه يُطلق على أشياء، فأضمروا أنه بأي شيء أجاب قالوا: ليس هذا المراد، فردَّ الله كيدهم، وأجابهم

---

(١) عسيب: سعف النخل، وهو الجريد.

(٢) ما رابكم: ما إربكم وما حاجتكم في سؤاله.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٢١) ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٩٤) واللفظ له.

(٤) قال إمام الحرمين: الروح: جسم لطيف شفَّاف مشتبك بالجسم اشتباك الماء بالعود الأخضر، فتكون سارية في جميع البدن، فإذا ما انقطع عضو انشمرت عنه الروح بسرعة للطافتها. شرح الجوهرة ص (٣٥٩).

جواباً مجملاً مطابقاً لسؤالهم المجمل[1].

وعند المالكية جواز الخوض في حقيقة الروح؛ استناداً لما نقله عبد الرحيم بن خالد عن مالك رحمه الله: إنها جسمٌ ذو صورة كصورة الجسد في الشكل والهيئة. وإلى هذا أشار صاحب الجوهرة بقوله:

لمالكٍ هي صورةٌ كالجسدِ فحسبُك النَّصُّ بهذا السَّنَد

والصحيح: أنه لابد من تعريف الروح والبحث عن معانيها وصفاتها وآثارها، بقصد الدراسة والتعليم. ولكن في حدود التسليم بأن حقيقة الروح أمرٌ غيبيٌّ وخفيٌّ، لا يُدرك بالحسِّ، وما لا يدرك حساً ومشاهدةً لا يُمكن تعريفه حقيقة، إذ إن الحكم على الشيء فرع من تصوره.

٥ ـ الروح أساس الحياة ومنبعها

أ ـ وبعد هذه المقدمات التي قصدنا منها التعرُّفَ على الروح، والاقتراب الممكن والمشروع من ماهيتها؛ يتضح لنا أن الروح الطبيعي في الإنسان وغيره، ليست هي الحياة نفسها، وإنما هو شيء زائد عن الحياة، توجد الحياة بوجوده، وتنعدم بانعدامه، وهو أساس الحياة ومنبعها، والحياة مظهر من مظاهر وجوده، وأثر من جملة آثاره.

ب ـ ويتضح مما سبق من التعريفات أيضاً: أنَّ الروح جوهرٌ غير مرئي، لا تُرى بالعين المجردة، ولا بآلة تُقوِّي الرؤية. فهي

---

(١) فتح الباري؛ للحافظ ابن حجر (٨/ ٤٠٤).

شبيهةٌ بالهواء، أو الأثير الذي لا يُرى، ولكنه موجود، وبهذا يُردُّ على من يُنكر خروج الروح من فم الميت؛ لأنه لا يرى شيئاً يخرجُ؛ إذ عدم إدراك الشيء والإحساس به، لا يقتضي عدمه. وربما يكون عدم الإدراك للشيء بسبب لطافته؛ كالأثير، أو بسبب دقته كالڤيروس الذي لا يُرى حتى بالمجهر، ولكنه موجود، ونستدل على وجوده من آثاره. وهكذا الروح لا تُدرك بالحواس، ولكن آثارها المترتبة من حركة وسكون، وحياة أو موت، تدل على الاعتقاد بوجودها.

٦ ـ محافظة الإسلام على الحياة:

وإذا كانت الروح أساس الحياة، وهي منحة الله للإنسان، فإن الإسلام نادى بالمحافظة على الحياة، والاهتمام بها؛ لأنها هي مناط التكليف والابتلاء، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] ونشير هنا إلى التشريعات التي تؤدي إلى المحافظة على بقاء الحياة، والتشريعات التي تحرم الأفعال التي تؤدي إلى إزهاق الحياة، أو الإخلال بها، أما تفصيل أحكام ذلك فموطنُه كتب الفقه.

أ ـ من تشريعات الإسلام للمحافظة على الحياة:

١ً ـ المداواة عند المرض، قال رسول الله ﷺ: «تداووا عباد الله، فإنَّ الله لم يضع داءً إلا وضع له دواء غير داء واحد؛ هو الهرم»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/٢٧٨) وأبو داود في الطب (٣٨٥٥) والترمذي في الطب (٢٠٣٨).

٢ - الأكل من الميتة عند الضرورة، قال الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

ب - من تشريعات الإسلام التي حرَّمها؛ حفاظاً على الحياة:

١ - تحريم قتل النفس، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]. وقال ﷺ: «لا يحلُّ دمُ امرىءٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[١]. وهذا يشمل صيانة دم المسلم والذِّميِّ على حدٍّ سواء.

٢ - تحريم الانتحار، وهو قتل الإنسان نفسه، ويدخل مع قتل الغير في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]. وقال ﷺ: «من تردَّى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردَّى فيه خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تَحَسَّى سُمَّاً فقتل نفسه، فسمُّه في يده يتحسَّاه في نار جهنم خالداً مخلَّداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بحديدةٍ، فحديدتُه في يده يجأُ بها في بطنه في نار جهنَّمَ خالداً مخلَّداً فيها أبداً»[٢].

٣ - تحريم الإجهاض، وهو إسقاط الجنين وإخراجه من بطن أمه بعد مرحلة التخلُّق ونفخ الروح فيه، وهو حرامٌ كقتل النفس.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٢) ومسلم في القسامة (١٦٧٦) (٢٦).
(٢) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٧٨).

أما إذا كان الجنين في مرحلة النطفة، فأجازه العلماء بشرط عدم الإضرار بالمرأة الحامل، لقوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»[(١)].

ومما يدلُّ على تحريم الإجهاض وجوب الغرة والكفَّارة على المُجهِض المتعمد؛ لما اقترفه من ذنب عظيم وإثم كبير، والدليل ما رواه أحمد والبخاري ومسلم، عن المغيرة بن شعبة عن عمر؛ أنه استشارهم في إملاص المرأة، فقال المغيرة: قضى النبيُّ ﷺ فيه بالغرَّة: عبد أو أمة، فشهد محمد بن مسلمة أنه شهد النبي ﷺ قضى به[(٢)].

٧ ـ حفظ الروح بعد موت الإنسان:

إن الروح تُفارق الجسد عند الموت، وبمفارقتها يموت الجسد، ثم تبقى محفوظة في عالم البرزخ فلا تفنى ولا تبلى كالجسد، بل تمرُّ بمراحل ثلاث من النعيم أو العذاب، كما سنفصِّل ذلك في الفقرة قبل الأخيرة، وقد دلَّ الكتاب العزيز على حياة الشهداء في الجنة، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وفي صحيح مسلم: قال رسول الله ﷺ: إن أرواح الشهداء في جوف طير خضر لها قناديل

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣١٣) وابن ماجه في الأحكام (٢٣٤١).
(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٤٤) والبخاري (٦٩٠٥) ومسلم في القسامة (١٦٨١) (٣٩). والإملاص: الإسقاط للجنين قبل وقت ولادته. والغرة: عبد أو أمة قيمتها خمس من الإبل، أي: نصف عشر الدية أو ما يعادلها نقداً.

معلَّقة بالعرش، تسرحُ في الجنة حيث شاءت»[1].

وهذا يُبطل القول بالتناسخ[2]، وهو رجوع الرُّوح بعد خروجها من جسم إلى جسم، ويُسمُّونه: تكرار المولد، ويُعلِّلون ذلك بأنَّ الروح قد خرجت من الجسد ولا تزال لها أهواء وشهوات، مرتبطة بالعالم المادي لم تتحقق بعد. وأن الرُّوح قد خرجت وعليها ديونٌ كثيرة في علاقاتها بالآخرين لابد من أدائها، فلا مناص من أن تستوفي شهواتِها في حيوانات أخرى، وأن تتذوَّقَ الروحُ ثمار أعمالها التي قامت لها في حياتها السابقة.

وكل ذلك دعوى باطلة، لا تستند إلى دليل، وإنما هي قصص وأمثلة من نسج الخيال، ويكفي في ردِّها وبطلانها: أنها اعتقاد في أمور غيبية، لا طريق إليها إلا الخبر الصادق، والوحي الإلهي. والرسالات السماوية كلُّها متفقة على عقيدة الإيمان باليوم الآخر، ورجعة الروح إلى الجسد يوم البعث للحساب والجزاء.

ويقول أبو العباس القرطبي في كتابه المفهم: «ولا يُلتفت لقول التناسخية، القائلين بأن الأرواح تنتقل إلى أجساد أُخر، فأهل السعادة يُنقلون إلى أجساد حسنة مشرقة مرفَّهةٍ؛ فتتنَّعم بها، وأهل الشقاء تُنقل أرواحهم إلى أجسام خسيسة قبيحة، فتعذب فيها،

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد (١٨٨٧).

(٢) كما يُبطل الادعاء بتحضير الأرواح، الذي روَّجت له في الغرب والشرق جهات مشبوهة، ثم خنسوا جميعاً بعد افتضاح أمرهم، وظهور عداوتهم للإسلام. انظر كتاب «الروحية الحديثة: دعوة هدّامة» للدكتور محمد محمد حسنين.

حتى إذا استوفت أمد عقابها رجعت إلى أحسن بُنية، وهكذا أبداً، وهذا معنى الإعادة والثواب والعقاب عندهم. وهو قولٌ مناقضٌ لما جاءت به الشريعة، ولما أجمعتِ الأُمَّةُ عليه، ومعتقده يكفر قطعاً، فإنه أنكر ماعُلم قطعاً من إخبار الله تعالى، وإخبار نبيِّه ﷺ عن أمور الآخرة، وعن تفاصيل أحوالها، وأن الأمر ليس على شيء مما قالوه. فالتناسخ والقول به باطلٌ، محالٌ عقلاً»[1].

٨ ـ مراحلُ الحياة البرزخية للروح

تمر الرُّوح بمراحل ثلاث، يجري عليها النعيم أو العذاب، بدءاً بالنزع، لخروجها من الجسم، وانتهاءً باستقرارها في مستودع الأخيار، أو مستودع الأشرار إلى يوم البعث الأكبر والحشر العظيم، وهذه المراحل هي:

المرحلة الأولى: وتكون عند الموت ونزع الروح، ويقع النعيم أو العذاب في هذه المرحلة؛ كما دلَّت الآيات القرآنية، والأحاديثُ النبوية الصحيحة.

فذو الروح الخبيثة من الكفرة والعصاة الفجرة؛ تضرب الملائكة وجوههم وظهورهم، وتنتزع أرواحهم بقوة وعنف، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥٠ ـ ٥١]. وقال ﷺ: «وإن العبد

---

(١) المفهم في شرح ما أشكل من تلخيص صحيح مسلم؛ لأبي العباس القرطبي (٤/ ٧١٩). طبعة دار ابن كثير ودار الكلم الطيب.

الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكةٌ سودُ الوجوه، معهم المسوحُ، فيجلسون منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملكُ الموت حتى يجلسَ عند رأسه فيقولُ: أيتها النفس الخبيثة! اخرجي إلى سخطٍ من الله وغضبه، فتفرَّق في جسده، فينتزعُها كما يُنتزع السَّفُّود من الصوف المبلول..»[1].

وذو الروح الطيبة من المؤمنين والأتقياء الصالحين، تتلقى ملائكة الموت روحه بيسر وترحيب، قال ﷺ: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكةٌ من السماء، بيض الوجوه، كأنَّ وجوههم الشمسُ، معهم كَفَنٌ من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر، يجيء مَلَكُ الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها الروح الطَّيِّبة! اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج فتسيلُ كما تسيلُ القطرةُ من في السقاء..»[2].

المرحلة الثانية: وتكون في القبر، ويجري فيها النعيم أو العذاب على الروح والجسم معاً حتى تتم فتنة الإنسان وسؤال الملكين، وعرض مكانه من الجنة أو النار، ثم يُباشرُ النعيمُ أو العذابُ الروحَ، ويكون الجسمُ تابعاً لها إلى قيام الساعة. ونعيم القبر أو

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨٧/٤) والنسائي (٧/٤ ـ ٨) بنحوه، وانظره في الترغيب والترهيب برقم (٥٢٢١) وقال الحافظ المنذري: رواته محتج بهم في الصحيح.

(٢) انظر تخريج الحديث السابق.

عذابه يُجَوِّزه العقل الصحيح؛ لعدم استحالته وهو ثابت بالأحاديث النبوية الصحيحة، ومنها: استعاذته ﷺ من عذاب القبر، وقوله: «لولا أن لا تدافنوا لدعوتُ الله أن يُسمعكم عذاب القبر»[1] وحديث الاستعاذة: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر...»[2] وحديثه ﷺ عن سؤال الملكين اللذين يُقال لأحدهما منكر وللآخر نكير[3].

وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أحدكم إذا مات عُرِضَ عليه مقعده بالغداة والعشيِّ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدُك حتى يبعثك الله يوم القيامة»[4].

وروى الترمذي وابن ماجه عن عثمان رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر، وإن لم ينجُ منه فما بعده أشدُّ منه» وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما رأيت منظراً قطُّ إلا والقبرُ أفظع منه»[5].

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة (٢٨٦٨).
(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٧٧) ومسلم (٥٨٨) (١٣١).
(٣) أخرجه أحمد (٤/٢٨٧) وأبو داود في الجنائز (٣٢١٢) والنسائي في الجنائز (٤/٧ ـ ٨).
(٤) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٧٩) ومسلم في الجنة (٢٨٦٦).
(٥) أخرجه الترمذي في الجنائز (٢٣٠٩) وابن ماجه في الجنائز (٤٢٦٧).

المرحلة الثالثة: وتكون بعد فتنة القبر وظهور حال الإنسان أشقي أم سعيد، وتستقر عندها أرواح المؤمنين في مستودع الرحمة في عِلِّيِّين، كما تستقر أرواح الكفَّار والعصاة في سِجِّين، وتبقى للأرواح صلة مباشرة بالقبر، فتعرف الأرواح زوّارها، وترُدُّ روحُ المسلم على أخيه المسلم إذا سلَّم عليه.

قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وروى ابن عبد البر وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يمرُّ بقبر أخيه المسلم كان يعرفه في الدنيا فيسلِّم عليه، إلا ردَّ عليه روحه، حتى يردَّ عليه السلام»[١]. ولا يُستثنى من هذه الحالة إلا الشهداء، فإن أرواحهم في حواصل طير خضر تطير في الجنة، كما تقدم معنا في الفقرة السابعة[٢].

نسأل الله تعالى أن يحفظنا من فتنة الدنيا، وأن ينجينا من عذاب القبر، وأن يجعل أرواحنا في مستقر رحمته، إنه سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم النصير.

٩ ـ عظيمُ خلق الرُّوح من عظمة الخالق القدير:

وهذه العظمة الربانية في الخلق والإبداع هي القاسم المشترك

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد والاستذكار كما في شرح الصدور للسيوطي (ص ٢٧٣) طبعة دار ابن كثير، وانظره في فيض القدير للمناوي (٥ / ٤٨٧).

(٢) تقدم الحديث وتخريجه (ص٥٢٣ ـ ٥٢٤).

لمعاني الروح في كتاب الله تعالى، تجعلُ الإنسان الراشد أكثر معرفةً، وأقوى إيماناً، وأقرب صلةً بالله عزَّ وجلَّ. وإذا كان القرآن الكريم روحاً، وجبريلُ عليه السلام روحاً، والوحيُ الإلهي روحاً؛ فإن آدم وعيسى عليه السلام، ومحمداً ﷺ، وكلٌّ بني البشر فيهم من هذا السر الإلهي، والرُّوح الربَّانيِّ، الذي يُظهر قدرة الله تعالى، وأنه وحده هو الخلَّاق العظيم.

ولئن عجزَ الإنسانُ عن إدراك حقيقة روحه، مع علمه وإحساسه بوجودها؛ فإن عجزه عن إدراك حقيقة الخالق مع تيقنه من وجوده أولى. وإظهارُ العجز في الحالتين هو العبودية الصادقة لله تعالى، والاعتقاد الجازم بالوجود الحق لله سبحانه وتعالى.

* * *

الفصل الثاني

الجن والشياطين والاعتقاد بوجودهم

ومن الأمور المغيَّبة التي لا يصل الإنسان إلى معرفتها عن طريق الحسِّ، ولا عن طريق العقل، ولا عن طريق: التجربة الجِنُّ والشياطين، وفيما يلي بيان حقيقتهم، وحكم الإيمان بوجودهم، وما يتصل بذلك.

أ ـ معنى الجِنّ والشياطين لغة وشرعاً:

الجِنُّ في اللغة مأخوذة من جنّ، وهذه المادة تدلُّ على الاستتار والاختفاء، ومنها: أخذ المجنون لاستتار عقله، والمِجَنّ: الترس الذي يستجنُّ به المقاتل، ويستتر، والجنين: لاستتاره واختفائه في بطن أمه، والجَنَّة ذات الشجر والنخل: لسترها الأرض.

والجِنُّ في عرف الشرع: هم هؤلاء المخلوقات الذين سيأتي وصفهم، وإنما سُمُّوا جناً لاستتارهم، واختفائهم عن أبصارنا.

وأما الشياطين: فهم جمع شيطان، وهو مأخوذ من شطنَ، وأصل المادة هذه تدلُّ على البعد، فيقال: بئر شطون: إذا كانت بعيدة القعر، وغزوة ونية شطون أي: بعيدة. والشيطان: كل عاتٍ

متمرد من إنس أو جنّ أو دابّة، سُمِّي بذلك لبعده عن رحمة الله، وقيل: هو مأخوذ من: شاط؛ بمعنى: هلك، سمي بذلك؛ لأن نهايته إلى الهلاك، وليس المراد من الشيطان هنا العموم اللغوي، بل المراد بالشيطان هذا الكائن من الجنّ الذي خرج عن طاعة الله وأمره، وعتى عتوّاً كبيراً. فالشياطين إذاً هم صنف من الجن، وليسوا شيئاً غير ذلك.

ب ـ وجوب الاعتقاد بوجودهم، وأدلة ذلك:

الاعتقاد بوجود الجن أمر معلوم من الدين بالضرورة، تضافرت الأدلة على وجودهم، فمن أنكر وجودهم فقد خرج من الإسلام، كالإيمان بالملائكة سواء بسواء. والأدلة على وجودهم هي أدلة سمعية متواترة، وحسب العقل في هذا الميدان أن يعتقد أنَّ وجودهم من الأمور الممكنة.

فمن الأدلة القرآنيّة الدالَّة على وجودهم أن الله أنزل سورة أسماها باسمهم، وتحدَّث عنهم فيها، وكان في مطلعها قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ ـ ٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨] وقال تعالى: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ﴾ [الرحمن: ٣٣].

أخبر الله سبحانه: أنه صرف إلى الرسول ﷺ جماعة من الجنِّ

ليستمعوا إليه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣١].

أما الأدلة من الحديث النبوي فشيء يكاد لا يحصرُه العدّ لكثرته، وقد بلغ مبلغ التواتر.

ففي البخاريّ: أن رسول الله ﷺ قال لأبي سعيد الخدري: «إذا كنت في غنمك، أو باديتك فأذَّنتَ للصلاة، فارفعْ صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنٌّ ولا إنسٌ ولا شيءٌ إلا شهد له يوم القيامة»[1].

وفي البخاري أيضاً، عن ابن عباس قال: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حِيْل بيننا وبين خبر السماء، وأُرْسِلت علينا الشهب. قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الأمر الذي حَدَث؟ فانْطَلَقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها، ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء، قال: فانطلق الذين توجَّهوا نحو تِهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة، وهو

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد (٧٥٤٨).

عامد إلى سوق عكاظ، وهو يُصلِّي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن تسمّعوا له، فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ ـ ٢][1].

وفي سنن ابن ماجه: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كانت أول ليلة من رمضان صُفِّدت الشياطين ومردة الجنِّ، وغُلِّقت أبواب النار، فلم يفتح منها باب، وفُتِّحت أبوابُ الجنة فلم يُغلق منها باب، ونادى مُنادٍ: يا باغي الخير أقبل! ويا باغي الشر أقصرْ! ولله عتقاء من النار، وذلك في كل ليلة»[2].

إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في مختلف كتب الحديث.

جـ ـ عقيدة الناس بالجن:

أكثر أهل الملل والنحل ـ وخاصة أتباع الرسل ـ معتقدون بوجود الجن، وباعتبار: أن الأنبياء ـ وهم صادقون بلا مرية ـ قد أخبروا بوجودهم، ولا يتمُّ إيمان المؤمن بالله إلا بأن يُصدِّقَ بجميع ما يخبر به رسوله.

قال الإمام الفخر الرازي: «وأما جمهور أرباب الملل والمصدِّقين للأنبياء فقد اعترفوا بوجود الجنِّ، واعترفَ به جمع عظيم من قدماء

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير (٤٩٢١).
(٢) أخرجه ابن ماجه في الصيام برقم (١٦٤٢).

الفـلاسفـة وأصحـاب الـروحـانيـات، ويسمُّـونهـا بـالأرواح السفلية . . »[1].

لكن الجدل قد كثر بين أهل الملل من ناحية، وبين بعض الفلاسفة القدماء ومتفلسفة المحدِّثين من ناحية أخرى، حول إثبات وجود هؤلاء المخلوقات، ولا تعدو أدلة المنكرين أن تكون أدلة تافهة، لا تقوى على المناقشة لو سلَّموا بمبدأ صدق خبر الرسل؛ إذ إن هؤلاء ليس لهم من دليل على نفي وجودهم إلا أن يقولوا: لم يثبت لنا وجودهم عن طريق حواسنا. فهم غير موجودين، وقد سبق في مباحث العقيدة وثبوتها سقوط هذا الاستدلال، وأنه لا يصح الاعتماد عليه بحال من الأحوال؛ لأن عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود، وأن مسالك اليقين ليست منحصرة في الإدراك الحسي، فهنالك مسلك الاستنتاج العقلي، وهناك مسلك الخبر الصادق، ويكفي في إثبات حقيقة من الحقائق أن تعتمد على أي مسلك من مسالك اليقين.

ويظهر سقوط استدلال هؤلاء المنكرين بشكله الخاص، بعد أن كشف العلم الحديث من خفايا الكون الشيء الكثير، وأظهر من القوى المعنوية الكامنة في هذا الكون ما يُدهش العقول، ولا يزال العلم مطرداً في بحثه وكشفه، حتى كادت العقول أن تستسهل التسليم بالمستحيلات فضلاً عن الممكنات.

---

(١) مفاتيح الغيب، للرازي (٨/ ٢٢١).

د ـ حقيقة الجن وصفاتهم:

الجِنُّ كالرُّوح من الأمور الغيبية التي لا نعلم عن وجودها إلا عن طريق الخبر الصادق، وكذلك لا نعلم عن حقيقتها وصفاتها إلا من الطريق نفسه، وقد جاءنا عن طريق الخبر الصادق ـ أي: عن رسول الله ﷺ ـ ذكر بعضٍ من حقيقتهم وصفاتهم، وحسبنا أن نقتصر في ذلك على ما وردت به النصوص، ولقد أوضح القرآن الكريم الصفات التالية:

١ ـ أنهم صنف غير صنف الملائكة والإنسان، فهم مخلوقون من مارج من نار، أي: من أخلاط نار صافية، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ[1] كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤ ـ ١٥] وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٦ ـ ٢٧]. وقال سبحانه في احتجاج إبليس حين أمره بالسجود لآدم: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

زعم إبليس: أن عنصر النار أشرف من عنصر التراب، ولذلك لا يليق به أن يسجد لآدم، وبرَّر استكباره عن طاعة الله تعالى بذلك، ظاناً: أن المسألة مسألة تفاوت في العناصر، وجاهلاً: أن الأفضل هو الأكثر تقرباً إلى الله بطاعته.

---

(١) الصلصال: الطين اليابس الذي لم يطبخ، إذ له صلصلة إذا نقر، فإذا طبخ فهو الفخار.

وقال سبحانه في بيان حقيقة الملائكة، وأنهم غير الجن: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١]. وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

٢ ـ أنهم مخلوقون قبل الإنس، ولقد مرّ أنفاً آيات تدلُّ على ذلك، وقصة آدم التي ذكرت في القرآن أكثر من مرة توضِّح: أن إبليس وهو من الجنِّ، قد كان موجوداً قبل آدم عليه السلام.

٣ ـ أنهم يتناسلون، ولهم ذرية، قال الله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

ولقد أقر الله سبحانه ما ذكره النفر من الجنِّ الذين استمعوا للقرآن من الرسول ﷺ، حين ذكروا: أن في الجن رجالاً، أي: ذكوراً، ومتى كان فيهم رجال فمن الطبيعي أن يكون فيهم إناث، وذلك يستلزم وجود التناسل، قال الله تعالى في حكاية ذلك عنهم: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦](١).

أخرج ابن جرير عن ابن حميد، عن مهران، عن سفيان، عن

---

(١) يعوذون: يحتمون ويلتجئون. رهقاً: أي: إثماً، وتعباً، وضلالاً.

منصور، عن إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلۡجِنِّ . .﴾ [الجن: ٦] كانوا إذا نزلوا الوادي قالوا: نعوذ بسيد هذا الوادي، من شر ما فيه، فتقول الجن: «ما نملك لكم ولا لأنفسنا ضراً ولا نفعاً»[(١)]!

ونقل ابن جرير[(٢)] مثل ذلك عن جمهرة من مفسري السلف.

٤ ـ أن من شأنهم: أنهم يروننا من حيث لا نراهم، قال الله تعالى في صفة الشيطان وأتباعه ـ وهم من الجن كما مرّ ـ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧] قال الإمام الفخر الرازي عند تفسير هذه الآية:

«قال أصحابنا: إنهم يرون الإنس لأنه تعالى خلق في عيونهم إدراكاً، والإنس لا يرونهم، لأنه تعالى لم يخلق هذا الإدراك في عيون الإنس. وقالت المعتزلة: الوجه في أن الإنس لا يرون الجنَّ: رقّة أجسام الجنِّ ولطافتها، والوجه في رؤية الجنِّ للإنس: كثافة أجسام الإنس، والوجه في أن يرى بعض الجن بعضاً أن الله تعالى يقوِّي شعاع أبصار الجن ويزيد فيه، ولو زاد الله في قوة أبصارنا لرأيناهم كما يرى بعضنا بعضاً، ولو أنه تعالى كثّف أجسامهم وبقيت أبصارنا على هذه الحالة لرأيناهم، فعلى هذا كون الإنس

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٢٦٣).
(٢) المصدر السابق.

مبصراً للجن موقوف عند المعتزلة إما على زيادة كثافة أجسام الجن، أو على زيادة قوة أبصار الإنس»[1].

ويُفهم من هذا الكلام: أن الإنس لا يرون الجن ما داموا على حالتهم التي هم عليها، وأما لو تحوَّلوا إلى شكل آخر فمن الممكن رؤيتهم، وسيأتي بحث عن هذا إن شاء الله تعالى.

٥ ـ أنهم مخلوقات قابلة للعلم والمعرفة، وذات إرادة واختيار، فهم في ذلك كالإنس، وهم مكلَّفون بالإيمان والعبادة، منهيون عن الكفر والعصيان، إذ كثير من خطابات التكليف والتحدِّي في القرآن الكريم، يجمع الله فيها بين الجن والإنس، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨] وقال سبحانه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]. وقال جلَّ وعلا: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

٦ ـ أن الجن قسمان: مؤمنون وكافرون، وهذا تابع لما منحهم الله إياه من الإرادة والاختيار، والكافرون منهم شياطين، وهم جنود الشيطان الأكبر إبليس اللعين، الذي كان أول من عصى أمر

---

(١) مفاتيح الغيب، للرازي (١٤/ ٥٤).

ربه من الجنّ، وأول من كفر بنعمة الله منهم، قال الله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ[1] فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٤ ـ ١٥].

٧ ـ أنهم يحشرون يوم القيامة فيُحاسبون على أعمالهم، فيثابون ويعاقبون، قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. وقال الله تعالى مقرراً عقوبة الكافرين من الجن. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] ولا تكون عقوبة إلا بعد مخالفة ناشئة عن تكليف.

٨ ـ أن لهم قدرات كبيرة ومهارات صناعية فائقة. فقد سخَّر الله لسليمان الجن يقومون له بأعمال البناء الضخم، والغوص في البحار، والأعمال الصناعية الرائعة كالجفان الكبيرة والقدور الراسية، والأعمال الفنية كالتماثيل والصور، وقد كانت جائزة ثم حرمت في الإسلام، إلى غير ذلك من الأعمال، قال الله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [صۤ: ٣٦ ـ ٣٧]. وقال سبحانه حكاية لقول أحد الجن من جنود سليمان عليه السلام الذين سخَّرهم الله له: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ[2] مِّنَ ٱلْجِنِّ

---

(١) القاسطون: الظالمون، الجائرون، الحائدون عن الصراط الحق.
(٢) العفريت: الماكر القويّ.

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩] وقال الله سبحانه في وصف أعمال الجن الذين سخَّرهم الله لسليمان عليه السلام: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ[1] وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣].

٩ ـ أنهم كانوا قبل بعثة محمد ﷺ يسترقون السمع من أفواه الملائكة من السماء، وينقلونها إلى قرنائهم من الإنس في الأرض.

قال الإمام القرطبي: «قال ابن عباس: وقد كانت الشياطين لا يُحجبون عن السماء، فكانوا يدخلونها ويُلْقون أخبارها على الكهنة، فيزيدون عليها تسعاً فيحدثون بها أهل الأرض، الكلمة حق والتسع باطل، فإذا رأوا شيئاً مما قالوه صدَّقوهم فيما جاؤوا به، فلما ولد عيسى ابن مريم منعوا من ثلاث سموات، فلما وُلد محمد ﷺ منعوا من السموات كلها، فما منهم من أحد يُريد استراق السمع إلا رُمي بشهاب»[2].

وقد ذكر الله هذا حكاية عن النفر من الجن الذين آمنوا بالرسول الكريم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨ ـ ٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧

(١) المحاريب: الأبنية المرتفعة يُصعد إليها بدرج. والجفان: القصاع. والجوابي: أحواض الماء.
(٢) الجامع لأحكام القران للقرطبي (١٠/ ١٠).

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ ـ ١٨]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ[(١)] ۝ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ ـ ١٠].

١٠ ـ أن لهم قدرة على التشكُّل بالأشكال الجسمية التي يمكن أن نراها بحسب استعداداتنا البشرية، وهذا ما جاء في الأحاديث الصحيحة، فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

وكَّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام فأخذته، وقلت: والله لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج، وعليّ عيال، ولي حاجة شديدة. قال: فخلَّيت عنه، فأصبحت، فقال النبي ﷺ: «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟» قال: فقلت: يا رسول الله! شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته، فخلَّيت سبيله، قال: «أما إنه قد كذَبك وسيعود» فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ: إنه سيعود، فرصدته فجاء يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني فإني محتاج، وعلّي عيالٌ، لا أعود، فرحمته فخليت سبيله، فأصبحتُ فقال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك؟!» قلت: يا رسول الله! شكا حاجة شديدة وعيالاً، فرحمته فخلَّيت سبيله، قال: «أما إنه قد كذبك وسيعود»

---

(١) دحوراً: طرداً. واصب: دائم.

فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، وهذا آخر ثلاث مرات، إنك تزعم لا تعود ثم تعود، قال: دعني أعلِّمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ . . . ﴾ حتى تختم الآية [البقرة: ٢٥٥] فإنَّك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنّك شيطانٌ حتى تصبحَ، فخلَّيت سبيله فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «ما فعل أسيرك البارحة؟!» قلت: يا رسول الله زعم: أنه يعلِّمني كلماتٍ ينفعني الله بها، فخلَّيت سبيله، قال: «ما هي؟» قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسيِّ من أولها حتى تختم: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنّك شيطان حتى تصبح ـ وكانوا أحرص شيء على الخير ـ فقال النبي ﷺ: «أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟!» قال: لا، قال: «ذاك شيطان»[(١)].

وفي البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «إن عفريتاً من الجنِّ تفلَّت البارحة ليقطعَ عليَّ صلاتي، فأمكنني الله منه فأخذته، فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان: ربِّ هبْ لي ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي، فرددته خاسئاً»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوكالة (٢٣١١).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء (٣٤٢٣).

وفي النسائي عن أبي الدرداء: «والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً بها، يلعب به ولدان أهل المدينة»[1].

هذا وكان الجنُّ يظهرون لسليمان عليه السلام، وكان يُسخِّرهم في أعمال جسيمة كما سبق، كما كان عليه السلام مسلَّطاً على عقاب المسيئين منهم، فيقرِّنهم في الأصفاد، قال الله تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ [صۤ: ٣٧ ـ ٣٨].

هذا ومهما قلنا بجواز تشكُّلهم بأشكال جسمية، فإن هذه الأشكال تبقى محصورة في إطار كثافة يكون بها قدرة عند الإنسان على رؤيتهم، لا أن لهم قدرة على أن يتشكلوا بالشكل الذي يُريدونه كما يتوهم بعض الناس، قال الفخر الرازي: قال بعض العلماء: ولو قدر الجن على تغيير صور أنفسهم بأي صورة شاؤوا وأرادوا لوجبَ أن ترتفع الثقة عن معرفة الناس، فلعلَّ هذا الذي أشاهده، وأحكم عليه بأنه ولدي أو زوجتي، جني صوّر نفسه بصورة ولدي أو زوجتي، وعلى هذا التقدير فيرتفع الوثوق عن معرفة الأشخاص»[2].

هـ ـ هل للجن تأثير على أجسام الإنس؟

قد يؤثِّر بعض خبثاء الجن بعض التأثير في أجسام بعض من الإنس، ولكن يكون هذا التأثير على من يستكين بأوهامه وتخيُّلاته

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب السهو (٣/ ١٣).

(٢) مفاتيح الغيب، للرازي (١٤/ ٥٤).

لسلطانهم من ذكر أو أنثى، أو يتعرَّض لتقبل مسّهم وتخبطاتهم باستعاذته بهم، والتماسه نفعهم، أو استخدامهم للإضرار بأعدائه من إخوانه من الإنس، أو يغفل عن ذكر الله وتلاوة القرآن، ويتجافى عن التحصُّن من شرهم بالأوراد المأثورة، والاستعاذات الدائمة بالله من كيدهم. أما من لم يكن كذلك؛ فلا سبيل للشيطان عليه بحال.

وقد علَّمنا الرسول عليه الصلاة والسلام أن نستعيذ بالله من همزات الشياطين، ومن حضورهم، ومن ذلك ما رواه أبو داود والترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا فزع أحدُكم في النوم فليقلْ: أعوذ بكلمات الله التَّامَّات من غضبه وعقابه وشرِّ عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون، فإنها لن تضرّه»[1] وهذا ما جاء طلبه في القرآن الكريم من الرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨].

وروى أبو داود، وابن ماجه بسند صحيح: عن زيد بن أرقم، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذه الحشوش محتضرة ـ أي: يحضرها الشياطين يترصدون بني آدم بالأذى ـ فإن أتى أحدكم الخلاء فليقل: أعوذ بالله من الخبث والخبائث»[2] الخبث: جمع: خبيث، والخبائث جمع: خبيثة.

---

(١) أخرجه أبو داود في الطب (٣٨٩٣) والترمذي في الدعوات (٣٥٢٨) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٦٥).

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة (٦) وابن ماجه في الطهارة (٢٩٦).

قال الإمام الفخر الرازي: «لو كانوا قادرين على تخبيط الناس وإزالة العقل عنهم، مع أنه تعالى بَيَّن العداوة الشديدة بينهم وبين الإنس، فلم لا يفعلون ذلك في حق أكثر البشر، وفي حق العلماء والأفاضل والزهاد؟ لأن هذه العداوة بينهم وبين العلماء والزهاد أكثر وأقوى، ولما لم يوجد شيء من ذلك ثبت: أنه لا قدرة لهم على البشر بوجه من الوجوه، ويتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢][1].

و ـ هل يلقي الجنُّ للإنس علوماً وأخباراً؟:

أما العلوم والأخبار التي يُمكن أن يلقيها الجنُّ إلى قرنائهم من الكهَّان، فهي بحسب مواضيع هذه العلوم التي يُلقونها:

أ ـ فإن كانت من العلوم التي تتعلَّق بالأمور المشهودة أو أخبار عن الوقائع الماضية، فإنها أخبار تحتمل الصدقَ والكذبَ كأخبار الناس، وليس ببعيد أن يُوجد في الجنِّ كذَّابون، وقد بيَّن الله: أن منهم العصاة والكافرين، ومن جهة ثانية فإنه لا يصح الثقة بشيء من أخبارهم، لانعدام مقاييس تحديد الصادقين والكاذبين فيهم بالنسبة إلينا.

ب ـ وإن كانت من المغيَّبات، فهي إما أن تكون من المغيَّبات التي استأثر الله بعلمها، وهذه لا يمكن لإنس ولا جن معرفة شيء منها، ولا يكون التحدُّث بشيء منها إلا كذباً وافتراءً على الله تعالى وارداً على لسان أحد القرينين من الإنس والجِنِّ.

---

(١) مفاتيح الغيب (١٤/ ٥٤).

وإما أن تكون من المغيَّبات التي قضي أمرها في السماء، وأصبحت معلومةً لذوي الاختصاص من الملائكة، كما أصبحت معدة لتبليغها للملائكة الموظفين بتنفيذ أمر الله فيها، فهذه قد جاء فيها عن رسول الله ﷺ ما يلي:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الملائكة تنزل في العنان ـ وهو السحاب ـ فتذكر الأمر قُضي في السماء، فتسترق الشياطين السمعَ، فتسمعه فتوحيه إلى الكهَّان فيكذبون منها مئة كذبة من عند أنفسهم»[1].

وهذا هو استراق الشياطين السمع من الملائكة بعد نزولها إلى جوّ الأرض، وليس هو استراقها السمع من السماء، كما كان دأبهم قبل بعثة محمد ﷺ الذي مُنعوا منه بالشهب.

وفي تكذيب من يُلقي سمعه للشياطين، وإثمه الكبير في ذلك، قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٣].

ز ـ هل للشياطين سلطان على الإنس في عقائدهم وإراداتهم وأعمالهم؟

أمّا أن يكون للشياطين سلطان على الإنس في عقائدهم، وتوجيه إراداتهم للأعمال السيِّئة، فذلك مما لا سبيل لهم إليه، لأن الله جلَّ وعلا حجزهم عن ذلك، ولم يجعل لهم سلطاناً على بني

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق (٣٢١٠).

آدم، لتكون إرادةُ الناس حرَّة في اختيارها طريق الخير أو طريق الشر.

ويُخاطب الله رأس الشياطين إبليس، وأقدرهم على سلطان ـ إن كان للشياطين سلطان ـ فيقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

ولكن يحصرُ عمل الشيطان في نفس الإنسان بالوسوسة الخفيَّة، وهذه تخنسُ وتتخاذلُ أمام حزم المؤمن وإرادته القوية الملتجئة إلى الله تعالى، بالاستعاذة، والذكر، والمراقبة.

أما إخوان الشياطين فإنهم يستجيبون لوسوستهم، وينساقون معهم فيتسلَّط الشياطين عليهم، ويمدُّونهم في الغيِّ والضلال، ويزُيِّنون لهم أصناف الشرِّ، ولا يألون جهداً في ذلك. ويشهدُ لجميع ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٦ ـ ٤٠]. وقوله جلَّ وعلا: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٠ ـ ٢٠٢].

كما يشهد بأن حدود عمل الشيطان إنما هي الوسوسة الخفيَّة، والدعوة إلى الشر من داخل النفس، تبرُّؤ الشيطان يوم القيامة من أنه كان ذا تأثير على الإنسان في إغوائه في الدنيا، ففي حكاية ما سيقوله الشيطان يوم القيامة، قال الله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقد جعل الله في مقابلة وسوسة الشيطان ـ التي هي من دواعي الشر ـ داعياً للخير عن طريق ملك من الملائكة، لإيجاد التوازن في امتحان إرادة الإنسان، فلقد جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «إن للشيطان لَمَّةً بابن آدم، وللمَلَك لَمَّةً، فأما لَمَّة الشيطان فإيعاد بالشر، وتكذيب بالحقِّ، وأما لَمَّة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله على ذلك، ومن وجد الأخرى فليتعوَّذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم قرأ: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ ﴾»(١) [البقرة: ٢٦٨].

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما منكم من أحد إلا وكِّلَ به قرينُه من الجنِّ وقرينُه من الملائكة» قالوا: وإيَّاك يا رسول الله؟! قال: «وإيَّاي، ولكن الله

(١) أخرجه الترمذي في التفسير برقم (٢٩٨٨). واللَّمَّة: النزول والقرب، والمراد بها مايقع في القلب بوساطة الشيطان أو الملك.

أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»[1].

ح ـ الاعتقاد بوجود الجِنِّ بين الإفراط والتفريط:

لقد علمت فيما مرّ: أن الاعتقاد بوجود الجن ليس طريقه العقل، ولا التجربة، ولا المشاهدة، وإنما طريقه الوحيد هو الخبر الصادق الوارد في كتاب الله، وما صحَّ من سنة رسول الله ﷺ، وقد ورد فيهما ما يدلُّ دلالةً قطعيةً على وجودهم، ولذلك لا مجال لإنكار ذلك، وفي شريعة الإسلام: أن منكر وجودهم كافر، خارج عن الملة الإسلامية؛ لمخالفته الأدلة القطعية في ثبوتها ودلالتها.

إلا أن هناك جماعة ألقوا بهذه الأدلة دبر آذانهم فلم يُؤمنوا بوجودهم، وما ذلك إلا لانعدام الإيمان بالله، وبما جاء من عند الله، فما لم يُؤمنوا بذلك فمن العسير الإقناع بوجود الجن كالإقناع بوجود الملائكة، بل كالإقناع بوجود اليوم الآخر، إذ جميع ذلك لم يأتنا إلا عن طريق الخبر الصادق.

وإنا لنعتقد: أن من الأسباب التي حملت كثيراً من الناس على إنكار وجود الجِنِّ ما أدخل على مفهوم الجِنِّ من خرافات، وأكاذيب، وأضاليل، مما لايقبله عقل عاقل مما سنذكره قريباً، ونحن إذ نادي بضرورة الإيمان بوجود الجِنِّ، فإنما نعني بذلك المخلوقات التي مرّ ذكرها وأوصافها آنفاً، وهذا ماليس عند العقل دليل على امتناعه، واستحالته، بل إنَّ العقل الصحيح، والتفكير السليم يُناديان بإمكانه وجوازه.

---

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٢٨١٤).

وفي مقابلة هذه الفئة المنكرة قامت فئة أخرى تُؤمن بالجنِّ، ولكن لا على الكيف الذي تحدَّثت عنه الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية، بل إنها أدخلت على هذه العقيدة الادعاءات الكاذبة التي يقوم بها بعض من يدَّعي الاتصال بالجن، والافتراءات التي يفترونها على الله، فينسبون إلى الجنِّ بعض العلم بالغيب، وينقلون عنهم كذباً يزعمونه من علم الغيب، ويتلاعبون بعقول السذج من النساء وصغار العقول. وما يخبرون به وإن كان يقع بعضه فإنما يقع من قبيل المصادفات، لا من قبيل العلم الحقيق بما يقع، وقد يدعي هؤلاء قدرة الجنِّ على النفع أو الضرِّ، والجنُّ أنفسهم لا حول لهم ولا قدرة، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً إلا أن يشاء الله تعالى.

وقد بيّن القرآن الكريم: أن أهل الجاهلية الذين كانوا يعوذون برجالٍ من الجن لم ينفعهم الجن بشيء، بل زادوهم غياً وضلالاً، وبعداً عن الأمن الذي يرجونه منهم.

كما ندَّدت الأحاديث الكثيرة بالذين يُصدِّقون الكهنة، والمنجمين، ويعتمدون عليهم، ويرجون نفعهم، أو يخشون ضرَّهم، وعدّت ذلك شركاً بالله سبحانه.

روت صفية عن بعض أزواج النبي ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال:

«من أتى عرَّافاً فسأله عن شيء لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة»[1].

---

(١) أخرجه مسلم في السلام (٢٢٣٠) (١٢٥).

وعن معاوية بن الحكم السُّلمي قال: قلت: يا رسول الله! أموراً كنا نصنعها في الجاهلية، كنا نأتي الكُهَّان، قال: «فلا تأتوا الكُهَّان»[1].

وروى أبو داود، وابن ماجه، والترمذي، واللفظ له، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من أتى حائضاً، أو امرأة في دبرها، أو كاهناً فقد كفر بما أُنزل على محمد»[2].

فهؤلاء المنجمون، والمنجمات، والمشعوذون، والمشعوذات، والساحرون، والساحرات الذين ينسبون للجنِّ النفع أو الضرر، ويتحدَّثون عنهم بالمغيَّبات إنهم ـ وإن صدقوا في بعض ما يُخبرون به كما ذكرناه ـ كذَّابون، دجَّالون، عصاة لله والرسول، يُريدون أن يستولوا على المغفلين ضعفاء الإيمان والعقول، ليضلُّوهم، ويسلبوا منهم أموالهم بغير حق.

فالاستعاذة لا تكون إلا بالله، والاستعانة لا تكون إلا بالله. وإن يكن للجنِّ شيء من القوة المادية فيما بينهم، فقد صرفهم الله في مجرى العادات عن أن يكون لهم سلطان على الإنس في نفع أو ضرٍّ إلا أن يشاء الله شيئاً من ذلك. ولعلَّ تسلُّط بعضهم إنما يكون على من يستعيذ بهم، أو يتخوَّف منهم ويخشاهم، دون من يلتجيء إلى الله مستعيذاً من شرهم، ومن شر كل ذي شرٍّ كما أسلفنا.

هذا ونختم الكلام عن هذا الموضوع بواقعة جرت أمام الدكتور

---

(١) أخرجه مسلم في السلام (٥٣٧) (١٢١).

(٢) انظر الترمذي في الطهارة رقم (١٣٥).

مصطفى سعيد الخن، واطلع على بعض تفاصيلها من الثقات، ونثبتها كما رواها فيما يلي:

أصيب شاب بصرع كان ينتابه مرةً بعد أخرى، فأخذه أقرباؤه إلى رجل ممن يدَّعي: أن له اتصالاً بالجنِّ، فأعلمهم ذلك الرجل: أن مريضهم قد دخل به جنِّيٌّ، وأنه قادرٌ على إخراجه، وأن ذلك يحتاج إلى جلسات.

أذعن أقرباؤه لذلك، وأخذ ذلك الرجل يُعالجه على مسمعٍ من أقربائه، وكان هؤلاء يسمعون أصواتاً غريبة لا يدرون مصدرها، وهذا الرجل يقول: اخرج، فيسمعون صوتاً يقول: لا أخرج، فيقول الرجل: إن لم تخرج أحرقْتُكَ، فيسمعون صوتاً يقول: لا، لا، سأخرج، وهكذا وبعد مضيِّ جلساتٍ قال لهم الرجل: إن مريضكم قد شُفي وخرج منه الجِنِّيُّ.

وكنتُ ذات مرة في زيارة له، وإذا به تنتابه نوبة الصرع وأنا حاضر، فساءني ما رأيت من أمر الشابِّ، ولما تركتُه بعد صحوه، وذهبت، إذا بي أجد في طريقي طبيباً من أصدقائي فاستوقفته وقصصتُ عليه ما رأيت، فقال لي: إنَّ هذا أمر بسيط جداً، إن هذا الشاب في رأسه شيء له إفراز، وعندما يزداد هذا الإفراز يحدثُ عند الإنسان هذا الصرع، وهناك حبوبٌ لمعالجة هذه الظاهرة، ودلَّنا على طبيب مختص بذلك، فذهب هذا المريض إلى الطبيب ووصف له هذا العلاج، فأخذ المريض يتناوله فلم يصبْه بعد ذلك شيء ما دام يتناول من هذا الدواء، فانظروا إلى دجل هؤلاء الدَّجَّالين المستغلِّين، لقد قال رسول الله: «يا عباد الله! تداووا،

فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء، إلا داء واحداً» قالوا: يا رسول الله! وما هو؟ قال: «الهرم»[١].

* * *

(١) أخرجه الترمذي في الطب برقم (٢٠٣٨) وأخرجه أبو داود في الطب (٣٨٥٥) وابن ماجه في الطب برقم (٣٤٣٦).

الباب الخامس
مفسدات العقيدة الإسلامية

- الفصل الأول - الرِّدَّة
- الفصل الثاني - الشِّرْك وأنواعه
- الفصل الثالث - الكُفْر وأنواعُه

الفصل الأول
الردة

تمهيد: الرِّدَّة من مفسدات العقيدة، ومن نواقض الإيمان، وهي ارتداد عن الحق إلى الباطل، ونكوص من الهداية إلى الضلالة، ومن النور والخير إلى الظلام والشرِّ.

١ ـ معنى الرِّدَّة في اللغة والاصطلاح:

الرِّدَّة لغة: الرجوع عن الشيء والعودة عنه إلى غيره. وهي أفحشُ الكفر، وأغلظه حكماً، ومحبطة للعمل إن اتصلت بالموت، ومحبطة لثواب الأعمال بمجرد الردَّة[1]، وهذا عند الشافعية، أما عند الحنفية: فالرِّدَّة تُحبط العمل وثوابه بنفسها. قال الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [التوبة: ١٧].

---

(١) انظر مغني المحتاج، للشربيني (٤/ ١٣٣).

وشرعاً:

قطع استمرار الإسلام ودوامِه، بنيَّةٍ، أو قول كفرٍ، أو فعلٍ، سواءٌ قاله استهزاءً، أو عناداً، أو اعتقاداً[1]. قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦] وقال تعالى: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥]. فالمرتدُّ مَنْ نفى وجود الخالق الصانع سبحانه وتعالى، أو نفى وجود الرسل عليهم الصلاة والسلام، أو كذَّب رسولاً، أو حلَّلَ محرَّماً بالإجماع؛ كالزنى، وشرب الخمر، أو حرَّم حلالاً بالإجماع؛ كالبيع، والنكاح ، أو نفى وجوب مجمع عليه؛ كالصلوات الخمس، أو اعتقد وجوب ما ليس بواجبٍ بالإجماع؛ كزيادة ركعة من الصلاة المفروضة. أو عزمَ على الكفر أو تردَّد فيه، ومثال الفعل المكفِّر: ما تعمَّده استهزاء صريحاً بالدِّين، كإلقاء مصحفٍ، أو آيةٍ منه، في نجاسةٍ. أو ما تعمَّده جحوداً للدِّين؛ كسجوده لصنمٍ، أو شمس، أو إنسانٍ، أو غيرهما من المخلوقات[2].

٢ ـ شروط المرتد:

أً ـ البلوغ: فلا اعتبار لردَّة الصبيِّ المميز؛ لعدم تكليفه،

---

(١) انظر مغني المحتاج، للشربيني (٤/ ١٣٣).
(٢) المصدر السابق (٤/ ١٣٦).

ولا اعتداد بقوله، واعتقاده، قال ﷺ: «رُفع القلمُ عن ثلاثة: عن الغلام حتى يحتلمَ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يُفيقَ»[1].

٢ً ـ العقل: فلا يعتدُّ بردة المجنون؛ لأن العقل مناط التكليف ومن شروط الأهلية في الاعتقادات وغيرها.

وأما السكران المتعدِّي بسكره فتقع ردته عند الشافعية والحنابلة؛ ولا يُقتل إلا بعد ثلاثة أيام من صحوه. وذهب الأحناف إلى أن السكران لا تقع ردته استحساناً، سواءٌ كان متعدِّياً أو غير متعدٍّ بسكره؛ لأن الأمر يتعلَّق بالاعتقاد والقصد، والسكران لا يصح عقده ولا قصده عندهم، فأشبه المعتوه، ولأنه زائل العقل، فلم تقع ردَّته كالنائم.

٣ً ـ الاختيار، فلا تقع ردَّة المُكْرَه، إذا كان قلبُه مطمئناً بالإيمان، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

٣ ـ أحكام المرتد:

أ ـ **قتل المرتد**: ودليل وجوب قتله من السُّنَّة والإجماع. أما السُّنَّة: فما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: «مَنْ بدَّل دينه فاقتلوه»[2] وما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٤٤) وأبو داود في الحدود (٤٣٩٨) والنسائي في الطلاق (٦/ ١٥٦) وابن ماجه في الطلاق (٢٠٤١).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١٧).

مسعود رضي الله عنه: «لا يحلُّ دمُ امرىءٍ مسلمٍ إلا بإحدى ثلاث: الثيِّبُ الزاني، والنفس بالنفس، والتاركُ لدينه المفارقُ للجماعة»[1] وما رواه الطبراني عن معاذ بن جبل بإسنادٍ حسن: أنَّ النبيَّ ﷺ لما أرسله إلى اليمن قال له: أيّما رجل ارتدَّ عن الإسلام فادعُه، فإن عاد، وإلا فاضربْ عنقه. وأيّما امرأةٍ ارتدَّت عن الإسلام فادعها، فإن عادت، وإلا فاضربْ عنقها»[2].

وقد انعقد إجماعُ العلماء على قتل المرتد، وتقتل المرتدة عند الجمهور غير الحنفية. وقال الحافظ ابن حجر: في تلخيص الحبير (٤/ ٤٩): وإسناده ـ أي: حديث معاذ ـ حسن، وهو نص في موضوع النزاع، فيجب المصير إليه.

حكم المرأة المرتدة عند الأحناف: إجبارها على الإسلام، وذلك بحبسها إلى أن تسلم أو تموت، وتُضربُ في كل ثلاثة أيام. ودليلُهم في عدم قتلها قوله ﷺ: «لا تقتلوا امرأةً»[3] وفي الصحيح: أن النبيَّ ﷺ نهى عن قتل النساء[4]. ولأن القتل لدفع شر الحرابة لا بسبب الكفر؛ إذ جزاؤه أعظم من القتل عند الله تعالى، فيختصُّ

---

(١) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٧٨) ومسلم في القسامة (١٦٧٦).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٩٣).

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦٦٩) وابن ماجه في الجهاد (٢٨٨٢).

(٤) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٦) وأحمد في المسند (٢/ ٣٤) وابن ماجه في الجهاد (٢٨٤١).

القتل لمن يتأتى منه المحاربة، وهو الرجلُ دون المرأة، لعدم صلاحية بنيتها[1].

استتابة المرتد: وكذا المرتدة، واجبةٌ عند جمهور العلماء، مستحبّة عند الأحناف. وتكون ثلاث مرات قبل قتل المرتد أو المرتدة. بدليل: ما رواه مالك في الموطأ: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه قدم عليه رجلٌ من قِبَل أبي موسى الأشعري، فقال: هل عندكم من مُغَرِّبةِ خبرٍ؟ قال: نعم. رجلٌ كفر بعد إسلامه، قال: فما فعلتم به؟ قال: قرَّبناه، فضربنا عنقه، فقال عمر: أفلا حبستموه ثلاثاً، وأطعمتموه كل يوم رغيفاً، واستتبتموه لعلَّه يتوبُ ويراجع أمر الله؟، ثم قال: اللهم إني لم أحضر، ولم آمر، ولم أرضَ؛ إذْ بلغني[2].

وما رواه الدارقطني، والبيهقي: أن امرأة يُقال لها: أم مروان ارتدَّت عن الإسلام، فبلغَ أمرُها إلى النبيِّ ﷺ، فأمرَ أن تُستتابَ، فإن تابتْ وإلا قُتلتْ[3].

وإن كان للمرتد أو المرتدة شبهة كُشفت له ـ إذ الظاهر أنه لا يرتد إلا من له شبهة ـ يُرسَل له عالم متخصِّص في موضوع

---

(١) انظر فتح القدير، لابن الهمام (٤/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٧٣٧) والشافعي في المسند (٢/ ٨٧) ومعنى: هل من مُغَرِّبَةِ خبر؟: هل من خبر جديد.

(٣) أخرجه الدارقطني في الحدود والديات (٣/ ١١٩) والبيهقي في السنن الكبرىٰ (٨/ ٢٠٣).

شبهته، فإن رجعَ وأسلم فبها، وإن لم يسلم قُتل، ولا يُصَلَّى عليه ولا يُدفن في مقابر المسلمين.

والإمام (الحاكم) أو نائبه هو الذي يقتل المرتد، أو المرتدة، فإن قتله أحد في دار الإسلام بلا إذن من الحاكم عُزِّر، ولا قصاص، ولا ضمان بقتله، ولو قبل استتابته؛ لوجود الشبهة. وإذا هربَ المرتدُّ، أو هربت المرتدة، إلى دار الحرب؛ فلكل أحد قتلهما واستباحة أموالهما.

وإن ارتدت جماعة وامتنعت بمنعة، وجب على الإمام (الحاكم) قتالها(١).

٢ ـ تصرفات المرتد:

إذا أسلمَ المرتد؛ فإن أمواله تكونُ على حكم ملكه السابق، أما إذا مات، أو قُتل، أو لحق بدار الحرب؛ فإن أمواله تزول عن ملكه. وتفصيل ذلك في كتب الفقه(٢).

ميراث المرتد:

إذا مات المرتد أو قُتل؛ فإن الحاكم يأمر بقضاء دينه، وضمان جنايته، ونفقة زوجه وقريبه؛ لأنها حقوق ثابتة، ولا يجوز تعطيلها. وما بقي من ماله يكون فيئاً يُوضع في بيت مال المسلمين، لا يُورث عند المالكية، والشافعية، والحنابلة؛ لقوله ﷺ: «لا يرثُ

---

(١) انظر المجموع شرح المهذب (٩/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥).
(٢) انظر المرجع السابق.

المسلمُ الكافرَ، ولا يرثُ الكافرُ المسلمَ»[1].

مثال تاريخي:

الأمثلة الفردية الواقعية على الارتداد نادرة الوقوع في التاريخ الإسلامي، وقد استدلَّ هرقلُ من عدم الارتداد عن الدين كراهيةً له بعد أن يدخلَ فيه؛ على صحة الإيمان، وصدق نبوة محمد ﷺ، حين سألَ أبا سفيان: أيرتدُّ أحدٌ سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه. فذكر له: أن لا. فقال: وكذلك الإيمانُ حين تُخالِطُ بَشاشَتُه القلوب[2].

وقَبِلَ رسولُ الله ﷺ في شروط صلح الحديبية: أنه لا يأتيه أحدٌ من المشركين ـ وإن كان مسلماً ـ إلا ردَّه إليهم، وإن ذهبَ أحدٌ من المسلمين إليهم؛ لم يردُّوه إليه[3].

واغتمَّ المسلمون لهذا الشرط، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: علام نعطي الدَّنيَّة في ديننا ما دمنا على الحقِّ؟!

وكان الله ورسولُه أعلمُ بمصالح المسلمين، وأرأفُ بهم من

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٠٠) والبخاري في المواريث (١٢/ ٥٠) تعليقاً وأبو داود في الفرائض (٢٩٠٩).

(٢) أخرجه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب بدء الوحي رقم (٧).

(٣) انظر عيون الأثر؛ لابن سيد الناس (٢/ ١٦٧) والفصول في سيرة الرسول ﷺ؛ لابن كثير (ص١٨٥) تحقيق محيي الدين مستو ود. محمد العيد الخطراوي. طبعة دار ابن كثير ودار الكلم الطيب بدمشق.

أنفسهم. وجاءت قريش بعد مضي الأيام تستنجد بمحمدٍ ﷺ أن يحطَّ عنها هذا الشرط الذي أهمَّها وأقضَّ مضاجعها، لأن المسلمين الذين ردَّهم رسول الله ﷺ أصبحوا مصدر خطرٍ لقريش، وكوَّنوا بقيادة أبي بصير جماعة غير مسؤولة ولا ملتزمة بشروط الصلح، تمنع وصول المؤن إلى مكة، وتُهدِّد طرق تجارتها، وفي المقابل لم يثبت: أن أحداً من المسلمين ذهب مرتداً من عند رسول الله ﷺ إلى قريش، بعد أن عمرَ الإيمان قلبه، وأنار اللهُ بصيرته بالإيمان.

وقد ذكر ابن عبد ربّه الأندلسي في كتاب العقد الفريد مثالاً عن ارتداد رجل، فقال:

«قال المأمون للمرتدّ الخراساني الذي أسلمَ على يديْه، وحمله معه إلى العراق فارتدّ عن الإسلام: أخبرني: ما الذي أوحشك مما كنتَ به آنساً من ديننا؟ فوالله لأن أستحييك بحقٍّ أحب إليّ من أن أقتلك بحقٍّ، وقد صرت مسلماً بعد أن كنت كافراً، ثم عدتَ كافراً بعد أن صرت مسلماً. فإن وجدت عندنا دواءً لدائك تداويت به، وإن أخطأك الشفاءُ ونبا عليك الدواءُ، كنتَ قد أبليت العذر في نفسك ولم تُقَصِّر في الاجتهاد لها، فإن قتلناك قتلناك في الشريعة، وترجعُ أنت في نفسك إلى الاستبصار واليقين، ولم تفرط في الدخول من باب الحزم. قال المرتد: أوحشني منكم ما رأيت من الاختلاف في دينكم. قال المأمون: لنا اختلافان: أحدهما كاختلافنا في الأذان، والتكبير في الجنائز، وصلاة العيدين والتشهد، والتسليم من الصَّلاة، ووجوه القراءات، واختلاف وجوه الفتيا، وما أشبه

ذلك؛ وهذا ليس باختلاف، وإنما هو تخيير، وتوسعة، وتخفيف من السنة، فمن أذَّن مثنى، وأقام مثنى لم يأثم، ومن ربَّع لم يأثم. والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتاب الله، وتأويل الحديث عن نبيِّنا، مع اجتماعنا على أصل التنزيل، واتفاقنا على عين الخبر؛ فإن كان إنما أوحشك هذا فينبغي أن يكون اللفظ بجميع التوراة والإنجيل متفقاً على تأويله كما يكون متفقاً على تنزيله، ولا يكون بين اليهود والنصارى اختلاف في شيء من التأويلات، ولو شاء الله أن ينزل كتبه مفسرة، ويجعل كلام أنبيائه ورسله لا يختلف في تأويله لَفَعَل؛ ولكنا لم نجد شيئاً من أمور الدين والدُّنيا وقع إلينا على الكفاية إلا مع طول البحث والتحصيل والنظر، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحن، وذهب التفاضل والتباين، ولما عُرِف الحازم من العاجز، ولا الجاهل من العالم، وليس على هذا بنيت الدنيا. قال المرتد: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ المسيح عبد الله، وأنَّ محمداً صادق، وأنَّك أميرُ المؤمنين.

فخرَّ المأمون ساجداً لله، ثم قال لأصحابه: لا تبرُّوه في يومه ريثما يعتق إسلامه، كيلا يقول عدوُّه: إنه يُسلمُ رغبةً، ولا تنسوا نصيبكم من برِّه ونصرته وتأنيسه»[١].

أما الردَّة الجماعية التي وقعتْ في خلافة الصِّدِّيق، بالامتناع عن دفع الزكاة، واتباع المتنبئين، فقد تصدَّى لها المسلمون، وقاتلوا

---

(١) العقد الفريد (٢/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤).

المرتدين تحت قيادة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بعزيمة صادقة وإرادة صُلبة في الحقِّ، لا تقبلُ المساومة في دين الله، حتى ثاب الناس جميعاً إلى رشدهم، وعادوا إلى دين الله طائعين وموحِّدِين.

وفي العصور الحديثة ظهرت في بلاد المسلمين ردَّة جديدة، وجاهلية حديثة، كان من أبرز معالمها: تعطيل فريضة الجهاد، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتشبُّه بالكفار، والاحتكام إلى غير شرع الله.. فنعوذ بالله العزيز الجليل من استمرار هذا الانحدار الكبير والارتداد الخطير، وندعوه سبحانه أن يرد هذه الأمة المسلمة إلى دينها، وشرع قرآنها، وسنة نبيها رداً جميلاً، إنه سبحانه وتعالى هو البرُّ الرحيم.

* * *

الفصل الثاني
الشرك وأنواعه

ومن مفسدات العقيدة الشِّرْك، وهو من أعظم الذنوب على الإنسان، وأخطرها على العقيدة.

١ ـ معنى الشِّرك في اللغة والاصطلاح:

الشِّرك لغة: قال في اللسان: وأشركَ بالله: جعلَ له شريكاً في ملكه، تعالى الله عن ذلك، والاسم: الشِّرْك. قال الله تعالى حكاية عن عبده لقمان: أنه قال لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. والشِّرْك: أن يجعلَ لله شريكاً في ربوبيته، تعالى الله عن الشركاء والأنداد.

وإنما دخلت الباء في قوله: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١٣] لأن معناه: لا تعدل به غيره، فتجعلَه شريكاً له. وكذلك قوله تعالى ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الأعراف: ٣٣] لأن معناه: عدلوا به، ومن عدل به شيئاً من خلقه فهو كافر مشركٌ؛ لأن اللهَ وحدَه لا شريك له، ولا نِدَّ، ولا نديدَ.

والشِّرْك اصطلاحاً: اتِّخاذ نِدٍّ لله تعالى في الذات، أو في الصفات، أو في الأفعال، أو في العبادة.

ـ فالنِّدُّ في الذات: أن يعتقد: أن ذات الله كذات المخلوق؛ كما قالت المُجَسِّمة.

ـ والنِّدُّ في الصفات: أن يعتقدَ للمخلوق صفةً كصفات الله؛ مثل أن يعتقد: أن مخلوقاً قديمٌ؛ كقدم الله تعالى، وهو ما ذهبَ إليه بعض الفلاسفة عندما قالوا بقدم العالَم.

ـ والنِّدُّ في الأعمال: كأن يعتقد: أن مخلوقاً يرزق، ويتصرف في الكائنات كما يتصرَّفُ الله تعالى.

ـ والنِّدُّ في العبادة: كأن يعبدَ، أو يدعوَ مع الله إلهاً آخر، وأن يعظِّمه كتعظيم الله، وأن يحبَّه كحبِّ الله.

٢ ـ أنواع الشِّرْك:

للشرك ثلاثة أنواع، تتميز من حيث ماهيته، وظهوره، وخفائه، ومغفرة الله تعالى وعدمها.

الأول ـ الشِّرك من حيث ماهيته: ويكون شركاً في الاعتقاد، وشركاً في الأفعال.

أما الشِّرك في الاعتقاد، فكما إذا اعتقد: أن لله تعالى مماثلاً في خلقه، أو اعتقد: أن لله تعالى شريكاً يُساعده في أفعاله سبحانه وتعالى، أو اعتقد: أن مخلوقاً ما يستطيع أن يقوم ببعض الأعمال التي اختصَّ الله تعالى بها؛ كالخلق، والرزق، وشفاء المرضى، ونحوها، وإن لم يعبدْ هذا الشريكَ، أو يسجدْ له.

وأما الشرك في الأفعال، فهو أن يعبدَ مع الله إلهاً آخر، أو يطلب في دعائه من غيره سبحانه ما لا يطلب إلا من الله تعالى.

الثاني ـ الشِّرْك من حيث ظهوره وخفاؤه:

وهو قسمان: شرك ظاهر، وشرك خفي.

١ ـ الشرك الظاهر: وهو الذي يكون واضحاً، لا يخفى أمره على أحد من الناس؛ كعبادة الأصنام، واعتقاد النِّدِّ والشريك لله تعالى.

٢ ـ الشِّرْك الخفيُّ: وهو الذي يلتبسُ على كثير من الناس، فيقعونَ فيه دون أن يخطرَ بأذهانهم أنهم يُنافون عقيدة التوحيد، ويكمنُ الخطرُ العظيمُ في هذا القسم من الشِّرْك بسبب تسلُّله إلى أعمال المسلمين دون أن يشعروا به، وغالباً ما ينتشر حتى يصبح عادة في المجتمع يصعبُ التخلُّص منها.

وفيما يلي أمثلة من الشِّرك الخفي:

الحلف بغير الله: لأن في الحلف تعظيم المحلوف به كتعظيم الله تعالى، ولا يكون التعظيم إلا لله تعالى، قال ﷺ: «مَنْ كان حالفاً فليحلفْ باللهِ أو ليَصْمُتْ»(١) **وقال** ﷺ: «من حلفَ بغيرِ الله فقد كفرَ ـ أو أشركَ ـ»(٢).

ومن المعلوم: أن الحلف بالله كاذباً كبيرة من الكبائر، لكن الشرك ـ وإن كان أصغر ـ فهو من أكبر الكبائر.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٤٨٠) والبخاري في الأيمان (٦٦٤٦) ومسلم في الأيمان (١٦٤٦).

(٢) أخرجه الترمذي في الأيمان (١٥٣٥) وابن حبان في صحيحه (٤٣٤٣) والحاكم في المستدرك (١/ ٥٢).

الذبح لغير الله: لأن الحياة شيءٌ محترم، ولو كانت حياة حيوان، فلا يجوز إزهاق روحِ الحيوان للأكل إلا لله تعالى، وذلك بالتسمية والتكبير عند الذبح؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١] وإذا تأكَّد: أن الذابحَ كافرٌ، أو أنَّ الذابحَ مسلمٌ ولكنَّه ذبحَ لغير الله بقصد التعظيم أو التقديس لحيٍّ أو ميِّت، فإن فعلَه شركٌ والذبيحة لا تُؤكل؛ لقوله تعالى في ذكر المحرَّمات: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ... وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ...﴾ [المائدة: ٣].

وعن عليٍّ رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «لعنَ اللهُ من ذبحَ لغير الله»[(١)].

النذر لغير الله: والنذر عبادة يجب الوفاء بها لله تعالى، وعندما تكون لغير الله تُصبح شركاً، وعملاً محرَّماً، ولذلك قيَّد الفقهاء اللفظ الشرعي للنذر بعبارة: إن شفى الله مريضي فَلِلّٰهِ عليَّ أن أتصدَّق بكذا على الفقراء. ويجب عليه إن حصلَ ما علَّق نذره على وقوعه. قال ﷺ: «من نذر أن يُطيعَ اللهَ فليطعْه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»[(٢)].

الاستغاثة بغير الله: والاستعاذة بغيره سبحانه وتعالى.. وذلك فيما يختصُّ بالله عزَّ وجلَّ من استجلاب منفعة أو دفع

---

(١) أخرجه مسلم في الأضاحي (١٥٦٦).

(٢) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٩٦).

مضرة، والاستغاثة والاستعاذة دعاء والتجاء إلى الله؛ والدعاء عبادة، بل هو «مخُّ العبادة»[1] فلا يكون إلا لله تعالى وحده.

السحر: لأن السحر ضروب وأفعالٌ وكلامٌ يُعَظَّم به غير الله تعالى، وتُنسب إليه المقادير والكائنات، ولذلك كان عمل السحر كفراً ورِدَّةً عند مالك وأبي حنيفة، ومعصية شركية عند الشافعيِّ.

الثالث ـ الشِّرك من حيث مغفرة الله وعدمها:

وهو قسمان: شرك أكبر، وشرك أصغر:

١ ـ الشِّرْكُ الأكبر: وهو أعظمُ الشرك؛ لما فيه من إثبات الشريك لله تعالى، واعتقاد ذلك اعتقاداً ظاهراً متصلاً بالموت، وقد بين الله تعالى في محكم تنزيله أنه لا يغفره أبداً؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]. لكنّه يُغفَر إذا عاد إلى الإيمان في الحياة الدنيا.

٢ ـ الشِّرْكُ الأصغر: وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور، وهو الرِّياء، والنفاق المشار إليه بقوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠]. والمؤمن في هذه الحالات سليمُ العقيدة، وإذا نُبِّه إلى منافاة بعض أفعاله للتوحيد الخالص رجعَ إلى الحق وتبرأ من فعله. ولا شكَّ: أن الرياء يُفسدُ العمل، ويُحبط الأجر والثواب، وأن الله تعالى لا يقبل من العمل الصالح إلا ما كان خالصاً له؛ لأنه سبحانه أغنى

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٧١) عن أنس بلفظ: «الدعاء مخ العبادة».

الشركاء عن الشرك، وكل عمل دخله الرِّياء فهو شرك، قال ﷺ: «إن أخوفَ ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قالوا: وما الشركُ الأصغر يا رسول الله؟! قال: «الرياء؛ يقول الله تعالى يوم القيامة، إذا جازى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تُراؤون فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً؟!»[1].

٣ ـ كيف دخلَ الشرك إلى الجزيرة العربية:

كان أكثر العرب مُوحِّدين حنفاء على دين إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ثم دخلَ الشرك إلى الجزيرة العربية، فأصبح العرب يعبدون الأصنام، ويعتقدون أنها تشفع لهم وتقربهم من الله زلفى، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقال سبحانه: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨].

ويُروى: أن عمرو بن لحيٍّ الخزاعيَّ خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم مآب من أرض البلقاء، وبها يومئذ العماليق، وجدهم يتعبدون للأصنام، فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه الأصنام نعبدها، فنستمطرها، فتمطرنا، ونستنصرها، فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطونني منها صنماً، فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه، فأعطوه صنماً يُقال

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/٤٢٨) والبيهقي في الشعب (٤٨٣١) والطبراني كما في المجمع (١/١٠٢).

له: هبل، وأخذه، فتقدَّمَ به إلى مكة فنصبه، وأمر النَّاسَ بعبادته وتعظيمه[1].

ثم فشت عبادة الأصنام في الجزيرة العربية، حتى أصبح لكل قبيلة صنم تعبده، ولكل أهل بيت صنم يعبدونه. ومن هذه الأصنام ما أخذَه العربُ عن قوم آخرين، ومنها ما استحدثوه هم.

أما الأصنام التي أخذوها عن قوم سابقين، فهي خمسة، ومن زمن نوح؛ وقد ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

وذكر ابن الكلبي: أن الأصنام المذكورة هي صور لرجال صالحين ماتوا، فخلَّد أقوامُهم ذكرَاهم بتماثيل منحوتة، ثم مالبث الناس أن عبدوها، وتركوا عبادة الله تعالى[2].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: صارت الأوثان التي في قوم نوح في العرب بعدُ، أما «وَدّ» فكانت لكلب، بدومة الجندل، وأما «سُواع» فكانت لهذيل، وأما «يغوث» فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ. وأما «يعوق» فكانت لهَمذَان، وأما «نسر» فكانت لحمير، لآل ذي الكُلاع. أسماءُ رجال صالحين من قوم نوحٍ، فلما هلكوا أوصى الشيطان إلى قومهم أن انصبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا،

---

(١) السيرة النبوية؛ لابن هشام (١/ ٧٧).

(٢) انظر كتاب الأصنام؛ لابن الكلبي (ص٣٣ وما بعدها).

حتى إذا هلك أولئك وتنسَّخ العلمُ عُبدتْ[1].

وأما الأصنام التي استحدثوها؛ فهي كثيرة، أشهرها ما ذكره الله تعالى في سورة النجم: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٠].

وكانت «**اللات**» بالطائف لثقيف، وكانت صخرة مربعة بيضاء، عليها بيت له أستار وسدنة.

أما «**العُزَّى**» فهي لقريش وبني كنانة، وقد اتخذها ظالم بن أسعد بوادي نخلة، وهي أحدث من «اللات».

و«**مناة**» كانت لهُذيل وخزاعة، بين مكة والمدينة.

٤ ـ الحذر من الشِّرْك:

ومما تقدَّم في الفقرات السابقة يجدر بنا أن نحذرَ الشِّرْكَ على أنفسنا وأهلينا ومجتمعنا في الدنيا والآخرة.

أ ـ الحذر من الشرك في الدنيا: وهذا الحذر مستمر ما بقي على الأرض حياة إنسانية، لأن الشرك لا يقتصر وجوده على نحت الأصنام، واتخاذ الأوثان، وعبادتها مع الله، بل هو أنواع وأشكال، والصنم الحجري البائد يُمكن أن يُنصب مكانه: المال، والجاه، والمظاهر، ومختلف الأهواء والشهوات، وما أكثرها في عصر تعزُّ فيه الفضائل، و تعمُّ البلوى، ويتهالك الناس على الملذات... ولئن سلم المؤمن من الشرك الأعظم؛ فإنه لا يسلم في كثير من الأحيان من الشرك الأصغر (الرياء).

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٢٠).

ب ـ الحذر من عاقبة الشِّرْك في الآخرة: وهو حَذَرٌ مثمرٌ طالما بقي المؤمنُ متوسطاً بين الخوف من عذاب الله، والرجاء في رحمته ومغفرته، ومستحضراً: أن الله تعالى قطعَ المغفرة عن المشرك، وأوجبَ له الخلود في النار؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُ . . .﴾ [المائدة: ٧٢].

* * *

الفصل الثالث

الكفر وأنواعه

١ ـ معنى الكفر لغة واصطلاحاً:

● **الكُفْرُ لغةً**: ضد الإيمان، وأصل الكُفْر من الكَفْر ـ بالفتح ـ مصدر كَفَر، بمعنى السَّترْ.

قال الجوهري: وكَفَرْتُ الشيءَ أَكْفِره ـ بالكسر ـ أي: سترته، فالكَفْر الذي هو بمعنى السَّترْ بالاتفاق من باب ضَرَبَ، وهو غير الكفر الذي هو ضد الإيمان فإنه من باب نَصَر.

وكفرَ بها يكفُر كُفوراً وكُفْراناً: جحدَها وسترَهَا[١].

وقال الأصفهاني في مفرداته:

الكُفْر في اللغة: ستر الشيء، ووُصِفَ الليل بالكافر؛ لستره الأشخاص، والزَّارع؛ لستره البذر في الأرض. وكُفْر النعمة وكُفْرانها: سترها بترك أداء شُكْرها؛ قال تعالى: ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ [الأنبياء: ٩٤]. وأعظم الكفر: جحودُ الوحدانية، أو الشريعة، أو النبوة، والكُفْران: في جحود النعمة أكثر استعمالاً،

---

(١) انظر تاج العروس (١٤/ ٥٠ ـ ٥١).

والكُفر في الدين أكثر، والكُفُر فيهما جميعاً، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الفرقان: ٥٠][1].

● **والكفر اصطلاحاً**: التكذيب بالله، وبما جاءت به رسلُه عنه كلاًّ أو بعضاً. وذكر الرازي أنه صَعُبَ على المتكلمين وضع حدٍّ للكفر؛ لأنه نقيض الإيمان الذي هو التصديق بجميع ما جاء به الرسول ﷺ عن ربه عز وجلَّ، ثم عرَّفه بقوله:

«الكفر: عدم التصديق للرسول ﷺ بشيء مما عُلِم بالضرورة مجيئُه به»[2].

وقال القرطبي: حيث جاء الكفر في لسان الشرع فهو جحد المعلوم من دين الإسلام بالضرورة الشرعية. وقال الحافظ ابن حجر: وقد ورد الكفر في الشرع بمعنى جحد النِّعم، وترك شكر المنعم، والقيام بحقه[3].

وقد لخَّصَ الإمام الطحاوي المكفرات الاعتقادية والقولية والعملية في كتابه العقيدة الطحاوية فقال في مواضع منه:

«ونسمِّي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ما داموا بما جاء به النبيُّ ﷺ معترفين، وله بكل ما قاله وأخبر مُصدِّقين».

«ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحلَّه، ولا نقول:

---

(١) مفردات القرآن (ص ٧١٤).
(٢) التفسير الكبير، للرازي (٢/ ٣٧).
(٣) فتح الباري (١٠/ ٤٦٦).

لا يضرُّ مع الإيمان ذنبٌ لمن عملَه. . .»

«ولا يخرج العبدُ من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه»[1].

وفي كتب الفقه استقصاء للاعتقادات والأفعال والألفاظ المكفرة، مع الأمثلة، نسأل الله تعالى أن يحفظ لنا ديننا الذي فيه عصمة أمرنا، وأن تسلمَ لنا عقيدتنا التي فيها سعادتنا في الدنيا، وفلاحنا في الآخرة.

٢ ـ أنواع الكفر، وأصناف الكفَّار:

الكفر بأركان الإيمان، أو بواحدٍ منها؛ يُخرج الإنسان من ساحة الغفران والرحمات، ويُدخلُه في دروب الضلال والعذاب؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

والكافرون أصناف:

أ ـ **الكفَّار المنكرون**: وهم الذين لا يعرفون الله أصلاً، ولا يعترفون به، وهم كافرون بقلوبهم وألسنتهم، ولا يعرفون ما يُذكر لهم من التوحيد لله رب العالمين. بل يُعرضون ولا يكترثون بما جاء به الرسل؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

ب ـ **الكفَّار الجاحدون**: الذين يجحدون جملة ما أنزله الله، أو يجحدن شيئاً مما هو معلوم بالضرورة من الإسلام، وهم في قرارة

---

(١) العقيدة الطحاوية (ص ٢٥٠ و٢٥١ و٢٧٢).

أنفسهم يعترفون بأنه الحق؛ قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

ج ـ **الكفَّار المعاندون**: الذين يعرفون أمر الله بقلوبهم، ويقرون به بألسنتهم، ولا يدينون به حسداً أو بغياً، وربما إباءً واستكباراً؛ ككفر إبليس وأبي جهل، وأضرابهما؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

د ـ **الكفَّار المعرضون**: وهم يظهرون عدم الاكتراث بالأمور الدينية، فلا يُصدِّقون بها، ولا يكذبونها، ولكنهم يُعرضون عنها؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

هـ ـ **الكفَّار الشَّاكُّون**: وهؤلاء يشكُّون فيما جاء به رسل الله عليهم الصلاة والسلام، فلا يجزمون بصدقهم ولا بكذبهم، ولكنهم في النهاية يُعلنون الكفرَ الصُّراحَ، والتكذيبَ الوقحَ بسبب شكوكهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩] وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥].

و ـ **الكفَّار المنافقون**: وهم الذين يُظهرون الانقياد والاستسلام لله تعالى، ويقرون بألسنتهم، ويكفرون بقلوبهم، ولا يعتقدون بأن الدِّين حقٌّ في قرارة أنفسهم. وخطر هؤلاء على الدين عظيم، ونكايتهم في المجتمع الإسلامي بالغة الضرر؛ ولذلك استحقوا من

الله تعالى أشدَّ العذاب، بسبب كذبهم ونفاقهم؛ فقال سبحانه: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

٣ ـ صفاتُ الكفَّار:

إذا تتبعنا أحوالَ الكفار وصفاتهم في كتاب الله عز وجل؛ فإننا نجدها بضعاً وأربعين صفة، اشتملت على جميع الرذائل الأخلاقية، والصفات الخبيثة، والحيل الماكرة. وقد أرادَ الله سبحانه وتعالى من إظهار صفاتهم وتعرية أفعاهم وأخلاقهم؛ أن تتحقق المفاصلة بين المؤمنين والكافرين، وأن يحذر المؤمنون عدواً معروفاً، يجمع دائماً بين صفتي المكر والخديعة، والخسة والدناءة.

ونكتفي بإيراد أربع من هذه الصفات مع أدلتها:

● **تعطيل الكافرين لعقولهم**: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

● **اتباع الهوى والباطل**: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ...﴾ [محمد: ٣].

● **الإجرام**: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الجاثية: ٣١].

• **الإعراض عن الحق والإفساد في الأرض**: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ٤] ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

٤ ـ الاحتكام إلى غير شرع الله، ومتى يكون كفراً؟

يختلفُ الحكمُ على من يحتكم إلى غير شرع الله بحسب اعتقاده وحاله، ولا يكون كافراً كفراً أكبر إلا إذا اعتقدَ أن الحكم بما أنزل الله غير واجب، وأنه مخيَّرٌ فيه، أو استهانَ به مع تيقُّنه أنه حكم الله.

أما إذا اعتقد وجوبَ الحكم بما شرع الله تعالى، وعدل عنه مع اعترافه بأنه مقصِّر مستحق لعقوبة، فهو عاص، ويُسمّى كفره كفراً مجازياً، أو كفراً أصغر.

وإن جهل حكم الله، وبذل جهدَه، واستفرغَ وُسْعَه في معرفة الحكم وأخطأه، فهو مخطىء، له أجر على اجتهاده، وخطؤه مغفور[١].

ومن الواضح الآن بعد هذا التفصيل: أن الحكم على من لم يحكم بما أنزل الله بالكفر والظلم والفسق؛ إنّما ينطبق على المنكر للحاكمية الإلهية، أو المستهين بها، قال الله تعالى:

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية (٢/ ٤٤٦).

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

٥ ـ من أحكام الكفَّار:

أ ـ بطلان أعمالهم في الدنيا، وخلودهم في جهنم:

لا أجرَ ولا ثواب للكفَّار في الآخرة على أعماهم الطيبة التي عملوها في الدنيا؛ مثل إعانة الفقير، وإغاثة الملهوف، وبرّ الوالدين، وصلة الرحم؛ لأن هذه الأعمال لم يُقصد بها وجه الله تعالى ولا اليوم الآخر، ولم يتوفَّر لها شرط القَبُول وهو الإيمان بالله تعالى؛ قال سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

أما في الدنيا فإن الله تعالى يكافىء الكفار على أعمال الخير؛ بالصحة والأمن والسعة في الرزق وارتفاع الحظ، ونحو ذلك. قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥].

وهم خالدون في جهنم وبسبب شركهم أو جحودهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٦].

ب ـ زيادة الكفر:

لقد مر معنا: أنَّ الإيمان درجات؛ يزيد وينقص؛ يزيد بالأعمال الصالحة، والعلم، والذِّكْر والتفكُّر؛ كما أنه ينقص بالغفلة والمعصية. ولما كان الكفر نقيض الإيمان؛ فإنه دركات بعضها دون بعض، ينحط الكافر إليها كلَّما ازداد كفراً وطغياناً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤].

ج ـ الإكراه على الكفر:

قال الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦]..

هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر رضي الله عنه، قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أخذه المشركون وأخذوا أباه، وأُمَّه سُمَيَّة، وصُهيباً، وبلالاً، وخباباً، وسالماً فعذَّبوهم.. فقُتلتْ سُمَيَّةُ، وقُتِل زوجها ياسر، وأما عمَّار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «كيف تجدُ قلبكَ؟» قال: مطمئنٌ بالإيمان. فقال رسول الله ﷺ. «فإنْ عادُوا فَعُد»[1].

وقد أجمعَ أهلُ العلم على أنَّ من أُكْرِهَ على الكفر حتى خشِيَ

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٦٥١) والقرطبي (١٠/ ١٨٠).

على نفسه القتل، أنه لا إثمَ عليه إن كفرَ وقلبُه مطمئنٌ بالإيمان. كما أجمعوا على أن من أُكره على الكفر، فاختار القتل؛ أنه أعظم أجراً عند الله ممن اختار الرخصة. قال ﷺ: «قد كان من قبلكم يُؤخذ الرجل فيُحفر له في الأرض، فيُجعل فيها، فيُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصدُّه ذلك عن دينه»[1].

موقف المؤمنين من الكفار:

أ ـ جهاد الكفَّار: وهو من واجبات الأمة الإسلامية، اقتداءً برسولها ﷺ، فقد أمره الله تعالى بذلك في محكم التنزيل، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]. قال ابن عباس: أُمر بالجهاد مع الكفَّار بالسيف، ومع المنافقين باللسان وشدة الزجر والتغليظ[2].

ولا مِرية: أن الجهادَ لكفار أعداء الله، وأعداء رسل الله، فريضة محكمة وماضية إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وهكذا نسخت آياتُ الجهاد في كتاب الله كلَّ شيء من العفو والصلح والصفح مع الكفر وأهله.

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦١٢) عن خباب بن الأرت رضي الله عنه.

(٢) انظر تفسير القرطبي (٨/ ٢٠٤).

ب ـ تحريم موالاة الكفَّار:

وقد ثبت هذا التحريم صريحاً في كتاب الله عز وجل، فقال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]. وتقرر الآية:

أن الواجب موالاة المؤمنين بعضهم بعضاً، والاعتماد على بعضهم في شؤونهم العامة والخاصة.

● والنهي عن موالاة الكفَّار، وتحريم الإسرار إليهم بالمودة، والاستنصار بهم، والاستعانة بهم لقرابتهم أو محبتهم. وأخطر ما في الموالاة للكفَّار: أن يرضى بكفرهم، أو أن يُصبحَ خادماً لهم ينفذ أوامرهم، أو جاسوساً يتسقط لهم الأخبار ويزودهم بها، والذي يفعل ذلك يُصبح كافراً مثلهم، ويخرج من دين الله وحزبه وولايته. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

● والموالاة المستثناة من هذا النهي: هي موالاة الكفَّار في بعض البلدان أو الأوقات خوفاً من شرهم، فللمسلم أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته، قال ﷺ: «إنا لَنَكْشِرُ في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (١٠/٥٢٧) تعليقاً، ومعنى: لنكْشِرُ: لنضحك.

والتقية الجائزة في موالاة الكفَّار تشتمل على حالة اتقاء الضرر، وعلى حالة تحقيق مصلحة عامة للإسلام والمسلمين، مع مراعاة قول ابن عباس في جميع الحالات: ليس التقيَّة بالعمل إنما التقيَّة باللسان[1].

ج ـ تحريم الجرأة على التكفير:

تكفير المسلم أمر خطير في الدين، وشيوع ذلك بين أفراد المجتمع يُنذر بضعفه ودماره، ولذلك حرَّم الإسلام اتهام المسلم بالكفر، أو وصفه بأي صفة فيها معنى الكفر، وجعل من رمى مسلماً بالكفر، أو اعتقد كفره دون دليل قاطع عليه، فقد كفر؛ لأنه جعل الإيمان كفراً والمؤمن كافراً، قال ﷺ: «إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدُهما، إن كان كما قال وإلا رجعتْ عليه»[2].

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: والحاصل: أن المقول له إن كان كافراً كفراً شرعياً فقد صدقَ القائل، وذهبَ بها المقول له، وإن لم يكن رجعت إلى القائل معرَّةُ ذلك القول وإثمه[3].

قال الشيخ رشيد رضا يرحمه الله في «تفسير المنار»: تجرَّأ بعض المتأخرين على تكفير من يتأوَّل بعض الظنيات، أو يُخالف شيئاً مما

---

(١) تفسير القرآن العظيم؛ لابن كثير (١/ ٤٣٩).
(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٩٨٤) والبخاري في الأدب من صحيحه (٦١٠٤) ومسلم في الإيمان (٦٠).
(٣) انظر فتح الباري (١٠/ ٤٦٦).

سبقَ الاجتهاد فيه، أو ينكرُ بعضَ المسائل الخلافية، فجرَّؤوا النَّاسَ على هذا الأمر العظيم، حتى صاروا يُكفِّرون من يُخالفهم في بعض العادات وإنْ كانت من البدع والمحظورات!![1]

ولذلك كان الاحتياط في تكفير الأشخاص المُعيَّنين أولى وأسلم، والأفضل أن يُسند إصدار أي حكم على شخص أو جماعة بالكفر إلى هيئة قضائية تملكُ وسائلَ النظر العلميّ، للكشف عن الظروف والقرائن والشُّبَه، وأن يُمنعَ عامَّةُ النَّاس من الخوض في مثل هذه الأمور لمجرد السماع والإشاعات، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦].

* * *

(١) تفسير المنار (١/ ١٤٠).

خاتمة

نظرة شاملة
في خصائص العقيدة
الإسلامية وآثارها

١ ـ خصائص العقيدة الإسلامية.

٢ ـ آثار العقيدة الإسلامية.

خاتمة

خصائص العقيدة وآثارها

١ ـ خصائص العقيدة الإسلامية:

تمتاز العقيدة الإسلامية التي أوضحناها فيما مرّ، عن العقائد الأخرى بمجموعة من المميزات والخصائص، وفيما يلي نوضح لك أهمها:

أ ـ وضوحها وبساطتها:

فإن هذه العقيدة على جلالها وعمق أثرها بسيطة لا تعقيد فيها، واضحة لا غموض فيها، فليس توحيد الله تعالى وما يتبعه من أمور العقيدة بالأمور التي يعسر على الفكر الإنساني فهمها والاقتناع بها، فالبدوي في صحرائه، والمتحضِّر في مدينته، والعالم بين كتبه أو مخبره؛ سواء في تعقُّل هذه العقيدة، وإنما يتفاضلون في قدرتهم على إقامة البرهان عليها، وما ذلك إلا لأنها عقيدة فطرية، لو تُرك الإنسان وشأنه لما اهتدى إلا إليها، ولما آمن إلا بها ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

ولأن العقيدة الإسلامية متجاوبة مع الفطرة السليمة نرى: أن فريقاً من العرب قبل الإسلام، ممن صفت فطرته، ورقَّت نفسه،

كزيد بن عمرو بن نفيل، وكقس بن ساعدة، آمنوا بوحدانية الله تعالى، كما آمنوا بالبعث والنشور والحساب، ونبذوا ما كان عليه قومهم من عبادة الأصنام والذبح لها، وما تبع ذلك من عقائد.

٢ ـ ملاءمتها للمنطق والتفكير السليم:

فالعقيدة الإسلامية لا يُوجد عند المنطق والعقل السليم ما يأباها، ويرفضها، بل إن الدين الإسلامي نفسه قد أعظم من شأن العقل، وطلب من الإنسان أن يُفكِّر ويتأمَّل، وألا يؤمن بشيء إلا بعد إقامة البرهان عليه، ودعا إلى نبذ التقليد الأعمى كما أوضحنا ذلك في بحث سابق.

صحيح أن بعض العقائد لا يستطيع أن يقيم العقل عليها برهاناً، لأنها من الأشياء التي تكون وراء هذا العالم المادي، إلا أنها عندما تعرض عليه لا نجد عنده ما يُعارضها.

أضف إلى ذلك أنها آتية عن طريق الخبر المتواتر الذي هو طريق من طرق إثبات الحقائق العلمية، وأنها مرتبطة بالإيمان بالله تعالى الذي أقيم عليه براهين عقلية، فمآل هذه الأمور إلى أن تكون أدلتها عقلية.

٣ ـ أنها تجعل المؤمن ذا عزَّة وكرامة:

فهي تجعلُ المؤمنَ سيد نفسه، لا يخضع إلا لربِّه، ولا يطأطىء رأسه إلا لخالقه، ولا يُطيع إلا أوامره، وهو إن أطاع حاكمه فإنه يُطيع فيه أحكام الله جلَّ جلاله، ولا يخشى أحداً إلا الله ﴿ ٱلَّذِينَ

﴿ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

هذا، وقبل وقعة القادسية التي نصر الله فيها عباده المؤمنين على أعدائهم من الفرس، بعث رستم قائد الفرس إلى سعد بن أبي وقاص قائد جيش المسلمين أن يبعث إليه برجل عاقل عالم بما سيسأله عنه، فبعث إليه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، فلما قدم عليه جعل رستم يقول له: إنكم جيراننا وكنا نحسنُ إليكم ونكفُّ الأذى عنكم، فارجعوا إلى بلادكم ولا نمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا، فقال المغيرة: إنا ليس طلبتنا الدنيا، وإنما همنا وطلبتنا الآخرة، قد بعث الله إلينا رسولاً وقال له: إني قد سلَّطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني، فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرِّين به، وهو دين الحق، لا يرغب عنه أحد إلا ذلَّ، ولا يعتصم به إلا عزّ.

فقال له رستم: فما هو؟ فقال: أما عمودُه الذي لا يَصلحُ شيء منه إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، فقال: ما أحسن هذا! وأي شيء أيضاً؟ قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، قال: وحسن أيضاً! وأيُّ شيءٍ أيضاً؟ قال: والناس بنو آدم فهم إخوة لأبٍ وأم، قال: وحسن أيضاً! ثم قال رستم: أرأيت إن دخلنا في دينكم أترجعون عن بلادنا؟ قال: إي والله! ثم لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة، قال: وحسن أيضاً!. قال: ولمّا خرج المغيرة من عنده ذاكر رستم رؤساء قومه في الإسلام فأنفوا ذلك، وأبوا أن يدخلوا فيه.

ثم بعث سعد إليه رسولاً آخر بناء على طلبه، وكان هذا الرسول ربعي بن عامر، فدخلَ عليه، وكانوا قد زيَّنوا مجلسَه بالنمارق المذهبة، والزرابيّ الحرير، وأظهر اليواقيت، واللآلىء الثمينة، والزينة العظيمة، وعليه تاجه، وقد جلس على سرير من ذهب.

ودخل ربعي بثياب صفيقة، وسيف، وترس، وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داسَ بها على طرف البساط، ثم نزلَ وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه، ودرعه، وبيضته على رأسه، فقالوا له: ضعْ سلاحَك! فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت، فقال رستم: ائذنوا له. فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق حتَّى خرقها، فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرجَ من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نُفضيَ إلى موعود الله، قالوا: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي. فقال رستم: قد سمعتُ مقالتَكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظرَ فيه وتنظروا؟ قال: نعم، كم أحبُّ إليكم يوماً أو يومين؟ قال: لا حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا، فقال: ما سنَّ لنا رسول الله ﷺ أن نؤخِّرَ الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظرْ في أمرك وأمرهم، واخترْ واحدةً من ثلاث بعد الأجل، فقال: أسيِّدُهم أنت؟ قال: لا، ولكنْ

المسلمون كالجسد الواحد يُجير أدناهم على أعلاهم[1].

ومن هذه النقطة نرى: أن العقيدة الإسلامية قد حرَّرت الإنسان من الاستبداد السياسي، إذ اعتبرت أن الحاكم مثله في الإنسانية، والعبودية لله والحقوق والواجبات، وعليه أن يقوِّمَ خطأه واعوجاجه إذا رأى ذلك منه، وأن يدفع الظلم الاجتماعي، وقد ضرب لنا القرآن الكريم أمثلة واقعية تُشعرنا بمدى أثر هذه العقيدة في السمو في الإنسان. فليس في الإسلام استعباد إنسان لإنسان وتسخير طبقة لطبقة، أو شعب لحاكم، أو تقديس أو تأليه لفرد، مما يؤدي إلى الظلم والطغيان.

كما حرَّرت الإنسان نفسه من شهوات نفسه، لأنها ربطت قلبه بالله تعالى، ولم تربطه بأهوائه ونزواته ونوازعه وشهواته.

وحرَّرته من العصبيات القبلية التي قاتل الإنسان من قبل في سبيلها وضحَّى من أجلها بكل ما يملك.

وحرَّرته من العصبيات القومية، وجنبته في ذلك صراعاً دامياً عنيفاً، ولم تستطع المدنية الحاضرة على الرغم من ارتقائها في المجال العلميّ، والصناعيّ، والفنيّ، أن تجنِّبَه ذلك الصراعَ الذي أودى بحياة الملايين من الناس، وهدم وخرّب ما بنته المدنية في عصور طويلة، زد على ذلك ما خلَّفتْ هذه العصبيات في القلوب من أحقاد وضغائن، وأكبر شاهد على ذلك: النازية، وما حدث في الحرب العالمية الثانية.

---

(١) انظر البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير (٧/ ٣٩ ـ ٤٠).

٤ً ـ أنها تربط بين الإنسان والكون:

وذلك عندما دعا الله سبحانه إلى الإيمان به؛ جعل النظر في الكون والتأمل فيه وطريقة الاستفادة منه طريقاً إلى ذلك، فقال سبحانه: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١] ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠] ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠ ـ ٢١] إلى غير ذلك من الآيات التي مرّ كثير منها في مبحث الإيمان بالله سبحانه.

ولقد مرّ بنا: أن القرآن الكريم قد جعل أولئك الذين يتأملون فيما خلق الله في هذا الكون، ويتبصرون في إبداع الله لهذا الكون، جعل أولئك هم أصحاب الخشية لله سبحانه، وذلك في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٧ ـ ٢٨].

٥ً ـ أنها تُغذّي في الإنسان ما فُطر عليه من غريزة حبِّ البقاء:

فالإنسان في نظر الإسلام لا ينتهي وجوده بموته، بل إنه سيُبعث بعد الموت، ويُحاسب على ما عمل، وينتهي الأمر فيه إلى أن يكون إما خالداً في الجنة إن كان ممن استفاد من حياته في هذه الدار، وتوجَّه إلى الإيمان والعمل الصالح، وإما خالداً في النار؛

إن كان قد أضاع هذه الفرصة الثمينة التي أُعطيت له، فأمضى حياته الدنيوية في بعده عن الله، والكفر به، ومخالفته، وعصيانه، وما الدار الآخرة في عقيدة المسلم إلا استمرار لنوعية حياته الدنيوية، وما الموت إلا مرحلة ينتقل بها من دار فانية إلى دار باقية، ولقد قال الله سبحانه لآدم حينما أهبط من الجنة: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٦]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٣ ـ ١٠٨].

وخاصِّيَّة البقاء هذه والخلود الأبدي أمرٌ اختصَّ به الإنسان من بين الكائنات الحيَّة على ظهر الأرض تكريماً له.

ورد في الحديث عن ابن عمر: «إذا كان يوم القيامة مُدَّت الأرض مدّ الأديم، وحشر الدوابَّ، والبهائم، والوحوش، ثم يُوضع القصاص بين البهائم حتى يقتصَّ للشاة الجمَّاء من الشاة

القرناء بنطحتها، فإذا فرغ القصاص بينها قيل لها: كوني تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً»[1].

٦ ـ كونها صالحة للتعميم بخلاف القيم المؤقتة:

فهناك مبادىء وقيم محلية لا يصلح تعميمها على البشرية، فمثلاً: هناك من ألَّه الملوك، وهناك فئة جعلت العرقية عقيدة لها، فأمثال هذه الأمور لا تصلح لكل زمان ومكان، ولا يصح بحال تعميمها على البشرية، إذ لا بدّ من أن يصطدم بعضها ببعض. أما عقيدة الإله الواحد فهي تصلح للتعميم في كل شعب وجنس وعرق، وهذا ما تتجه إليه الإنسانية في عصرنا الحاضر، بعد أن رأت فساد هذه النظريات والمبادىء والعقائد المرتجلة الموضوعة، والمخالفة لطبيعة الإنسان والحياة، ومن هنا قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. وقال عليه الصلاة والسلام في خطبة حجة الوداع: «أيها الناس! إن ربَّكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربيّ فضل على عجمي إلا بالتقوى، ألا هل بلَّغت؟

---

(١) انظر تفسير القرطبي (٢٠/١٨٧). وانظر تفسير الطبري عند قوله تعالى: ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾ وأصل الحديث في صحيح مسلم والترمذي ومسند أحمد.

اللهم فاشهد، فليبلِّغ الشاهد منكم الغائب»[1].

٧ً ـ تطابقها مع الرسالات السماوية السابقة:

الرسالاتْ السماوية من حيث العقيدة كلها متطابقة في أركانها وأهدافها، فآدم عليه السلام ـ وهو أول رسول من البشر ـ ومن بعده من الأنبياء والمرسلين إلى محمد عليه الصلاة والسلام، قد نادوا جميعاً بعقيدة واحدة لم تتغير ولم تختلف باختلاف العصور؛ لأنها من الأمور الثابتة غير القابلة للتحوُّل والتغيير.

فعقيدة موسى هي عقيدة عيسى عليهما السلام، وعقيدتهما هي عقيدة محمد عليه الصلاة والسلام. قال الله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]. ولقد أمر الله رسول الله محمداً ﷺ أن يقول للناس: إن دعوته في العقيدة ليس فيها شيء مبتكر ومستحدث، وما هي إلا تجديد لدعوة الرسل قبله، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

هذا ولئن رأينا اختلافاً في العقيدة بين رسالة وأخرى على اختلاف الأزمان والعصور، فلنعلم أن مردّ ذلك ليس إلى اختلاف في أصل الرسالات، وإنما مردّه إلى دسّ الدسَّاسين، وتحريف المحرِّفين، وتأويل المغرضين.

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٥١٣٧) عن جابر، ورواه بنحوه أبو نضرة في المسند (٥/ ٤١١).

ولقد فضحَ الله هؤلاء، وأوضح هذه الحقيقة، فقال سبحانه في كتابه الكريم في شأن اليهود: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤١] وقال أيضاً: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وقال في شأن النصارى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] وقال أيضاً: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]. وقال أيضاً: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٧].

هذا ولا بد من البيان هنا أن هذه العقيدة التي أنزلها الله تعالى على رسله جميعهم أسماها عقيدة الإسلام، وهذا الإسلام هو الإيمان بالله وحده والاستسلام له والخضوع لأوامره، ومن هنا قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال سبحانه في شأن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٢] إلى غير ذلك من الآيات التي تؤكد هذا المعنى؟ وتوضحه أيَّما إيضاح.

هذه بعض خصائص العقيدة الإسلامية، وهناك خصائص أخرى أضربنا عن ذكرها خشية الإطالة.

هذا وقد ترتَّب على هذه الخصائص والميزات آثار ذات أهمية في حياة الفرد والمجتمع، وفيما يلي نُوجز لك هذه الآثار:

٢ ـ آثار العقيدة الإسلامية في الفرد والمجتمع:

للعقيدة الإسلامية أهمية كبرى ومكانة عظمى في حياة الإنسان، نظراً إلى المهمة التي تقوم بها، والآثار الرفيعة التي تخلفها في حياة الإنسان فرداً ومجتمعاً؛ لأنها تقوم على أسس يقينية ثابتة، ومبادىء علمية حقيقية، وإليك بعض آثار العقيدة الإسلامية:

أ ـ العقيدة الإسلامية تُعطي الفكرة الصحيحة عن الإنسان والكون والحياة:

فالإنسان في عقيدة الإسلام هو خليفة الله في الأرض ليعمرَها، ويقيم الحياة الإنسانية على أرجائها ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

فالإنسان هو سيِّد هذه الأرض، يستمد سيادته من ربِّه الذي منحه هذه السيادة ، وهو مُؤهَّل لهذه السيادة بالعقل الذي منحه الله تعالى إياه.

والكون بجميع أجرامه وقواه وقوانينه هو مصنوع لخدمة هذا الإنسان مهيأ لمنفعته، ولقد ابتدعته قدرة الله تعالى على نظام يُساعد النوع الإنساني على استبقاء حياته على ظهر الأرض إلى الأجل الذي ضربه الله لبقاء الحياة على ظهر الأرض، وذلك عندما يرث الله الأرض وما عليها. فما على الإنسان إلا أن يُعْمِلَ عقله ويشحذ تفكيره للتوصل إلى الطريقة التي يستخدم بها هذا الكون لمنفعته، وبذلك استطاعت العقيدة الإسلامية أن تجعل الطبيعة خادماً مطيعاً، بدلاً من أن تجعلها إلّهاً يُعبد، فأنقذت الإنسان من الخرافة والذعر والرهبة من قوى الطبيعة.

وأما الحياة على الأرض فهي في نظر العقيدة الإسلامية طريق إلى الحياة الأبدية والبقاء السرمديّ الخالد الذي ينشده الإنسان، فما على الإنسان في هذه الأرض إلا أن يسير في الطريق المستقيم، ويخضع لأمر الله، ويخلص له حتى يضمن لنفسه الخلود الصحيح الذي ينشده: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ [الفرقان: ١٥ ـ ١٦].

وبذلك حملت العقيدة الإسلامية الإنسان على العمل الصالح، والانتفاع من هذا الكون على الوجه المشروع، والارتقاء إلى قمة السعادة، والسير في طريق الإيجابية، وما أحوج الإنسان إلى ذلك!

٢ً ـ العقيدة الإسلامية تُحارب الأوهام والخرافات:

لقد كان الإنسان القديم في بعض حقب التاريخ يؤلِّه قوى الطبيعة، ويدين لها بالعبودية، ويقدم لها القرابين، ليسلم من تسلطها وأذاها، أو ليستدرَّ عطفها وخيرها.

لكن العقيدة الإسلامية حرَّرته من هذه الخرافات عندما أفهمته: أن ما يعده إلّهاً إن هو إلا خادم مخلص عندما يعرف الطريق إلى استخدامه، والاستفادة منه، وبهذا ارتقى التفكير الإنساني من مجال الخرافة، والأساطير، إلى التأمل العلميِّ، والمشاهدة الصحيحة، والتجربة المنتجة، ليصل بذلك إلى إدراك الحقيقة، وليحقق استخلاف الله له على الوجه الصحيح، وما أحوج الإنسان إلى ذلك!.

٣ً ـ العقيدة الإسلامية تلبِّي الحاجات النفسية:

شعور الإنسان بأن له إلَهاً خالقاً أمر فطري كما نوَّهنا بذلك سابقاً، وتطلُّعه إلى معرفته، والاتصال به، ومناجاته، والالتجاء إليه، حاجة نفسية. فإذا لم تلب له هذه الحاجة سعى هو إلى تلبيتها، وكثيراً ما يُخطىء الطريق إلى ذلك، فالعقيدة الإسلامية لبّت داعي الفطرة، ودلَّت الإنسان على خالقه وصانعه الذي بيده كل شيء: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] فأخرجته بذلك من الانحراف والتخبُّط، وما أحوج الإنسان إلى ذلك!.

٤ً ـ العقيدة الإسلامية تشعر الإنسان بالمسؤولية:

كثير من الناس يُقصِّرون في أعمالهم لشعورهم بأنهم غير

مسؤولين عما يقومون به من أعمال، فشعور الإنسان بأنه مسؤول هو أعظم حافز للإنسان إلى أن يجيد عمله ويتقنه، سيما إذا ضممنا إلى ذلك شعوره بدوام المراقبة له. والعقيدة الإسلامية بما جاءت به من الإيمان باليوم الآخر، وما يقع فيه من بعث، وحشر، وحساب، وجزاء، هي أكبر عامل على شعور الإنسان بالمسؤولية أمام من لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، فيندفع بذلك إلى أشرف وأنبل الأعمال.

٥ً ـ العقيدة الإسلامية تنقذ الإنسان من استعباد الإنسان:

إذ إنها جعلت البشر جميعاً عباداً لله الواحد، وهم مخلوقون له وحده، فهم سواسية أمامه حاكمين ومحكومين، لله رب العالمين.

٦ً ـ العقيدة الإسلامية توضح الطريق إلى السعادة:

فبدلاً من أن يضيع الإنسان حياته في سبيل تلمُّس الطريق الموصل إلى السعادة، فيصل تارة، ويخفق تارات، جاءت العقيدة الإسلامية توفر عليه الجهد، وتصونه من نتائج الإخفاق، فأوضحت له الطريق الذي يُسعده في دنياه وأخراه، عن طريق الرسالة المحمدية الجامعة الكاملة، فما عليه إلا أن يعمل بذلك، ويغتنم فرصة حياته المحدودة فينفقها فيما يُسعده، وما أحوجه إلى ذلك!.

٧ً ـ العقيدة الإسلامية أكبر عامل على التضحية:

إن العقيدة الإسلامية إذا ما حلَّت قلب امرىء غزت كلَّ جوارحه، وتملَّكت سائر مشاعره، وأصبحت موجِّهَهُ الوحيد، فلا

يحسّ دونها، ولا يرى حياته بغيرها، فيندفع إلى تأييدها ونشرها بكل ما أوتي من نفس ومال، وهذا ما نشاهده في حياتنا الواقعية، فبالعقيدة يضحّي الشهداء بأنفسهم، وبها يسهر العلماء على كتبهم وتآليفهم راضين بشظف العيش، وخشونة المأكل، وبها يجود الإنسان بماله راضية بذلك نفسه. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١] ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٢].

هذا ولا بد من الإشارة هنا إلى أمرين اثنين:

أحدهما: أن العقيدة الإسلامية لما لها من أهمية في حياة الإنسان، وآثار عظيمة في سلوكه مكث رسول الله ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة، والقرآن ينزل عليه لغرس العقيدة وتوضيحها، ومحاربة الأوهام والشرك والخرافات التي كانت سائدة بين العرب، فإن الإنسان ما لم تصلح أفكاره ومعتقداته لا يمكن أن يسير في

الطريق الذي رسم له أن يسير فيه، فالإنسان يُقاد من داخله لا من خارجه.

ثانيهما: أن العقيدة في كل أمة تُشكِّل المنطق الفلسفي الذي تنبثق عنه حضارتها ونظامها الاجتماعي، وبمقدار ما تكون عقيدتها صحيحة يكون تقدُّمها، وإنسانيتها، وسعادة المجتمع البشري بها، ومن هنا نرى أن الأمة الإسلامية استطاعت بفضل عقيدتها الصالحة، أن تصنع وبمدى قصير من الزمن أعظم حضارة إنسانية عرفها التاريخ، ولا تزال البشرية إلى الآن تنعم بالمبادىء والقيم التي نادى الإسلام بها، وإن كان الإسلام قد انحسر ظله كسلطان سياسي ونظام اجتماعي في معظم بقاع الأرض.

تمَّ الكتاب، والحمد لله أولاً وآخراً.



فهرس الموضوعات

* * *